

أبو المعاطي أبو النجا

الأعمال الكاملة

في القصة القصيرة

المجلد الثاني

الوهم والحقيقة

مهمة غير عادية

الزعيم

الجميع يرجون الجائزة





الهيئة المصرية العامة للكتاب

الأعمال الكاملة

المجلد الثانى

الوهم والحقيقة

- مهمة غير عادية
- الزعيم
- الجميع يربحون الجائزة

تأليف

أبو المعاطى أبو النجا



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

الاخراج الفنى : مرفت النحاس

الوهم والحقيقة

من العسير أن أحدد اليوم أو اللحظة التى بدأت ألاحظ فيها ذلك الشىء ، ومن المؤكد أنه لم يكن فى البداية بهذا الوضوح ، وأن احساسى به لم يكن بهذه القوة !

ويوم اثر يوم أصبح ذلك الشىء الذى لا أستطيع حتى الآن أن أمسك به فى يدى الحقيقة الوحيدة التى تملأ كل حياتى تملؤها بالمرارة والأسى ، وتملؤنى بالعجز ·· العجز عن التعامل مع هذه الحقيقة كما يمكن أن يتعامل الناس مع حقائق حياتهم ، لأن هذه الحقيقة التى تثقل قلبى بالألم لاتزال تفلت من أصابعى كالشعاع !

وما جدوى أن أتذكر اليوم أو اللحظة ، وهذه الحقيقة تبدو لى الآن وكأنها قديمة قدم علاقتى بزوجتى ، حتى لقد حاولت كثيرا أن أتذكر وجه زوجتى القديم فلم أفلح ، ولم تفلح حتى صورها القديمة فى أن تعيد الى ذاكرتى تلك الملامح التى ألفتها طوال خمسة أعوام هى عمر زواجنا ، ومع ذلك فلست أملك دليلا الى هذه الحقيقة

سوى وجه زوجتى ·· ذلك الوجــه الذى بدأت ملامحه تشى بهذه الحقيقة كما تشى الحقول بمقدم الربيع ، لماذا لا أنطق بهذه الحقيقة بنفس البساطة التى لاحظتها بها ! لماذا لا أقول آننى نظرت فى وجه زوجتى ذات يوم أو ذات لحظة فتأكد لى أنها تحب ·· نعم زوجتى تحب ·· تلك هى المسألة !

ليس من الصعب أن تدرك أن زوجتك تحب ، فنظرة المحب لا نخطئها العين ، انهــا نظرة قريرة هانئة ، وهناؤها آت من هناك من الأعماق ، لا صلة له بأحداث حياتكما اليوميــة · وقد لا تثق بذلك فى أول مرة ، قد تظن أن لهذه النظرة القريرة الهانئة أسبابا فى حياتكما ، وقد لا تعنى بمعرفة السبب ، وقد تخمنــه اذا كنت لا تعرفه ، ويمضى يوم وآخر ، وتختلف الظـروف والأســـباب ، ويتغير ايقاع الحياة اليومية ، ولكن النظرة ذاتهــا ·· النظرة التى تمسح أحداق العيون بالفرح ، والتى تومض ومضــا خفيفا ولكنه دائم كومض النجــوم ، تلك النظـرة التى تحيل العينين الى نبعين دائمين يرويان ملامح الوجــه كله بذلك الرضا العذب وبمسحة من الحلم لا تختلف بين النهار والليل هذه النظرة تبقى دائما رغم تغير الظروف والأسباب ، ولكنها أبدا لا تبقى كشىء ثابت جامد منعزل عن حياتكما ·· انها تشارك فى هذه الحياة ، تشارك فى أفراحها وأحزانها ، تغسل الأحزان والمتاعب والمشكلات وتتجاوزها أحيانا وكأنها لاتراها ، تقفز فوقها كعصفور يتخطى الأعشاب والمستنقعات ، وتلتمس الأفراح والمبــاهج ، تلتقطها كما يلتقط العصــفور الحبات الغــائرة فى قلب التراب والحصى تلتمسها التمــاسا كأنما لتبرر نفسها ، وكما تلتمس الشعلة أنفاس الهواء لتبقى مشتعلة دائما · !

انها تشارك فى هذه الحيــاة ولكنها أبدا لا تندمــج فيهـــا ، ولا تنتمى اليها ، فولاؤها الحقيقى لأعماق القلب الذى تصدر عنه ،

ويمضى يوم وأيام وشهور ويتأكد لك أن هذه النظرة تخضع لدورة أخرى مجهولة ، ولايقاع آخر لا صلة لحياتكما به !

انها أحيانا تتألق وتترنم وترقص وكأن ثمة لحنا مجهولا تستقبل وحدها أنغامه الشجية ، وأحيانا تشرد وتخبو كأنما تطارد النغم الشجى الهارب أو تخشى أن يسمعه أحد ، فهى تنكسر عليه وتكاد تغلق دونه أبوابها الرقيقة التى كانت مشرعة وأحيانا يلفها قلق حزين غامض فتصبح أو تمسى مقروحة هامدة ليوم أو أيام يعود بعدها الصفاء والضياء ، ولكنها لا تفقد أبدا مسحة الحلم الجميل الرقيق الذى يغلف الأسى والفرح معا .

ويتأكد لك يوما بعد يوم ما قد تكون (لبعض الوقت) فى شك من أمره ، وهو أن هذه النظرة تخضع لدورة أخرى مجهولة تدور فيها زوجتك مع شخص آخر لا تراه ولا تعرفه ، ولكنك تؤمن بوجوده دون أن تكون فى حاجة الى دليل من أى نوع آخر !

وقد يكون لك مثلى صديق من النوع الذى لا تتحرج أن تفتح أمامه قلبك ، وقد تكون مثلى من النوع الذى يحتاج الى شهور طويلة من العذاب حتى يجد الشجاعة على أن يبوح له بمثل ما بحت به ومهما يكن نوع صديقك فغالبا ما سوف يتهمك بالجنون ، وبأنك مريض بالوهم ، وبأنك من النوع الذى يخلق لنفسه آلاما يتعذب بها حين لا يكون هناك ما يعذبه ، خاصة اذا كان هذا الصديق يعرف زوجتك قبل ذلك ، ويقدر على أن ينتزع من حياتكما عشرات الأمثلة التى تؤكد حبها لك ووفاءها !

آنذاك سوف تندم مثلى على أنك بحت له بما لا ينبغى أن تبوح به لمخلوق . !

وقد تفكر للحظات أنه قد يكون هو نفسه ، ذلك الصديق ، من تحبه زوجتك ، ولكن بالنسبة لى ، لم أفكر فى ذلك مرة واحدة ،

قد تتهمني بالغفلة خاصة اذا اعترفت بأنني لا أملك دليلا على ذلك سوى شعوري الخاص الذى أصبحت أثق به ثقة كاملة ، ذلك الشعور الداخلي الشخصي وحده هو الذى يؤكد لى أن زوجتى تحب ، وأن من تحبه ليس هو الصديق الذى فتحت له أبواب قلبي !

وقد ينجح هذا الصديق فى أن يضع بذور الشك فى ايمانك بمعنى تلك النظرة القريرة الهانئة !

ولكن هذه الشكوك سرعان ما تتبدد حين تكتشف أن زوجتك كلها وليست نظرتها فقط أصبحت تخضع لتلك الدورة الغريبة المجهولة وعبثا تحول مرة أخرى أن تجد فى حياتكما مصدرا لتلك الطاقة العارمة وتلك الحيوية النادرة التى تعصف بزوجتك وهى فى الواقع تعصف بك ، تلك الحيوية التى توشك أن تخرج زوجتك من جلدها ومن ثيابها ، والتى تجعل كل شىء فى بيتك وفى حياتك يتمرد على اطاره ويتجدد ، كل شىء فى بيتك وفى حياتك يتنفس بهذه الحيوية ويتحرك بها وينعم بآثارها ، الزهور والمفارش والستائر وقطع الأثاث وثياب الأولاد وحتى ثيابك أنت وقبل كل شىء ثياب زوجتك ، كل شىء يتجدد ويتأنق ويبرق ، ولا يستقر فى حال أو مكان ، تلك الحركة الدءوب المرحة المتغيرة فى بيتنا جزء من تلك الحركة الغامضة التى تهدر فى قلب زوجتى ، تلك الموسيقى التى لا أعرف كيف تضبط زوجتى وقت ارسالها فى محطات الراديو وتلك الأغنيات الهامسة التى أصبحت تترنم بها هنا وهناك وهى تتحرك كالفراشة بسرعة وبخفة لا يتطلبهما شىء !!

وهذه الرقة التى هبطت فجأة كالملاك ، هذه الرقة التى تتحدى كل أنواع الغضب وتصبر على شقاوة الأطفال ، وسخافة الجيران ، ولا أقول سخافتى فقد استلت زوجتى فى براعة مذهلة كل ما يمكن أن يجعل منى شخصا سخيفا ، لم تكن يوما كما هى فى تلك الأيام سماحة ولطفا ومحبة .. أجل محبة . ! كأن ثروة هائلة من

العواطف قد هبطت على زوجتي من السماء ثروة يستحيل اخفاؤها ، ويستحيل أن تحتفظ بها ، ولا نبذل منها ، ويستحيل أن تشعر وأنت تأخذ نصيبك منها أنك صاحبها أو أنك تستحقها ولكن كيف ترفض أو تتمرد ؟

زوجتي تحب ، تلك هي الحقيقة الوحيدة التي تواصل نموها الضاري في بيتي ، تحت سمعي وبصري وفي فراشي ، أصبح لزوجتي جمال المحبين ، وهو جمال غريب ، ونادر ، جمال لا يعبأ بالوقت ولا بالثياب ولا بالأسباب لا يعبأ بالراحة أو التعب ، بالصحة أو المرض ! جمال يتوزع على الروح والجسد وعلى أوقات النهار والليل ، في العيون والكلمات والمشاعر والارادة والفكر ، جمال قادم من هناك .. من شعور المرء بأن الحياة ولا شيء أقل .. الحياة تريده وتتمناه وتعبده وتختاره دون غيره طريقا نعبره الى المستقبل ، الى الخلود تتحدى به الموت والذبول وكل النهايات !

جمال يصدر عن الثقة بالنفس ليصنع الثقة بالعالم ، يصدر عن الشعور بالكمال ليصنع الكمال في الحياة ، جمال مكتسح جارف مقتدر يرغمك على رؤيته والاحساس به وأكثر من هذا يرغمك على الاعجاب به وحبه والتماسه رغم يقينك المروع أنه ليس منك وليس لك ، وأنه يدين بوجوده لشخص آخر لا تراه رغم وجوده !

زوجتي لها ضحكات المحبين ، وهي ضحكات صادرة من القلب تلتمس أوهى الأسباب لتصدر في قوة ونقاء وحين تنتهي الأسباب تبقى هي قوية وصادقة تخلق أسباب بقائها خلقا ، وترعاها كما ترعى أم مقتدرة وحيدها ، زوجتي لها سعادة المحبين ، وهي سعادة أبية راسخة ذات كبرياء ، وذات مسام كالفلين تمتص كل شيء ، وتفيض على كل شيء وكل أحد ، لاشيء يمكن أن يتهدد قدرتها على الأخذ والعطاء ، لا شيء سوى حزنها الخاص ، وهو حزن

مثلها مجهول المصادر ، لا أحد يمكنه أن يعتذر له أو عنه وحين يجيء .. يتقنع بالأمراض النسبائية المجهولة المعلومة وبالأحلام والرؤى ، لا شيء يفضحه سوى ذبول العيون ، وساعات الأرق ، وكميات الطعام الناقصة ، والحكايات التى تروى باقتضاب عن مشكلات فى العمل ومضايقات فى الطريق .. !

من المستحيل أن تحتمل أنت أو أنا أو أي مخلوق هذا كله دون أن تبحث عن صديق ، دون أن تخلقه خلقا .. ودون أن تفكر فى أية عاقبة ، أو ندم !

ولم أشعر بالمفاجأة حين قال لى صديقى الذى لا أتردد فى أن أفتح له قلبى !

ــ سوف تجن .. أراهن أنك سوف تجن !

ــ ولهذا ابوح لك .. حتى لا آجن !

ــ ولكنك تعشق الجنون .. تسعى اليه .. تريده !

ــ ما أقوله لك حقيقى تماما .. !

ــ أنت لا تريد أن تعرف الحقيقة .. الواقعة .. لو أردت أن تعرف فهناك ألف طريقة .. ولكنك لا تريد ، نعم لا تريد !

ودون تفكير قلت له : قل لى طريقة واحدة !

ــ يمكنك أن تلاحظ سلوكها مع أصدقائك ، وتلاحظ أيضا سلوكهم معها ..

ولم أقل له اننى فعلت ذلك من قبل ، لم أقل له اننى لاحظت حتى سلوكها معه ، مع ثقتى الكاملة بأنه هو بالذات لا علاقة له بهذه المسألة !

لم أقل له أنه أصبح لزوجتى ذكاء المحبين ، وهو ذكاء قادر ملهم ؛ فهى توزع اهتمامها على الجميع فى عدالة ،. وكأنها تحبهم جميعا بنفس المقدار ! وحتى لو أخطأت مرة فأى معنى للزيادة أو النقصان ، فى تلك المرة !

لم أقل له أنه من الجائز أنها تحب زميلا فى العمل ، أو أن حبا قديما قد بعث فجأة ، لم أقل له أننى لاحظت وتابعت ومضيت فى كل الطرق التى يمكن أن يشقها العقل والظنون والهواجس ، واننى وجدتها جميعا طرقا مسدودة ، يسدها ذكاء زوجتى المحبة ، وربما أنها ككل الطرق التى يشقها العقل وحده يمكن أن تتسع لألف احتمال واحتمال !

لم أقل له اننى سوف أضيع ٠٠ وسوف أفقد يقينى كله لو تخليت عن ذلك الشعور الداخلى الذى يتغذى بما لا يحتمل الشك ، بما لا يقدر سواى على الاحساس به ، وعلى رؤيته !

وفوجئت بصديقى هذه المرة ٠٠ فوجئت به يقول لى وكأنما اهتدى الى حل ٠ !

ـ حاول أن تفاجئها مرة ٠٠ المهم عنصر المفاجأة ٠٠ قل لها مثلا وأنتما تتناولان الطعام ٠٠ والحديث يدور حول أى موضوع « سناء ٠٠ أنت تحبين ٠٠ » ولم أرد ٠٠

واستطرد صديقى : المهم أن تلاحظ رد الفعل ٠٠ المهم ما يمكن أن تكشف عنه تداعيات الحوار ٠٠ المهم أن ٠٠ » ٠

وصمت صديقى ، ويبدو أنه لم يلاحظ الا مؤخرا رد الفعل بالنسبة لى ٠ !

وبذلت جهدا لكى يستمر الحوار بيننا ٠٠ شبه طبيعى ٠٠

وحتى لا يشعر صديقى بما يدور فى داخلى ! ولكن هل نجحت فى ذلك ؟؟

وفى الحقيقة أنه لم يدر بينى وبين صديقى أى حوار حقيقى من قبل كنت واحدا من اثنين مؤمنا أو مجنونا ، وكلاهما لا يقدر على الحوار ... وكنت قبل ذلك كله قد أخفيت عن صديقى أخطر جزء فى قصتى .. !

وربما لو أخبرته به لما قدم اقتراحه البرىء أو الماكر ، والذى يدينه بقدر ما يبرئه ..

كان مثل هذا الحوار المقترح قد حدث بينى وبين زوجتى حدث بالفعل .. الغريب أننى كنت أريد أن أستعمل نفس كلمات صديقى ولكن حين بدأت الحديث مع زوجتى وجدتنى أقول :

ـ سناء ... أنا أحب ...

وكمن يمثل الدهشة قالت :

ـ أعرف .. !

ودهشت أنا بحق هذه المرة :

ـ تعرفين ماذا ؟

ـ أنك تحب .

قالت محاولا أن أمثل دور المشاكس .

ـ ناقص أن تقول انك تعرفينها ..

ـ أعرفها طبعا .. !

ـ من ؟

ـ أنـا ٠٠ !

ثم لم أشـعر بسوى ملمس ذراعيها الناعمتين وشعرها الغزير يعجزاني عن أي حـوار ٠٠ وبريق عينين سـعيدتين الى الحد الذى لا تسمحان فيه لشخص أو شيء أن يفسد هذه السعادة ٠٠

وجاهدت لكى أقول فى سذاجة مرعبة :

ـ لماذا لا تأخذين المسألة بجد ٠٠

ـ طبعا آخذها ٠٠ أنت تحبنى ٠٠ أليس كذلك ؟

ـ وأنت ، قلتها بلا وعى ٠

ـ أحبك !

ـ ماذا تريدين ؟ ٠٠ قلتها وأنا أحاول أن أفك وثاق الذراعين برفق ٠٠

ـ أنت ؟ ٠٠ قالتها وهى تعيد احكام الوثاق برقة ٠٠

ـ الآن ؟

ـ نعم ٠ !

ـ أنت ٠٠٠

ولم أكمـل عبارتى ٠٠ لم يكـن ثمة معنى لشيء ولا حتى لما تريد ٠٠ وحتى حين أصبحنا شخصا واحد ٠٠ رغبـة واحدة ٠٠ جنونا واحدا ٠٠ كنت أثق كما لم أثق من قبل بأن زوجتى تحب ٠٠ تحبه هو ٠٠ ذلك الشخص الآخر المجهول الذى لا أعرفه ٠٠ حتى وهى بين ذراعى تغمض عينيها على صورته ٠٠ لتراه ٠٠ لتعتقد أنه هو ما تلمسه ما تحس به ٠٠ حتى فى لحظـة الصدق الأعظم كنت أتوقع أن تنطق باسمه ، ولكنها لم تنطق حتى باسمى ٠ !

كانت تنطق باسم الحب وحده ·· وكانت تتوجه له ·· وتصلى في محرابه ··

أكان من الممكن أن أروى له ·· لصديقى هذه القصة ·· ولكنها هى يمكن أن ترويها لمن تحب ·· ومع أن العقل وحده هو الذى يتصور أن الخطأ الشنيع أو العبقرية الفظيعة هى التى تدفع صديقى لو كان هو من تحبه زوجتى ·· الى تقديم هذه النصيحة لأنها تصلح دليل براءة بقدر ما تصلح دليل اتهام !

فان ثقتى فى براءة صديقى بعد تقديم هذه النصيحة لم تهتز تلك الثقة التى لا تعتمد على شيء أكثر من شعورى الخاص الذى يتأكد لى كل يوم أننى سأضيع اذا تخليت عنه مع أنه يمكن أن يقودنى الى الجنون ··

ولكن الجنون الحقيقى لا المتوقع هو الذى كان فى انتظارى حين فوجئت باختفاء صديقى ·· كنت أبحث عنه فى كل مكان يمكن أن يذهب اليه ، وحتى بعد أن أخبرنى جيرانه أنه سافر دون أن يعرفوا الى أين ؟ ظللت أبحث عنه وأنتظر عودته !

كنت أود أن أؤكد له ثقتى فيه ، وثقتى فى براءته ، كنت أود أن أبوح له بما لا أقوى على البوح به لغيره ·· كنت أود أن أكمل له القصة التى شهد بدايتها ثم بدا وكأنه ملنى أو مل النهاية ، أو ضاق ذرعا بالحوار من جانب واحد ·· !

كنت أود أن يشاركنى اليقين بأن زوجتى تحب ، وبأنها يعيش فى هذه الأيام آلام المحبين · !

وبأنه يجب أن يثق فى طريقتى لأننى لو تخليت عنها فسوف لا أملك دليلا واحدا على براءته !

ولكن صديقى رغم انتظارى لم يعد .. ولست أدرى متى يعود ؟ وحاجتى الى صديقى لا يمكن أن تنتظر ، فلتكن أنت صديقى ومنقذى من الجنون ، وشاهدى على ما يمكن أن يصبح له غياب صديقى من معنى بعد أن أصبح لزوجتى آلام المحبين !

فى البداية لم تفزعنى آلام زوجتى كانت هذه الآلام جزءا من تلك الدورة التى ترتبط فيها زوجتى بذلك الشخص الآخر الذى تحبه ! كانت جزءا من السعادة والمرح والنشوة .

وكنت أتوقع بين لحظة وأخرى أن تتوارى الآلام المجهولة المصدر فجأة ، كما جاءت فجأة !! ولكن أحزان زوجتى بدت وكأنها لا تبغى الرحيل !

عقلى وحده هو الذى يصر أن يلتمس علاقة ما بين صديقى الذى لا يجىء وأحزان زوجتى التى لا ترحل !

عقلى وحده هو الذى دفعنى ذات لحظة لأن أقول لها لزوجتى :

ـ شريف لم يعد يزورنا .. !

ـ الغائب له عذره ..

ـ متى عرفت أنه مسافر ؟

ـ لا أعرف ان كان مسافرا أم لا .

ـ أيمكن أن يكون هنا ولا يجىء ؟

ـ كل شىء ممكن !

نعم .. كل شىء ممكن لو أننى ظللت أفكر فى المسألة بهذه الطريقة ..

لو أننى تخليت عن مشاعرى الخاصة التى تؤكد لى براءة صديقى ، وأن زوجتى تعانى فى نفس الوقت آلام المحبين ..

لم يضنننى شيء مثل محاولة زوجتى أن تكتشف لحزنها أسبابا كل يوم ... كان بحثها عن الأسباب يكلفنى بأن أبحث بدورى عما يثبت كذب هذه الأسباب !

حزن زوجتى لا ينتهى ، ومحاولاتها تجهد محاولاتى ، وصديقى الغائب لا يعود !

ـ سناء .. أنت حزينة !

ابتسمت زوجتى ابتسامة فضحت حزنها ..

ـ أنت تعرف الأسباب ! قلتها لك ! .

ـ نعم .. ولكن هل تستحق كل هذا ؟

ـ جائز أنها لا تستحق .. لكن ..

زوجتى أصبحت شبحا ، وليس من المعقول أن أنتهز هذه الفرصة لأحقق انتصارا رخيصا على هذا الشبح ، ولكن هل من الممكن حقا أن أحرز هذا النصر .. هل من الممكن أن أظفر من هذه الشفاه الشاحبة باسم الرجل الذى تحبه ؟

لو أنها تعرف أن كل ما أريد أن أعرفه هو أن هذا الرجل ليس صديقى .. ؟ ترى هل تغضب أم ترضى ؟

لو أننى حاولت الآن بالحيلة أو بالقوة مع هذا الشبح الذى كان يوما زوجتى .. لانتفضت عن قسوة هائلة لتحتفظ الى الأبد باسمه .. نعم هذا ما تنم عنه الملامح الشاحبة الهزيلة المصرة ، ستبقى وحدها التى تعرفه وتحبه وتحزن من أجله !

هل أعتذر عن ضعفي أم عن ضعف زوجتي ، كلانا غارق فى ضعفه ، فى أحزانه الخاصة ، كلانا يدرك آلام الآخر من طرف خفى فلست أظن أنها حتى الآن وبعد كل محاولاتي لاتدرك أنني أدرك !

كلانا يتهاوى تحت مطارق ثقيلة ·· تسحقه وتمزقه ·

ورغم ذلك فكلانا وحيد تماما ، منعزل عن الآخر ، تعجز الآلام المشتركة عن أن نقيم بيننا جسرا ··

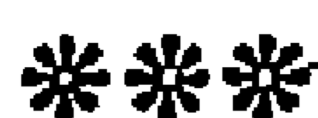
ربما ما يربط بيني وبينها الآن خيط دقيق من الشفقة المشتركة فلا أحد غيرها ولا أحد غيرى يدرك معنى الهزيمة التى تحيق بنا معا ·· !

شيء واحد هو الذى أتخيله وأتمناه ، أن ترحل أحزان زوجتى لبعض الوقت·· أن تعود لها سعادة المحبين واقتدارهم ·· آنذاك سوف ألتمس مسدسى الصغير الذى تخفيه قبضة يدى لا لأقتلها فهذا ما لا أفكر فيه ، لكن لأرغمها ·· أرغم كبرياءها واقتدارها على أن يبوحا باسمه ، باسم الرجل الذى لا أزال أومن بأنه ليس صديقى · !

أحيانا أعتقد أن هذا الهدف الصغير هو كل ما أعيش من أجله أن أعرف ما لا يستحق المعرفة ، وأحيانا أعتقد أننى لا أخشى شيئا مثلما أخشى أن تعود لزوجتى سعادة المحبين واقتدارهم ، لأنها آنذاك سوف لا يرهبها شيء ، ولا حتى فوهة مسدسى الصغير ، ما أخشاه وما أتوقع حدوثه أنها سوف تضن بسرها الغالى ·· وسوف تواجه الموت من أجله ·· وربما أنها لن تواجهه أبدا ، فان قتلها سوف يعنى بالنسبة لى أن أقتل بيدى الدليل الوحيد الذى يمكن أن يؤكد يوما ما براءة صديقى · ! وصدق مشاعرى ، وبراءتى من الجنون ·

لو عاد صديقى اليوم لفتحت له قلبى كما أفتحه لك ·· ولكنه لا يريد أن يعود ·· لا يريد أن يشارك فى هذه اللعبة التى تقتل

لاعبيها جميعا ٠٠ فهأنذا ألمح فى عينيك أنت ٠٠ يامن اتخذته لبعض الوقت بديلا لصديقي ألمح نفس الاتهام الذى كان يوجهه لى ، اتهاما بأننى لا أريد أن أعرف الحقيقة ، أو أسعى لها ، وأننى أسرع الخطى فى طريق واحد لاغير سوف ينتهى بى الى الجنون ٠٠ ألمح فى عينيك هذا الاتهام ، ولكننى أرفضه منك ، كما رفضته منه ٠٠ وأستميحك أن تسمع قصتى حتى النهاية ٠٠ !



فصديقى حتى الآن لم يعد من رحلته الغريبة ٠٠ ولكن أحزان زوجتى هى التى بدأت ترحل ٠٠ نعم بدأت ترحل ٠٠ يجب أن تصدقنى فى هذا ، فهذا أمر لا يحتمل الكذب ٠٠ هذا أمر أنا مصدره الوحيد ويجب أن تصدقنى ٠٠ وجه زوجتى القديم الذى لم أتعذب بشىء مثلما تعذبت بمحاولة تذكره يعود ٠٠ الملامح القديمة ، لزوجتى تعود ٠٠ نظراتها وضحكاتها وسعادتها وأفراحها وصوتها وضعفها وأحزانها ٠٠ نعود لتصبح جزءا من حياتنا اليومية ٠٠ تتسق معها وتتآلف ، تنبع منها وتصب فيها ، تعود دون طلقة رصاص ، دون اكتشاف حقيقة الرجل الآخر الذى كانت تحبه ، والذى حل ضيفا على حياتنا بعض الوقت ، تعود كسيرة حزينة لا تبعث فى نفسى حبا أو كراهية أو شفقة أو حقدا ، تعود كما ذهبت ، وأنا بلا دور ، أو لعله كان لى دور الخائف العاجز المروع ٠٠ ذهبت دون أن أملك لها منعا ، وتعود دون أن أملك لها رفضا أو قبولا !

عادت الى بيتنا كما كان ، والى أولادنا الذين يكبرون ويتطلعون وتخفى عيونهم أكثر من سؤال عما يجرى فى هذا البيت ٠ يكبرون ويمضون سراعا نحو سنوات الحب والألم والنشوة والوهم والحقيقة !

أما أنا فسأظل أنتظر عودة صديقى الغـائب الذى يمكن أن تجد أنت لغيابه ألف معنى ‥ أما أنا فسوف أنتظره لأننى واثق من براءته ‥ وأثق من قدرته على اثباتهـا ، ولا مفـر لى من صداقتك حتى يعود صديقى !

ألمح فى عينيك نظرة ارتيـاب وكأن نهاية القصـة لم تقنعك بشىء ‥ أو لعلك لم تقتنع بعد بأنها قد انتهت ‥ ! وهذا بعض حقك ، ولكنى لا أسـمح لك لحظة واحدة بأن تشـككنى فى براءة صديقى ، فلو سمحت لنفسى بهذا الشك فعليك أنت أن تشك فى هذه القصة كلها من البداية حتى النهاية ! فى كل ماورويتـه لك !

أسمعك تهمس بأن جنونى مؤكد ، ولست أطلب منك سوى أن تتريث قليلا فى اصدار هذا الحكم القاسى فمن يدرى ياصديقى ‥ فقد تفتح عينيك ذات صباح لتكتشف بدورك أن زوجتك تحب !

***

مقهى الفردوس

ألقى نظرة على ساعة الحائط ، لانزال أمامه ساعة كاملة قبل أن يصبح قادرا على أن يلتقط أنفاسه فى هدوء ، وأن يغمض عينيه فلا تختفى أنوار العـالم ، بل ترق وتصـفو ، ويتجـرد الظلام من الخوف ، ولا يصـبح لجميع الأصـوات فى أذنيه ايقاع القدم حين تتلصص أو تفر !

أما الآن ولا تزال ثمة دورة كاملة أمام تلك الذراع المكسورة فى ساعة المقهى التى تبدو وكأنها العـين الوحيدة التى تبصر سره فليس هناك أخطر من أن يغمض عينيه للحظة ، أو يدع مخاوفه تخفق تحت جلد وجهه ، فتلمحها العيون العديدة التى تجثم فى كل ركن يظنه خاليـا ، واذ ذاك لاتنتهى أبدا تلك الساعة التى ينتظر بعدها خلاصـه !!

لمثل هذا الموقف تصدر صحف المساء ، فهى تصلح قناعا لوجه خائف فى مكان عـام ! « عزيز » هو الذى أصر على المكان العام ٠٠

قال بلهجة لا تحتمل الجدل : انتظرني هنـاك في مقهى الفردوس !

وحين لمح دهشـته البالغة ٠٠ تابع في اصرار : أجـل نفس المقهى الذى نسـهر فيه كل ليـلة ، يجب ألا يتغير شيء عن مجراه الطبيعي حتى لا يتسرب الشك الى أحد ، سأدخل من الباب الرئيسى ثم أتجـه ناحيـة التليفون لأحدث فيه أى شخص أى حديث ، ثم أخرج وكأن حديث التليفون هو السبب ، بعد خروجي بعشر دقائق على الأقل تلحق بي عند نهاية الجسر الذى يعبر النهر ، وسـيكون الليل كله في صـالحنا ونحن نهرب من المدينـة ! ثم تمهل قليـلا وتقبضت ملامحـه القوية واختلجت برفيف من الكبريـاء المنـداة بالعاطفة قبل آن يتابع :

ـ واذا بلغت الساعة الثانية عشرة ولم أحضر ٠٠ فقد يكون معنى ذلك أننى وقعت في قبضتهم واذ ذاك يمكنك أن تمضي وحدك . فى نفس الطريق الذى رسمته لك واثقا من أننى مهما حدث لى لن أكشف عن صـلتى بك ! (كان وهو يتكلم يوحى لـه بتلك الثقة العظيمة التى فقدها فى كل من حـوله) ٠ وسـيكون أمامك الوقت الكافى للهرب ، وستكون نجاتك عزائى !

ولكن العيب الوحيد لصـحيفة المسـاء ، أنها فى الوقت الذى تصبح فيه قنـاعا لوجـه خائف ، تصبح قناعا أكبر للمقهى كله ، وللباب الرئيسى ، وللتليفون ولعين الساعة الوحيدة التى تبصر سره ، وللداخلين والخارجين !

لم لا يطرح جانبا مخاوفه وأيضا صحيفة المساء ؟ لم لا يمضى حتى النهاية فى العمل بنصيحة صديقه « عزيز » فيشارك الأصدقاء فى المقهى موائدهم وأحاديثهم ؟؟

« الهجوم خير وسيلة للدفاع » كان هذا العنوان الجانبى فى صحيفة المساء ، الذى لم يقصد به المعلق أكثر من وصف الطريقة التى فاز بها الفريق الأزرق .. !

كان هذا العنوان هو حكمة الساعة الملهمة بالنسبة له،فانتصار الفريق الأزرق .. أفضل مناسبة للحديث الذى سيهتم به أنصار الفريق وخصومه على السواء ، والمقهى كالعادة لا حديث له الا عن الكرة ، وهو حديث يبرر شتى الانفعالات والحركات العصبية ، ومن خلاله يبدو كل شىء فى اطاره الطبيعى !!

لم لايبدأ فيحدق فى الوجوه التى يخشى أن تحدق فيه ، ويمطر بالأسئلة أولئك الذين يخشى فضولهم ، هكذا كان يبدو فى الليالى السابقة ، ولا يجب أن تختلف هذه الليلة عنها ، وهى فى الحقيقة لاتختلف الا اذا لاحظ أحدهم الحقيبة التى يخفيها تحت المنضدة وحتى هذه الملحوظة لن تكون ذات بال !!

ومن السهل أن يبرر لهم وجودها معه ، واذا أصر أحد أصدقائه على فتحها متخذا من المزاح سبيله الى ذلك فمحتوياتها لاتثير الشكوك كتب ، ثياب ريفية يفضل لبسها فى البيت ، و (ألبوم) صور يشغلون به عن كل شىء فهو يضم صورهم جميعا ولن يصدقوا أن تلك كانت وجوههم وهم طلبة فى الجامعة ، وأن هذه الكلمات المكتوبة خلف ـ الصور هى حقا ما كانوا يحلمون به ويفكرون فيه .

المهم أن يبدأ الآن محاولة جادة لأن يندمج معهم فى الحديث ولو اقتضى الأمر أن ينتقل الى أقرب منضدة ، لكن حتى هذا لابد من التمهيد له .. بنظرة أو ابتسامة أو كلمة يلقى بها هناك أو هنا !!!

فى الليالى الماضية ورغم كل همومه لم يجلس منفردا هكذا ٠٠ وبدأ يدهش لهذه المسـألة ، ناسيا أنه كان سعيدا بها منذ لحظات ، وأنه مهد لهذا الموقف حين راح يسرح بنظراتـه فى سقف المقهى متأملا دوائر (النيون) القوية ، محدثا ذراع السـاعة المكسورة ، مضيعا جميع الفرص التى سنحت له أثنـاء دخول أصدقائه واحدا بعد الآخـر ليجلسـوا هنا وهناك فى جوانب المقهى ، والآن هل جاء دورهم ليحبطوا محاولاته فى التودد اليهم ؟

لكن هل هم حقا يقصدون ذلك ! بعضهم يشيح عنه ، وبعضهم يرد على تحياته بتحيات مثلها لا أكثر ، وجميعهم يتفرقون فى جوانب المقهى صانعين دائرة هنا ومثلثا هناك ولكنه الآن يكتشف ومنذ بدأ محاولاته الفاشلة فى التقرب منهـم ، يكتشف أن شيئا ما يربط بين هذه الدوائر والمثلثـات شيئا غير نظراتهم وابتساماتهم ٠٠ شيئا كان يبدو له بلا معنى ولكنه مع الوقت بدأ يكتسب معنى مخيفا ـ ٠٠ !

فالدوائر والمثلثـات المتبـاعدة تقترب حين تمتلىء الثغرات الموجودة بينها بالقادمين وهكذا تصبح الدوائر المتفرقة دائرة محكمة حول منضدته لا يستطيع أن ينفذ منها الا اذا ربت على كتف أحدهم قائلا :

ـ أتسمح ؟

واذ ذاك قد يسـأل جـادا أو هـازلا ، ودون أن يتحرك من مكانـه ٠

ـ ألا يزال الوقت مبكرا ؟ وهذه الحقيبة لـماذا هى معك فى هذه الليلة ؟ وقد تتحسسها يده ، وتتلاشى الحدود بين الجد والدعابة ، وتختلط النوايا الحسنة بالشريرة واذ ذاك قد تحدث أشياء لا تخطر ببال أحد !

ومنذ وقت وهو يخشى مثل هذه الأشياء ، يخشاها منذ بدأت الحدود تتلاشى وتنعدم ، ولكنه واثق من شيء واحد هذه المرة ، هو أنه لو حدث شيء كهذا ، وتأكد له أنهم كشفوا أمر هروبه فلابد أن يقاومهم حتى الموت ، وأن ينفجر فيهم كقنبلة ، وقبل أن يتمزق الى آلاف القطع الصغيرة ، لابد أن يسمعوا جميعا رأيه كاملا فيهم ، وفى جلساتهم بمقهى الفردوس وفى حياتهم بمدينة الشمس التى يدنسونها بوجودهم فيها !

لابد أن يقفز فوق أول منضدة تعترض طريقه ويصرخ فى الجميع : « يا أصدقائى أو يا من كنتم كذلك ! يا زبائن مقهى الفردوس جميعا !

تعرفون كم كنت أحبكم ، وحين جئت من قريتى منذ سنين وجلست فى هذا الركن ، لم يكن فى جيبى أكثر من ثمن فنجان واحد من الشاى وحين شربته انتشيت به ، كأسعد رجل فى العالم لأننى أراكم بعينى وأسمعكم ولاننى سوف أصبح ٠٠ » ٠

وفتح باب المقهى الزجاجى الذى لم تنحرف عنه نظراته حتى وهو يلقى خطبته ٠ ودخل « غريب » وتلاقت نظراتهما ، واستقرت فى أعماقه تلك النظرة الثلجية التى حياه بها « غريب » وانتهت تماما رغبته فى اكمال خطبته كانت ساق المنضدة تصطدم بساقه فى ايقاع مرتعش دائم ، وعبرت خلايا رأسه أمنية شاحبة بأن يكف « عزيز » عن تعذيبه بتأخره وأن يأتى فى موعده وأن يلحق به فى سلام ودون أن يكون فى حاجة الى القاء خطبة من أى نوع ٠٠ ! ٠

كانت النظرة الثلجية التى حياه بها « غريب » تقترب منه فى خطى ثابتة كانت نظرة مستديرة مثل رأس « غريب » ، وأرنبة أنفه ، وأطرافه كلها ، كان « غريب » يعطيه دائما هذا الاحساس بأنه أمام دائرة لا يعرف متى تبدأ ومتى تنتهى ؟

وأكدت له النظرة الثلجية المستديرة أن انفجاره ذلك سيكون مضحكا ومثيرا للرثاء وأن كل ما يجرؤ على قوله فى لحظة يأسه تلك لن يدفع بأية اختلاجة الى تلك الحدقة الجامدة المستديرة ، وأن زبائن المقهى بما فيهم أصدقاؤه قد انتهوا جميعا الى تلك الحالة التى لم يعد بمقدور شىء (عدا الكورة) أن يثير حماستهم أو دهشتهم !!

النظرة الثلجية تتوقف عند أقرب منضدة له ، « وغريب » يجلس اليها دون أن تتحول عنه نظرته ، انه يواصل تحيته متجاهلا تجاهل الآخرين له ، ومتجاهلا أكثر اهتمامهم بقدومه ورغبة كل منهم فى أن يشرف منضدته باختيارها .. ! .

النظرة الثلجية تتحول مع القرب الى ابتسامة لها قدرة النقود على أن تترجم الى أى شىء !

ـ هل قرأته ؟

كان « غريب » يوجه اليه السؤال وأصبعه القصيرة المستديرة تشير الى عنوان فى صحيفة المساء « كرة القدم لماذا أصبحت اللعبة الأولى التى يحب العالم أن يتفرج عليها ؟ » .

كان العنوان ثابتا ، وفى كل مساء كانت الصحيفة تنشر اجابة واحد من رجال الفكر أو الفن أو العمل !

ولأول وهلة لم ير فى السؤال سوى فرصة مواتية تبرر انتقاله الى المنضدة المجاورة والاندماج فى الحديث .

ـ لم أقرأه بعد .. ولكن يبدو ..

وهم بالانتقال ولكن اشارة حاسمة من يد « غريب » أبقته فى مكانه .

ـ أرجوك ٠٠ اقرأه أولا ثم تعال نثرثر حول الموضوع ؟

وعادت الابتسامة التى يمكن أن تكون اعتذارا أو سخرية أو تلميحا الى ٠٠ (لا ٠٠ لا ٠٠ مستحيل) لكن أى شيء هنا مستحيل سوى الشعور بالثقة والأمن ؟ لماذا لم يوجه هذا السؤال فى أية ليلة سابقة ؟ لم فى هذه الليلة ؟ وفى مثل ومضة البرق بدا كل شيء واضحا وفى مكانه ، كيف بدأت علاقته بعزيز ؟ بثرثرة حول هذا السؤال ، انتهت بهما معا الى ضرورة الهرب فى تلك الليلة ، ولاشك أنه أمر مثير للغاية وشائق أن تنتهى هذه العلاقة بثرثرة مماثلة حول نفس السؤال ، ثرثرة مع غريب هذه المرة ! وليس هناك من هو أكثر من غريب براعة فى أن يبدأ حوارا قذرا ينتهى بكشف الموضوع بأكمله هنا وفى المقهى ، واذا كانت النهاية قد أصبحت قريبة والى هذا الحد ، واذا كان غريب قد اختار لها هذا الجو المسرحى فبمقدوره هو أن يضيف اليها لمسة ساحرة ، وماذا يخسر القتيل ؟ لا شيء ! ولاشك أن غريب سيتوقع كل شيء سوى أن أسمعه نفس الأجوبة التى سمعتها من عزيز أجل نفس الأجوبة ٠٠ فى الوقت الذى يتوقع أن أنكر فيه حتى صلتى بعزيز وبنفس اللغة الغامضة اللزجة التى تقول كل شيء ولا تقول شيئا أبدا ، ومن يدرى فقد يكون هنا فى المقهى آخرون لهم نفس موقفى ، وقد يفهمون ما فهمته من عزيز ، وقد يتحركون جميعا فى لحظة واحدة ليعلقوا « غريب » فى مدخل المقهى فى رباط عنقه !

داعبته راحة حلوة كتلك التى يعرفها المرء وهو فى أوج الأمل أو اليأس ، راحة ممزوجة بنشوة كتلك التى تسلك اليه حين كان يستمع الى عزيز وهو يعلق على سؤال الكرة اللعين ، أيمكن أن يأتى عزيز فى الدقائق العشر الباقية ؟ ان مجرد قدومه سوف يبدد من المقهى كل الأوهام والمخاوف ، وفى الدقائق الباقية يمكن أن يتظاهر بقراءة المقال حتى لا يفجر الموضوع بأكمله الا بعد أن

يتأكد من أن عزيز لن يأتي الى الأبد ، وعبثا حاول أن يقرأ الهراء المكتوب في صحيفة المساء كانت أجوبة « عزيز » التي يستعد ليقذف بها في وجه غريب وفي المقهى كله تتدفق على رأسه ، وبصوت عزيز نفسه القوى الرائق المرير ، وأطل وجه عزيز بملامحه البارزة والهادئة ليس من باب المقهى الذى كان ينتظره منه بل من عين الساعة التي كانت تبصر سره ، وبالتحديد من بين ذراعي الساعة اللتين تقتربان في بطء ، ويضغطان على رقبته التي بدت وكأنها ستسقط بالتأكيد حين تلتقى الذراعان في الثانية عشرة تماما ! •

وسبح المقهى كله في ضوء شاحب ، وتحولت الرؤوس الى مجرد ظلال تقترب وتتباعد ولم يعد يسمع غير صوت عزيز أو يبصر غير وجهه ، ليلتها كان الوقت مساء كهذا المساء ، وكانت الصحيفة تواصل نشر تعليقاتها وهمس عزيز وهو يطوى الجريدة •• كانا قد خرجا لتوهما من المقهى ومشيا معا في طريق شبه خلوى •

ـ تتابع هذه التعليقات ؟

ـ أحيانا •

ـ وما رأيك ؟

ـ بعضها معقول •

ـ يظهر أننى أقرأ دائما البعض الآخر !

ـ هل لديك تفسيرات أخرى لاهتمام الناس بالكرة ؟

ـ نعم •

وأعطى كل اهتمامه لعزيز الذى واصل حديثه وسيره :

ـ كرة القدم هى المعركة الوحيدة التى تخوضها وأنت تعرف بوضوح الذين معك والذين ضدك •

ثم هدأ من سيره وأضاف مبتسما !

وتبقى لآخر لحظة فى المعركة وأنت تعرف ذلك !

لحظتها ارتجف ·· كان الجو باردا ·· لكنه كان يعلم سبب ارتجافه ·· شعور غامض وملح بأن عزيز بصدد أن يتكلم عن أشياء لا تمت بصلة لكرة القدم ·· ! وتحقق من هواجسه حين التقت عيناه بعينى عزيز فى نظرة خاطفة وحين سأله :

ـ لهذا السبب وحده ؟

كان عزيز يستطرد فى سيره وحديثه أيضا :

ـ وهى المعركة الوحيدة فى العالم التى ينظمها القانون ، والتى يحرص الطرفان فيها على أن يسود القانون ويحترم ، لأن احترامه يعطى أحسن فرصة للمنتصر والمنهزم على السواء !

وقتها كاد يصرخ فى وجهه : ما الذى تقصده ؟ ما الذى تريده ؟

ولكن عزيز كان مندفعا فى حديثه فلم يترك له أية فرصة :

ـ والملعب هو المكان الوحيد الذى يمكنك أن تتحقق فيه من سيادة القانون ·· فهو من ناحية مكشوف وثمة حكام يرقبون اللاعبين وجمهور يرقب الحكام ·· وكل شىء أمام عينيك كل شىء واضح ذلك الوضوح النادر الذى لا وجود له فى غير الملعب ·· الجيد والردىء ·· الصواب والخطأ ·· ومهما يكن دور المصادفة فالردىء لا يغلب مرتين !

وقتها صرخ مقاطعا : أنت لا تتحدث عن كرة القدم ·· أنت تعنى ··

ولكن عزيز كان مندفعا تلك الاندفاعة التى تحدث مرة فى حياة الانسان فلا يمكنه بعدها أن يتوقف أبدا ·

ـ فى الملعب لا مكان للخديعة ، أتسممنى ؟ لأول مرة لا يكون فى طوق انسان أن يخدع أحدا غير خصومه ، لأول مرة يستطيع الناس أن يروا الصواب والخطأ كليهما على حدة !

ولأول مرة لاتختلط الأهداف بالوسائل وأيضا لاتفترق ٠٠ !

ولأول مرة تلتقى الحرية والنظام ودون أن يضحى بأحدهما من أجل الآخر ، وفى الملعب تعرف دائما دورك ومكانك ، ويمكنك أن تفهم مرة واحدة على الأقل لماذا يصفق الناس لك ولماذا يصفرون ؟ وفى لحظة احتدام المعركة والعواطف تساعدك الخطوط والدوائر وألوان الملابس وصفارة الحكم وفوق ذلك كله أصوات الجماهير !

ـ أقسم أنت تقصد الأوغاد القذرين ٠٠ أصدقاءنا فى مقهى الفردوس !

ـ أنا لست أقصد شيئا !

قالها عزيز مستدركا وهو يهدىء من سيره ٠

ـ حذار ٠٠ لا تحاول أن تكون مثلهم ٠٠ سأجن لو قلت أنك لا تقصدهم ، سأجن هل تصدقنى ؟

ـ أنت مجنون فعلا ٠

ـ لا ٠٠ وأقسم لك !

ـ المجنون هو من يقول كلاما له معنى محدد ، ثم لا يقنع بهذه المصيبة فيحاول تأكيده !

ـ لا يهمنى من أكون ٠٠ المهم أنك تقصدهم ٠

ـ وما جدوى ذلك لو كان صحيحا ؟

ـ جدواه أنني لست وحدى ·· ولست مخطئا فى احساسى بهم ، وأن ثمة أمل ·

ـ فى أى شىء أيها الأبله ·· نسيت أن العالم كله يهتم اليوم بالكرة :

ـ وفى أى مكان ستجد بعضهم يهتم بالحياة !

ـ نسيت أننا كنا هنا نهتم بها أيضا فما الذى حدث ؟ هل تذكر ؟

ـ لست أدرى ·· لقد ظللت طويلا لا أعتقد أن ثمة فارق بين لعبة الكرة ولعبة الحياة ، ومضى وقت طويل قبل أن أكتشف أننى الأبله الوحيد الذى لا يزال يحترم قواعد اللعب ، وينتظر عبثا صفارة الحكم حين تحدث الأخطاء ، ويستنجد بجمهور لا وجود له !

وحين بدأ كل شىء يفقد معناه ·· النصر والهزيمة ·· الصواب والخطأ ·· الحرية والنظام ! وحين بدأت أبحث عن شخص يشاطرنى الفزع ، شخص يهتم لما يحدث كانت ملاعب الكرة تهتم بهم وترعى شئونهم جميعا ، وكانوا هناك يتفرجون ويهتمون ويفزعون كذلك ! وتأتى أنت الآن ·· لتحاول أن تعبث بى !

ـ أنت الذى سوف تعبث بنا لو ظللت تهذى على هذه الشاكلة !

ـ وهل كان من الضرورى أن تعذبنى قبل أن ··

فقاطعه عزيز :

ـ لا أظن أن عذابنا الحقيقى قد انتهى ·· انه سيبدأ الآن فقط :

ـ لماذا ؟

ـ اذا كنت حقا تفكر فى الخروج من هذا المأزق !

صوت « عزيز » القوى الرائـق المرير يكف عن التـدفق ، وعنقه يتدلى من بين ذراعى الساعة حين أصبحتا دراعا واحدة قوية ، تشير الى انتصـاف الليل وتشير أيضا الى أن لحظة الصدام المروع قد حلت ، والضوء الشـاحب الذى كان المقهى يسبح فيه ، تسحقه أنوار (النيون) القوية ، وظـلال الرؤوس تتحدد قسماتها وتبرز ، « وغريب » ينتظر بلا شبك فريسته وهى تحاول أن تفلت ، ولكنه لا يدرى أنه يمنحه فرصة العمر حين يبدأ مزاحه الثقيل وثرثرته حول الكرة ، سيقول رأى عزيز كاملا ، ومن يدرى فقد تفجر هذه الكلمات أرض المقهى كلها ، وهكذا يثأر لعزيز فى نفس اللحظة ٠٠ لكن هل انتهى أمر عزيز حقا أم أن شيئا آخر عاقه ؟ والى متى يظل ينتظر أن يرفع « غريب » رأسـه لتبدأ المعركة الأخيرة ؟ غريب » لا يرفع رأسه ، والوقت يمضى وبعض الزبائن يخرجون ، والحلقة المحكمة تتكسر هنا وهناك ، هل أخطأ فى تقدير شىء أم أن المسألة لاتعدو أن تكون لعبة قذرة من « غريب » يتسلى بها ؟ ٠

ليس من صالحه أن يضيع الوقت ، ولو خرج الزبائن كلهم لفقدت لعبته أثرها الخطير ٠٠ وجه غريب الناعم المستدير يواصل الهمس لمن حوله دون أن يفصح عن شىء ، دون أن تبدو عليه لمحة انتظار لشىء ٠٠ لم لا يحاول التسلل من بعض الثغرات فى الحلقة ؟ وليترك حقيبته هـذه المرة حتى لا يشك أحـد فى أنه لن يعود ، وهكذا يرد على لعبتهم القذرة بلعبة مثلها ؟ واذا كان ثمة خطأ فى تقدير الأمـور فلا معنى لأن يتسرع بجلب المشـاكل على رأسه ؟

واجتذبته أقرب ثغرة فى الحلقة وفوجىء بأن أحـدا لا يعيره أقل التفاتة ، ولم يصدق أنه أصبح خارج المقهى ، وأسف لأنه ترك

الحقيبة ... وتباطأ قليلا حتى لا يثير الشكوك وقبل أن يمضى فى طريقه فوجىء بصوت غريب يلحق به ، ويمسك به !

ــ أليست هذه الحقيبة لك ؟ ولماذا نسيتها ؟

ثم تابع وعلى شفتيه نفس الابتسامة التى تشبه النقود :

ــ أليست هذه الحقيقة لك ؟ لماذا نسيتها ؟

ستحضر مساء الغد ... أليس كذلك ؟ احتفظ بحقى فى الحديث معك حول نفس الموضوع !

ومد يده وأخذ الحقيبة دون أن ينطق بكلمة ، خيل اليه أنها أثقل مما كانت ولكنه كان منهارا ، ربما هذا هو السبب .. كان يدرك أن صمته وكلامه سواء فى القدرة على فضح أمره .. ربما يعرفون كل شىء ، وربما لا يعرفون شيئا ، وأنقذه « غريب » بعودته الى المقهى !!



مشى أولا فى بطء ، مخترقا نفس الطريق التى وصفها عزيز له وكلها شبه خالية شبه مظلمة ، طريق تملأها الظلال والأوهام .. الطرق تسلمه للجسر ، والجسر يسلمه للضفة الثانية ، والضفة الثانية تسلمه الى طريق أوسع يمكنه أن يجرى فيه ، وهو مغمض العينين ، وفجأة يتجرد الظلام من الخوف ، ويصبح للقدم الهاربة ايقاع القدم التى ترقص ، والهواء يصبح أكثر زرقة وعذوبة ، وهكذا تتحقق نصف النبوءة ولا يتحقق نصفها الآخر ، وتنقسم الحقيقة المفردة ، ويأتى نور الصباح فى موعده ويسقط المكان من الحساب ، ويبقى للوقت وحده القدرة على اغماض العيون وتفتيحها !

ــ من أنت ؟

كان فلاح شاب يسأل الأفندى الذى يفرك عينيه على رأس

حقله وكل ملامح الفلاح تؤكد أنه مستعد لتصديق أى كلمة يقولها الأفندى الذى صحا فجأة !

ــ أنا ٠٠ لن تصدقنى اذا قلت أننى فلاح مثلك ٠٠ !

ــ الفلاحون لا يلبسون هذه الثياب !

ــ انتظر قليلا ٠٠ فى حقيبتى مثل ثيابك ! يجب أن تصدقنى !

وراح يفتح الحقيبة ليخرج منها الثياب الريفية ، وفى سكون ذلك الصباح انطلقت من فم الشاب الريفى صرخة فزع مدوية ٠٠ حين أبصر فى الحقيبة جثة قتيل ٠٠ !

أما هو الذى كان يبصر جثة « عزيز » فى نفس اللحظة فلم يصرخ ولم يجد لديه الرغبة أو القدرة على أن يفعل أو يقول أى شىء !

وحين اجتذبت الصرخة فى هذا الصباح كل من كانوا فى الطريق الى حقولهم ، وحين تتابعت الحلقات والدوائر الفزعة المروعة كان ثمة سؤال يدور ويتنقل :

ــ من هو ؟

ــ لا أحد يعرف ثم أصبحت الاجابة : انه غريب !

يناير ١٩٦٧

الــزيارة

هبط القرية بعد الغروب ، فى الوقت الذى يتحول فيه الناس على البعد الى أشباح لا تتضح ملامحهم الا فى اللحظات الخاطفة ، التى يخترقون فيها أشرطة الضوء التى تقطع ظلام الشوارع أمام الدكاكين القليلة المتناثرة فى القرية ٠

وأمام تـــلك الدكاكين راح يسرع الخطى هـربا من ذلك الفضول الذى تواجه به القرية أبناءها النازحين كلما عادوا ، ففى هذه المرة كان حريصا على أن يحيط زيارتـه للقرية بالـكتمان ، وحتى أسرته لم تكن تعرف شيئا عن المهمة التى جاء من أجلها ، والتى يجب أن يفرغ منها قبل أن يطرق باب بيته فى نهاية القرية ، وفى تلك الليلة ترك الطريق الرئيسى وانحـدر فى حارة ضـيقة يســودها الظلام ومع أنه قد مضت سنوات على آخر مرة دخل فيها هذه الحـارة فلم يبد أنهـا تغيرت كثيرا ولا تزال قدمـاه ترتفعـان وتنخفضـان فى نفس التـلال والحفر الصغيرة ، ولم تعد تهمه كثيرا أطياف المـارة ، التى حولها الظلام الى أشباح والتى تصر على تحيته

دون أن تعرفه فيرد عليها دون أن يعرفها كذلك ، ولم يكن يخشى الأشباح الناطقة ، كان يخشى شبحا واحدا يمضى دائما فى صمت ، ويجوب شوارع القرية فى أية ساعة من الليل أو النهار ، الشبح الذى قدم من أجله ، والذى كان يحرص فى نفس الوقت على ألا يلتقى به ٠

وكان واثقا على أنه قادر على تمييزه رغم الظلام ، لن يتبين ملامحه لأول وهلة ولكنه سيتعرف على مشيته٠٠مشيته المتصلبة ٠٠ مشية شخص لا يبالى بما حوله ، كأنه لا يدركه ويندفع بكل جسمه الى غاية لا تبين لغيره ويبدو أنها لا تبين له فهو منذ أعوام يواصل مشيته تلك ، فى البداية كان يواصلها وسط حشد من الصغار والكبار ، وانصرف الكبار بعد أن سئموا اللعبة ، ثم مالبث الصغار أن ملوها كذلك بعد أن كف هو عن الاستجابة لعبثهم ، أصبح يواصل الصمت والسير معا ، رغم اختفاء الحشد ، فقد كان لا يزال قادرا على تمييزه ، فقامته المتصلبة مشدودة ، داخل ثوب واحد يخفق حولها صيفا وشتاء ، ثوب لا تخفى قذارته التى ضاعفت من سمكه وجعلته متصلبا هو الآخر وفى أعلى الثوب ينبت رأس مغطى بشعر غزير يحيط بالوجه كله ويضاعف من حوله الظلام ٠

منذ عام فى آخر زيارة للقرية ، وقف شعر رأسه حيث خيل اليه أنه توقف عن السير ، كان الوقت نهارا وكانت عيناهما قد التقتا فى نظرة عابرة ، أحس على أثرها أن ملامح الوجه الثابت فى أعلى الثوب ترتعش بالتحية وأن حاجز الصمت يتكسر على اختلاجات الوجه الذى يوشك أن يقطع فى لحظات خمسة أعوام كاملة ، ليجد نفسه فجأة أمام صديقه القديم « حسين » وأن حسين سوف يفتح له ذراعيه بنفس الطريقة القديمة ، ليجد نفسه غارقا فى غابة الشعر الكثيف وأن حسين سيطلب منه (بعد أن يضع ذراعه تحت ذراعه) أن يأتى معه ليمارسا هوايتهما المفضلة ، السير وحيدين

على الجسر الممتد بين الحقول ، يتكلمان ويحلمان أحلاما تبدأ دائم بعد أية شجرة ينطبق عندها الأفق ، لحظتها تصور أنه لن يقاومه سيمضي معه حيث يصبحان بعيدين عن الناس وسط الحقول ، وحيث يسأله صديقه أسئلة كثيرة سيكون ضمنها هذا السؤال :

لماذا تخليت عني ؟

ـ اذا كنت قد شفيت حقا فلابد أن تذكر أنني لم أتخل عنك .. لقد فعلت الكثير من أجلك .

ـ لقد شفيت حقا ولهذا فان ما تقوله يضحكني .

ـ ماذا كان بمقدوري أن أفعل ؟ الأطباء أنفسهم يئسوا من حالتك .

ـ أنت تصدق أن مثل هؤلاء الأطباء في مثل هذه المستشفيات يمكنهم أن ... دعنا من هذا .. يبدو أنك لا تزال تشك في شفائي ، ويبدو أنه لا جدوى من الحديث معك .

وانتهت اللحظة الرهيبة .. كان صديقه قد واصل مشيته المتصلبة حتى قبل أن يبدأ تلك الرحلة القصيرة ، ولكن الرحلة كانت قد بدأت بالفعل في مكان من عقله هو ، وعبثا كان يحاول أن يوقف الرعب الجاثم بين الحقول حول طريق زراعي كان يسير فيه صديقان يتحاوران بصوت مسموع :

ـ ماذا كان يمكنني أن أصنع من أجل أولادك ؟ ليس في قدرتي أن أصنع لهم شيئا كبيرا أو كثيرا .. أنت تعرف ..

ـ ولكنك لم تصنع شيئا أبدا ..

ـ أنصاف الحلول ، وتمزيق القدرة ، هو الذي أوصلك الى هذا الحد ، وتريد الآن أن تجرني معك على هذا الطريق ..

ـ أنت الذى دفعتنى اليه ، وقلت لى : تقدر ، وتقدر ، وتقدر ، ومع ذلك فالناس يتهموننى وحدى بفقد الذاكرة .

ـ كنت صغيرا ، ولم ابصر الهوة التى تفصل بين ظروفى وظروفك وكنت احبك .

ـ والآن أنت لا تبصر ولا تحب .

وفكر أن زيارة للقرية ، لأولاد صديقه الذين يعيشون مع عمهم الوحيد ومبلغا من المال يدفع للعم الذى يعمل (ميكانيكيا) فى وابور الطحين بالقرية ولديه من الأولاد ما يزيد على أخيه ، مثل هذه الزيارة قد توقف تلك الرحلات القصيرة التى يصحب فيها صديقه حسين وسط الرعب الجاثم بين الحقول .

وفى نهاية الحارة حيث تكدس الظلام برز بيت (فتوح) شقيق صديقه ، ولم يفكر كثيرا فى الطريقة التى سيستقبله بها ، كان واثقا على الأقل من الطريقة التى سيودعه بها ، انه وحده الذى يستحق المبلغ دون شك (فأم حسين) عجوز تعيش وحدها فى البيت القديم الذى كان يضم الأسرة كلها وفتوح يعولها أيضا وزوجة حسين لا يعرف الكثير عنها ، سمع مرة أنها تعيش مع العجوز ، وسمع مرة أخرى أنها تعيش وحدها مع أصغر الأولاد وهى على كل حال شابة وقادرة على أن تعنى بنفسها وفتوح فيما يسمع يرعى الجميع وهم بعيدون حتى يتجنب مشاكلهم مع امرأته .

طرق الباب وتحرك فى الصالة مصباح غازى لاح ضوؤه خلال شقوق الباب الذى فتح ليبرز منه وجه ملطخ بالدقيق واتسعت الفتحة قليلا عن سروال طويل وصديرى محكم بصف لامع من الأزرار الذهبية الصدفية ودهشة عريضة وترحيب :

ـ أهلا .. أهلا .. أمين أفندى .. خطوة عزيزة ..

واهتز المصباح فى يده ، ورقصت الظلال على الحائط وبحث

فتوح طويلا عن حصير كان فى ركن الصالة ليفرشه على كنبة خشبية عارية ، كانت الصالة هى حجرة الضيوف وأشياء أخرى كثيرة ، وحين استقر المصباح على مسمار فى الحائط بدت فى وضوح هذه الأشياء : وابور غاز ، وأوان نحاسية وملابس معلقة فوق حبل تحجب جزءا من الصالة ومن فوق الحبل جذب فتوح جلبابه ولبسه على عجل ، وهو يواصل الترحيب والدهشة ، ومن ركن الصالة جذب الوابور ووضعه بينهما على الكنبة ومن بين الأوانى استخلص عدة الشاى وكان لا يزال يرحب بأمين أفندى فتخلصت نبراته من الدهشة وأصبحت أكثر ألفة ومودة وتسلل الأطفال من خلال ستارة الملابس المدلاة يرقبون الزائر وأدوات الشاى والوابور المشتعل ويختفون ليعاودوا التسلل والظهور :

ـ أهلا . أهلا .. من كان يصدق أن الوجوه تلتقى ؟

وفكر أمين أن من الأفضل أن يطرق الموضوع مباشرة وبلباقة ليخلص « الأسطى » فتوح من عبء الترحيب المتواصل ، وصمت فتوح حين بدأ أمين يتكلم وبدا وهو ينصت ويتشاغل أحيانا بصب الشاى ونقليب السكر وكأنه شخص آخر يختلف تماما عن الشخص الذى كان يرحب به منذ لحظات ، بدا عمره الحقيقى على وجهه ، ليس فقط عمر السنين ، بل عمر الجهد والعناء ، كانت التجاعيد ، وترهل الجفون ، والشحوب ، وجفاف الجلد المقنع بذرات الدقيق كانت كلها تقتحم الضوء الذى يرسله المصباح من بعيد ليزداد قليلا حين يلتقى بصوت الوابور المشتعل وكان بريق الدهشة يخفت فى عينيه مع الوقت لتتحول العينان فى نهاية الأمر الى مجرد نبعين للفضول ، وأنهى أمين حديثه اللبق بالسؤال عن أولاد حسين ، لم يكن قد رآهم ضمن الوجوه التى تظهر وتختفى خلال الستائر المدلاة ، واعتقد وقد أوضح الغرض من زيارته أن الفرصة أصبحت مواتية لمثل هذا السؤال :

ـ الأولاد مع أمهم ٠

قالها فتوح بنبرة خالية من أى انفعال ثم رفع وجهه الذى بدا مكسوا بالجمود والغموض ليلمح أثرا لاجابته فى وجه أمين الذى تساءل فى دهشة :

ـ « عطا » « وعبلة » كانا معك ٠٠ أمينة وحدها هى التى كانت مع أمها ٠٠ فما الذى حدث ؟ هل طلبت أمهم ذلك ؟

ـ نعم ٠

قالها وهو يقدم الشاى لضيفه وبدأ يستجمع نفسه لحكاية طويلة ٠

هل تسرع أمين بكشف أوراقه ؟ ٠٠ كان يجب أن يسأل عن الأولاد أولا ؟ ولو أنه ذهب الى بيته وسأل من بعيد عن أحوالهم لعرف الحقيقة ، ولكانت الزيارة والمبلغ لأم الأولاد ودون ان يعرف عمهم شيئا عن الموضوع ومن المؤكد أن أشياء قد حدثت بين فتوح وزوجة شقيقه ، فمن المستحيل أن ترفض امرأة فى مثل ظروفها أى عون من أى انسان ، وعطا أكبر الأولاد فى الثانية عشرة من عمره وهو لا يزال فى حاجة الى عمه ، واذا كانت قصة الخلاف بينهما تهم أحدا فهى تهم فتوح الذى يريد أن يبرر أمامه موقفه ، قال أمين موحيا برغبته فى انهاء الزيارة وتجنب الخوض فى التفاصيل :

ـ فى الحقيقة أنت فعلت الكثير من أجل أخيك وأولاده ولكن مثل هذه الأمور تحدث أحيانا ٠

قال فتوح وقد فرغ لتوه من لف سيجارة اعتذر أمين عن تدخينها فراح يشعلها وعلى مهل :

ـ ومن يعرف الحقيقة فى هذا الزمن يا سيدنا الأفندى ؟ كنت أعتبر « عطا » ابنا لى ، وهو فى الحقيقة ولد نبيه ، وهو فى سنه

كان يعرف كل شيء عن الوابور ، يفك ويربط ويشحم ، كان ينقصه فقط تركيب السير وهو مهمة الكبار ولما تعلم كل شيء جاءت أمه وأخذته .

(فتوح يتجاوز الدفاع الى الاتهام ومع أن أمين لم يكن يحب أن ينصب نفسه قاضيا الا أنه لم يسترح لتلميح فتوح) .

قال متجاهلا تلميحه ومؤكدا موقفه :

ـ مهما تكن أسباب الخلاف ، فهم أولاد أخيك ولا يزالون فى حاجة اليك وأمهم وحدها لا يمكن أن توفر لهم كل شيء .

واندفع فتوح هذه المرة فى لهجة محمومة :

ـ هم الذين يوفرون لها كل شيء ولم تأخذهم الا بعد أن تقررت لهم اعانة من الضمان الاجتماعى لقد جريت سنين وراء هذه الاعانة لأبيهم ولهم ، ودفعت من قوت أولادى للموظفين اللصوص .. وجاءت بعد ذلك لتأخذ الأولاد .

ـ ولماذا لم تقل ذلك منذ البداية (شكرا للغضب الذى فتح فمك عن آخره ولا أظن حرصها على الاعانة يزيد على حرصك) .

قال أمين وهو يكبح خواطره ويفكر فى طريقة لانهاء الزيارة :

ـ أنت رجل طيب وكريم ولا أظنك تبالى بشيء كهذا ، واذا سمحت لى لأزور الأولاد وأمهم ويمكننى اقناعها بضرورة أن يعود عطا الى الوابور ، فهو يحتاج الى صنعة يتقنها واعانة الضمان قليلة وموقوتة ولن تنفعه .

ـ ولماذا العجلة يا سيدنا الأفندى ؟ لو انتظرت قليلا كان ذلك في مصلحة الأولاد .

ـ أريد أن ألحق بهم قبل أن يناموا لأنى مسافر فى الغد .

ـ الله يحب الصابرين ياسيدنا الأفندى لو ذهبت الآن لن تقابل الأولاد .

(وجه فتوح يزداد جمودا وغموضا رغم ذرات الدقيق ، ولا يزال يملك المبادرة وجعبته ملأى بالمفاجآت ، ويبدو أن المرء ليس حرا حتى فى أن يعطى نقوده لمن يشاء ، ولابد أن يدفع ثمن تسرعه والحقيقة قد تلمح وسط الأكاذيب ، وليبارك الله فى نوبات الغضب) .

قال أمين محاولا أن يستفزه :

ـ أنت الذى قلت أن الأولاد مع أمهم .

ـ وأنت الذى فهمت أنها أخذتهم لترعاهم .

(قالها فتوح بلهجة لاتخلو من تأنيب وبطريقة حكماء الريف)

قال أمين وهو يضبط نفسه :

ـ وأين الأولاد ؟

واستطرد فتوح دون أن يهتم بسؤاله :

ـ والآن تريد أن تذهب لترمى بنقودك فى الهواء وتظن انك تعطيهم لأولاد أخى .

ـ لم تقل أين أولاد أخيك ؟

ـ « عطا » يعمل الآن في وابور النبراوي ، أخذته ليعمل مع الأعراب .

ـ ولماذا أخذته ؟

وحدجه فتوح بنظرة معناها (كان يجب أن توجه هذا السؤال منذ البداية) ولكنه قال :

ـ اسألها باعته كما يبيع الفلاح زرعه الأخضر بسعر التراب ، طلبت منى أن أجعل له أجرا ثابتا ، ونسيت كل ما فعلته لها وله ؟

ـ وعبلة ؟

ـ تخدم فى منزل الرشيدى أفندى ناظر المدرسة .

وساد الصمت ، وانسحبت الرؤوس الصغيرة التى اجتذبها الصياح من خلف ستارة الملابس المدلاة .

وتبددت حلقات الدخان التى اجتذبها فتوح فى غضبه ...

(هذه أخبار لا تحتمل الكذب ، والغريب أنها ليست غريبة ، والطريق الى الأولاد يلتوى ويتعقد، والأدلاء لا يتخيرون عن بعضهم ، ولا سبيل الى التراجع ، والحقيقة تبين ولكنها مظلمة ، والزيارة التى أعتقد أنها تضع النهاية للرحلات القصيرة المرعبة تبدو أكثر رعبا ، رغم أنه لا يزال فى بدايتها ..) .

ـ وما الذى تراه مناسبا يا سيد « فتوح » ؟

قالها أمين بلهجة المستسلم الذى لم يبق لديه سوى الفضول .

ـ أنت لم تعرف مافى ضميرى ياسيدنا الأفندى ، أنت ظلمتنى سامحك الله ..

ــ ولماذا طلبتك يا سيد « فتوح » ؟

ــ أولا أنا لا أريد أن آخذ المبلغ ، ولم أطلب التصرف فيه ، أريد فقط انقاذه ، أريدك أن تنفقه بيدك على أولاد أخى .

ــ كيف ؟ هل تريدنى أن أبقى هنا وأنفق عليهم ؟

ــ يمكن أن تشترى به ماهم فى حاجة اليه .

(هل هى حيلة جديدة لمعرفة المبلغ ؟ لم يكن قد ذكر له شيئا عن قيمته ، هل يمكن أن يكون لدى الرجل ، الذى وضحت أسباب سخطه دوافع أخرى غير السخيمة والآن لا سبيل لتنفيذ اقتراحه دون أن يصبح موضوع الزيارة الذى يحيطه بالكتمان عرضة لأن يعرفه الجميع ، وخاصة أسرته) .

قال أمين : حتى الآن لا أفهمك ياسيد فتوح ، وما تفعله أم الأولاد طبيعى فى مثل ظروفها ولا يستحق منك كل هذا السخط ، ولا يمنع أن ندفع لها المبلغ لتتصرف فيه بالطريقة المناسبة لظروفها .

واندفع فتوح اندفاعا آخر أشد :

ــ وماذا تعرف يا سيدنا الأفندى عما تفعله ؟ لم أكن أحب أن أتكلم فى مثل هذه الأمور ، ولكن ماذا أفعل وأنا أجد رزقا ساقه الله لأولاد أخى فى طريقه لأن ينفق على لص .

(لا تزال جعبة فتوح ملأى بالمفاجآت ، التى لا يجب أن يتلقاها بمجرد الفضول أو أن يسمح لها بأن تغرقه فى الدهشة ، ومهمته تصبح أكثر تعقيدا بعد أن فاحت رائحة النقود . وهو يوشك أن يصبح قاضيا مع أنه

يحمل في جيبه دوافع الكذب والجريمة وليس أمامه سوى أن يكون عادلا ، أو مغفلا لا نظير له ، والوجوه الصغيرة تجتذبها حدة النقاش ، فتعاود التسلل والنظر والدهشة والتفرج عليه كزائر وقاض ومتهم ولا مكان بينهم لوجوه الأطفال الذين جاء من أجلهم والذين لا يعرف متى ولا كيف يلتقى بهم) ٠

ـ أى لص تعنى ؟

قالها أمين وهو يحدق فى الجبهة العريضة التى تخفى كل الأسرار ٠

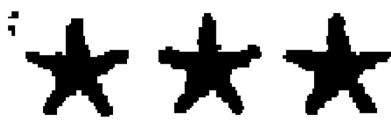
ـ أنت تعرف المنهراوى ٠٠ كل الناس يعرفونه ٠٠ انه لص لا يعرف أحد له عملا ٠٠ انه يضحك عليها ويشجعها لتطلب الطلاق ويمنيها بالزواج ، أصبح بيتها مأواه وتنفق عليه من عرق الصغار ، وتريدنى أن أقف لأن أتفرج عليك وأنت ترمى بنقودك لأولاد الحرام ٠

(المسافة بين أولاد الحرام وأولاد الحلال تختفى ، وتختفى أيضا بين الحقيقة والزيف ، ولا تتسع الا بينه وبين الأولاد وكيف يمكن أن يتحقق من شئ كهذا الا بسؤال الناس حيث للحقيقة الواحدة الف وجه والف لسان ؟ ولهجة فتوح التى كانت ترجو توشك أن تهدد ولكنها فجأة وفى سهولة غريبة تعود للرجاء) ٠

ياسيدنا الأفندى ٠٠ أنت تعرفنى من قديم ٠٠ تعرف ما فعلته من أجل الأولاد فكيف لا تشق بى وتثق بامرأة ، ولا أطلب منك

شيئا ... احتفظ بنقودك في جيبك ، واسأل الناس فلا يوجد من يجهل حقيقتها ، اسأل أى شخص قبل أن تدفع مليما للفاجرة وافعل بعد ذلك ما يمليه عليك ضميرك .

وينتهى الجزء الأول من الزيارة .



في نفس الليلة وفي ضوء مصباح غازى آخر ظهر وجه عزيزة أم الأولاد متعبا وشاحبا وسعيدا في نفس الوقت ، كانت الزيارة المفاجئة قد أثارت دهشتها ولم تلبث أن أثارت خيالها وظهر وجهها حين اكتسى بمسحة الحلم وكأنما استرد شيئا من جماله الغابر في لمعة العينين واختلاجة الملامح وكانت الحجرة الوحيدة التى عبر اليها صالة صغيرة والتى تدعوها بيتها ، تبرز في ضوء المصباح أكثر اتساعا لأنها أكثر فراغا رغم أنها تضم كل ما تملك .

وجلسا هذه المرة على الأرض فوق حصير يغطى معظم الحجرة ، ولم يكن ثمة وجود لغيرها حتى أمينة الصغرى لم تكن هناك .

ـ زارنا النبى يابيه .

كانت عزيزة ترددها كل لحظة ، وكأنها كل ما تعرف من كلمات ولم يبادر هذه المرة لانقاذ مضيفته من أية ورطة تركها تكرر تحيته ، وتعدل في جلستها ، وتوشك أن تمزق أطراف طرحتها السوداء من كثرة ما تعدل في وضعها حول وجهها ورقبتها ، وراح يتأمل في هدوء محتويات الحجرة الواسعة ، ولاحظ أن ثوبها وجلد وجهها يشبهان الحجرة من بعض الوجوه فكلاهما أكبر مما تحتويه ، واكتشف أنها راحت تتأمله هى الأخرى بعد أن كفت عن ترديد تحيته ، سألها عن الأولاد ، لم يبد أنها ضاقت بسؤاله بل بدا لها كمنقذ ، وعاد لعينيها بريق الحلم ، وهى تروى له قصة

لم تبكن جديدة عليه ، تصبح امرأة فقط حين تحلم ويذكره صوتها بأنه يجلس وحده مع امرأة وملامحها الدقيقة لا تزال قادرة على أن تحتفظ بعينيه فوقها وهى تروى القصة :

ـ أعمل لك شاى يا بيه ؟

هكذا قطعت حديثها فجأة ..

ـ شكرا لا تتعبى نفسك .

ـ تعبك راحة يا بيه ..

واستطردت تكمل القصة (كانت عبلة تقوم فى بيت عمها بكل العمل كانت تخدم زوجته وأولاده وكان عطا يقوم بكل شىء فى الوابور بلا مقابل ، أما الآن فيعملان بفلوس .. الغلابة أمثالنا فى حاجة الى أجر عرقهم ، وكل واحد أولى بحقه .

ـ ومتى يحضر عطا ؟

ـ ينام فى الوابور ويجىء كل جمعة .

ـ وعبلة ؟

ـ تبيت عند الرشيدى أفندى .

ـ وأمينة ؟

ـ تنام مع جدتها ، جدتها فى حاجة الى من يساعدها ، عجوز وحيدة .

(وتبقين أنت هنا وحدك فى انتظاره . ولو كانت العجوز تهمك حقا لاتسع بيتها لك كما اتسع لابنتك ، وقد يدخل المنهراوى فجأة فيريحه من أن يتعب نفسه فى اكتشاف الحقيقة ، وأفزعته الفكرة قليلا ، ولكن هدوء

المرأة الجالسة أمامه أخجله ، لم يكن فى نبرتها أثر للقلق أو الشعور بالذنب ، وكان واضحا أنها واثقة من أنه لن يجىء الى هنـا لمجرد السؤال أو الجواب) .

ـ ولماذا تعيشين وحدك ، ابنتك مع جدتها وحيدتان ، ألم يكن أفضل أن تعيشوا كلكم فى البيت القديم ؟

وتضطرب لمعة الحلم فى عينى عزيزة ، فتقول دون أن تفقد صوتها نبرة البراءة :

ـ أولادى كبروا يا بيه ، ولازم يكون لهم بيت (ثم أضافت) بعت نصيبى فى البيت القديم واشتريت هذا البيت .

قال متعمدا أن يمس الجرح متظاهرا بالبراءة محدقا فى الملامح الدقيقة :

ـ أخشى وأنت وحيدة أن يفكر بعض اللصوص فى ايذائك .

قالت وقد تحول الحلم فى عينيها الى كابوس :

ـ ماذا يأخذ منى اللصوص يا بيه أنا امرأة غلبانة .

ـ أولاد الحرام لا يشفقون على أحد .

وارتعش صوتها :

ـ ماذا تقصد يا بيه ؟ أنا لم يشفق على أحد من أولاد الحلال ولا أولاد الحرام ؟

ـ لست أقصد شيئا سوى مصلحتك .

وبدأ صبر عزيزة وكأنه قد نفد فجأة ، فاندفعت تهدر بصوت مجروح وبدا جلدها يضيق بما يحتويه .

ـ حتى اليوم لم أجد أحدا يقصد مصلحتى أبدا ، ولما جئت حضرتك ظننت أنك لن تكون مثــل بقية الناس ، ولكنك ترمى بالكلام هنا وهناك ولست أعرف قصدك ، ربنا يريح قلبك خلصنى وقل ماذا تريد ؟

ـ هل حرام أن أخاف عليك ؟

قالها بهدوء مدركا أنه يقترب من غرضــه ، وانفجرت عزيزة :

ـ لا مؤاخــذة يــا بيــه اذا تجاوزت حــدودى ، ماذا جعلك تخاف على اليوم ، منذ مرض زوجى وكان صاحبك لم تعــرف ماذا جــرى لى ولأولادى ، أكثر من خمســـة أعوام والصــغير والــكبير يشترى فينا ويبيع ، وحضرتك فى مصر ، وتأتى وتسافر لم نفكر مرة واحدة فى زيارتنا وتجىء الليــلة وتقول لى انك خائف على لأنى أعيش وحيدة .. ربنا عرفوه بالعقل يا بيه ؟

ـ أنا مســتعد أســاعدك اذا تأكدت أنك مستعدة لمســاعدة الأولاد .

ـ يا بيه كتر خيرك .. أنا مستغنية عن مساعدتك وأولادى قبلى ،تكلم كلاما يرضى ربنــا ، لم يصنع أحد غيرى شــيئا للأولاد يا بيه لو كان عندك أولاد ما قلت هذا الكلام ... أنا فاهمة قصدك انت سمعت كلام الناس ، كلام أولاد الحلال .. وأنا لا يهمنى أحد ولست محتاجة الى مساعدة منك أو من غيرك . !

وأخفت وجهها فى طرحتها الســوداء ، وسرت رعشـــة فى جسدها كله فبانت مثل كتلة سوداء تنتفض .

(الموقف يوشــك أن يفلت منــه ، وانفعالهــا يهزه ، ويهز فى نفس الوقت الخيوط الدقيقــة التى كان ينســجها على مهل والحقيقة المعلقــة

بهذه الخيوط تظهر وتختفي قبـــل أن تنقطـع ولا سبيل الى الوصول مع هذه المرأة التى بدأت تفتنه قوتها الغامضة ، قوة اليـأس واللامبالاة ، وقد يكون ما تخفيه أكبر مما يبحث عنه ، وبدت له في لحظة جـديرة بالثقة لو استطاع هو أن يكسب ثقتها) .

ـ لماذا تغضبين ؟ سمعت كلام النـاس ولم أسـمع كلامك ، أنا مسـتعد لتصديقك ... قولى الحقيقة .. لماذا لا تثقين بى ؟

ـ ماذا سمعت ؟

قالتها بهدوء غريب دون أن تنظر اليه ..

(وينقلب الموقف فجأة ، ودائما يفقد المبـادرة ، وفى هذه المـرة يصبح الغضب سلاحـا ضـده وقــوة اليأس تسـلب النقود التى يحملها كل ما فيها من قوة ، ولم يعـد أمامه ـ هو الذى كان يظنها ستنهار معترفـة ـ ســوى أن يتحول الى محقق صغير فى قضية تافهة وماذا يفعل اذا أنكرت كل شيء ؟ ستظل محتفظة بسرها داخـل تلك الثياب السوداء ، أما هو فليس أمامه سوى أن يختار أن يكون أبله ، أو مجرد رجل جاء ليثبت لها أنهـا لا تستحق مساعدتـه التى لم يقـدمها أبـدا) .

ـ لا يهمنى سوى مساعدة الأولاد واذا كان ما سمعته صحيحا فقد تكونين فى ظروف لا تسمح لك بمساعدتهم (ثم أضاف فى شبه رجاء) ليتك تثقين بى .

ـ مادا سمعت ؟

أعادت سؤالها بنفس التصميم البارد واللامبالاة ·

وانفجر هو هذه المرة وقد ضاق بهذه اللعبة التى بدأها :

ـ سمعت أن المنهراوى يريد أن يتزوجك وأنه ···

وقاطعته وهى تحدق فيه بعينين جامدتين رغم ما فيهما من بقايا الدموع ·

ـ ادا كان هذا ما سمعته ، فهو صحيح ·

وساد صمت ثقيل لم يجرؤ كلاهما على خدشه ··

(من هذه المرأة ؟ وما الذى تريده ؟ وعن أى شيء تسفر هذه اللعبة ؟ والى متى يظل مترديا فى هوة الصمت التى تبدو وكأنها تقف وحدها على حافتها وبمقدورها أن تمضى فى أى وقت تشاء دون أن تعبا به ، كانت تبدو هناك قوية صامتة لا مبالية ولم تعد أسرارها فقط هى التى تشوقه ، واختفى الأولاد الذين لم يظهروا قط ، وأصبح هذا الكيان الضعيف القوى الملفوف بالسواد هو كل ما يهمه ، هل يمكن أن يتم بينهما تفاهم حقيقى ولم يعد أمامه سوى أن يتوسل) ·

ـ لماذا لا تثقين بى ، كيف تصدقين أن المنهراوى يريد أن يتزوجك حقا انه لص ؟

(واهتزت الكتلة السوداء ، اهتزت بعنف هذه المرة وكأنه أطلق عليها الرصاص وفوجىء هو نفسه بتأثير كلماته التى قالها فى لحظة يأسه

لضعفه فاذا بها تجرح كبرياءها وتفجر ضعفها ويأسها كذلك .. وارتجفت على شفتيها الكلمات) .

ـ لا أصدقه ولا أصدقك ولا أعرف ماذا أصدق ، ماذا تريدون مني ؟ لماذا لا تتركونى فى حالى ؟

وصمتت فجأة ، ثم اندفعت بنفس الحدة وفي عينيها بريق غريب يجذب :

ـ لم أذهب لأحد فى بيته .. أول مرة رأيت فيها المنهراوى كان فى ليلة كهذه .. هو الذى جاء مثلك .. ولكنه نزل من السطح ، كنت نائمة ومعى أمينة ولم أصرخ حتى لا تصحو فزعة .. كان الخوف يشلنى ويجعل منه وحشا ، كانوا قد شعروا بحركته فى بيت مجاور واضطر الى الهرب وظل عندى حتى هدأت الضجة وحين اطمأن قال : لن أنسى جميلك . وطلبت منه ألا يعود .. ولكنه كان يأتى أحيانا فى الليل أو فى النهار ويصر على أن يترك لى نقودا وأوقاتا كان يشترى ثيابا للأولاد ، كنت أصر على الرفض وأرجو أن يدعنى فى حالى ، كان يقول : أولادك محرومين من الأب وأنا محروم من الأولاد .

ـ وتصدقين مثل هذا الكلام .

ـ لم أعرف أبدا ما فى قلوب الناس .. وما يعملونه يحيرنى .. كنت أسمع بأذنى كلامهم الجارح عن تردده على بيتى ، وفى نفس الوقت كنت أجد الناس الميسورين فى البلد قد بدأوا يرسلون الينا حبوبا ونقودا ويقولون : نصيبكم فى الزكاة ، ولم أكن أفهم لماذا أصبح أولادى يستحقون الزكاة ، ولماذا أصبحوا يدفعونها ، وكان المنهراوى يقول لى لا تصدقيهم .. انهم يدفعون لى الاتاوة عن طريقك بعد أن علموا أننى أريد أن أتزوجك ، ولم أكن أعرف

ماذا أصدق ، تأتي أيام يخيل لي فيها أنه طيب القلب ، المنهراوى الذى يخيف البلد كلها ، يقول لى يابنت الناس والله العظيم أنا غلبان مثلك ، وليس لك غيرى ، ويرجونى أن أصدقه ، وتأتى أيام يخيل الى أنه لا يتردد فى قتلى اذا عصيت أمره ، ولا أحد يريد أن يتركنى فى حالى ، ولا أعرف ماذا أفعل .

(ومرة أخرى يسود الصمت الثقيل ولكنه مفعم هذه المرة برؤى أكثر عمقا وبارتجافات الكتلة السوداء وبالحقيقة تزداد تعقيدا كلما ازدادت وضوحا ، وبالمسافة بينه وبين الأولاد توغل فى البعد كلما أوغل فى المسير ، ومهمته تتجاوز مهمة المحسن والقاضى ، والنقود التى كانت تثقل جيبه أصبحت تثقل ضميره) .

وفى حركة لاارادية يخرج النقود من جيبه ليضعها أمامه .. وأمام الكتلة السوداء كانت الكلمات تفقد قدرتها وقيمتها فى موقف تعوزه الثقة ، ويكتنفه الغموض ومنذ جاء لم يفعل شيئا سوى ترديد الكلمات ، والصمت لا يزال ، والكتلة السوداء لا تتحرك ورأسه يوازن بين ما يناسب الموقف وما لا يناسبه من كلمات ، والوقت يمضى دون أن يتغير شيء وكأن كل واحد يخاف من المستقبل بقدر ما يخاف عليه ، ويتلاشى الصمت فجأة وتلتقى العيون عند باب الحجرة الذى يفتح فى هدوء ليدخل رجل طويل نحيل يلبس معطفا أسود فوق جلباب ، لا يتضح لونه ويلتف رأسه بكوفية رمادية ، وتند عن الكتلة السوداء شبه صيحة :

ـ المنهراوى ؟

وفى ضوء المصباح يبدو وجه المنهراوى بملامحه البارزة بعينين جامدتين صغيرتين تبرقان وسط جلد راكد خامد .

ـ سلام عليكم .. لا مؤاخذة .. لم أكن أعرف أن هنا ضيوفا .

ومد المنهراوى يدا نحيلة جافة تلقاها أمين فى يده ، والتقت نظراتهما معا فوق النقود التى لا تزال فى مكانها فوق الحصيرة .

ـ وعليكم السلام ..

قالها أمين وهو يفكر أن من العبث أن يعيد النقود الى جيبه .

ومن جديد خيم الصمت ، وتحركت عزيزة حركات كثيرة لا معنى لها وتنقلت نظراتها بين الرجلين دون أن تجرؤ على فتح فمها بكلمة واحدة .

ـ مرحبا بك يا أمين أفندى .. يظهر أننى جئت فى وقت غير مناسب .. واذا كنتم تحبون أن أخرج ...

ـ لا .. أنا الذى سأخرج .. لقد أمضيت وقتا طويلا هنا .

قالها أمين وعيناه تسبران وجه المنهراوى وحركته .

ـ خذ نقودك يا أمين بيه .

قالتها عزيزة وهى تنقل نظراتها بين الرجلين ، وفوجىء أمين وكان يعتقد أن نقوده قد أفلتت الى الأبد منها ومنه ، ولمن هذا الاختبار الجديد ؟ له أم للمنهراوى ؟ وتردد لحظات عبرت رأسه خلالها صورة الأولاد والأم العجوز وصديقه الذى لا يكف عن التجول وتكلم المنهراوى هذه المرة :

ـ لماذا ترفضين هدايا الناس الكرماء ؟

وحدجته عزيزة بنظرة محنقة :

ـ لا شأن لك بهذا .

وتسربت شجاعتها الى أمين فقال محاولا انقاذ ما يمكن انقاذه :

ـ هذه النقود للأولاد .. ويهمنى أن تصل اليهم .

وقال المنهراوى بلهجة ساخرة :

ـ هذا ما قاله لك والدك الحاج أليس كذلك ؟

ـ وما شأنك بوالدى لا تذكره على لسانك .

ـ لاداعى للغلط يا أمين أفندى .. أنا أعرف والدك أكثر منك .

وارتجفت ملامح عزيزة الدقيقة والتمع فى عينيها بريق خوف أنثوى ، وتجهت الى أمين :

ـ أرجوك أن تخرج الآن يا بيه ونأخذ نقودك .

ثم التفتت الى المنهراوى ضارعة :

ـ هذا غير الناس الذين تعرفهم .. دعه وشأنه .

وفكر أمين الذى لم يجرؤ على أن يمد يده الى النقود وجد أمامه آخر فرصة ليكشف حقيقة المنهراوى لها أو لنفسه ، فقال له :

ـ اذا كنت تريد هذه النقود فخذها وابتعد عن عزيزة .

ولم يفاجأ حين مد المنهراوى يده ودس النقود فى جيبه ، فوجىء فقط بوجه عزيزة يمتقع ، وبها وهى تنشب أصابعها فى يد المنهراوى فى محاولة يائسة لمنعه من أخذ النقود وهى تصرخ :

ماذا نفعل ؟ دع النقود .

ولكن المنهراوى دفعها بيده فى قسوة ، وقال أمين :

ـ النقود لا تهم .. المهم أنك عرفتيه على حقيقته .

وعادت عزيزة مجرد كتلة سوداء تنتفض ، وقال المنهراوى

فى لهجة باردة وهو يسد الطريق بقامته الطويلة النحيلة وعلى شفتيه السوداوين ابتسامة هادئة .

ــ أنا فاهم ان أمين أفندى رجل طيب ·· انه يؤدى مهمة كلفه بها أبوه ·· ولا يعرف أكثر من ذلك ·

ــ أما كفاك أنك أخذت النقود ؟ ماذا تريد من أبى ؟

ــ لست أريد شيئا ، بلغه شكرى لم أتصور أنه سيبعث الأمانة بهذه السرعة ، أما اذا كنت تعرف الموضوع فلا داعى للتمثيل أمام هذه المرأة ·

وفقد أمين أعصابه واستردها فى لحظة ، لم يكن يهمه أن يدافع عن موقفه أمام المنهراوى ، كانت عزيزة هى التى تهمه ، ولم يكن ما يخافه أن براءته سوف تكون على حساب أبيه الذى لايستبعد لحظة أنه يدفع الاتاوات للمنهراوى بل كان يخاف أن يورط أباه فى مأزق يدرك أنه هو لن يخرج منه ، كانت كتلة سوداء تتحرك فى يأس وتنتقل بين الرجلين نظرات مثقلة بالشك وكانت تردد :

ــ لا أصدق ــ لا أفهم ··

وعاجلها المنهراوى بنفس اللهجة الباردة :

ــ ستظلين طول عمرك بلهاء ·· لماذا لم يسألوا عنك الا بعد هذه السنين ؟

وامتلأت الحجرة بظلال الأشياء القليلة المتناثرة ، وكان ضوء المصباح يشحب دون يحس أحد وبدأت العيون تفقد القدرة على الرؤية كما بدأت الأشياء والوجوه تفقد شكلها الحقيقى ولم تمتد يد واحدة لترفع شعلة المصباح ·· وكانت شعلة المصباح تحترق ·· بعد قليل سيصبح كل شىء بلون الدخان وفى بقايا الضوء

الخافت المحترق تسلل أمين جهة الباب دون أن يعترض طريقه أحد أو كلمة ، وفى رأسه المضطرب صورة أبيه الحاج شعبان تطل دون ملامح ، وتتكلم بلا صوت ولم يكن فى رأسه ولا فى الحجرة مكان للأولاد

وينتهى الجزء الثانى من الزيارة ٠



فى نفس الليلة وفى ضوء مصباح قوى مدلى من سطح الحجرة الواسعة ومحلى بتهاويل نحاسية وفى بيت أمين وقف أمام أبيه الغارق فى عباءة صوفية ثمينة يشبك أصابعه ، ويفرقعها فى عصبية ويتكلم بصوت حاد :

ـ كنت أقول لنفسى غدا يكبر ، غدا يفهم الناس والدنيا . ولكنك تأبي الا أن تجعل من نفسك أضحوكة من يستحق ومن لا يستحق ٠

ـ أنت الذى جعلتنى أضحوكة ٠

ـ لا جدوى من الكلام معك ، تريد أن تساعد أولاد صديقك ؟ ٠٠ ابتعد عنهم هذه أعظم مساعدة وأنت تلميذ قلت لك ابتعد عن (حسين) ليس مثلك ولست مثله ، أنت الذى تسببت فى كل ما جرى له ، وجعلته يتوهم أن كل شىء سهل وممكن ، شجعته على أن يهمل عمله الذى يعيش منه ويذاكر ، ويصبح أفنديا مثلك ، وأنت تعرف الآن ماذا أصبح ؟ ٠٠ والآن بعد أن ظننت أنك كبرت وفهمت الدنيا تاتى وترمى بنقودك الى لص ٠

ـ وأنت ألا ترمى له بالنقود ؟

ـ يا أبله المنهراوى مثل كلب يخاف ، ويرضى بالقليل

ولا يكف عن الطلب فكيف تصدق أننى كنت سأعطيه مثل هذا المبلغ ؟ ماذا يعلمونك ؟

وصمت أمين هذه المرة ، بدت له مناقشة أبيه أمرا عقيما ، وكذلك فكرة البحث عن الأولاد ، أو زيارة الأم العجوز التى تعيش مع أمينة وامتد العقم الى كل فكرة خطرت فى باله فى تلك الليلة التى لم يذق طعم النوم فيها ، فكرة واحدة بدت له معقولة ورائعة فكرة البحث عن صديقه الذى لا يكف عن التجوال ٠

وفى الليلة التالية وفى نفس الوقت الذى هبط فيه الى القرية ،كان يغادرها ولم يكن يسرع الخطى هذه المرة ، كان يمشى فى بطء مؤملا أن يلتقى بشبح صديقه ، لم يعد يخافه بدا له شبحا طيبا وحكيما فى نفس الوقت ، ولن تصل به الخسة الى أن يتخلى عنه ، وحين أحس بذراعه تتسلل تحت ذراعه لم يقف شعر رأسه ، مضى معه الى الطريق الزراعى ولم يكن ثمة رعب يجثم بين الحقول ، وسارا معا ، كانت الحقول خضراء جميلة ، والصمت عميق ونظيف٠

ــ كنت واثقا من أنك ستجىء ٠

قالاها معا ، ولم يسأل أحدهما ماذا تعنى ؟

كانا متفاهمين ، وكان كل شىء واضحا ، رغم أن الظلام وقتها كان يغمر الكون كله ٠

وتنتهى الزيارة ٠

الصواب والخطأ

فلما كانت الليلة الثانية بعد الألف ، لمحت « شهرزاد » فى وجه الملك « شهريار » انطباعة الضجر القديم تولد فى ظلال أهدابه المتثاقلة ، وفى التجاعيد التى تتداعى مع الملل واليأس ، والتى بدت فى تلك الليلة وكأنها خطوط تشير الى اقتراب النهاية التى ظلت شهرزاد تطاردها ألف ليلة وليلة ، وآنذاك وقف يأسها وجها لوجه أمام يأس الملك فى مناجزة سافرة ، وكأن العالم لا يحتمل غير نوع واحد من اليأس !

وجاء صوتها المخملى الوثير يغازل حواس الملك ، ويستقطب حوله الخطوط التى كانت تلف الوجه فيما يشبه الضمادة ، وكأن هذا الصوت لا يخرج من روح حزينة موجعة .

وقالت وهى ترخى ساقيها الجميلتين مع تموجات صوتها وتموجات عطرها الذى كانت تطلق اساره حركات يديها وحركات ثوبها .

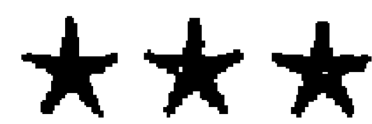


« يحكى يا مولاى أنه كان يعيش فى بلاد الهند ومنذ زمن بعيد ملك ذائع الصيت اسمه ـ رادا ـ وكان يحكم ولاية كردستان وكانت الطريقة التى يختـار بها الملك وزراءه ومعـاونيه هى السبب فى ذيوع صيته ، فى تلك الأزمنة الغـابرة ، ذلك أنه كان يعقد كل خمسة أعوام امتحانا عسيرا يبيح لمن يشـاء من رعيته الدخول فيه ، ولم يكن هذا الامتحان سوى مسألة حساب يحتاج حلها الى درجة عالية من الذكاء والمهارة ، وغالبا لم يكن ينجح فى حلها سوى عدد قليل جدا من أفراد الشعب الذى كان يقبل على هذا الامتحان فى شبه مهرجان ، ولم يحدث أن زاد عدد الناجحين عن العدد الذى يحتاجه الملك لمعاونته فى شئون الحكم ، ولما كان الملك لا يحتاج فقط الى أناس ذوى ذكاء رفيع بل ضمائر أيضا ، فقد كان يضمن امتحانه ذاك وسيلة فعالة لاختبار الضمير · ذلك أنه كان يضع نتيجة الحل الصحيح للمسألة فى آخر صفحة فى كراس الاجابة ليكون بمقـدور كل ممتحن أن يقـارن بين نتيجة حله والنتيجة الصحيحة فور انتهائه من الحل ، فاذا تحقق من نجاحه ، هنأ نفسه بالمنصب الجديد ، وأعطى نفسه درجة النجاح ، والذين يكتشفون خطأهم عليهم أن يعاودوا المحاولة فى الوقت المحدد ، حتى اذا لم يوفقوا ، خرجوا وهم أكثر الناس اقتناعـا بعدم صلاحيتهم بل بصلاحية من نجحوا فيما فشلوا هم فيه !

وبهذه الطريقة ساد السلام والرخاء ولايـة ـ كردستان ـ سنين طويلة ولولا تلك المناوشات والغارات التى تقوم بها ولاية ـ كسبتان ـ المجاورة لما حـدث ما يعـكر صفو الحياة السعيدة المستقرة التى اشتهرت بها ـ كردستان ـ !

ولم يحدث خلال هذه الحقبة من التاريخ أن أثبتت طريقـة الملك ـ رادا ـ فى اختيار معاونيه فشلها فى تسليم أمور البـلاد

لأنجب أبنائها وأكثرهم كفاءة واخلاصا . وتروى أساطير ـ كردستان ـ أنه حدث فى مرات قليلة أن حاول بعض ضعاف النفوس وناقصى الكفاءة أن ـ يستغلوا الثقة التى أعطاها الملك للممتحنين حتى يحكموا على أنفسهم بأنفسهم ، والتى كانت تدفعه ـ فيما تروى الأساطير نفسها ـ الى عدم مراجعة أوراق الامتحان بنفسه ، دفعت هذه الثقة بعضهم الى ادعاء أنهم توصلوا الى الحل الصحيح ، فكانت النتيجة أن هؤلاء المدعين كانوا يرتجفون هلعا فى أول مرة ينفردون فيها بالملك ـ رادا ـ حيث كان من تقاليده ، أن ينفرد بالناجحين واحدا واحدا عقب الحفل العظيم الذى يقيمه لهم فى قصره المنيف فوق ربوة الشمس المشرقة ، ليتداول معهم فى شئون الحكم . كانت عينا الملك النفاذتان من خلف القناع الملكى الذى يغطى وجهه دائما ، وفكره العظيم الذى لا يغطيه أى قناع ، كانا يكتشفان الخداع الذى تورطوا فيه ودون أن يرجع الى أوراق امتحانهم وآنذاك ، كان لا يوقع بهم أى عقاب بل يتركهم لضمائرهم التى تقوم بالمهمة خير قيام ويقضى هؤلاء بقية حياتهم حيارى هائمين فى انحاء البلاد يتكففون الناس الرحمة والخبز ، ويقدمون لهم الدليل الحى على أن الكذب والخداع لا يجديان أبدا .



ولمحت شهرزاد وهى تقارب بين ذراعيها وتنيمهما فوق ساقيها الممدودتين فى استرخاء وحرية لا يتوافران لها الا وهى تحكى قصصها للملك ، لمحت بريق الاهتمام يضىء وجه الملك ويجعل من عينيه أحلى شمعتين فى البهو المزدان بالشموع :

ووشت نبرات صوتها باحساس المنتصر وهى تواصل حكايتها قائلة : وعاشت ولاية كردستان بين ولايات الهند كأسطورة للسلام والازدهار حتى ظهر فى احدى مدنها فتى نجيب بارع اسمه ـ ساراج ـ ولم يبق لدى الناس شك فى أن ـ ساراج ـ الذى كان

أحد أعمامه وزيرا للملك واستشهد فى احدى المعارك ضد ـ كسبتان ـ سوف يجتاز بنجاح الامتحان الصعب الذى يعقده الملك حين يحل موعده ، ويأخذ مكان عمه !

وفى الموعد المحدد ، دخل ساراج ضمن حشود الشعب الامتحان الذى يبرز الصفوة المختارة من أهل البلاد ، وراح يعمل ذكاءه النفاذ فى حل المسألة التى لم تكن صعبة بالنسبة لمواهبه ولكنه فوجىء بأن النتيجة التى وصل اليها ، لم تكن مطابقة للحل الصحيح فى آخر الكراس ، ولم يرتبك ـ ساراج ـ فقد كان عظيم الثقة بمواهبه ، وبأنه لابد وأن يصل الى النتيجة الصحيحة مادام يتبع المبادىء الصحيحة وراح يراجع الحل فى هدوء متوقعا أن يكون ثمة خطأ فى نقل بعض الأرقام أو الرموز ولكن تلك المراجعة لم تؤكد له سوى شيئين ، أولا أنه لم يخطىء فى نقل الأرقام والرموز ولم يخطىء فى اتباع الطرق الصحيحة وثانيا أنه رغم هذا كله لم يصل الى الحل الصحيح الذى يسجله الملك رادا بنفسه فى ذيل الكراس .

ولم يفقد ساراج العظيم ثقته فى نفسه ، رغم الغيظ الذى استولى عليه ، والذى كان يتزايد مع مرور الوقت وكان السؤال الذى يقلقه هل سيصل أحد غيره الى الحل الصحيح ، أيكون هناك من هو أكثر منه كفاءة ومقدرة ، هو الذى أكدت كل التجارب والمواقف التى خاضها عبقريته النادرة ؟ أم يصبح هذا الامتحان فرصة لتعلن ـ كردستان ـ افلاسها من الرجال العظام ؟

ولم يكن هذا الا بعض همه ، أما همه الأكبر ، فقد كانت رغبته المجنونة فى أن يعرف مصدر الخطأ فى الحلول التى جربها ! وفى اللحظات الأخيرة كان تفكيره ينحصر فى السؤال :

هل يمكن أن يدله على خطئه أحد الذين يصلون الى الحل الصواب ؟

. ولكن أحـدا من هؤلاء لن يكلف نفسه مشقة الاهتمام بأمره بل سينظر اليه كواحد من الملايين الذين لا يستحقون سوى تفضله بسياسة أمورهم ، ودفعه هذا الموقف ـ لا الرغبة فى الخداع ـ الى أن يدعى أنه وصل الى الحل الصواب ، ويعطى نفسه الدرجة النهائية اذا كان هذا هو السبيل الوحيد لمقابلة الملك ، لمقابلة أقدر الناس على معرفة الصواب والخطأ ، ليقول له :

ـ يا مولاى أين الخطأ فيما وضـعت من حلول ؟ وكيف لم أصل للنتيجة التى وضعتها أنت ؟

وكانت أولى المفاجآت التى واجهته بعد الامتحان ، أن عـلم أن هناك عشرين شابـا ممن أدوا الامتحان قد وصلوا الى الحـل الصواب ولكنه فوجىء بأنهم جميعا ذوو وجوه لا تفصح عن شيء ، الخوف الحقيقى ، الذى كان يتعاظم بمرور الوقت واقتراب موعد الحفل المهيب الذى يلتقى فيـه الملك بمن نجحـوا فى الامتحان ، وحاول فى المرات القليلة التى التقى فيهـا بزملائه الناجحين ، أن يسبر أغوارهم ، أن يعرف الطريقـة التى وصلوا بها الى الحـل **والصواب ولكنه فوجىء بأنهم جميعا ذوو وجوه لا تفصح عن شيء ،** وبأن قاموسهم اللغوى لا يعرف سـقطات اللسـان ولا يقول شيئا لا يحبون قوله !

وجاء موعد الحفل ، وغاص قلبه فى نفس اللحظة التى كانت قدماه تغوصـان فى السجاد الفـاخر الذى يغطى طرقات القصر ، وأروقته ، واسترد شجاعته بعد أول نخب شربه ، وحين أطل الملك عليهم من فوق عرشه ، اعتقد أن لا أحـد سـواه يعنيه الملك بتلك الابتسـامة الخفيفة التى ارتسمت على شفتيه وحدهما حيث كانت ملامح وجهـه تختفى خلف القنـاع الملكى الذى لا يرفعـه ـ راذا الا حين يجلس مع أصفيائه ـ كما يزعمون ـ وحين ألقى خطبته ،

جاءت كلها عن الضمير الذى يعتقد ـ رادا ـ أنه موهبة كالجمال والذكاء ٠

وأنه لاغنى عنه لأى انسان كى يصبح جديرا بانسانيته أما بالنسبة للحاكم فهو كل شيء ٠

هل يعنى أحدا سواه بهذا الكلام ولكنه لم يكذب من أجل الوصول الى المنصب ، بل من أجل المعرفة وهو يستحقها مادام يتطلع اليها ، ويجد فى نفسه القدرة على تمثلها وهى بدورها تستحق شرف المغامرة ، فلماذا يخاف ، ومادام محتفظا بعقله فى رأسه فسيعرف كيف يناقش الملك حين تأتى لحظة اللقاء ، وشرب كأسا ثانية وثالثة ، وانقشعت المخاوف والأوهام وكانت ثريات القصر تضيء داخل رأسه ، وأحس كأنه مقبل على مغامرة غرامية لا على تجربة قد تكلفه حياته وحين يأتى دوره للانفراد بالملك يجب أن يبدأ بالاعتراف له بكل شيء ولا يتركه يقوم بدور المكتشف !

وحلت اللحظة الحاسمة ، وأمام باب الحجرة الخاصة التى ينفرد فيها الملك بمعاونيه واحدا واحدا ، تراجع الحارسان اللذان رافقاه اليها وفوجيء بالملك ـ رادا ـ يقابله فى منتصف الحجرة الرحيبة عطوفا رقيقا مبتسما وكأنه بلا قناع قائلا فى نفس اللحظة :

ـ أهلا ساراج ، سمعت عنك قبل أن أراك !

ودق قلبه بعنف ، وانحنى أمام الملك فى خشوع ، وقبل أن يرفع رأسه أو يفتح فمه ، قال له ـ رادا ـ وهو يمد اليه يده ، ويقتاده الى جواره حيث جلس ٠

ـ كان عمك من خير رجالى وأمل أن تكون مثله ٠

ولم يعد لديه شك فيما يشاع من أن الملك لا يراجع أوراق

الامتحان مكتفيا بقراءة الدرجة التى يضعها الممتحن بنفسه هل يصمت أم يعترف ؟ وأسرعت دقات قلبه وهو يقول :

ـ آمل يا مولاى أن أكون عند حسن ظنك !

وفاجأه رد الملك :

ـ كيف يا ـ ساراج ـ وقد بدأت هذه البداية ؟

وتلعثم ساراج قائلا :

ـ أود يا مولاى ·· أن أشرح لك ·

ـ لا أريد شرحا ·

هكذا قاطعه الملك بلهجة تتغير لحظة فلحظة ـ ولم يعد يبصر وجه الملك أو قامته كان الملك قد تحول الى مجرد قبضة تلتف حول معصمه ، وصوته كأنه ينبعث من جميع الأركان · أنا أعرف الكثير عن كفاءتك ، وخدمات عمك للولاية جديرة ، بأن تغفر لك ما تورطت فيه من خطأ ، ولست ممن ينسون جميل من مضوا من معاونى وسأمنحك فرصة جديدة لاثبات كفاءتك حتى اذا بدا لى أن سوء حظ لازمك فى الامتحان فسأنسى كل شىء عن خطئك ولا تظن يابنى أن الرحمة والعفو ليستا من صفاتى ·

ووقف الملك ـ رادا ـ مؤذنا بانتهاء المقابلة ، وعادت للوجه المقنع ملامحه وابتسامته الرقيقة الشاحبة وفتح الباب ورافقه حتى خارج القصر حارسان ·

وكانت الفرصة التى اعطاها له الملك ـ رادا ـ هى وزارة الدفاع التى كان يدير شئونها عمه ، ورأى ساراج بعد تفكير عميق أن من الحماقة أن يترك هذه الفرصة التى يمكن أن يؤكد بها كفاءته ، ويفسد الأمور باصراره عن البحث وراء الصواب والخطأ

مادام الحاكم العظيم قد أبدى مثل هذا التسامح ، طوق عنقه بهذا الفضـــل ! فلم الاصرار على شيء قد ينتهي به الى غـير ما يحب أو يتوقع • أما هذه الفرصة فلو نجح فيها ووضع حدا لاعتداءات ـ كسبتان ـ على بلاده فسيكون بطــلا ، ولو مات سيكون شهيدا لا مجرد كذاب ومخادع لا يجد الناس فى حياته غير عظة يقدمونها لأولادهم ، وفى لحظة الاختيار تلك عبرت رأسه آلاف الصور لآلاف الوجوه لأهل مدينته وأهله وهى جميعها تصنع اكليلا لوجه حبيبته ـ كامالا ـ فلم يتردد ؟

وارتشفت شهر زاد جرعة من عصير الورد وهى تواصـــل حكايتها قائلة : زراح ـ ساراج ـ يا مولاى بعد أن تقلد منصـبه يجمع المعلومات عن ولاية ـ كســبتان ـ التى كانت تتحرش بين وقت وآخر ـ بكردستان ـ فعرف أنها ولاية محرومة من الازدهار :الاستقرار وتحاول أن تنال بالسلب والنهب ما تعجز عن نيله بالجد والعمل والنظام ، والمعروف أن مثل هؤلاء المغامرين الذين بحركهم اليأس ويجمعهم الخوف يكونون أشد بأسا فى القتال من لفلاحين الطيبين من أهل كردستان ، وبدراسة جغرافية كسبتان ، رف أنها بلاد جافة محرومة من الأنهار العديدة التى تمر بكردستان لا عمل لأهل كسبتان سوى صيد الوحوش ونهب القوافل المسافرة الغارات على الحـدود المجاورة لها ، وفكر طويــلا وهو ينظر فى لخرائط التى تصـــور حدود الولايتين ويجد أن النهر الأحمر يمر لى مقربة من حدود كسبتان وهبطت عليه فكرة جريئة فلو أنه ىق فرعا من النهر الأحمر الذى تتدفق مياهه الغزيرة فى البحر حوله ناحية كسبتان لتساقط من فوق جبالها الصخرية وشق له جرى فيها ، ولتحول أهلها بدورهم من أعمال السلب والنهب الى لاحـة الأرض والاســتقرار فيها والحرص على أن يسود الســلام ددهم وبلاد غيرهم •

ولم يكد يطرح فكرته على مجلس الوزراء برئاسة ـ رادا ـ حتى ووجهت فى بداية الأمر بمعارضة عنيفة ، وكانت هذه المعارضة فرصة العمر ليثبت ساراج براعته فى المناقشة حين يقنع الجميع بفكرته التى بدت لهم ضربا من الجنون خاصة حين أفهمهم أن جيش بلاده من الفلاحين هو الذى سيقوم بهذا التحويل ·

واحتدمت المناقشة :

ـ كيف نعطى أعداءنا ما نمتلك من موارد ؟

ـ نحن لا نمتلك الا ما نستغله فقط من مياه النهر والباقى يضيع فى البحر ، فلم لا نتركه لهم ؟

ـ انهم أعداؤنا ، وهم لا يستحقون هذا الخير ·

·· هكذا قال أحد الوزراء ·

وأكمل آخر :

ـ لو كانوا يستحقونه لأجرى الله فى بلادهم أنهارا ··

ـ الجوع والفقر يحولهم الى أعداء وسفاحين ، ونحن نريد أن نحولهم الى أصدقاء ومزارعين ·

ولمح فى عينى ـ رادا ـ لمعة تأييد لفكرته ، ولكنه كان كدأبه صامتا لا يقول رأيه الا فى نهاية النقاش فلم يتردد ـ ساراج ـ فى مقاومة معارضيه ، وقال وزير ثالث :

ـ لماذا لا يأتون هم ويشقون هذا الفرع ؟

ـ هم لا يدركون أننا نسمح لهم بذلك ، كما أنهم لا يدركون قيمة الزراعة ، ولن نخسر فى هذا سوى قطرات من العرق بينما نخسر فى الحرب أرواحنا ·

ـ ماداموا لا يدركون قيمة الزراعة فقد يظنون أننا نريد أن نغرق بلادهم وهكذا لا تنتهى الحرب !

ـ البلاد التى لا تعرف الزراعة لاتفهم معنى الغرق ، والبلاد التى تمسك بالفأس لا تحب أن تمسك بالسلاح !

ـ أنت المسئول يا ساراج !!

ـ نعم أنا المسئول ٠

وتثنت شهرزاد وهى تشم روائح البخور المتصاعد فى أرجاء البهو وترمق شهريار بنظرة دلال آسره وقالت موجهة الخطاب اليه :

ـ وهل كان ـ ساراج ـ يحلم بأكثر من أن يكون مسئولا عن مثل هذا ٠٠ المشروع الكبير ؟ وكما واجه المعارضة على مستوى الوزراء واجهها على مستوى الشعب الذى كان رغم ثقته فى حكامه يلقى بين آن وآخر بسؤال هنا وبسؤال هناك ٠ ونزل الى صفوف العاملين يشرح لهم فكرته ، ويضرب معهم بفأسه ، وكما اقتنع الوزراء اقتنع الشعب ، وفى البداية لم يفهم أهل ـ كسبتان ـ شيئا مما يحدث بجوارهم ، وحين رأوا شلال المياه يتدفق فى أرضهم شاقا لنفسه مجرى باعثا الخضرة هنا وهناك ، ودهشوا وارتووا ، وغسلوا أجسادهم وملابسهم وناموا فى ظلال الأشجار التى نمت وحدها ، ثم صنعوا من أخشابها بيوتا وفئوسا وزرعوا ضفاف النهر وفهم عقلاؤهم الأمر كله حين جرى الحديث بين البلاد بما فعله ساراج العظيم ! فحملوا الهدايا الى ـ كردستان ـ وعقدوا معها المحالفات وارتفع نجم ـ ساراج ـ عاليا ، وخرست الأصوات التى كانت تشكك فى جدوى مشروعه داخل ـ كردستان ـ وخرست أصوات أخرى فى ـ كسبتان ـ بدأت بالتشكيك فى نوايا ـ كردستان ـ ثم تطورت الى المطالبة بامتلاك مصادر النهر بعد أن وضحت قيمته وجدواه !

وخرست كل هذه الأصوات يا مولاى فقد كان السلام والرخاء يترعرعان مع الحقول التى غطت حدود الدولتين وكادت تمحوها ٠

وكان ـ ساراج ـ فى تلك الأثنــاء التى اســتغرقت أعواما وأعواما قد تزوج وأنجب ثلاثة أطفال ، وارتفعت تماثيله فى الميادين، وكان جديرا بأن يصــبح أسـعد رجل فى ولاية ـ كردســتان ـ وأقرب المقربين ٠ للملك ـ رادا ـ لولا أن فكرة ملعونة تيقظت فى أعماقه وراحت تفسد نومـه ويقظتـه ، وتكاد تحرمه لـذة الطعام والشراب ٠

ذلك أنه عاد يفكر فى أمر كاد ينساه تماما هو الحل الصواب للمسألة ومع أن موضوع كفاءتـه لم يعد محل شك من أحـد ، ولو أراد الملك ـ رادا ـ نفســة أن يعلن الحقيقة للناس فى أمر امتحان ساراج ما استمع اليه أحد !

مع هذا كله فقد عاد هذا الأمر ينغص عليه سـعادته ذلك أن حبه للمعرفة كان لا يقف عند حـد ، وكانت ثقته فى أن صـحة المبادىء لابد أن تؤدى الى صـحة النتائج لاتقف عند حد أيضـا ، وأصبح كل همه أن يعرف الخطأ الذى وقع فيه حتى أنه لم يصل الى الحل والصواب ٠

وكم حاول فى لباقة آن يعيد نبش هذا الموضــوع مع زملائه الوزراء ، ولكنهم كانوا يضيقون ذرعا بهذه المحاولة وكأنه يدعوهم لأن ينبشوا قبور آبائهم ٠

وكان هذا يزيــد من لهفته على معرفة هذا اللغــز ، وكأنمــا أصبح بشقيه أن يكون مدينا بما هو فيه لعطف الملك وسماحتــه لا لكفاءته هو ٠

وذات ليلة ، وكان يجلس وحده مع الملك يشربان ويسمران ، ويتناجيان : فأجاه ـ رادا ـ بقوله :

ـ أود يا ساراج أن أكافئك على أعمالك المجيدة ، وأتمنى أن تطلب أى شيء لأحققه لك !

وانتهز ساراج الفرصة فقال :

ـ لى مطلب واحد بسيط يا مولاى ·

ـ ما هـو ؟

ـ انك يا مولاى لم تترك لى شيئا مما يتمناه النـاس ولكن ثمة شيء بسيط لا أظن ·· وقاطعه الملك وهو يعتدل فى مجلسه :

ـ ما هو ؟ قله يا ساراج ولا تتردد ·

ـ تذكر يـا مولاى أننى لم اهتد الى الحـل والصـواب فى الامتحان وانه لولا عطفك وتسامحك ··

وقاطعه الملك بنبرة نمت عن عدم ارتياحه :

ـ هذا أمر قد انتهى تماما ، وثق أننى لا أذكر الآن سـوى كفاءتك العظيمة التى برهنت عليها ·

ـ أعرف يا مولاى ، وأعرف أننى مدين بكل شيء لتسامحك ولكن حبى للمعرفة يجعلنى الآن لا أتمنى غير أن أتعلم هذا الذى فاتنى ·

ـ لست أفهم معنى اصرارك هذا ، وفى الوقت الذى يؤمن فيه كل الناس بكفاءتك ، تبدو أنت وكأن الشك يساورك فيها !

وكانت لهجـة الملك تتغير الى الحـد الذى جعـل ـ ساراج ـ يتشبث برغبته فى عناد مجنون فعاد يقول :

ـ ليس الأمـر أمر كفـاءة يا مولاى ولكن حب المعـرفة هو الفضيلة التى تميز بنى الانسان حتى ولـو لـم تخـدم غرضـا أو انسانا ٠

وتغيرت سحنة الملك مع تغيير لهجته حتى كأنه بلا قناع وقال :

ـ لست أعتقد أن هنـاك معرفة لاتخدم غرضـا وأولى بك يا ساراج أن توضح أغراضك ٠

ـ أقسم يا مولاى أنه لا غرض لى سوى مجرد المعرفة ٠

ـ أما أن تكون أبله يا ساراج وأما أنك تنطوى على أخطر النوايا ، فأى الرجلين أنت ؟

ـ أنا يا مولاى أسير عفوك ، وتلميذ فى مدرسـة حكمتك ولست أفهم سر غضبك ٠

ـ هل أنت مصر على مطلبك يا ساراج ٠

ـ اذا أقنعنى مولاى بأنه لا حق لى فى مثـل هذا المطـلب عدلت عنه ٠

ـ لن أقنعك بشىء من هذا ولكننى فقط أحذرك بأنك قد تدفع حياتك ثمنا لهذا الاصرار ولازلت مستعدا لتجاهل الأمر لو تناسيت هذا الموضوع تماما ٠

ـ منذ منحنى الله حياتى لم أر فيها غير مجرد وسيلة للمعرفة التى نقترب بواسطتها من روح الله ٠

وقاطعه الملك فى ضجر :

ـ أنت مصر اذن ٠٠ (ثم قال كمن يخاطب نفسه) ليست هذه أول مرة أكتشف فيها حمق انسان كنت أظنه أعقل الناس ٠

وترك الملك مجلسه ، وعاد من حجرة جانبية بكراس قدمه لساراج قائلا :

ـ أليست هذه أوراقك ؟

ـ نعم ٠

ـ وهذا خطك ٠

ـ نعم ٠

ـ تأملها جيدا ٠

وتأملهـا سـاراج ، وعبثا حاول أن يكتشف خطأ فعاد يسـأل الملك :

ـ أين الخطأ يا مـولاى ، لازلت عاجزا عن تفهمه ٠

ـ لن تجده أبدا يا ساراج ٠

ـ لماذا ؟

ـ لأنك لم تخطيء يا بنى !

وذهل ساراج ، وأشار بأصبع مرتعشة الى الحل الصـواب الذى يسجله ـ رادا ـ فى نهاية الكراس :

ـ وهذا الحل لماذا يختلف عن حلولى ؟

ـ لأننى لم أضـع فى أية مرة اجابة واحدة صحيحة فى ذيل الكراس ٠

ـ لماذا ؟

كانت شفتا ساراج ترتعشان بالسؤال :

ـ لأننى أحب أن ألتقى هنا فى قصرى بأناس تتوافـر فيهم قبل كل شيء صـفة واحـدة هامـة ، ليست هى الـذكاء وحـده ولا الضمير فقط ، بل الثقة العظيمة بالنفس ، أنا فى حاجة الى هذه الصفة فى معاونى أحبها وأخشـاها ، وأعرف أنه لا يجرؤ على المجيء

الى هنا الا عدد قليل من الرجال ، لم يرتعبوا لأنهم لم يصلوا الى الحل الصحيح ، بل قدموا من فرط ثقتهم لمناقشتى الحساب ، هكذا جئت أنت ، وهكذا جاءوا كلهم ، وأمام اغراء المنصب والفرصة والعفو ! ينسى الجميع ما جاءوا من أجله ٠

وقاطعه ساراج وقد تسرب الغيظ الى صوته وملامحه :

ـ ولتبق أنت وحدك مقياس الصواب والخطأ وليبق عفوك قبل أعمالهم مصدر الأمان والثقة !

واستطرد الملك فى نبرة يشوبها مرح غريب :

ـ نعم فأنا أحب أن أوجه ثقتهم الى الأعمال العظيمة على أن أظل محتفظا بمقودها فى يدى فالانسان الذى ينقصه شىء ، أو يخاف من شىء هو الذى يتحرك لينجز الأعمال العظيمة ٠

كان ساراج يتطلع الى الملك فى ذهول وهو يتابع انفجاره :

ـ ولم تخطىء سياستى أبدا ، فهم لفرط حرصهم لا يتصارحون ولفرط خوفهم لا يتلفتون مرة الى الوراء !

ويأتى يوم يتعلمون فيه الدرس الذى لم تحاول أنت أيها الأبله أن تتعلمه ؟ أو لعلك لا تريد ذلك ٠

وتطلع ساراج دون أن ينطق بكلمة :

ـ يأتى يوم ينسون فيه مسألة الصواب والخطأ ، ليس بسبب ضعف ذاكرتهم بل لأنهم من خلال تجربة الحكم يدركون أن هاتين الكلمتين لا تعنيان شيئا ـ أيها الأبله ـ وأن مسألة الامتحان لم تكن الامجرد لعبة لارضاء الناس ، وماذا أفعل أنا مادام الناس لفرط بلاهتهم يؤمنون بأن ثمة مقاييس مسبقة للصواب والخطأ ،

ولفرط عجزهم يريدون أن يطمئنوا الى أن حكاءهم قادرون على تمييز تلك المقاييس ·

ـ ولكنى أنا يا مولاى ولست أظنك تجرؤ على أن تقول عنى أبله أمام الناس أومن بالصواب والخطأ ·· ودعنى أسألك ـ ولتنس أن الحديث بيننا تجاوز حد اللياقة هل تسمى ما فعلته مع كسبتان خطأ أو صوابا ؟

ـ لا أسميه خطأ أو صوابا ، لأننى لا أجد معنى لهاتين الكلمتين ، انه مجرد زعم نجحت فى تحقيقه ، وهذا كل ما هناك وفى عالم المزاعم لا أحفل الا بالنتائج ··

ـ كانت نظراتك تؤيدنى أيها الملك هل نسيت ذلك ؟

ـ لو نجح معارضوك لتذكروا أن نظراتى كانت تؤيدهم !

ـ وهل كانوا سينجحون الا فى اشعال نار الحرب ؟

ـ وهل تعتقد أن الحرب لن تعود أيها الأبله ؟

ـ لن تعود مادامت ـ كردستان ـ تتبع سياستى ·

ـ أيها المسكين الطيب ، مالم أقتلك أنا ستموت من تلقاء نفسك ويولد فى ـ كسبتان ـ جيل جديد يعتقد أن له حقا فى مصادر النهر ، ويجهل أو يتجاهل كل ما فعلته أنت ، ووقتها من يدرى ؟ فقد يحطم الجيل الجديد فى كردستان ذاتها تماثيلك فوق شاهد قبرك ·· أما اذا ساء حظك ولم تمت حتى ذاك الحين فسوف يحطمونها على رأسك ·

ـ ولكن الأمور قد لا تجرى على هذا النحو أيها الملك ·

ـ نعم ، وهذا يؤيد أنك لا تستطيع أن تجزم بشىء يتعلق

بالمستقبل ، فلماذا أيها الأبله تصر على فكرة الصواب والخطأ ؟ وليست فى جوهرها سوى محاولة متعسفة لاخضاع المستقبل لقواعد الماضى ·

ـ لا أحبك أيها الملك ولاأفهمك ولا أحب مستقبل حياة لم أجد فى ماضيها شيئا ثابتا أقف عليه ثم التفت ساراج الى الملك وكأنه يراه لأول مرة قائلا فى دهشة : ·· أيها الملك ـ رادا ـ من أنت ؟

ـ أيها الطموح فى غباء ، لقد دفعتنى الى الثوثرة معك طويلا بينما تقاليدنا الملكية تجعلنى لا أفتش فى أوراق وزرائى وبدورهم لا يفتشون فى أوراقى ويسود علاقاتنا صمت ملهم ، ولكن هذه ليست أول مرة ألتقى فيها بأحمق مثلك يعتقد انه يوجد فى هذا العالم أشياء غير ما يفعل الانسان ولكنى أعرف دائما ما يقنع أمثالك ·

ثم جرد ـ رادا ـ سيفا وأعطى ـ ساراج ـ آخر وقال :

ـ هيا يا صديقى الطيب نتحاور بالسيف فهذه هى الطريقة المثلى لكى يقنع أحدنا الآخر ·

ـ لا أريد أن أقتلك أيها الملك ، كنت أتمنى أن أفهمك ·

ـ أيها الأبله ، وهل فهمت كل شيء ، ولم يبق أمامك غيرى ·

ـ الق القناع عن وجهك اذا كنت تريدنى أن أقاتلك ·

ـ لا ، ولكنك سترى وجهى اذا قتلتنى لأنك ستكون فى حاجة الى هذا القناع حتى لا ترى وجهك آنذاك ·

وتثاءبت شهرزاد وهى تقول بصوت يخالجه النعاس ولم يعرف أحد يا مولاى نتائج هذه المبارزة ، وحين حمل الجند جثة

القتيل ، كان ثمة ـ رادا ـ يخفى وجهه خلف قناع وكان الآخر مجرد جثة ، وفيما يروى الرواة ان كل حاكم حكم تلك البلاد كان يقيم امتحانا كل خمسة أعوام لاختيار معاونيه ، لأن هذه الطريقة فيما زعموا لاتزال أفضل الطرق لكى يسود الاطمئنان فى كردستان وفى غيرها من البلدان ·

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح ··

مايو ١٩٦٧

الأعــرج

فجأة فقدت القــرية هدوءها ، لم يعــد الزمن فيها يتبع ظل الشمس ، برز زمن آخر ، له صوت المارشات العسكرية ، واللحن المميز لنشرات الأخبار ، وأرقام البيانات الحربية !

فى الأيــدى وعلى المصــاطب وفى الحقــول ، كانت أجهــزة الترانزستور تستقطب العيون والآذان ، وتجمع القرية فى دوائر أقل حجما وأكثر ضجيجا !!

وفجأة أيضا كف الناس عن أن يحصروا اهتمامهم بالأجهزة الصغيرة الصاخبة التى بدأت وانتهت فجأة كذلك ، وبرزت مصادر أخرى للأبناء ، فبعض الجنود العــائدين من الجبهــة كانوا يمرون بقراهم لساعات قليــلة ، وهم فى طريقهــم الى مراكزهم ، وكانت القرية تملك من هؤلاء عددا كبيرا ، خمسين من شاهدى العيان ، فأى شيء يشفى الغليل أفضل من هؤلاء ؟

ويوما بعد يوم كان يمر بالقــرية واحــد أو أكثر من هؤلاء

الشهود وتلتف القرية حولهم ، وتسمع قصة تتفق أو تختلف قليلا عن سابقتها ، ولكن شيئا واحدا كانت تنم عنـه جميع القصص ، وتنم عنه أكثر لهجة الرواة من الشهود !!

والتقط الشيخ عبد الحـكيم صـوفى القريـة ، وفقيهها ، وفليسوفها فى الأزمات ، التقط هذا الشىء ، وقال يوما لمجموعة من الناس كانت تشرب القهوة فى بيته :

ـ انهم محزونون ، ولكنهم ليسـوا خجلين من أنفسهم ، ثم أوضح حين استفزه صمت الحاضرين :

ـ الانسـان يخجل من نفسه حين يشعر أنه لم يؤد واجبه ، وحينئذ تصبح الهزيمة مرادفة للعار !

ـ لقد أدى هؤلاء الأولاد واجبهم !

ومع أن القصة التى كان يرويها شهود العيان لم تكن تختلف الا فى التفاصيل فان اهتمام النـاس بها لم يفتر ، ومع كل قـادم جديد كانت القرية تنتظر فى لهفة أن تسمع ما لم تسمعه من قبل وكأن شهادة الغائبين هى وحدها التى ستحل لغز القضية المعلقة ، هى وحدها التى ستجيب على الأسئلة التى بقيت دون جواب ! وحتى حين لم يبق سوى شاهد واحد ، هو ابراهيم بن عبد السلام الخفير ٠٠ انتظر الناس فى لهفة عودته ٠٠ وكأنه وحده سيقول لهم ما لم يقله الآخرون !

ولكن أسبوعا كاملا مضى دون أن يعود ابراهيم ، ودون أن يبعث بخطاب كما فعل غيره ممن لم يتمكنوا من الحضور ، أو حتى يتكلم فى تليفون العمدة الذى أصبح فى هذه الأيام تليفونا للقرية كلهـا !!

وأصبحت مسألة غياب ابراهيم بن عبد السـلام الخفير شغل

الناس الشاغل ، وتطور الاهتمام بأخباره الى اهتمام بأبويه ٠٠ كان عبد السلام الخفير الذى ترك عمله بعد أن ضعف بصره قد أصبح ملازما للبيت ، وأصبح من مألوف الناس الكبار الذين لا يعملون فى الحقول أن يمروا ببيت عبد السلام الخفير بعد صلاة العصر ، يتحدثون معه ، ويتلمسون أخبار ابراهيم ، ويتطوع الشيخ عبد الحكيم بتفسير المسألة حين يتطرق الحديث الى تأخير ابراهيم فى العودة ٠

ـ كثيرون لم يرجعوا بعد فى القرى المجاورة ، ثم هناك تبادل الأسرى وقد نفاجأ الآن ونحن جالسون بقدومه !!

وفوجئوا بأن أسبوعا آخر ينقضى دون أن يعود ابراهيم ، واختلف كلام الناس فيما بينهم عنه مع أبويه !

ـ جايز انه استشهد !

ـ حرب كهذه لا بد لها ضحايا ٠

ـ أول شهيد نقدمه قريتنا !

ـ لا داعى لأن نفقد الأمل فمسألة الأسرى هذه ٠٠٠

ـ طبعا كل شىء جايز ، ولو عاد ٠

تستأنف القرية النظر فى القضية من جديد ، كل الأسئلة والفجوات ، والمؤمنون بأن القضية لم تعرض بعد على وجهها الصحيح ، والحالمون بأن يسمعوا شيئا لم يقله أى واحد ممن جاءوا قبل ابراهيم ، جميعهم عادوا ينتظرون ، وبعضهم أصروا على أن يجعلوا لتأخيره معنى وهدفا ، وبعضهم تواضع فى أهدافه !

ـ لو عاد فسيحكى ما رآه فى بلاد الأعداء !

ـ يعصبون عيون الأسرى فلا يرون شيئا !

ـ على الأقل يسمع !

ـ يتكلمون لغة أخرى !

ـ مهما يكن فسيحكى أشياء عن العدو لم يقلها لنا أحد أبدا !
وباتوا ينتظرون هذه الأشياء ، وينتظرون ابراهيم من جديد !

ولكن أسبوعا ثالثا مضى دون أن يعود ، وبدا وكأن القرية قد فقدت شهوة الحديث ، وأصبحت زيارة أبيه عبئا ثقيلا حتى على الناس الكبار ، كانوا قد فقدوا قدرتهم على مواصلة الأكاذيب والتعللات ، ومع أنها كانت هوايتهم المفضلة فى الظروف العادية الا أنهم بدءوا يملون تلك الهواية ، ولكنهم فوجئوا بعبد السلام الخفير الذى كان اهتمام الناس الكبار به أغرب حادث وقع له فى حياته كلها ، فوجئوا به يتشبث تشبثا شديدا بكل ما صاغوا له من أوهام ، وفوجئوا به يرددها لهم حين كفوا عن ترديدها ، وحين تباعدت زيارات الناس لبيته استند على عصاء وراح يطرق بها أبواب بيوتهم !!

وتململت القرية من هذه الطرقات التى لا تفرق بين صغير أو كبير ، ولا تفرق بين الليل والنهار ، ولكن أحدا لم يجرؤ على أن يصم أذنيه دونها ، كما لم يجرؤ أحد على أن يصارح الرجل بما كانوا يتصارحون به من أنه قد فقد عقله تماما !

ويوما طرق باب العمدة ذاته ، كان يحفظ الطريق الى بيته منذ كان خفيرا ، ومنذ كان ابنه ابراهيم يزرع فى أرض العمدة وفوجىء العمدة بعبد السلام يسأله ان كان ابنه قد اتصل به بالتليفون ؟

وأجلسه العمدة بجواره متلطفا ، فى نفس المكان الذى جلس فيه ابراهيم ابنه منذ عام واحد ، ومن نفس المكان قال ابراهيم للعمدة ، وهو ينفض ثوبه قبل أن يجلس :

ـ لن أقدر على دفـع الجنيهات العشرة الباقيـة من الايجار ولو أمهلتنى لزراعة البرسيم !

ـ ولكنك وقتها ستكون مطالبا بايجار البرسيم

ـ جايز ربنا يبارك فى البرسيم ٠

ـ وجايز نأكله الدودة ٠

ـ يريد أبى أن يعمل عملية فى عينيه !

ـ اذهب به الى المستشفى !

ـ حتى فى المستشفى سنحتاج الى هذا المبلغ !

ـ أبوك رجـله فى القبر ، ومادام الواحد منا يبصر طـريق الجامع !

وكرر عبد السلام الخفير سؤاله للعمدة الذى لم يسعفه الجواب وفكر العمدة قليلا قبل أن يقول :

ـ نعم اتصل بى !

وانتفض العجوز ، وأفلتت عصاه من يده ، وهو يردد :

ـ ابنى لم يمت !

ـ نعم ٠

ـ ومتى سيرجع ؟

لن يرجـع فى هذه الأيـام . قال لى لن نعود قبـل أن نطرد الأعـداء ٠

ـ قال ذلك بنفسه !

ـ نعـم !

الحمد لله الحمد لله ٠٠ !٠٠

وأضاف العمدة بلهجة خفيضة ٠

ـ طلب منى أن أعطيك عشرة جنيهات تنفق منها حتى يعود ٠

وصمت الرجل وكأنه لم يسمع ما قاله العمدة الذى راح يوضح كلامه ٠

ـ هذه الفلوس تخص ولدك ، كان عاقلا ، ويدخر عندى ما يتوفر له من زراعة الأرض ، وما تحتاجه فهو عندى ، المهم أن يبقى الأمر سرا ٠

وكان الحاج منصور تاجر القماش فى القرية أول من سمع السر حين طرق عبد السلام الخفير باب دكانه ، فى البداية ضايقته القصة ولم تلبث أن أراحته !

فآخر مرة رآى فيها ابراهيم كانت حين طلب عنه فى نفس الدكان أن يقطع له جلابية جبردين !

يومها رد باندفاع :

ـ ليس فى الدكان جبردين !

وأوضح ابراهيم بلهجة اعتذارية أنه دخل الجيش ، وحين يأتى فى أجازة يحضر أقاربه لزيارته ، ولابد أن يكون لديه ثوب مناسب ، ولا يعقل أن يقابلهم بالبدلة الميرى !

ـ وما عيب البدلة الميرى ؟!

ـ لم يفعلها أحد قبلى ؟!

ـ افعلها أنت !

يومها قال الحاج منصور لنفسه :

(وهل يعقل أن أبيع قماشا جديدا لمن لم يسدد ثمن القماش القديم) ٠

ولو فعل ذلك لبقى فى الدكان ولا عمل له سوى طرد الذباب !

ولكنه فى هذا اليوم قال لعبد السلام الخفير معلقا على القصة التى سمعها منه :

ـ ابنك أفضل الأبناء ٠٠

ثم أضاف : فى آخر مرة كان هنا أوصانى بأن أحضر لك ثوبا من الجبردين ، كان يريد أن يقدمه لك حين يعود ، فاذا أردت الآن ٠٠

ـ لا لن آخذه الا من يده !

ـ على كل حال أنا تحت أمرك !

أم ابراهيم هى التى انزوت فى بيتها تبكى مرتين ، مرة على ابنها الغائب ، ومرة على زوجها ، وفى كل مرة تفتح الباب وتقفله لأن طفلة صغيرة جاءت تحمل احدى هدايا القرية التى راحت تتوالى على بيت عبد السلام الخفير ، كانت لا تفتح فمها بكلمة واحدة ولا حتى بكلمة شكر !

لم تفتح قلبها لأحد الا لهنية حين تجىء لزيارتها ولتحمل لها الماء من المجموعة !

ـ ماذا تسمعين من الناس ، هل سيعود ابنى ؟

ـ سيعود يا خالتى أم ابراهيم ٠

ـ كان يحبك ، لم يحب أحدا غيرك !

وتصمت هنية ، ويلوح لها وجه ابراهيم جافا ترطبه ابتسامة

شاحبة ، ولمعة عرق شبه دائمة ودائما كان فى عجلة من أمره الا حين يلقاها ·· ليقول لها فى تؤدة !

ــ ولكنك تحبين هاشم ·· عينك عليه يا ملعونة ؟

ولا ترد عليه هنية لا مصدقة ولا مكذبة ·

ــ أنا أحبك ·· لا تنظرى الى فوق ·· أنا رجلك ·

وتنفلت منه قائلة فى دلال :

ــ منذ لحظة كنت بكامل عقلك !

هى التى قد فقدت عقلها حين تركته ، عين فى الجنة وعين فى النار ، لو أنها توقفت قليلا ، لو أنها قالت له كلمة طيبة ، لو أنها كانت تعلم الغيب ، لو أنه يعود ! ، لو أنها كانت تدرك أنها تحبه الى هذا الحد !

وكان من عادة حسنين الأعرج عاطل القرية وشريدها ومهرجها أن يضحك من كل شيء ، ومن كل أحد ، ولكنه فى هذه الأيام لم يكن يضحك ، ربما لأنه ضحك يوما من ابراهيم حين أصبح جنديا فى الجيش ، لم يجد فى الأمر سوى نكتة قال له :

ــ بعد أن تخرج من الجيش تصبح خفيرا مكان أبيك ·

قال ابراهيم بجد :

ــ سأبقى فى الجيش ·

وواصل الأعرج ضحكاته ·

ــ وهناك سيعينوك خفيرا لحراسة المهمات !

ــ لا أحب كلامك الفارغ ·

ــ ولكننى أحبك يا أبا خليل !

وحين كاد الناس ييأسون من عودة ابراهيم بقى وحده ينتظر . وحين رأى عبد السلام الخفير ، وهو يتكوم وحيدا أمام باب داره ، وحين رأى الباب لا يفتح ولا يغلق ، وحين رأى يأس الناس يتحول الى دموع . عاجلهم بقصة هزت القرية من جديد !

وتساءل الناس ممن تلقى الرسالة التي بعث بها ابراهيم وقال فيها انه عائد بعد أسبوع !

ــ الشيخ عبد الحكيم !

ــ الأمر حقيقى اذن ؟

وكان هو الأعرج الذى بعث بالرسالة من البندر ، ووقف يرقب ، فى نشوة ، عبد السلام الخفير وهو يطفو من جديد على وجه الدنيا وبابه يفتح ويغلق ، والهدايا تأتى من الصغير ومن الكبير ، والذهول يتبدد ، والأسئلة تعود ، والقضية تستأنف ، وقال الأعرج لنفسه :

ولكن ابراهيم قد يجىء حقيقة هذه المرة فيجد القرية كلها قد صنعت له شيئا عداك أنت !! أنت وحدك لن يذكر لك سوى أنك سخرت منه ! فقط قال : لكن شخصا مثلى ماذا يمكنه أن يفعل له ؟

يوما شاهد الناس حسنين الأعرج خارجا من دار ابراهيم وصرخوا فى وجهه :

ــ ماذا كنت تفعل هناك ؟

وغاظه السؤال فهدر قائلا

ــ كل الناس يزورونهم !

ـ يريد الأعرج أن يكون مثل بقية الرجال !

وتوالت الصيحات ·

ـ فتشوا الأعرج قبل أن يخفى ما سرق !

ـ صاحب الدار أعمى وضيفه لص !

ـ يا أولاد ال ···

حين يعود ابراهيم لن يسمح لمثلك بدخول بيته !
وصرخ الأعرج ·

ـ سيكون مجنونا لو عاد ، طول عمره كان هنا فماذا فعلتم به يا أولاد اللصوص !؟

ـ اضربوا الأعرج !

وجرى فلم يلحقوا به ·

ولكن حكايتــه تلك تنغص القــرية ، وكانت القــرية حريصة على أن تذود هذه الحكاية عن قصة ابراهيم كما تذود الذباب عن طعام نظيف :

واختفى الأعرج عن القرية ، لم يكن هنــاك حين عاد ابراهيم ذات ليلة ، فلم تعرف القرية كيف عاد الا فى الصباح !

وفى الصــباح ، التفوا حوله ، وتوقفت الأسئلة فى حلوقهم ، كان يسلم عليهم بيد ويستند بالأخرى الى عصــا خشبية تحل مكان ساقه المدلاة ، والمضمدة بالأربطة :

ولكن الأسئلة التى ألجمتها المفــاجأة عــادت تحاصره ، ولم يخلصه منهم سوى الشيخ عبد الحكيم ·

ـ دعوه ينام ، ألا ترون كم هو متعب ؟

وسأله أبوه :

ـ طردتم الأعداء ؟

فلم يرد ·

ـ دعه يستريح يا عم عبد السلام !

وعاد أبوه يكرر ·

ـ لابد أنهم طردوا الأعداء !

ـ دعه يستريح يا عم عبد السلام ·

وكان ابراهيم هو الذى بدأ يسأل أهل القرية ، حين مضت أيام زاره فيها كل الناس عدا الأعرج ، بدأ يسألهم عنا !

وفوجئوا ، وصمتوا ، ماذا يقولون له ، قال أحد الجالسين :

ـ أنا أعرف أين هو !

وتطلعوا اليه وتطلع ابراهيم أيضا !

ـ. تطوع فى المقاومة الشعبية فى البنادر وبقى هناك !!

وانفجروا ضاحكين ·

ـ ماذا يفعلون به هناك ؟

قال آخرون ·

قالوا له نفس الكلام لكنه أجابهم : دعونى أحرس المهمات. فلا يقترب منها أحد !

ـ قبلوه ؟

ـ نعم .

وتطلعوا الى ابراهيم ، ولحظتها فقط أدركوا أى خطأ سخيف تورطوا فيه بما قالوه عن الأعرج !

قال ابراهيم فى مرارة محاولا أن يضحك :

ـ أنا وهو نصلح جنديا كاملا !!

الشيخ عبد الحكيم وحده هو الذى بدأ يفكر فى لغز الخطاب الذى عرف أن ابراهيم لم يبعث به أبدا ، وكان ذلك حين وصله خطاب آخر يزعم صاحبه أنه ابراهيم ، وأنه سيعود ، ويوصى الشيخ عبد الحكيم وأهل القرية بأبيه وأمه وأخيه الصغير !

وحين أطلع ابراهيم على الخطاب قال بصوت محتبس :

ـ ومن يكون غير الأعرج ؟؟

وتعمد الشيخ عبد الحكيم أن يذيع قصة الأعرج على القرية التى كانت لاتزال تحاصر ابراهيم فى محاولة أخيرة وبائسة لتعرف الحقيقة الكاملة ، ولتملأ الفجوات ! القرية التى بدأت تتململ حين وجدت أن ابراهيم مثل غيره ممن جاءوا لا يعرف الحقيقة الكاملة وان كان نفسه قد أصبح جزءا صغيرا منها !

ولكن القرية لم تعد لذهولها القديم ، كانت قصة الأعرج التى عرف الشيخ عبد الحكيم كيف ينشرها فى جلساته ؛ وكيف يربط بين قصة الاعرج الذي جاء والذى ذهب !

وكانت هذه القصة توقف القرية على رجل واحدة وتضعها أمام موقف جديد لم تكن مهيأة له من قبل !

واوضح الشيخ عبد الحكيم كعادته هذا الموقف حين قال للناس :

الحقيقة الكاملة لا يقولها أو حتى يعرفها رجل واحد أو مجموعة من الرجال ، ثم أضاف وهو يعبث بحبات مسبحته :

الحقيقة الكاملة هناك وليست هنا ! الأعرج وحده عرف الطريق اليها ، هناك يمكن أن نعرف الحقيقة الكاملة واذا لم ترق لنا فيمكن هناك أن نصنع الحقيقة التى نريد !

يوليو ١٩٦٧

هل يموت الأب ٠٠ ؟

ـ ماما ٠٠ لماذا تقفلين الراديو ؟

ـ تستطيع أن تفتحه حين تريد ٠

ـ ولكنك تقفلينه فى كل مرة أفتحه فيها !!

ـ رأسى يتعبنى قليلا هذا المساء ٠

ـ هل هو يتعبك دائما ياماما ؟

ـ نعم ٠٠ لا ٠٠ !

ويصمت « راشد » قليلا ، بينما تخطو أمه فى اتجاه حجرة النوم ، وتتوقف حين تجذب أطراف ثوبها قبضة صغيرة ، وتلتفت الى الوراء لتجد طفلها قد ألقى بقامته الى الوراء مطمئنا الى أن الثوب قد تحول الى أنشوطة محكمة ، تنجح دائما فى أن توقف أمه حيث يريد ، وتسمح له بأن يميل بجذعه الى الوراء ، الى أقصى الوراء ، دون أن يخشى السقوط ٠

وفى استسلام تعود اليه ، لتصنع له من صدرها وذراعيها أنشوطة أرق !

ــ لم تعد صغيرا يا حبيبى •• أصبحت رجلا •• بعد شهرين يكون عمرك تسع سنوات كاملة • فلماذا تفعل ذلك ؟

ــ ونحتفل بعيد ميلادى ؟

ــ نعم •

ــ حفلا كبيرا ، نفتح فيه « الراديو » وندير « البيك أب » ، وللعب كالنا ؟

ــ نعم •

ــ وتصنعين « تورتة » كبيرة ونوقد الشموع • ونعلق ال

ــ نعم •• نعم •• نعم

مازال رأسك يتعبك ياماما •

ــ نعم •

ويصمت « راشد » لحظات ، تتحفز خلالها ملامحه • وكأنما يتحسس بصوته الطريق الى أذنى أمه ، وبنبرة لا يمكن أن تكون لطفل فى التاسعة من عمره •

ــ ومن سيحضر الحفل ياماما ؟

وتبدو الأم وهى تقيس السؤال ، وهى تسبره ، وكأنها وقعت فى أنشوطة من نوع لا فكاك منه •

وتقول فى استسلام يائس هذه المرة •

ــ خالك •• وعمك •• وجميع من تحبهم من أصحابك

ـ أريد أن يحضر بابا هذا الحفل ..

ـ اذا انتهت مهمته سيحضر بالتأكيد .

ـ ومتى تنتهى مهمته ؟

وبكل ما تقدر عليه من هدوء قالت :

ـ لست أعرف .. قلت لك كثيرا لست أعرف .. ثم أضافت وكأنها تعتذر له : حين تنتهى مهمة بابا سيبعث لنا برسالة يخبرنا فيها بموعد حضوره ..

ـ ولكن بابا يعرف أن عيد ميلادى بعد شهرين .

ـ نعم .

ـ سيحضر .. لابد أن يحضر ، ويحضر معه .. و .. و ..

وتنتهى مراسيم الابن حين ينام ، النوم وحده هو الذى ينقذها من تلك المطاردة التى تتكرر كل يوم بطريقة مختلفة ، ولكنها لا تنتهى أبدا .

فى ضوء مصباح خافت الضوء تبدأ مراسيم الأب ، تبدأ فى كل ليلة حين تتمدد فى فراشها ، فتصبح صورة الأب فى مواجهتها تماما ، تطل من اطار من الخشب المحفور المذهب ، منذ أكثر من عشرة أعوام وهو فى وقفته تلك ، على شفتيه نفس الابتسامة الخفيفة الواثقة ، بنفس ثيابه العسكرية . بنفس رتبته القديمة .. لقد حاز بعدها أرفع الأوسمة والرتب ، ولكن تلك الصورة القديمة هى أقرب صورة الى قلبها ، فهى صورة حبها الأول . وصورة زوجها ، ومنذ أنجبا طفلهما « راشد » ، أصبحت صورة بابا ، « بابا » الأسرة كلها ، وكانت تحب أن يكون لها « بابا » صغير مثله ..

منذ شهور دعى نيشترك فى تلك الحرب الأخيرة التى نشبت فجأة ، وانتهت فجأة كذلك ، ولم يعد ، وانتظرت أياما وأسابيع وشهورا ، ولم يعد ، ولم تكن وحدها التى تنتظر عودته ، كان « راشد » ينتظر بدوره ، ولم يكن من السهل أن تقول « لراشد » كل ما يمكن أن تقوله لنفسها ، وكان عليها أن تجيد فى وقت واحد عدة لغات ، فى النهار كانت تتحدث بلغة الناس ، تتحدث الى شقيقها ، وشقيق زوجها ، الى الضيوف والأصدقاء والجيران ، والأهل ٠٠

وكانت لغتهم صريحة وشبه قاطعة ، صحيح أن أحدا منهم لا يتكلم بشكل قاطع عن موت الأب ، ولكنهم جميعا كانوا يعاملونها كأرملة شهيد أدى واجبه ، والدولة بدأت تصرف معاشه الشهرى كالشهداء تماما ، ولكنهم جميعا وافقوا على أن تتحدث مع الابن بلغة مختلفة ٠

وألمحوا الى سنه الصغيرة ، وتذكروا تعلقه الشديد بأبيه ، وأكدوا أن مصارحة الطفل بحقيقة الموقف ــ الآن على الأقل ــ قد تحدث له صدمة تؤثر على مستقبله كله ٠

وقال خال الطفل : مع الوقت سيألف غيبة أبيه ، وآنذاك لا تنطوى مصارحته على آية أخطار ٠

ولا تدرى هل قبلت نصائحهم تلك لأنها أكثر منهم خوفا عليه أم خوفا منه ، كانت تشعر بطريقة ما ، وكأنها مسئولة عن فقد الأب ــ ان أحدا لا يحملها هذه المسئولية ــ ولكنها كانت تشعر أن طفلها هو الوحيد الذى سيفعل ذلك ، وهل يملك طفلها وسيلة للحكم على الأشياء ،سوى ذلك الشعور الطفولى الذى لا يمكنه الفصل بين أمه وأبيه ، كوجهين لحقيقة واحدة ، حقيقة توفر له الأمن والسلام والسعادة ، وهذه كلها لا تتوافر الا حين يكونان معا ، كما يكون

جناحا الطائر ، وحين يختفى أحد هذين الوجهين . فمن يكون مسئولا أمام شعور ابن الأعوام التسعة سوى الوجه الباقى ‥ وجه الأم .

وهكذا ولدت لغة الابن ، لغة المطاردة التى تتكرر كل يوم ولا تنتهى أبدا ، ولدت من الحب والخوف معا ، وتطورت لتصبح طقوسا ومراسيم تؤديها الأم كل يوم مع ابنها وتنتهى حين ينام الطفل ‥ لتبدأ مراسيم الأب ، لتبدأ لغة قلبها ، لغة بلا حروف ، لغة الدم الصاعد الى الرأس أحيانا ، والأطراف المثلجة أحيانا أخرى، لغة العرق والارتجاف واللوعة ، والقلب الذى لا يزال يدق بعنف ، حين يدق جرس الباب أو جرس التليفون ، حين تسمع صوتا غريبا، لغة الحلم الغامض ، والأمل الذى لا يختفى ولا يبين والانتظار الذى يصبح فى وقت واحد أفضل غذاء للأمل واليأس ، انتظار أن يعود الأب ، ذات صباح ، أو ذات مساء ، ان رؤية الموت أعظم تبرير له . واعتذار عنه ، وكيف يصدق قلبها أنه مات حقا دون أن ترى موته ‥

ها هو يطل عليها من اطاره الذهبى ، واقفا لا يزال ، لايضجر الوقوف ، ولا يمل الابتسام ، ها هو شاب دائما ، طموح أبدا ، حالم بكل شىء عدا الموت ، أشد حياة من كل شىء فى هذا العالم الذى يلفه السكون ، وأكثر الناس قدرة على أن يفهم لغة قلبها ، تلك اللغة التى لاتزال ترق وتصفو حتى ليمكن أن تتبادلها مع طفلها الراقد بجوارها حين تنام ، حين يضمها معه فراش واحد وحلم واحد ‥

فى الصباح يذهب « راشد » الى المدرسة ، وفى المساء يعود ، فى كل صباح تدرك أمه وهى تودعه أمام « الفيلا » الأنيقة ، أن ذراعيها قصيرتان جدا ، لن تصلا الى كل مكان يذهب اليه ، لن تكونا

معه دائما ، وفي كل مساء تدرك أنها تتسلم طفلا آخر ، مختلفا بعض الشيء ، طفلا يلتقي بمن لا يشاركونها الخوف عليه أو الخوف منه ، طفلا يسمع ويتكلم لغة لا تعرف كل طقوسها ، وحين تبدأ مراسيم المطاردة اليومية ، تتعلم شيئا عن هذه اللغة ، « فراشد » يدرك على نحو ما أن بلده كانت تحارب ، وأنها خسرت الحرب ، وأن الأعداء يحتلون جزءا من بلده ، وأن الحرب قد تقوم من جديد ، وأن أباه هناك ليطرد الأعداء . ومن أسئلته التى لا تنتهى عن الحرب ، والأعداء ، وأصوات المدافع ، وذكريات الظلام حين ينقطع النور فجأة ، وعن أبيه ، من كل هذه الأسئلة كان يفتل حبال أنشوطة اليومية ، أنشوطة تتسع كل يوم ، وتلتهم فى شراهة حكايات الأم واعتذاراتها . وتبريراتها وتوشك في النهاية أن تلتهم صبرها ٠٠

ذات مساء سأل « راشد » أمه :

ـ لماذا لا يجىء بابا ؟

هكذا جاء السؤال ، بلا مقدمات ، بلهجة باترة تشى بنفاد صبره هو الآخر ، باحساسه بأن فى المسألة سرا ، وبأنه يريد أن يعرف هذا السر ، بأن لديه هو الآخر مصادر أخرى للمعرفة وبأن أمه ليست هى أم الدنيا كلها ، وبأن اللغة التى يسمعها منها كل يوم ليست هى أصدق اللغات ٠

وتصرخ الأم هذه المرة ، تصرخ بعنف :

ـ لست أعرف ٠٠ أنا مثلك لا أعرف ٠٠ قلت لك ألف مرة لا أعرف ٠

كانت تلك هى المرة الأولى التى يرتفع فيها صوتها الى هذا الحد ، والمرة الأولى التى يخرس فيها الصبى تماما ، وكأنه فقد القدرة على النطق والرؤية والسماع ٠ وتضمه الى صدرها بنف بأعنف من

صراخها ، وتشعر أن ذراعيها طويلتـان ، وأنها تطوق بهما العالم ، ويشـعر هو أنها أم الدنيا كلها • وكان عمر شعورها وشعوره مجرد لحظة بعدها تناسى تماما مسألة أبيه ، ليتذكر العيوب والنقائص فى كل شىء ، فى البيت والطعام والثياب واللعب ••

تنازل عن أبيه ليطلب كل ما يقدرون عليه ، وتستحيل رغبته فى امتلاك الأشياء الى رغبة فى تدميرها ، وحين لا يجد ما يدمره يبدو وكأنه يريد أن يدمر نفسـه ، فلا يتعلق الا بأرق غصن فى أشجار الحديقة ، ولا يمشى الا فوق الحرف المدبب للسور ، وتحول مزاحه مع الأطفال فى الشارع الى شجار ، يعود منه كل يوم ممزق الثياب ، والجلد ، ملطخا بالدم والتراب • وتفشل عشرات اللعب والزيارات والوعود التى يبذلهـا خاله فى أن تجعل منه ذلك الصبى الهـادىء الذى كانوا يعرفونه •

ذات مساء يقول خاله لأمه :

أعتقد أن الوقت قد حان ليعرف الحقيقة ••

تقبض وجه الأم ، قالت بعصبية أصبحت احدى لوازمها •

ـ هل تظنه سوف يحتمل ؟ هل تظنه سيهدأ ؟ هل تظنـه سيفهم ؟ هل تظن آلامه ستنتهى ؟

ـ أخشى أن يعرف الحقيقة من غيرنا فيفقد ثقتـه فينـا ، وفى نفسه •

ـ أية حقيقة تعني ؟ قالتها الأم وهى تحدق فى وجه شقيقها ، وكأنها تسمعه لأول وهلة •

ـ موت أبيه •

قالها بذهول ثم تابع فى دهشة :

ـ ماذا قلت ؟

ولاذت الأم بصمت عميق ، صـــمت لم يجرؤ شقيقها على أن يخدشه مكتفيا بمواصلة التحديق فى وجهها والاشفاق عليها ..

ولكنه هو « راشد » فاجأهم بما لم يتوقعوه أبدا ، وقبل أن يصارحوه بأية حقيقة .

ـ ماما .

تطلعت اليه أمه فى لهفة ، كان يتكلم بهـدوء غـريب ، وكان يتحرك بنفس الهـدوء متحدثا لأمه ، متجاهـلا خالـه الذى يجلس بجوارها فى تلك الليلة ..

ـ بابا أرسل لى خطابا .

ـ ماذا تقول ؟ أين ؟

قالتها الأم بلهفـة وبلا تفـكير ، واستبد القلق بشقيقها ، وبتقطيبة حادة فى وجهه حاول أن يلفتها الى خطورة الموقف .

ـ طلب منى آلا أريه لأحد .

ـ أين الخطاب ؟

وصرخ شقيقها : يا مجنونة . ثم استرد هدوءه فى محاولـة يائسة لتغيير الموضوع محاولا أن يمسك بيد الصبى .

ـ الليلة سنسهر معـا فى مدينـة الملاهى ، ونركب القطار الدوار .

ـ قال لى بابا ، لا تذهب الى مدينة الملاهى ..

قالها الصبى وهو يسترد يده من يد خاله .

ومن جديد حاول خاله أن يمسك بأى شيء فسأل الصبى :
ــ ماذا قال لك بابا ؟

وقبل أن يرد « راشد » واصل خاله اجتذاب الخيط الذى أمسك به ٠

ــ سأحقق لك كل ما يقوله بابا ٠

وارتسمت على شفتى « راشد » ابتسامة من كسب الجولة فلم يطلب أى شيء آخر ٠٠ ثم ان رغباته الجديدة أصبحت تتقدمها كلها هذه اللازمة :

ــ بابا يريد ٠

ــ بابا يقول ٠

وأصبح يمارسها بهدوء أكثر ، بهدوء صاحب الحق ٠

وقال لهم الطبيب : ليس ثمة ما يدعو للقلق ٠ ثم سأل ٠
ــ هل تغيرت مطالبه التى أصبح يفرضها باسم أبيه ؟

قال خاله ، لم تتغير ، لايزال يسودها العنف والقلق والحدة ٠

وقالت أمه : اتسع نطاقها بعض الشيء ، يحاول اصلاح سور الحديقة ، وسلم البيت ، وفى الجملة يقلد أباه فى نزق ٠

قال الطبيب :

ــ لماذا لا تشاركونه فى نفس اللعبة ؟

ثم أوضح كلامه قائلا :

ــ لماذا لا يرسل « بابا » خطابات أخرى لكم ، بحيث تصبح نصائحكم له ، بل أوامركم هى أوامر « بابا » نفسه ٠٠

ولم تكن الأم مستريحة لهذه اللعبة ، ولا راضية ، كانت أسطورة « بابا » تتضخم ، وتصبح حقيقة غريبة غير متجانسة فبابا الطفل جسور عنيد مغامر ، وبابا الأم عاقل وهادىء متردد ، بابا الطفل يطارد اللصوص والأعداء ويتكلم بلغة الشارع والمدرسة والنادى ، وبابا الأم يذاكر دروسه ، وينام مبكرا ويحافظ على ثيابه ولا يستقر على لغة واحدة ..

وبات واضحا أن البيت الواحد لن يتسع لرجلين كليهما من طراز مختلف ، وأن لحظة الصدام بين الرجلين تقترب لا محالة .

ذات مساء ، كانا وحيدين ، الأم والصبى ، وكان المذياع مفتوحا على نشرة الأخبار .

قالت الأم فى تخاذل :

ـ بابا يريدك أن تنام مبكرا .

ـ لا أريد أن أنام الآن .

كان المذيع يصف فى تلك اللحظة ، اشتباكا عسكريا حدث بيننا وبين الأعداء ، سقط فيه عدد من الضحايا .

ـ بابا قال فى رسالته لابد أن ينام « راشد » مبكرا .

ـ أين رسالة أبى ؟

دهمها السؤال ، كان ينصت الى المذياع ويحدق فيها ، قالت فى يأس :

ـ ألا تصدق ماما ؟

ـ لا ..

ضمته الى صدرها بقوة لتخفى وجهها عن عينيه ، كانت تسمعه فى وضوح وهو يقول خلال شهقاتها :

ـ بابا قال لى : انه مات فى الحرب ..

وارتجفت يداها حول جسده ، لم تكن تدرى أهى تسنده أم تستند اليه ، كل ما تدريه أنه لم يتأكد لديها قبل هذه اللحظة موت الأب ، أو ربما أنه لا يموت أبدا ..

★★★

فى الصباح ذهب « راشد » الى المدرسة ، فى المساء عاد . خلع ثياب المدرسة ، أمسك بفأسه ليواصل اصلاح الجزء المهدم من سور الحديقة ، كانت تلك أول مرة يفعل فيها ذلك دون أن يقول :

ـ بابا يريد .

وقفت أمه ترقبه من بعيد ، ترقب الفأس وهى تسقط بجوار قدمه ، فلا تشعر بالخوف عليه أو منه .

★★★

حين دق جرس الباب الخارجى ، لم يختلج قلبها ، ولم تتقدم لتفتحه « راشد » سبقها الى الباب ليتسلم بيده خطابا من موزع البريد .

ـ المدرسة تدعوك لحضور الحفل التمثيلى الذى تقيمه ، ثم أوضح ، ألعب دورا هاما فى الرواية الجديدة التى تقدمها المدرسة .

فى صالة المسرح كانت الأم تجلس بين النظارة ، على المسرح كان « راشد » يلعب دور البطولة ، وكان الممثلون الصغار يتكلمون جميعا لغة واحدة ، وكانت الأم وكل الأمهات فى الصالة يفهمن نفس اللغة !!

فبراير ١٩٦٨

ذلك الشـتاء

● **المقـــدمة :**

بى ضعف شديد ازاء الشتاء ، أحبه بقدر ما أخافه ، تجىء فيه لحظة لاتنذر بقدومها ، تعيدنى الى تجربـة لا أستطيع أن أنساها ما حييت ، والغريب أننى لا أستطيع أن أذكر كل شىء عن تفاصيلها ٠

كل شىء غامض مقرور تكتسـوه ظـلال السحب الكثيفة فى ذلك اليوم ، ويرتجف بقطرات المطـر وبرياح لم تجد ما يعوقها خلال الحقول المنبسطة على مدى البصر ، أشياء بعينها هى التى بقيت واضحة فى رأسى وضـوحا يستحيل معه أن أنسى هذه التجربـة ٠٠الطريق من قريتنا الى المدينـة الصغيرة التى استقل منها القطار الى عاصـمة الاقليم ، طريق ترابى متعرج مع الترعة الموازى لها ، عربة تاكسى أجـــرة رماديـة تقطـع بى نفس الطـريق ، تغص بالمسافرين ، وبأمتعتهم فى الداخل والخارج ، عربة من ذلك الطراز الذى يمتد على جانبيـه افريزان يحمـلان على جانبى العربـة من الركاب مثلما تحمل فى داخلها ، وتبدو العربة فى مثل ذلك الشتاء وكأنها تتدثر بركابها من البرد ٠٠

الطريقة التى يدير بها السائق محرك العربة بواسطة ذراع حديدية تشبه نصف الصليب المعقوف ، يضعه فى فتحة مخصصة له فى مقدم العربة ، ويهوى بجسمه كله ليصنع بنصف الذراع نصف دورة ، ثم تتابع الدوائر قبل أن يبدأ المحرك فى الدوران ، ثم يأخذ السائق مكانه أمام عجلة القيادة بينما تزفر العربة ببخار مكتوم يدفىء الرجل الجالس على مقدمتها يديه بتقريبهما منه ..

اصرارى على أن أذكر كل هذه التفاصيل التى تبدو لى الآن بلا معنى جزء من ضعفى حيال الشتاء ، وحيال هذه التجربة التى لا أدرى لماذا تصر .. وربما أنا الذى أصر على مطاردتها بعد كل هذه السنين ؟

وعلى أن يبقى أكثرها غامضا شديد الغموض ، وعلى أن يحتفظ بعضها الآخر بألوانه ، وبأدق تفاصيله ، وبروائحه ..

يكفى أن تختفى السماء خلف السحب ، وأن يغشى العالم ذلك الظلام الخفيف المنذر ، وأن تتساقط أوراق الشجر ، وتتصاعد روائح الأرض الرطبة حتى أهرع الى الشرفة أو الى النافذة ، أبحث عن وجوه الأطفال الذين ينتظرون فى لهفة ومرح ــ وراء زجاج النوافذ ــ هطول المطر ، وأتابع هجرة الطيور الى أعشاشها ، وتجمع القطط والكلاب معا دون شجار تحت الأسقف القريبة ، وأعجب لأن غرائز الحيوان أصدق من غرائز الأطفال وأحكم ..

هذا ما كنت أردده أحيانا اذا سألنى أحد من أفراد أسرتى لماذا تقف هناك فى هذا الوقت ؟

وفى الحقيقة أن مجىء مثل هذه اللحظة فى أى شتاء يكفى لكى ينقلنى الى تلك العربة الرمادية التى كنت واحدا من ركابها منذ ما يزيد على عشرين عاما ، عبثا أحاول الآن أن أتذكر وجه واحد من ركابها أو حتى اسمه . ولكننى أذكر الجلباب الأزرق

الذى كان يرتديه أحد الواقفين على افريز السيارة الخارجى بحيث تحجب زرقة ثوبه عن عينى زرقة السماء وأنا قابع فى ركن العربة ، وأذكر أننى وقتها فكرت فى « أن زرقة ثوبه تختلف كثيرا عن زرقة السماء ، وأنه لا يصلح بديلا للسماء فى هذه الرحلة » .

يومها ضحكت من هذه الفكرة البلهاء ضحكة فاترة ، وربما أننى ضحكت حين حاولت أن أتأكد من أن هذه السماء القريبة قد أضحت فى متناول يدى فأعادنى زجاج نافذة السيارة الى صوابى .

وعجبت لأننى أسلك بهذه الطريقة فى يوم كذا ، ذلك أننى فى هذا اليوم كنت حزينا جدا ، أجل حزينا جدا .. حتى أننى خجلت من هذه الضحكة الفاترة التى لم يسمعها أحد .

الآن لا يمكننى أن أذكر سببا واحدا من أسباب هذا الحزن ، ولكننى أتذكر بيقين أنه لم يكن ثمة سبب واحد فقط ، كانت هناك أسباب عديدة .. وربما متباعدة فى الزمان والمكان ، ولكنها مثل سحب ذلك اليوم كانت على موعد ، فصنعت ذلك الحزن الكبير الذى كنت أعانيه ، تجمعت من هنا ومن هناك ، وفى مكان من قلبى ، مكان صغير لا يكاد يتسع لها ، تجمعت ، لعل هذا سبب شعورى وقتها بأن شيئا فى داخلى سوف ينفجر .

ومع أنى لا أذكر الآن أسباب هذا الحزن القديم ، فاننى أذكر الحزن ذاته .. لا بل أعانيه الآن ، وأنا واقف فى الشرفة تفصل بينه وبينى السنون والمسافات ، حزنا شتائيا مقبضا متربا ، كظيما لاهثا ، حزنا يجعلك تنفصل عن كل شىء ، وتفكر فى أى شىء دون علاقة أو هدف ، ويشعرك فى نهاية الأمر بالعجز .. العجز الكامل المطلق حتى عن أن تمسك بالسماء وهى فى متناول يدك .

وقتها كنت عاجزا عن أن أقول لجارى الذى كاد يسحق قدمى هو يحاول أن يريح قدمه أية كلمة .

كانت آلام قدمي قد أصبحت جزءا من دلك الألم الشامل الذى بدأ حزنى يتحول اليه • أجل فحين تتراكم الأحزان ، حين تجيء من هنا ومن هناك بأسرع مما تستطيع أن تراها أو تفكر فيها واحدة واحدة •• فانها تصبح ألما •• ألما يوشك بدوره أن يصبح جزءا منك ، مألوفا وطبيعيا ، وكأنهُ لا سبيل هناك للتخلص منه ، وربما لاجدوى ولا ضرورة ، ألما يريد أن يقنعك بنفسه وبوجوده وبطبيعته حتى لا تفكر مجرد تفكير فى ضرورة مقاومته •• ألما تشعر اذا أردت أن تقاومه بأنك سوف تقاوم كل ذرة فى جسدك ونفسك لأنه يتخلل فى لحظات كل جزء منك ويسرى فيه مع الدم والأفكار والمشاعر •

أيامها كنت ــ دون شك ــ أدرك أسباب هذا الحزن الأليم ، لأننى أذكر الآن أن شعورى بالعجز ، كان ضمن أسبابه ما ترسب فى نفسى بعد تفكيرى فى بواعث هذا الحزن وأسبابه من أنه لاقدرة لى على تغيير هذه الأسباب ، كنت أفكر فى هذه الأسباب بعقل فتى فى السادسة عشر من عمره فأجدها هناك ، قائمة فى رسوخ صلبة لاقبل لمثلى بزحزحتها قيد شعرة ، وربما لو تذكرت الآن هذه الأسباب لبدت لى سخيفة ومضحكة وعارضة مثل سحب ذلك اليوم ، ولعلها كانت كذلك بالفعل فقد كنت تلميذا ينفق عليه أبواه ، ولم يكن ثمة ما يهدد وجودى ، وكنت أحمل معى سلالا مليئة بما يكفينى من الطعام لأسبوع على الأقل ، وفى جيبى بعض النقود وكل هذه الأشياء لا يدرك تلميذ فى السادسة عشر من عمره معناها الحقيقى الا بعد عشرة أعوام على الأقل •

على أن هذا كله لا يغير شيئا من طبيعة المسألة ، فلو أننى الآن أواجه أحزانا تستند الى أسباب أقوى وأعمق وأصلب لما تغير احساسى بها عن احساسى بذلك الحزن القديم الذى بدأ شعورى به يتزايد ويعمق حين بدأت العربة فى التحرك فوق الطريق

الزراعي المتعرج بجوار ترعة راكدة المياه ، بدت لى وكأنها لم تحفر الا لكي يدفن في مياهها من يجرؤون على السفر في يوم شتائي كهذا اليوم ٠

كلمات الركاب التي لا أذكرها تصبح مجرد أصوات لا تعبر عن شيء وروائحهم تكاد تخنقني ، ولكني أدرك أن اختناقي الحقيقي يأتي من هناك ، من داخل ثيابي وجلدي ، من دواعي حزني الأليم الذى ينمو في داخلي وكأنه يطمح أن يصبح معادلا لي ٠٠: معادلا الى الحد الذى يصبح فيه وجود أحدنا ضروريا لوجود الآخر أو لنفيه ٠

آنذاك بدأت أشعر بالخوف ٠٠ الحزن الأليم الشامل يصبح خوفا ٠٠ أجل خوفا من الموت ومن الحياة ٠٠

لو استمر هذا الحزن الأليم في نموه الضارى فسوف أهلك هلاكا حقيقيا حدث ذلك مع تحرك العربة ، وكأنها تحملني الى الموت ، ليس من الضروى أن تهز ركود المياه في الترعة المجاورة بما تحمل من ركاب ، أو أن تصطدم بجذع شجرة ، يكفى أن تواصل السير وأن تواصل أحزاني وآلامي ومخاوفي وجودها القاتل ، ونموها الغريب الضارى حتى أهلك ٠٠ وقد يظن الركاب أنني مت اختناقا دون أن أرسل صيحة استغاثة واحدة ، ولكن هذا سوف يكون خطأ شنيعا لا يماثله الا شناعة موتي ٠

قبل هذه اللحظة لم أكن قد فكرت في الموت على هذا النحو ، ولكنى الآن أواجهه ، أغذ اليه السير في عربة مدثرة بالرجال ، وبعجز كامل حتى عن أن أرسل صيحة استغاثة واحدة ٠

ماذا يكون الموت ؟ انه النهاية بكل ما تحمل من معنى ٠

تتزايد الأحزان والآلام والمخاوف حتى تصل الى ذروتها ٠

الىَ نهايتها ·· تصل الى تلك القمـة عبر وجودى ·· وهناك فى لحظة مجيدة حقا تلتقى النهايات كلها ··

وقتها فقط تمنيت لو تقف العربة ·· فى هذه الأمنية الطفلية لاح لى أمل خرافى فى النجاة ، والعربة لا تتوقف عن المسير والزفير ·· وحتى حين توقفت بعد قليل لم يكن ذلك بسبب شىء مما فكرت فيه من قبل ·· لم تسقط فى الترعة المجاورة ، ولم تحطم جذع شجرة ، كان المطر قد بدأ يهطل فى غزارة هذه المرة ، وكان لابد أن تتوقف العربة ،وأن تتحول بعض الوقت الى مجرد مأوى للركاب ، حتى يكف المطر وكان لابد لمن ركبوا خارج العربة أن يجدوا مكانا بداخلها يحتمون به من المطر ، وبدأت العربة تكشف عن امكانياتها العجيبة فى احتواء الناس ، كما بدأ الناس يكشفون عن امكانياتهم الأعظم فى التلاحم والاقتراب والالتواء ، قبل هذه اللحظة لم أكن أدرك أن فى العربة أطفالا ونساء وعجائز وأن بجوارى فتاة ريفية يختفى جمال وجهها فى طرحتها السوداء التى أزاحها الزحام ، أصواتهم هى التى كشفت لى وجودهم ، اللغة — مرة أخرى — مجرد أصوات ولكنها هذه المرة تعبر فى لحظة واحدة مزدحمة عن الألم والفرح والبكاء والخوف والضيق والمرح ، وكان التقاء هذه العواطف كلها فى ذات اللحظة يبدو كأنه التعبير الحى عن التقاء هذه الكتلة من الأجساد والأذرع والأيدى والأرجل،عبثا أحاول الآن أن أتذكر كلمة أو فكرة أو شيئا أستخلصه من قلب تلك الكتلة البشرية التى كانت تنبض وتتحرك فى جوف من الحديد البارد الساخن الذى يحترق ويغتسل فى قطرات المطر ·

ولكن ما أذكره الآن فى وضوح لا يزال يسطع عبر عشرين شتاء هو أننى بدأت أكتشف جسدى فى ذات اللحظة التى كنت أفقده فيها ·· أفقد سيطرتى عليه ·· ذراعى وقدمى وصدرى ورأسى وأنفاسى تختلط بغيرها من الأذرع والأقدام والصدور

والأنفاس ، ارادة هذه الكتلة التى لا يعرف أحد مصدرها ولا غاياتها هى التي تجمع وتفرق ، عجزى يختلط بعجز الناس ، وصمتى بأصواتهم ، وحزنى الأليم الخائف يصطدم بمسرى عواطفهم صدمة شديدة فيهتز ويختلج ويوشك مثل جسدى أن يفقد صلابته وتماسكه · وفى كل لحظة أحاول فيها أن أقاوم سيطرة الكتلة أو أسترد جزءا من جسدى وحزنى أجده قد اشتبك بجزء آخر لطفل أو رجل أو امرأة ·· بألمه أو مرحه أو خوفه ·

ارادة هذه الكتلة التى لا أعرف مصدرها ولا غاياتها هى التى تتصدى هذه المرة لارادتى فى آن أجمع شتات جسدى وحزنى ·

الضحكات تختلط بالأنات ، والشكوى بالرجاء ، والصراخ بالمرح ، والسيقان بالأذرع ، والسماء بالأرض عبر قطرات المطر ·

من خلال زجاج العربة كان اللون الأزرق الحقيقى يتدفق من السماء ، يتدفق خلال السحب التى بدأت تفقد تماسكها هى الأخرى ، وتنحل الى قطرات تختلط بتراب الأرض ، وأوراق الشجر ، وأسقف البيوت البعيدة ، وأجنحة الطيور اللائذة بالأعشاش ·

فجأة توقف المطر ، وبدت زرقة السماء كأصفى ما تكون الزرقة،فتوقفت العربة ، وتمددت الكتلة البشرية داخلها ، فانفتحت أبوابها ، لتتدثر من جديد بالرجال قبل أن تعاود المسير والزفير ·

كان ذلك آخر انجاز لارادة تلك الكتلة البشرية التى فقدت ارادتها فجأة ··

وكانت تلك رحلة أخرى فى طريق آخر ·· أكثر وعورة وخطورة ··

الظلال التي تقترب هذه المرة هي ظلال الليل لا ظلال الغيوم ، والمدينة التي نقصدها لا تزال أبعد من أن نبصر أنوارها ، ودواعي حزني الأليم الخائف لاتزال هناك قبل الظلام وبعده لم تبرح مكانتها في قلب الزمان ..

ولكنني هذه المرة كنت أرقبها في فضول ودهشة .. أجل في فضول ودهشة ، هذا ما أعنيه تماما ، وما أذكره في وضوح رغم أن كل شيء آخر راح يختفي في ظلال الغروب .

كنت لا أزال قابعا في مكاني من العربة ، ورغم أن كل شيء في خارج العربة كان يزداد سوءا الا أنني كنت أتلمس وجودي كأغرب شيء قدر لي أن أراه في ذلك المساء من ذلك الشتاء البعيد .

(كنت عائدا لتوي من تلك اللحظة التي يبلغ فيها كل شيء غايته فيتحطم أو يولد من جديد) .

كنت أتحسس ذراعي وصدري وساقي ، وأجتذب أنفاسي بعمق ، وأجد عيني فيما ألمح في قلب الظلام ، وأذني فيما أسمع من أصوات الليل ، وأشعر أن صلابة وجودي لا تقل شعرة عن صلابة دواعي حزني الأليم الخائف .

وجودي يناظر وجود الأحزان والظلمات والمخاوف في صلافة لم أعرف لها نظيرا في غير ذلك المساء من ذلك الشتاء القديم .

لم أكن أفهم ما حدث تماما ، ومازلت لا أفهمه ، ولكنه كان حقيقيا ، كما لم تكن أشياء كثيرة مما أظن أنني أفهم كيف ولماذا حدثت .

ولفني رعب مرح مستبد ، انه أنا ذلك الوجود القوي الذي لم يكن بمقدوري أن أبلغ مداه الا من خلال لحظة يبلغ فيها كل شيء غايته .

وضحكت هذه المرة ضحكة لم تجد أصــداءها فى العربــة ، ضحكةشخص يكتشف خديعته فيخاف ويســعد فى نفس الوقت لأنه الخادع والمخدوع ، القوى والضعيف ، اللغز والحل !!

وحزنت ليلتها قليلا لأن العربة لم تجب على ضحــكتى بغير الوجوم والصمت ، وهى تواصل المسير والزفير بحثا عن خفقة ضوء فى قلب الظلام ٠

البــداية :

منذ شهور وسماء بلدتنا يغشاها ذلك الظلام المنذر بالمخاوف والأحزان والأمطار ٠

ونفسى ينتابها ذلك الحزن الشــتائى المقبض المترب ، المكظوم اللاهث فأشعر بالعجز عن أن أمسك بالسماء وهى متناول يدى ٠

منذ شهور وأنا أفتش فى الزمان والمـكان عن ذلك الصبى الذى كان يقبع فى عربة رمادية تشــق طريقها وســط الظلمــات والأوحال ٠٠

منذ شهور ، وعلى كل الطرقات أبحث عن تلك العربة التى يجد فيها المرء نفسه حين يبدأ يفقدها ٠٠

قد تظن مثل الكثيرين أن هذا كله جزء من ضعفى حيــال الشتاء ولكن ثقتى التى لا تهتز بذلك الصبى تجعلنى أومن بأنه لم يبدأ رحلته فى ذلك الشتاء البعيد الا لكى يخف لنجدتى فى الليالى المظلمة ٠٠

النهــاية :

لم تحدث بعد ٠٠ !

اغسطس ١٩٧٠

السائل والمسئول

« الثرثرة »

كانوا قد فرغوا لتوهم من التهام الدجاجة التى حملها العريف « أحمد » معه من البلد ، ومسح الرقيب « عوض » يديـه فى جزء من الصحيفة التى كانت لبعض الوقت مائدة للوليمة التى تتكرر مع عودة أحدهم من اجازته القصيرة لأهله ·

قال بعد أن كور الورقة وقذف بها جانبا :

ـ انتهت نوبة الهجوم !

قال محمود وهو جندى مؤهلات لم يحصل بعد على أية رتبة ولكن مرحه يجعله فوق جميع الرتب ·

ـ لا ··· انها تبدأ الآن فقط !

ثم أمسك بما تبقى فى يده من فخذ الدجاجة ، وزوى ما بين حاجبيه ، ليصيب به حجرا قريبا منه !

سرت العدوى الى الجماعة فتحول ما تبقى من عظام الدجاجة

ومن الصحيفة الى مقذوفات أصابت أهـدافا وهمية أو محققـة فى مختلف الجهات •

اعتدل بكر وهو أزهرى مجند وأنشأ يتلو بصوت يمثل الوقار « فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا » صدق الله العظيم •

قال محمود : لن تعود هـذه الدجاجة ولو أصـدر لها قائد الكتيبة أوامره •

قال العريف أحمد الذى يحمل لقب فيلسوف الجماعة ربما لأنه تخرج فى قسم الفلسفة ، وربما لأن كلماته القليلة التى تتخلل صمته الطويل تكون دائما مثار المناقشات •

ـ انتهى عصر المعجزات !!

رد الرقيب « عوض » وهو مهندس مجند فى نفس الدفعـة يصنع دائما الهجوم المضاد فى مناقشاته مع أحمد :

ـ المعجزات لا تنتهى ، لكن لكل عصر معجزاته !!

تدخل الشيخ بـكر :

ـ المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى النبوة •

عاد الرقيب « عوض » يؤكد :

فى عصرنا تبقى المعجزة ولـكن معناها هو الذى يتغير لم تعد أمرا خارقا للعادة ، انها أمر ممكن لكن معجزة العصر الحديث أن نعرف حدود الممكن !!

قال محمود ضاحكا :

ـ الممكن الذى يشبه المستحيل هو أن يعود لنا الشيخ بكر بدجاجة مماثلة من بلدهم !

وزأر الشيخ بكر :

ـ يا أوغاد تأكلون وتنكرون كالقطط !

نسيتم الأرنب الذى تسممتم به منذ شهرين ، وماذا أفعل اذا كنت لم أحصل على أجازة منذ شهرين ؟

ثم التفت الى العريف أحمد وسأله بنبرة مشبعة بالحنين :

ـ كيف حال البلد ؟ اشتقت لنظر الناس ، كل النـاس فى كل البـلاد ؟

ورغم حرارة السؤال ، ونبرة الشيخ بكر ، فلم يتعجل العريف أحمد بالجواب •

كان يتأمل الانطباعة المريرة التى حملهـا السؤال الى وجوه الجماعة الصغيرة ، وكان يتأمل فى نفس الوقت ما يمكن أن يكون ظاهرة تتكرر كلما عاد أحدهم من بلده فى أجازته القصيرة ، دائما يتسلل سؤال كهذا ، قد تختلف الصيغة أو الأسباب ، ولكن يتسلل ليثير نوبة أخرى ، وهجوما آخر ، ويفجر نوعا من المرارة يجدون له فى حلوقهم طعما واحدا !!

هل بدأوا مثاله يكتشـفون تلك الظاهرة ؟ هـل بدأوا مثله يدركون تلك الدورة الغريبة ؟ ويلاحظون أن ما يحدث هنـا هو الوجه الآخر لما يحدث هناك ؟ فى بلده أو فى بلد أى رفيق آخر ؟

ـ بخير •• الناس كلهم بخير ، ويسلمون عليكم ••

هكذا قطع فكره وصـمتهم ، بهذا الجواب كأنما ليستمهلهم

بعض الوقت ، لم يفكر فى الفراغ الذى تنطوى عليه اجابته ، فكر فقط فى أنه هناك فى بلده كان يرد عليهم تقريبا بنفس الجواب حين سأله أحدهم نفس السؤال :

ـ قل لنا ·· كيف الحال عندكم ؟ حال الجيش ؟

وكان ذلك أيضا بعد أن انتهى العشاء الفاخر ، هناك كانت توجد وليمة حقيقية لاشبه وليمة كما كان هنا !!

وهناك كانت أيضا فى البدء عواطف حارة ، ومرح ، وأسئلة كثيرة من كل الناس حول أى شىء وحول لاشىء ، ثم فى النهاية ، نهاية الأطعمة والأشربة والعواطف ، يبدأ السؤال الحائر ، يبدأ معلنا هناك كما يعلن هنا أن نوبة تنتهى وأخرى تبدأ ·

وهناك أيضا يكتشفون فراغ اجابته فيعيدون السؤال ·· فى صيغة أخرى ·· ولكن جميع الصيغ تحمل معنى يمكن ببساطة أن يترجم الى هذا الرجاء ·

ـ قل لنا شيئا رأيته بعينيك فكأننا نراه بعيوننا ·

وهناك يتطلع الى جميع العيون التى تحدق به ، فى أغوارها ينبض شىء واحد ، شىء واحد فى كل العيون توق لاحد له لمعرفة الحقيقة ، خوف لاحد له أن يكون ثمة مالا يعرفونه · شك لا يطيقونه ولا يقدرون على زحزحته ، وبالنسبة له لا تكون المشكلة أن يجد الشجاعة ليقول لهم الحقيقة بل المشكلة أن يملك القدرة على معرفة كل ما يسألون عنه ؟ يتحدث اليهم عن تجربته الصغيرة ـ هذا على الأقل ما يملكه ـ ما يراه ، ما يقوم به ·

هناك يصبح ابنا للجيش ، مندوبا عنه ، متحدثا باسمه ، لهؤلاء الذين لا يريدون أن يأخذوا كل شىء سهلا ومصدقا ، المرتابين فى قلق ، الآملين فى لهفة ، المحبين له رغم كل شىء ، والغريب أنه

هناك ينسى كل ما يضايقه هنا ·· ينسى متاعبه ومشاكله وشكاواه ، يصبح انتماؤه للجيش هو كل شيء ولكنة هنـا ،الآن ·· وغبـار الطريق لا يزال فوق ثيـابه العسـكرية ، والدجاجة التى جاء بها لم تهضم بعد ، وأمام تلك الانطباعة المريرة التى تزداد احكامـا فوق جباه الجماعة الصغيرة ، وأمام الأسئلة التى بدأت تنوشـه من كل جانب ·

ـ بخير ؟ أهذا كل ما هنـاك ؟ ألم يتفضـلوا بسؤالك عن أحوالنا ؟

ويتطوع بعضهم بالجواب : طبعـا لم يصدقوك ، طبعا ·· أمام هذا كله ، بدأ يحس انتماءه للبلد ، بدأ يفكر فى كسر تلك الدائرة الجهنمية التى تستدرجهـم فى كل مـرة الى مواقف لا معنى لها ·· الى مشاعر ليس أفضـل من مناقشتها فى وضوح ومهما تكن قاسـية ، الى مواجهـة جديدة لا ينبغى أن يخافها أولئك المدعون لمواجهة الموت ذاته ·

قال فى حدة :

وماذا فى ذلك ؟ شيء طبيعى أن يسألوا ·

ـ وشيء طبيعى كذلك ألا يصدقوا شيئا مما تقول !!!

قالها محمود بسخرية ·

لم يغضب أحمد ، تذكر أنه كان يشارك الجماعة ضيقها من هذه الشـكوك ، ولكن ذلك نصفَ القضية ، قال فى هدوء مزمعا تفجير كل شيء ·

ـ المسألة أنهم يبحثون عن شيء يصدقونه ، ويثقون به ·

ثم أكمل بعد لحظـة صمت ، شعر خلالها أن ولاءه للناس

وللجيش يلتحمان معا ليصنعا ولاء آكبر للحقيقة ، لمحاولة معرفتها •

أكمل العريف أحمد بلهجة جاهد أن تجيء هادئة :

لقد حدث فى حياتنا شيء فظيع بعض أسبابه أن الناس كانوا يصدقون كل ما يقال لهم ، انهم كفوا عن توجيه الأسئلة ، انهم نسوا عادة الحذر •• ومن الطبيعى جدا •• وقاطعه محمود باندفاعه لا أثر فيها لمرحه المألوف :

ــ هل من الطبيعى جدا أن نكون هنا فى حالة حرب حقيقية نواجه الموت ليلا ونهارا • ونواجه متاعب أنت أدرى بها ، والناس الذين نتحدث عنهم يعيشون حياتهم الطبيعية هناك ؟ أنت قادم من هناك ، فأى شيء تغير فى حياة الناس ؟ المقاهى والملاهى ودور السينما ، والمشاكل اليومية الصغيرة كل شيء كما هو ، الى أن يلتقوا بأحد الجنود العائدين من الجبهة وآنذاك لا يريدون أن يقنعوا بأقل من حدوث معجزة ، ولا يطيقون هذا الكمال ، وفى النهاية لايتفضلون عليك بأقل من شكوكم ، ولماذا لا يجيئون الى هنا ليروا كل شيء بعيونهم ؟؟

ولم يغضب « أحمد » ولم تروعه نظرة التأييد الكامل لمحمود التى أطلت عليه من جميع العيون ، كان غضبهم بعض غضبه ، ولكن :

ــ المسألة ليست هكذا أبدا ، ولا يمكن أن تكون كذلك •

قالها بنفس النبرة التى يجاهد لكى تجيء هادئة •

وكأنما مستهم العدوى قالوا جميعا وفى نفس واحد وبهدوء :

ــ ما هى المسألة اذن ؟

دوت طلقة مدفع من الجانب الشرقى للقناه ، صمتوا ، جاوبه مدفع من الجانب الغربى ، واصلوا الصمت ·· قد يبدأ حوار من نوع آخر ، تجمعوا فى ملجأ صغير ، لا دور لهم الآن فى مثل هذا الاشتباك ، فهم جماعة استطلاع فرغت من تدريبها وفى انتظار أن يقوموا بمهمتهم فى سيناء ·

توقف التراشق بعد لحظات ، لمح خلالها أحمد وجه « هالة » الناعم المستدير الذى تغرق فيه عينان خضراوان تهرعان اليه دائما فى لحظات الخطر ، لم يبق هنـاك ما يربطه بهاتين العينين ، لعلهما تتطلعان الآن الى المارة من خـلال زجاج العربـة « البويك » التى تمتلكها ، وهى فى طريقها الى المصيف ، ومع صمت المدافع هربت العينـان الخضراوان وعادت الجماعة الصـغيرة التى ازدادت قربا ، ودون أن تغادر الملجأ ، عادت تسأل سؤالها الجماعى :

ـ ما هى المسألة اذن ؟

قال أحمد محاولا أن يتذكر هدوءه :

لا أملك تبسيط المسائل فى كلمات قليلة ، ولكنى أعتقد أن من حق الناس أن يسألوا ومن حقكم أن تطالبوهم بما هو أكثر من مجرد السؤال ·

قال الرقيب « عوض » الذى ظل صامتا طول الوقت معلنا بدء الهجوم المضاد :

ـ حقوق ·· هذا ما يملك الفلاسفة مثلك تقريره فى كل العصور ، أن يهبوا الناس حقوقا على الورق أو فى الهواء ، دعنى أقول لك كلمة حق واحـدة أملـك الشـجاعة لقولها ، نحن جميعا نريد أن نحارب وننتصر ، ولكننى واثق من أن تحقيق هذه الارادة يحتاج الى أن تكون الثقة فينا كاملة ، أتسمعون جميعا ، ثقة كاملة بدونها لا تتكلمون عن النصر ·

قال أحمد :

ـ ليس هناك أردأ من هذه الكلمة ، ثقة كاملة ؟ كانت مثل هذه الثقة موجودة من قبل أما الآن فينبغي أن تنمو الثقة من الأسئلة والأجوبة ، من قلب الحذر وتبقى بعد ذلك ثقة غير كاملة .. نعم لا أريدها كاملة .

صرخ عوض :

ـ ثقة وحذر ، معادلة صعبة جديدة ، ما أبرعكم فى صياغة الكلمات ، نحن يا صديقى فى حالة حرب ، هل نسيت ؟؟ فى الحرب ليس يجدى أقل من الثقة الكاملة ، ان وجود شخص مثلك يفسد كتيبة بأكملها ، ثم أضاف ضاحكا : ولو كنت مسئولا لأمرت بطردك خارج الجيش ؟

تدخل الشيخ بكر وقد وجد أخيرا فرصته :

ـ كيف تتحدثون عن الثقة الكاملة دون أن تتحدثوا عن الايمان الكامل ، المهم قضية الايمان ؟

قال عوض :

ـ الايمان كامن فى أعماق شعبنا ويكمن بينه ، المشكلة أن يتحدث الفيلسوف أحمد عن الحذر فى شعب ثلاثة أرباعه لايعرفون القراءة ؟

قال أحمد دون أن يفقد هدوءه :

ـ لماذا تسخرون من المعادلات الصعبة ؟ والحياة كلها معادلة صعبة ، يحدث الموت حين يعجز الجسد عن تحقيق التوازن فى داخله ، حين يفشل فى تحقيق معادلته الصعبة الخاصة به .

دوت طلقة مدفع من الجانب الشرقى للقناة ، أعقبتها على الفور طلقات متتابعة من الجانب الغربى ، وصمتوا من جديد ، تقاربوا فى الملجأ الصغير ، تحول التراشق الى اشتباك عنيف لم

يمنعه من أن يسأل نفسه : أحقا أن كل ما يملكه هو الحديث عن حقوق فى الهواء ؟ عن أشياء لا تتحقق ولا يمكن أن تتحقق ؟

مرة قالت له « هالة » : أنت يا حبيبى تجيد الحديث عن أشياء لا وجود لها فى عالم الناس • ثم تخلت عنه بعد وقت غير طويل ، ولكن عينيها الخضراوين تهرعان اليه دائما فى أوقات الخطر ، كانتظار لا يمل لمعجزة لا تتحقق •

« الاستطلاع »

أصبح أحمد وحيدا ، تفرقت الجماعة الصغيرة بعد أن نجحت فى عبور القناة ، كل يعرف دوره فى مهمة الليلة ، وحين يؤديه يكون ثمة لقاء فى نقطة معروفة للجميع ، يتبادلون فيها المعلومات التى حصلوا عليها ، ثم يتفرقون من جديد ليعودوا فرادى ، وحتى لا تضيع المعلومات الغالية لو سقط أحدهم فى طريق العودة ، وفى مكان آخر على شاطىء القناة يكونَ لقاء أخير يعبرون بعده القناة الى مواقعهم !!!

مرة قالت له « هالة » : التجربة العملية تختلف كثيرا عن الكتب التى توشك أن تفسد حياتك •

يومها قال لها : وما رأيك فى الكتب التى تستوحى تجارب الواقع ؟

فى كل مرة يواجه فيها الخطر تجىء « هالة » تقتحم الصعاب ، وتبقى بمنأى عنها ، أهى حقا تجىء أم هو الذى يدعوها لتراه ، لترى أنه ليس كما كانت تتوهم ؟ ربما لا يريد أن يقنع « هالة » بقدر ما يريد أن يقنع نفسه بأنه ليس كما تزعم •

حين يصبح المرء وحيدا فى مهمة كهذه فقد تكون تلك فرصته الوحيدة ليعرف الكثير عن نفسه ، عن حقيقة نفسه ، لكن مهمته الليلة أن يعرف بعض المعلومات عن تجمعات للعدو عند نقطة وصفت له بدقة هائلة ، نقطة تختفى فى قلب هذا الظلام الذى يخفيه عن عدوه ، ويخفى فى نفس الوقت عدوه عنه •

ها هو أخيرا يخرج ليبحث عن الحقيقة ، حقيقة صغيرة جدا هذه المرة ، أصغر من كل الحقائق التى كان الناس الكبار يبحثون عنها فى ظلمات المجهول •

أي شيء يربط الحقائق صغرت أم كبرت بالظلام ؟ تختفى فى ظلام المجهول ، ويخفيها الناس فى ظلمات الليالى والنفوس ويبحث عنها الباحثون فى الليالى المظلمة ؟

لم تكن « هالة » دائما على صواب ، فها هو يتسلل فى قلب الظلام والخطر دون أن يسحقه الخوف ، وعقله يعمل فى كل اتجاه دون تردد ، يترجم أصوات الليل ، ودرجات الضوء ، وصلابة الأرض تحت قدميه ، وروائح الصحراء ، ولا يريد أن ينسى موقفا قديما كان يعتقد أنه لم يعد له أثر فى حياته ، صحيح أن هذا كله يؤكد أن كلامها عن التجربة العملية كان صوابا فى جملته ، ولكن هذا التأكيد يجىء لصالحه هذه المرة •

من بعيد تنطلق رصاصة لتمزق السكون فوق رسه ، وحين ينبطح على الأرض يجد الى جواره حجرا ضخما لعله ملقى فى مكانه منذ آلاف السنين فيتكور بجواره بعض الوقت ، اتجاه الرصاصة لا يدعوه لأن يغير اتجاهه ، الظلام يشف مع الوقت ويفصح عن غوامض المكان •• لكنه يتمزق فجأة تحت ضربات المصابيح الكشافة التى تومض وتختفى فى أماكن متعددة وفى حركة تبادلية ، تصنع مصايد من الضوء للمتسللين ، مصايد تمتد باتساع الصحراء ،

وتتحرك بسرعة الضوء ، ويصبح وجود حجر ضخم ملقى منذ آلاف السنين ، حجر ينقذه من مصيدة الأضواء الكاشفة يصبح وجوده معجزة تحدث فجأة له ، هو الذى لا يؤمن بالمعجزات ٠

كم معجزة يحتاجها الليلة لينجح فى مهمته ؟ ولكنه لا يشك فى أن أهم معجزة حدثت فى حياته كانت قراره بأن يكون جنديا فى فرقة استطلاع ، هذا النوع الأخير من المعجزات هو ما يؤمن به ٠

قال لهم ضاحكا : على فلاسفة هذا العصر من أمثاله أن يتدربوا على البحث عن معدات العدو وأعداده قبل أن يبحثوا عن حقائق الكون ٠

لن يرقد طويلا بجوار هذا الحجر فالأضواء الكاشفة بدورها لا تريد أن تكشف نفسها دائما ، ولن ينتظر معجزات الأحجار فهى كالظلام تصلح ساترا له وللعدو ، وقد يلتقى خلف احداها بكمين للعدو وآنذاك يصبح الصراع يدا ليد ، مفروض أن يتجنب المعارك ولكن حين تفرض عليه ، فالحوار بالخنجر هو الحوار الوحيد الممكن مع العدو ، وقبل أن يتخذوا منه أداة استطلاع لصالحهم فلابد أن بقتل عدوه أو يقتل نفسه حين لا يكون هناك مفر ٠

هذا هو الثمن ، أقل ثمن من أجل أن يعرف الجيش بعض المعلومات عن تجمعات العدو ومعداته ٠

الناس هناك فى بلده يسألون أنفسهم أو غيرهم وهم يحتسون القهوة عن الحقيقة ، وكأن الحقيقة ، حقيقة العدو أو حقيقة أى شىء سوف تجىء كالضيوف ، وتطرق عليهم الأبواب ليتفضلوا باستقبالها ٠

الطرق والمدقات المألوفة ترصدها الكمائن ، وتتوزع فيها حقول الألغام ، وطريقه الوحيد الآمن بعض الشىء هو الذى يمضى

عبر الهضاب والتلال والأحجار ، قلبه يدق من التعجب أو الخوف ، من يعرف الفرق ؟ وهواء الصحراء الجاف يجفف عرقه ، وثيابه تلتصق بجسده وتزداد مع الوقت ثقلا ، وتزداد الرمال نعومة والأحجار صلابة .

وأشرطة الضوء التى لا يعرف متى تفاجئه تدفعه الى قلب الرمال فى سهل يخلو من الأحجار ، ويتحرك زحفا حين يزحف شريط الضوء الى مكان آخر ، من المهم ألا يأخذ وقتا أقل أو أكثر ، كل شىء معمول حسابه عدا تلك الرصاصات التى تأتى من المجهول وتذهب اليه ، تمسح وجه السهول والهضاب وتحرمه أحيانا ميزة السير على قدميه ، وعدا الدوريات التى قد تكون على قيد خطوات منه دون أن يدرى ، أنفه وأذنه يتسللان أمامه ، يتعرفان الروائح والأصوات ، ويفسحان له الطريق ، ولكنهما يرتدان فى ذعر حين تنطلق هذه المرة رصاصة ، قريبة المصدر والهدف .

الرمال تندفع الى فمه وأنفه وأذنه ، لحظة الصدمة تختفى بنفس السرعة التى جاءت بها ، ليتذكر .. لتتذكر خلايا جسده أن صوت الطلقة رغم قوته فهو يجىء من بعد يسمح له بالتحرك السريع نحو تل يلوح له من قرب .

ويندفع بسرعة خاطفة ليرتمى الى جانب التل الرملى .. لا يجب أن يموت مجانا فى ليلة كهذه ، ليست مهمته الليلة أن يبحث عن الموت بأى ثمن ، انه يبحث عن المعلومات الغالية ، واذا كان يحرص على حياته فذلك بعض حرصه على أن يحقق الهدف الذى خرج من أجله الرجال فى تلك الليلة .

النقطة التى يبحث عنها فى الظلام تقع غير بعيد من التل الذى يختفى فيه ، تقع فى مكان لا يصلح للاختفاء ، ولهذا اختاروه له ، الآن العدو من ناحية لن يهتم بمراقبته جيدا لأن الأضواء الكاشفة

لا يمكن أن تتجه اليه دون أن تكشف فى نفس الوقت تجمعات العدو وتحركاته ، ونقطة القوة فى المكان هى نقطة الضعف والمصادفة لا حساب لها فى مهمة كهذه ، المهم ألا يخاف ، ألا يضطرب ، أن يصبح كقطعة الأرض التى يرقد فوقها ، أن يغوص بجسده فى الرمال الناعمة ، أن يواجه الخطر دون تردد ، ذلك أمنه الوحيد وضمانه الوحيد كذلك ، أنفه وأذنه يعاودان التسلل وراء الأصوات والروائح ، ولكنهما هذه المرة يعودان بأصوات مبهمة للغة العدو ، لم يكن ما يسمعه هذه المرة هو صوت مخاوفه .. تلك أصوات حقيقية تزداد قربا ووضوحا وتشى بأعداد من الرجال لا يمكن التأكد من حقيقتها ، ويتأكد من أنه أمام دورية للعدو تسير فى محاذاة الجانب الآخر من التل ، من الصعب أن يخمن خط سيرها دون أن يقف أو يتحرك ، وقد يتيح لها بذلك فرصة اكتشافه ، لو دارت حول التل لما كان هناك شك فى الصدام بينهما ، بمقدوره مادام قد سبق الى الاحساس بوجودها أن يسبق بالهجوم ، وأن ينسف الدورية بأكملها بقنبلة يدوية ، ولكن ماذا ستكون النتيجة فى مثل هذا المكان القريب من تجمعات العدو ؟ نجدات تتلاحق ، ويصبح موته بأيديهم أو بيده مؤكدا .

لن يقدم على هذه المخاطرة الا فى آخر لحظة ، فى الثانية التى يتأكد فيها من أنهم سيرونه ..

الدورية تدور حول التل ، أشباحهم تظهر فى وضوح ، يكاد يسمع تردد أنفاسهم ، وتشتد قبضته على القنبلة اليدوية ، ينزع فى هدوء مسمار الأمان ، يمد ذراعه الى الوراء ، فقد يواصلون السير جانبا ، وقد يواصلون الدوران ، لو تلفت واحد منهم ربما شعر بوجوده ، قلبه يصرخ فى صدره ، واصلوا السير جانبا ، أصبحت ظهورهم اليه ، بمقدوره أن يبيدهم الآن لكن موته سيكون مؤكدا كذلك ، واحد مقابل خمسة من الرجال هل يخاف

على نفسه أو على مهمته ؟ من يدرى ؟ عينا « هالة » تعودان ، تتطلعان اليه ، تنفذان الى أعماقه ، تحاكمانه دون كلمة « هل رأت هاتان العينان صورة الموت التى رآها ؟ لا يستطيع الليل أن يخفى صورة الموت ، وحين ترى الموت حقيقة وبعينيك فأنت أيضا ترى الحياة ، كل الحياة فى نفس اللحظـة كل خلاياك تحيـا ، الكون كله ينفذ خلالها فى لحظة كالبرق ، الزمن كله يختصر فى تلك اللحظة كل الألوان والطعوم والروائح والعواطف والأفكار والصور .. كل ذلك فى لحظة خاطفـة ، ولا يدرى أكان ينقذ حقا مهمته أم كان يسعى لانقاذ الكون الذى هرب اليه واختفى فى جسـده ، وكأنه سينتهى بنهايته .

عليه الآن أن يواصـل التسلل الى النقطة التى تقع غير بعيد من التـل ليستطلع المعلومات عن العدو ، ولكن من يستطلع الحقيقة وراء هذا الموقف ؟

أى شىء رأته عينا هالة الخضراوان كالوادى الأخضر ؟

ماذا يكون الجنون بعينه اذا لم يكن ما يفكر فيه الآن ؟

ما الذى يبقيه فى مكانه مادامت الدورية قد مضت ؟

ألا يزال خائفا ؟ أى سؤال لعين لا ينفك يطارده ؟

ومتى لم يكن خائفا ؟ المسألة ألا يغادر موقعه قبل أن يتعرف طبيعة الموقف الذى يتجه اليه ليقوم بمهمته ، لم يعد لديه شك فى دقة اختيـار الموقع ، كل شىء من هنـاك يمكن رصده بسـهولة ، لو نجح فى الوصـول اليه ، وفى بطء راح ينحدر مع التـل حتى استقر فى حفرة صغيرة كاد يعثر بها ، من هنا يمكنه أن يرى جزءا من الحقيقة ، من هنا وليس من أى مكان آخر ، من قلب المخاطر المخاوف والظلام ، تحتاج العربات التى تعبر الشريط الضيق أمامه

أن تضيء أنوارها للحظـات خاطفة لتتجنب الصـدام ببعضها ولتتهيأ للدوران في المنحنى القريب ، فيمكنه أن يعدها بسـهولة ، أصوات العربات تنم عن نوعها وحجمها وحمولتها فى نفس الوقت ، وحين يصبح السائل هو المسئول ، تلتقى الثقة بالحذر ، وتوشك المعجزة أن تتحقق .

الوقت يمر ، وحركة العدو لا تنتهى ، وليس هناك ما يخافه سوى الخوف نفســه ، هل يبقى ولو تأخر عن الوقت المحدد للقاء رفاقه ، أو يكتفى بما حصل عليه من معلومات ؟

الأوامـر التى يحملهـا صريحـة بضرورة العودة فى الوقت المحدد وأوامـر عقله صريحة فى ضرورة أن يبقى مـادامت أرتال العدو تمر بغير حدود .

وحين يقرر العودة فى نهاية الحوار القصير تبرز فجأة عينا « هالة » نسبران أغواره من جديد .

فى المكان المحدد ، وتقريبا فى نفس الوقت ، توافـد أفـراد الجماعة الصـغيرة ، وفى صمت تبادلوا المعلومات التى جمعوها ، لم يكن ذلك لقاء للثرثرة ، كان كل شيء محددا وقاطعا ورائعـا فى نفس الوقت ، وتفرقوا ، بلا عواطف وهم مثقلون بها ، وأصـبح « أحمد » من جديد فى طريق العودة .

الأمل أثقل وطأة من اليأس ، ومخاوف النهاية أشد اظلاما من مخاوف البدء والطرق الوعرة هى أسهل الطرق ، وأشرطة الضوء تواصل بحثها المحموم ، والأحجار تحمل الأمن والخوف ، والظلام يخفى القاتل والمقتول ، وطلقات الرصاص التى تجيء من المجهول وتذهب اليه تبدو هذه المرة وكأنها تستهدف اللقاء المعجز بين الثقة والحذر ، وحين يصبح الخطر جزءا من المكان والوقت فأنت لا تحس الخطر مثلمـا تحس بالمكان وبالوقت ذاتهما ، ومن بعيد لمح أحمد

شيئا يلمع لمعانا خافتا رغم الظـلام ، ويتأكد من أنه يقترب الآن من القناة ، ممن العودة ، لا ٠٠ لا يجب حتى آخر لحظة أن يدع للثقـة أن تغلب الحذر ، على مقربة منه طـريق معبد ، لكنه لا يستجيب لاغراء الطريق لحظة واحدة ، ضوء خافت يلمع فى منتصف الطريق المعبد ، ويجمده الفضول والخوف معا ، ماذا هناك ؟

كمين بمثـل هـذا الوضوح وفى مثل هـذا الموقع ؟ أم عربة معطلة أم سر جديد يمكن أن يعود به فى آخر لحظة ؟؟

لم يكن ذلك جزءا من مهمته ، ولكن مهمته الآن لم تعد فى خطر ، واذا كانت ثمة أخطار فهى ما يمكن أن يحدث له وحـده ؟ القضية القديمة المعلقة تنتظر الحكم والعينان الخضراوان تعودان من جديد ، تسـخران أو ترجوان أو تتحديان لا يدرى ؟ هو وحده القاضى والمتهم والشهود والحادثة ، بمقدوره الآن أن يكتشف أكثر من حقيقة ، وأن يصنع أكثر من حقيقة ، ليس هناك الآن ما يخاف عليه غير حياته ،ولا ما يخاف منه غير نفسه ، ولا ما يرجوه غير أن يكتشف حقيقـة تلك النفس التى سـخرت يوما من مزاعمها فتاة جميلة ذات عينين خضراوين ؟ فلم يعرف ماذا يصدق ؟

هو وحده الذى يملك أن يصدر القرار الأخير ، هو وحـده السائل والمسئول ، ويمضى أحمد هادئا فى اتجاه العربة •

« الحـلم » :

حين فتح الرقيب « أحمد » عينيه أبصر وجـوه رفاقه تبرز خلال اللون الأبيض الذى يغطى كل شىء فى الحجرة ، حاول أن يمسك بالوجـوه حتى لا تفلت منه من جديد ، قبل لحظات كان يحاول عبثـا أن يتبين وجوههـم فى الزحام ، أكان يحلم قبل ذلك أم أن الحـلم ما يراه الآن ؟ حاول أن يتكلم فلم يجـد صـوته ،

حاول أن يتحرك فشدته الأربطة والضمادات قبل لحظات كان يخطب بأعلى صوته دون أن يسمعه أحد أغمض عينيه فعاد الزحام أشد ما يكون ولكنه هو عاد أخف حركة وأكثر قدرة على التحديق فى الوجوه التى تصخب فى الميادين والشوارع ، كان يقف فوق برج القاهرة والعيون كلها مشدودة اليه فى انتظار خطابه ٠

لم يكن يفهم لماذا ينتظرون منه أن يلقى خطبة أمام الجماهير مع أنه لا يجيد الخطابة ، ولماذا يقف بأعلى البرج مع أنهم قد وضعوا أمامه ميكروفون الاذاعة وعدسات التليفزيون تنقل صوته وصورته الى كل انسان وفى كل مكان ؟

أين وجوه الرفاق وسط هذا الزحام ؟ لو عثر عليهم لأمكنه أن يستوضحهم الأمر ٠٠

فتح عينيه من جديد فلم يبصر سوى وجه واحد تطل منه عينان خضراوان وسط الحجرة البيضاء ٠

هتف : هالة ؟

أجابت وهى تبتسم : اسمى سعاد ٠

ـ أين الضيوف الذين كانوا هنا ٠

ـ الطبيب أمر بخروجهم حرصا على راحتك ٠

ـ أين هالة ٠

ـ حاول أن تنام ٠٠ ثم شعر بشكة ابرة خفيفة ٠

عاد الزحام ، أشد من المدة السابقة ، قال المذيع الذى لم يبصره قبل هذه اللحظة : الجماهير تريد أن تسمع صوتك ٠

وهدرت الجماهير : نريد أن نعرف الحقيقة ٠

قل لنا ماذا حدث هناك ؟ كيف قمت بمغامرتك ؟

هالة وحدها هى التى رأت كل شىء ويمكنها أن ترويه ، لا يذكر ماذا حدث بدقة ؟ أين رفاقه ؟ هم الذين حملوه معهم فى آخر لحظة ؟ ما الذى يريد البلهاء أن يسمعوه ؟ البلهاء لا يزالون ينتظرون من يقدم لهم الحقيقة هدية على طبق من فضة لماذا لا ينتهز الفرصة ليقول لهم رأيه كاملا ، ليسمعه الجميع .

ــ نأمل أيها السادة أن نقدم لكم فى برنامج « مع الحقيقة » وجها من ..

وقاطعه أحمد :

أيها الأصدقاء : لا أحد ينوب عن أحد فى اكتشاف الحقيقة ، الحقيقة هى ما تفعله حين تواجه الموت ، والذين يتجنبون هذه المواجهة ليس من حقهم أن يسألوا ..

أصوات الجماهير تسد الأفق ، هل يسمعه أحد ؟

لماذا لا يصمتون لحظة واحدة ، ما يريد أن يقوله لن يستغرق سوى هذه اللحظة !

أحمد يواصل صراخة هذه المرة : « عندما يصبح السائل هو المسئول ، تصبح الثقة هى الوجه الأخر للحذر ، وتسقط كل الأقنعة او تظهر الحقيقة » .

لا أحد يريد أن يسمع ، الضجيج يرنفع ويرتفع كأنما ليغطى عليه ، ليفتل صوته !

من المستحيل أن يترك هذه الفرصة ، يجب أن يكف البلهاء عن الصراخ ، انه يواجـه هذه المرة خطـرا أشد من كل المخاطر السابقة ، لماذا لا يعطونه الفرصة ماداموا جاءوا ليسمعوه .

أفراد قلائل هم الذين يصنعون الهتافات والضجيج ويستغلون حماسة الجماهير بدفعهم لترديد الهتافات الصاخبة .

وسط العيون الصاخبـة تلمع عينان خضراوان ، كانت تلك « هالة » بشـحمها ولحمها هذه المرة ، تقود عربتهـا « البويك » فى الزحام ، وتحاول أن تصل اليه ، كان واضحا أن « هالة» فى خطر شـديد ، الجماهير تغطى العربة ، هل تنجح « هالة » فى الوصول اليـه ؟

هى وحدها التى تستطيع أن تروى الجزء الناقص من قصته ؟ هل جاء الى هنا ليراها تموت فى الزحام وأمام عينيه ؟

كيف لا يسعى لنجدتها وهى التى لم تفارقه فى لحظات الخطر ، الخطر هذه المرة يحدق بها وبه ، يحدق بالحقيقة التى يصر البلهاء على أن يجعلوا منها مجرد مغامرة يتسلون بسماعها ، عليه أن يواصل الصراخ فهنـاك فى القـرى البعيدة وحول أجهزة الراديو فى كل مكان يسـمعون صـوته دون شك ، أجهزة الراديو تتغلغل فى كل الأنحاء ، لا يجب أن تذهب هذه الفرصة .

« أيها الأصـدقاء ، الحقيقة هنـاك .. وليست هنا ، هناك لا تكتشفون الحقيقة فقط بل تصنعونها كذلك » .

هل يسمعه أحـد ؟ هل يفهمونه هنـاك فى القرى النائية ؟

« هالة » تطفو فوق الجماهير ، عربتها « البويك » تتحطـم ولكنهـا ترتفع ، لا يصدق عينيه ، كأنها تريد أن تقول له شيئا ،

تلوح بيدها الى بعيد ، كأنها تدعوه الى أن ينظر حواليه • كأنها ترى ما لا يراه ، ويتلفت أحمد وهو فى أعلى البرج ليبصر أمواجا بشرية هائلة تخرج من قلب الحقول فى اتجاه الشرق •

« هالة يا عزيزتى ، كنت واثقا أننا سنلتقى رغم كل شىء ، لقد تحطمت عـروبتك وتحطمت مخـاوفى فـأى شىء يمنع لقاءنـا الآن ؟ » •

ـ يا أستاذ أحمد قلت لك اسمى سعاد •• أنت متعب الآن ويجب أن تستريح • وأحس بشكة ابرة خفيفة فنام •

اغسطس ١٩٦٩

وقت الزوال

« الزوال » ليس مجرد وقت ، وعــلاقتى به ليســت مجرد علاقة ، وشغفى ليس مجرد عاطفة ! فهو كوقت يصلح بداية ونهاية ، أو يصلح أن يكون النقطة الوهمية التى تفصل بين كل بداية وكل نهاية ، وأحيــانا يخيل لى أنه يفسر الأحداث أكثر مما يحتويها ، وذلك حين يســحب عنها كل الظــلال التى تتحرك من الغرب الى الشرق !

أما علاقتى به فهى تبدأ منذ وقت بعيد ، وكأى علاقة كان يجب أن تنتهى عند حد معين ، ولكن عاطفتى نحوه ، عاطفتى التى تنطوى على الشغف والتأمل والحنين والخوف والتى بقيت حين انتهت كل الأحداث ، هذه العاطفة هى التى لاتزال تحــرم هذه العلاقــة من حقها الطبيعى ، فى أن تجد نهاية طبيعية مثل غيرها من العلاقات !!

كنت طفلا حين سمعت مع غيرى من الأطفال كلمة « الزوال »، لأول مرة ، كان « ســيدنا » يشرح لنا فى « المكتب » أول درس فى

مواقيت الصلاة ، ومع أن سيدنا كان أعمى ، وثقيل الحركة فقد بدا وكأنه أبصر دهشتنا جميعا حين نطق بوقت صلاة الظهر قائلا : « انه وقت الزوال ٠٠ » ٠

وزاد من حركة جسمه حين راح يوضح لنا ما كنا في حيرة من أمره « وقت الزوال يا أولاد هو الوقت الذى تتوسط فيه الشمس كبد السماء ، بعنى منتصفها تماما ٠٠ » ٠

وكأنما أبصر سيدنا على وجوهنا ما هو أكثر من الحيرة ، وأبصر علائم الضحك المكتوم فراح يضحكنا أكثر بقوله :

ـ يا عمى القلوب والنواظر ، لا تتعجبوا فمن السهل أن نعرف حين ننظر الى الأرض متى تكون الشمس فى منتصف السماء ٠

وراح يشرح لنا حركة الظل من الغرب الى الشرق كأنه يراه ، وحين تجىء اللحظة التى يصير فيها ظل كل شىء أسفله تماما ، يعنى لا هوفى الشرق ولا هو فى الغرب ، يعنى حين يزول الظل من الشرق والغرب معا ، يدخل وقت صلاة الظهر !!

كانت تلك هى البداية فى علاقتى بوقت الزوال ، وبمعنى من معانى الزمن ، ومنذ تلك الأيام البعيدة ، وهذا الوقت من النهار يشغلنى بغموض لفظه ومعناه ، وبما وقع لى فيه من أحداث وبما يبعث فى نفسى من عواطف لا تريد أن تنتهى !

فى البداية كنت أحاول أن أمسك بهذه اللحظة ، أقف فى وقدة الشمس فى الخلاء ، أرقب حركة ظلى البطيئة من الغرب الى الشرق حتى تجىء اللحظة الموعودة ، اللحظة التى أشعر شعورا قويا بأن الله قد خلق فيها الدنيا كلها ، أو أنه بعد أن انتهى من خلقها

اختارها لتكون لحظة البداية لحركة الكواكب فى السماء ، ولكن هذه اللحظة كانت لاتكاد تحل حتى يكون الدوران قد حل بى ، فأهتز إعياء تعبا من الوقوف والتصلب تحت وقدة الشمس ولا أكاد أسترد توازنى حتى أجد أن اللحظة الموعودة قد أفلتت ومضت خلف الظلال فى اتجاه الشرق !

وعبثا كنت أحاول أن أمسك بهذه اللحظة التى توشك فيها الظلال أن تختفى ، وأن يغمر الضوء كل شىء !

عبثا كنت أحاول أن احتفظ بتوازنى فى اللحظة التى تنتصب فيها الشمس فى منتصف السماء ويصبح الشرق والغرب مثل كفتى ميزان متوازن !

ولا أدرى متى بدأت أضيق بهذه اللعبة التى لا يشاركنى فيها أحد ، وأشارك فى لعبة أخرى يشترك فيها كل الأولاد ! ففى وقت الزوال ٠٠ بل قبله بنصف ساعة يتهيأ سيدنا لصلاة الظهر ، يغادر « المكتب » الى المسجد البعيد ، مصطحبا أحدنا ليقوده فى رحلته التى هى فى نفس الوقت فسحتنا فرغم ما يلقى به من تحذيرات وأوامر للعريف الذى ينوب عنه فى حفظ النظام حتى يعود من صلاته ! فاننا كنا نعتبر هذا الوقت فسحتنا خلال النهار ، وفى هذه الفسحة يتسلل الأولاد وعلى رأسهم العريف نفسه الى ترعة « البوهية » التى تمر بقريتنا ، وتحت شجرة توت ضخمة يتجرد الأولاد من ثيابهم فى سرعة البرق ، ويقذفون بأنفسهم فى الترعة يتسابقون فى العوم والغطس واللعب فى الماء ، ويكتشفون أجسادهم وقواهم ، ويروون مغامراتهم الجنسية المبكرة ! وكانت مشاركتى لهم فى هذه اللعبة لا تتجاوز حدود التفرج عليهم ، فتحذيرات أمى قوية وواضحة بعدم النزول فى الترعة وأسبابها

عديدة ، ما كنت أعمل حسابه منها هو خوف الغرق ولكن الأولاد لا يغرقون ، لقد تعلموا السباحة ، فلماذا لا أتعلم مثلهم ومنهم !!

لم أستطيع مقاومة الاغراء ، فمنظر الميـاه المتدفقة فى الترعة لا يعادله فى الجمال الا منظر الأولاد وهم يشقون بأجســادهم هذه المياه المتدفقة !

ســحر العوم ، ذلك ما أذكره الآن فى وضــوح ، وما أذكر تأثيره على نفسى ، حركة الجســم فى الماء ، تناسقه واتزانه فى هذه الحركة ، التــوافق بين ذراع وقــدم ، وحــركة الذراع والقــدم الأخرى ، ما يبدو من الأولاد هو نصفهم فقط ودائمــا يغيب نصف حين يظهر النصف الآخر ، حركة المياه وصوتها وهى تتوافق مع حركة اليدين والقدمين كتلة من الميــاه ترتفع بنفس المقدار حيث تغيب قدم أو ذراع ، وتتحرك الكتلة بحركة الجسد العائم فى أى اتجاه ، هذه المواكب الطافية من الجمال والروعة هو ما تخافه أمى وتحذرنى مثله !

حين قال لى أحــد الأولاد مرة : أمك لا تجىء الى هنا ، ولن نخبرها ، ثم أضاف مشيرا الى شاطىء الترعة ·· سوف أعلمك هنا بجوار الشاطىء ·· لا تخف !

اعتبرت ذلك وعدا صادقا ، ولكن مياه الشاطىء الضحلة بدت لى خالية من كل ســحر حين تجردت من ثيابى ، وبدأت العوم ، أكد ولد آخر :

ـ لن تتعلم الا هنــاك فى المنتصف ، المياه الجارية والعميقة تحملك وحدها ، وتعلمك وحدها ، ونحن معك ·· لا تخف !

وبدا لى الأمر شائقا وسهلا واندفعت الى قلب الترعة لأجدنى بعد لحظات أغوص فى الأعمــاق ، وألمس بقدمى أرض الترعــة ،

وبكل ما أملك من قوة دفعت بجسمى الى سطح المياه لألتقط أنفاسى، وأرى الدنيا ربما لآخر مرة ، قبل أن أغوص مرة أخرى فى الأعماق !

كم مرة قمت فيها بهذه المحاولة ، وكم من الوقت أخذت ؟ لا أدرى !

ولكن ثمة شىء أدريه بوضوح ·· أراه وأكاد ألمسه بحواسى كلها رغم السنين ، كنت أدرك أننى أغرق ، وأننى سوف أموت بعد لحظات ·· رأيت خلالها أمى وأبى ، رأيت حياتى كلها ، رأيتها بالعرض لا بالطول ، الأيام فيها متجاورة لا متتابعة ، رأيتها بلا زمن، لحظة واحدة ملأى بكل شىء ، ولم تكن هذه اللحظة تفقد شمولها الغريب الا فى المرات التى أقفز فيها الى سطح المياه لأبصر جزءا صغيرا مما أراه حين أغوص ، لحظة واحدة رائعة ومخيفة كأنها لحظة الزوال ، ولكنها لم تهرب منى هذه المرة !

المياه جدران زجاجية بها فقاقيع تتحرك أعلى وأسفل ، أرى من خلالها كل شىء مر بى كل شىء سوف يمر ، رأيت جسدى ملقى على الشاطىء ، ميتا بلا حراك ، وسط حلقة من الصغار والكبار ، رأيت أمى وأبى العجوزين يشقان الحلقة التى تحدق بى من الناس ، أمى وأبى كما لم أبصرهما فى حياتى من قبل فزعين مروعين ، بلا غطاء للرأس أو القدم ، ولكن هذه اللحظة كانت خادعة مثل لحظة الزوال فلم تدم ، ربما لو بقيت لأبصرت خلال الجدران الزجاجية ، والفقاقيع التى تتحرك أعلى وأسفل كل ما وددت أن أراه بوضوح فى طفولتى وربما بعد هذه الطفولة !

ما حكاه الأولاد بعد ذلك كان مختلفا ، فبعضهم يؤكد لى أنه كان فى طوقهم انقاذى بسهولة ، وأن كل واحد منهم قد أشرف على الغرق مرة واحدة على الأقل قبل أن يتعلم ، وأن المصادفة وحدها

هى التى ساقت الحاج « أحمد » جارنا الذى يبلغ الستين من عمره من الحقل فى غير وقت عودته ليرانى وأنا أطفو وأغيب فى قلب المياه فيندفع بثيابه الى الترعة لينتشلنى منها !

فتبدو المسألة وكأنه هو الذى أنقذنى !

وبعضهم يؤكد أنه لولا عودة الحاج أحمد فى هذه اللحظة لكنت من الموتى دون أدنى شك ٠

ولم ترهبنى كلمة الموت هذه ، كان وجه الحاج أحمد الذى آلفه كوجه أبى ، والذى كان يحبنى كأحد أولاده ، هو أول وجه رأيته حين فتحت عينى ، وحين بدأت أفكر كان أول ما فكرت فيه هو أن الحاج أحمد سوف يخبر أمى وأبى ، لحظتها رجوته ، توسلت اليه بدموعى ألا يفعل ، ووعدنى من خلال دمعتين تعلقتا بأهدابه أنه لن يخبر أحدا اذا وعدته بألا أنزل مرة أخرى فى مياه الترعة !

وحملنى أمامه فوق حماره الى البيت ، وفى اليوم التالى حين واجهت أمى عرفت أن الحاج « أحمد » أخلف وعده لى ، لا أذكر الآن كل ما قالته لى ، ولكنى أذكر أنها لم تضربنى ، ولم تخبر أبى ، ولكن ماأذكره فى وضوح هو أنها كانت خائفة خوفا نفذ الى قلبى ، وانغرس فيه كسكين ، كدت أقول لها :

ـ ان الموت ليس مخيفا كماتظنين ، ولكننى لم أجرؤ على أن أفتح فمى بكلمة وهى تتحدث الى حديثا طويلا لا أذكره الآن ولكننى أحسست منه أنها تخاف الموت جدا ، تخافه على وعلى نفسها ، وأنها أهدتنى هذه الخوف عليها وعلى نفسى !

بعد هذه الحادثة اكتفيت بمكانى على الشاطىء ، أرقب الأولاد وهم يتجردون من ثيابهم ومخاوفهم ، ويشقون المياه بأذرعهم ويندفعون فيها بضربات أقدامهم ، متذكرا تلك اللحظة التى كدت

فيها أن أمسك بوقت الزوال ، اللحظة التى تتجاور فيها الأيام ولا تتتابع وتعلو حوائط المياه الزجاجية كل شىء ولا يتحرك فى العالم سوى فقاقيع من أسفل الى أعلى ، فقاقيع تبصر خلالها كل ما حدث ويحدث ، تتحرك فى جمال لا يدانيه الا حركة الأجساد وهى تشق صفحة المياه فى توافق وروعه !!

أى شىء كان يدفعنى الى هذا المكان من الشاطىء ؟ متحملا سخرية الأولاد المرة ، متعذبا بخوفى من الغرق أمام عيونهم مرة أخرى !

لاتكاد لحظة الزوال تقترب ، ولا يكاد « سيدنا » يغادر « المكتب » حتى أسبق الجميع الى هناك ، الى مكانى الأمين على شاطىء الترعة أنطوى على سرى الذى لا أجرؤ على البوح به لأحد !

سحر العوم ، وسحر الموت معا ، حبى وخوفى منهما ، لماذا يتلازمان ؟ لماذا يصبحان شيئا واحدا كما تصبح كل الأيام فى لحظة الزوال •

هل أجرؤ على أن أقول لهم ، للأولاد ، كيف أصبحت أنتظر لحظة الزوال على أحد من الجمر ، وكيف تسحرنى أشعة الشمس وهى تتكسر على تموجات المياه المتدفقة فى الترعة كما يسحرنى الرذاذ المتطاير تحت ضربات أقدامهم وأذرعهم ! •• وأن الصوت •• صوت المياه وصورتها •• يتسللان الى رأسى كلما اقتربت لحظة الزوال ، ويتحولان الى نداء قوى أكاد أسمعه مختلطا بروائح العشب النامى على ضفاف الترعة ودوائر التراب التى تثيرها أقدام الماشية الذاهبة الى الغيط والعائدة منه ! تلك الدوائر التى أتابعها فى ذهول وهى تغرق فى قلب الترعة حتى تستقر فى أرضها • وتبقى هناك الى أن يخرجها الفلاحون الى الجسور فى أيام الجفاف لتعاود الرحلة

الى قلب الترعة فى فصـول الصيف ، كأنما يجتذبها ذلك النـداء الذى يجتذبنى !

فجأة قال أكبر الأولاد وهو عاريا على الشاطىء :

ـ يا بلهاء ، العوم الحقيقى ليس هنا ٠٠ ثم أشـار بيده الى حيث تبعته عيون الأولاد ٠٠

ـ انه هناك ٠٠ عند الهدار !

ثم تابع وهو يدخل فى جلبابه :

ـ الذين يعرفون العوم حقا ٠٠ هم الذين يجيئون !

ويبعه عـدد من الأولا الذين يناهزونه طولا وعمرا ٠٠ وتبعتهم متحملا مرارة النظرات والكلمات :

ـ دعوه يجىء !

ـ من يحرس لنا الملابس ؟

ـ من يتفرج علينا ؟

ـ لا أحد يغرق على البر !

ـ لا أحد يخبر أمه !

عند الهدار يوجد موت حقيقى ، وسحر حقيقى كذلك !

الهـدار بنـاء قوى يرتفـع فى قلب المـاء قرب الجسر حيث تتفرع منه البوهية ترعة جانبية صـغيرة تمتد فى قلب الحقول لريها وفوق الهـدار يقف الأولاد عرايا قبـل أن يقفـزوا فى قلب الترعة الكبيرة ٠٠ صـانعين بأجسـادهم فى قلب المياه فجوة كبيرة لا تلبث أن تستوى فوقها المياه ٠٠ المهم ارتفاع القفزة واحكامها ، المهم أن

تنتهى القفزة أبعد قليلا من الدوامة الهائلة التى يصنعها تدفق المياه فى فتحة الهدار ، فلو أخطأ أحدهم تقدير المسافة ! ولو سقط فى قلب الدوامة فلن يستطيع أقوى الرجال أن ينقذ نفســه أو غيره ، فالدوامة سوف تجتذبه حتما الى فتحة الهـدار ليســدها أو ينفذ فيها بجسده وهو فى كل حالة هالك لا محالة !

هنا السحر والموت والبطولة جميعا ، هنا وجه الماء أحفــل بالاثارة فالتيارات الجانبيــة والحلزونية التى تصنعها الدوامة تصنع آلاف التموجات الرقيقــة والعنيفة هنــا أو هناك ، وتحول أشـعة الشمس الى آلاف الومضات الحافلة بالسحر والاثارة ، هنا صــوت المياه متعدد الطبقات ، متعدد المصادر ، يصطفق فى أعلى الترعة حين تشتد الريح ، ويخـر من فتحات الماسورة التى بليت ، ويهدر فى مدخلها ومصبها ، ولكن صوته حين يصب منها فى الترعة الجانبية أوضح وأخفت منه حين يندفع الى فتحة الهدار كأنه نداء مكتوم !

هنا مـوت حقيقى وسـحر حقيقى كذلك ! ولـكن الأولاد لا يمـوتون ·· يتجردون من ثيابهم كأعـواد البوص ، ويقفـزون كالأسـماك والطيور ويختفون فى المـاء كأنهم لم يـكونوا ، وفوق أجسادهم الغائصة يواصل الماء تدفقه ، وجريانه ، غير عابىء بتلك الأجساد الغريبة التى تشـقه وتتحرك فى داخله وفجأة يظهرون ، الرأس أولا ، وأحيانا تظهر الذراع أو فقرة فى الظهر ·· والفارس حقا هو الذى يظهر أخيرا ، هو الذى يقاوم الى أقصى حد ضغط المياه ، وحاجتــه الى الهواء وتتحول الثوانى الى دقائــق ، واللحظـات الى خفقات تصخب فى صــدرى ، فالحد الفاصل بين أن يصبح أحــد الأولاد فارسا أو غريقا لا يكاد يحس !

ولكنهم جميعا يواصلون الظهور فوق سـطح الماء ، يمتطون سطوة المياه ، يضربون بأذرعهم وأقدامهم فى قوة واقتدار ، يتبخترون

كالعرائس ، ويصبحون جزءا لا يتجزأ من ذلك السحر الحقيقى ، بل يصبحون أكثر الأجزاء روعة وكمالا !

لا أحد يموت سواى ، هنا على البر أغرق فى الخجل والخوف والنشوة ، وأيضا فى كلمات أمى ، لو كانت أمى من النساء اللاتى يخرجن الى الترعة .. لأحست مثلى بروعة المياه ولكانت أقدر على أن تفهمنى لو بحت لهـــا بالسر ، سر ذلك النـــداء الخفى الذى يجتذبنى الى هناك فى لحظة الزوال ، والذى أصبح الآن يجتذبنى فى كل لحظة من النهار !

فنداء الهدار أقوى وأعمق وأحفل بالروعة والاثارة !

هل ذلك النداء نفسه هو ما يجتذب الأولاد الى الهدار ؟

وهل يوشك الولد الذى يبقى غائصا أطول وقت ممكن أن يمسك بلحظة الزوال الغامضة ؟

هل أبصر مثلما أبصرت كيف تصبح الأيام كلها لحظة خاطفة زاخرة بكل شىء ؟

وهل يفهمنى اذا حكيت له ؟ أم يواصـــل نظراته الســاحرة وتصبح مخاوفى وأوهامى حكاية يتندر بها الأولاد ؟

أم أن لحظة الزوال لا تبــوح بسرها الا لمن يشرفون على الغرق حقا أو يغرقون ؟

لماذا لا أجىء الى هنا فى غير الوقت الذى يجىء فيه الأولاد ؟
متى بدأ هذا السؤال يقلقنى ؟

لا أذكر ، ولكننى أذكر الآن أنه بـدأ يلـح فى الأيـام التى ترتفع فيها مياه الترعة الى حافة الجسر ، حين يحل دور الرى مرة

كل أسبوعين ، تواصل المياه ارتفاعها وجمالها الآسر ، ويواصل الهدار نداءه المكتوم ، ويواصل قلبي دقاته ، يرتفع فيه الشوق والحنين الى رؤية المياه وهي توشك أن تغرق الهدار ذاته !

وأتسلل وحدى هذه المرة فى غير وقت الزوال ، أتوقف مسحورا أمام الهدار ، حيث يبدو سطح الماء صافيا متألقا ، أهنا يكمن الموت فى قلب هذا الجمال ؟ كنت أدرك أننى سأموت حقا لو فعلتها وحدى ! وقبل أن أتعلم العوم ولكن الموت الذى كنت أعرفه لم يكن مخيفا كهذا الموت الذى رأيته فى عيون أمى ، فى خوفها منه ، أيوجد فى هذه الدنيا موت كثير ؟

مرة وأنا فى الفراش ، بجوار أمى ، فى سكون الليل تناهى الى أذنى صوت الهدار ، وتراءت لى صورة المياه فى ضوء القمر ، وازددت التصاقا بأمى ، كدت أسألها اذا ما كانت تسمع شيئا ، كدت أبوح لها بسرى ، بما يشدنى الى الهدار ، وبما يبعدنى عنه ، وبأننى سوف أموت غرقا حين أذهب ، وخجلا حين أهرب ، وسوف أتمزق لا محالة حين أبقى مترددا بينها وبينه !

ولكننى لم أقو على أن أفتح فمى بكلمة واحدة !

فى المساء أسلم نفسى لأمى ، وفى الصباح أسلمها للهدار ، ليس فقط فى ساعة الزوال تكرر خروجى من « المكتب » ألتمس الأسباب والأعذار للخروج ، وأمضى الى الزوال هناك تشدنى قوى غامضة ، أتوقف أمام الهدار ، أرى وأسمع وأشم وأرتعد خوفا ونشوة ، وأحيانا أبصر نفسى عاريا فوق الهدار ، قافزا فى رشاقة واحكام أبعد قليلا من الدوامة التى تدور بلا تعب ، بلا توقف ! أسبح مثل كل الأولاد ، أحقق التوازن الرائع ، أصبح جزءا من الجمال الذى أراه ، تتوافق حركات يدى وقدمى ، أعارض التيار حينا

وأسايره حينا حتى أصل الى الشاطىء الآخر ، أتقلب فى ترابه كما يفعل الأولاد ثم أعود متخلصا من التراب والخوف جميعا !

ويمر فلاح عجوز خلف بقرته ، وينظر متعجبا :

ــ لماذا تقف هنا ؟ هل ضاع منك شيء ؟

ولا أحد يقف فى هذا المكان الا من يريد أن يعوم أو يعبر الترعة !

وأكتشف أنه ليس من السهل أن أجيء كل يوم ، وأظل واقفا فى نفس المكان • فلن يفهم أحد معنى هذا الوقوف ، وتتكرر رؤية الناس لى ، ويتكرر سؤالهم ، وتنتقل النظرة الساخرة من عيون الأولاد فى المكتب الى عيون الناس فى القرية ، هل توجد فى النهار ساعة لا يمر فيها أحد بالهدار ؟

نعم انها ساعة الزوال يوم الجمعة ، فى هذه الساعة تذهب قريتنا كلها الى المساجد الصغار قبل الكبار ••

فى هذه الساعة أتسلل الى الهدار ، فأبى مريض ولا يذهب فى هذه الأيام لصلاة الجمعة ، ولن يكون هناك من يحملنى على الذهاب الى المسجد ، وفعلتها فى أول جمعة !

وجدتنى أتسلل الى هناك ، أتوقف أمام الهدار وهو يكاد يغرق ، لا أحد يمر ، وبدأت أتلفت يمينا ويسارا ، لا أدرى هل أخشى أن يرنى أحد ، أم أرجو ذلك ، فى مرات سابقة كنت أبدو كما لو كنت أنتظر كلمة واحدة من أحد المارة لأستند اليها وأعود ، لأتخلص من سحر الهدار وقبضته القاسية ، أما اليوم فلا أحد هناك سواى ، وسوى الهدار ، وتقترب لحظة الزوال ، ويوشك ظل الهدار أن يختفى ، والمياه فى تدفقها الدائم تكاد تغرق الشاطىء نفسه ، واحساس غامض بالنشوة والخوف ، يغرقنى السكون الشامل يحيل

أصوات الهدار المتعددة المصادر والطبقات الى أغنية شاملة للحقول كلها ، للقرية للأرض وللسموات ، أغنيــة تتسلل الى حواسى ، تجرى فى دمى ، تدق فى صدري ، الحقول تنتصب خلالها الزروع والأشـجار تتطاول لتبصر صـفحة الماء المرتعشة بآلاف التموجات الرقيقة والعنيفـة ، لتبصرنى وأنا واقف أمام الهـدار ٠٠ لتبصر اللحظة الفاصلة فى علاقتنا !

قفزت من فوق الهدار ، وسبحت الى البر الثـانى ، وعـدت متخلصا من ترابه وخوفى عشرات المرات ، وأنا جامـد فى مـكانى لا أتحرك ٠ ولا يتحرك حولي ظل انسـان أو حيوان ولا يتردد سوى صوت الهدار المتعدد المصادر والطبقات ، وحين امتدت يدى حقيقة لترتفع بذيل جلبابى ، ارتفع فى سماء القرية صوت حادثاقب ، خلته صوت المؤذن لصلاة الجمعة ، يعلن أن لحظة الزوال قد حلت ، ولكن الصوت الحاد الثاقب يتكرر ارتفاعه وانخفاضـه فى ايقاع يختلف عن ايقاع الأذان ، ذلك الصوت أعرفه ٠٠ وآلفه ٠٠ يرتفع فى قريتنا حين تحل كارثة ، يموت انسان أو ينطلع حريق ، أو تهلك ماشية ، وتلفت أبحث فى سماء القرية عن لون الدخان أو رائحته ، فلم أجد ٠٠ هو الموت اذن ٠٠ وعدت أتلمس مكان الصـوت الثاقب الحاد ، ولم أصدق حين لاحظت انه ينبعث من ناحية شارعنا ٠٠ بيتنا ٠٠

أيمكن أن يكون أبى ٠٠ ؟ ولم أكمل السؤال ٠٠ ولم يكن هنـاك من أسـأله ! تراخت يدى عن ذيل جلبابى ؛ ابتلع الصـوت الحاد الثاقب كل صوت ، ابتلع صوت المؤذن وصوت الهدار معا ! تراخت قبضة الهـدار على قلبى وبقيت قبضة الخوف ، خوف حاد ثاقب لانشوة فيه ولا سحر !

مضيت صوب القرية ، أنتزع خطواتى فوق التراب السـاخن ، أهتدى بالصـوت الثاقب الحـاد ، أتأكد فى كـل خطـوة من مكانه

المشئوم ، شارعنا ، بيتنا ، لا أحد هناك أستوضحه الرجال فى المساجد ، النساء فى البيوت ، كلب وحيد يطارد عنزة ، وحين يلحق بها تتوقف فجأة وتنطحه بقرنها فيهرب أمامها ويكف عن النباح ، طفل يلعب فى التراب أمام داره ولا يعى شيئا ، امرأة تسأل جارتها من فوق السطوح عن الميت فتجيب عن سؤالها بسؤال ، لم أكن أدرك أن دارنا بعيدة هكذا فى أقصى القرية ، لم أشعر بالطريق وأنا فى طريقى الى الهدار !

الناس فى المسجد القريب من شارعنا أنهوا صلاتهم بسرعة جميعهم يتجهون الى شارعنا بدلا من أن يتجهوا الى بيوتهم ! لا أقوى على السؤال ولا أحد يتطوع بالجواب ..

كأنهم جميعا يبحثون مثلى عن الجواب فى شارعنا .. فى شارع الموت !

سرت مع السائرين ، توقفت حين توقفوا ، الصوت الثاقب الحاد ينبعث من بيت جارنا الحاج أحمد !

ـ الله يرحمه ، كان فى أحسن صحة !

هو الذى مات اذن ؟

هو الذى فعلها فى حياته وفى موته !

الناس يجلسون أمام البيت ، يعزون ويتقبلون العزاء ، ولم أجلس حيث جلسوا ، دخلت حيث يدخل أقاربه .. أقرب أقاربه .. دخلت الى الحجرة التى قالوا انه مسجى فيها ، لم أكترث بنظرات الاستنكار فى عيون النساء والرجال من أقاربه !

ولم أتوقف حين امتدت بعض الأيدى وبعض الكلمات ..

ـ الى أين ؟

.. كنت أريد أن أراه .. أن أرى الموت ...

بدا لى وهو راقد فى فراشه ومغطى بملاءة بيضاء كثر طولا

ـ ماذا تفعل ؟

لم أجب على السؤال الذى ارتفع من هنا وهناك ، كنت أقبل الوجه الساكن البارد ، وأحاول عبثا أن أبصر شيئا وراء العينين المغمضتين ...

لا أحد غيرى وغيره يعرف السر الذى بيننا ، السر الذى أعلنه الموت .و طواه الى الأبد !

كنت واثقا أنه لن يخبر أمى هذه المرة ، ولكننى أنا الذى سوف أخبرها فى وقت قريب وقت تحدد فى نفس اللحظة التى قبلته فيها ، وأعدت فيها الغطاء على وجهه لينام نومه الطويل !

★★★

بعد شهور من موت جارنا الحاج أحمد قلت لأمى بلا مقدمات :

ـ اليوم كنت أعوم فى ترعة البوهية !

ثم أضفت :

عبرتها عدة مرات ! أتسمعين ؟ عدة مرات !

ـ ماذا تقول ؟ أنت ؟ كيف ؟

ولم أجب ، كان مجرد وجودى أمامها ردا !

قالت أمى كلاما كثيرا لم أسمعه ، كنت مأخوذا بملاحظة شىء آخر غير كلامها ، شىء فى عينيها .. أعماق عينيها ، أبصرت خوفها القديم العظيم على وعلى نفسها يومض فجأة كحريق ثم ينطفىء !

★★★

كنت أعتقد أن علاقتي بوقت الزوال سوف تجد نهايتها الطبيعية مثل غيرها من العلاقات !

ولكن عاطفتي نحوه ، عاطفتي التي تنطوي على التأمل والشغف والحنين والخوف لا تزال تحرم هذه العلاقة من أن تجد مثل هذه النهاية !

منذ شهور قليلة وجدتني أروى لأمي العجوز التي لا تزال تعيش معي هذه القصة من جديد !

قالت : أمي

ـ يرحم الله جارنا الحاج أحمد .

وراحت تروى ذكرياتهنا عنه ، وفجأة صمتت أمي قائلة :

ـ لكن ما الذي جعلك تذكر هذه القصة في هذه الأيام ؟

ولم أجد ردا !!

(١)

مهمة غير عادية

مهمة غير عادية

كان الوقت صباحا ، وقت توجه الناس الى أعمالهم ، وبالنسبة له كان هو الآخر متوجها لعمله ٠

لم يكن (فيما يشعر هذا الصباح) متوجها لعمل روتينى ٠

كان يدرك على نحو ما انه فى طريقه لمهمة ذات طابع خاص ، مهمة غير عادية تحتاج الى حشد الطاقة والاهتمام ، تحتاج الى أن يكون معدا بكل ما قد يضايقه نقصانه٠٠ تنبه الى أنه نسى سجائره ، عرج الى أقرب محل للبيع ، ألفى البائع منهمكا فى عد نقوده ، ربما لحصر ما لديه من الفكة ، أعطاه قطعة من النقود وهو يقول : أريد علبة سجائر « كنت » ٠

تفحص البائع قطعة النقود دون أن ينظر اليه ، ثم طالعه بوجه غاضب كالح ورمى بقطعة النقود الى رصيف الشارع وعاد لعد نقوده ٠

للحظة تحير فيما ينبغي أن يفعل : أيتشاجر مع البائع لقلة ذوقه ؟ أم يسأله لم فعل ما فعل ؟ أم ينقذ نقوده من الضياع ويمضى فى طريقه متجنبا الدخول فى مهاترة مع البائع النكد ؟

وحسم تردده شعوره بأن وراءه مهمة ذات طابع غير عادى ، فالتقط قطعة نقوده من على الرصيف واستمر فى طريقه · ! عاد يتأمل قطعة نقوده ، قد تكون زائفة ، خدعه بها أحدهم ، تأكد له انها قطعة نقود عادية ، لا شيء فيها يثير الغرابة ، داخله شعور خفى بالتشاؤم ، أن يبدأ صباحه بمثل هذا الوجه النكد ، أراد أن يضع حدا لتشاؤمه بتجربة شراء جديدة لسجائره من محل آخر بقطعة النقود نفسها ·

كان البائع هذه المرة منهمكا فى البيع لبعض زبائنه فأخذ منه قطعة النقود وألقى بها فى درجه وأعطاه علبة السجائر ، استرد بعض هدوئه وطمأنينته هذه المرة ، ولكن ليس الى حد كبير ، فالبائع الثانى لم يتفحص قطعة النقود ، وربما لو فعل ؟ ··

يبدو أن المهمة غير العادية التى يتوجه اليها هذا الصباح هى التى تشد أعصابه ، وتجعله يعطى هذه التوافه أكثر مما تستحق !

راح يطمئن نفسه وهو يواصل السير فى اتجاه مهمته ، أولى به أن يفكر فيها « أن يحتشد لها ، ولكنها « المهمة » توشك أن تغيب عن رأسه فى ضباب ذلك الصباح المنذر ، فى وجوه المارة التى تبدو له فى هذا الصباح غريبة ومتجهمة ، لماذا يختار مثل هذا اليوم لمثل هذه المهمة ؟

الطريق نفسه سوف يكشف عن غابته ، ويذكره بمهمته ، سوف يتبخر الضباب وبعد قليل تشرق الشمس صافية وضاحية ، ويبصر طريقه ·

لكن احساسا بالجوع يتسرب اليه بوضوح ثم بحدة ، ويذكره بأنه ترك بيته على عجل دون افطار ، ليس هناك شيء كالافطار ينبغى أن يتزود به لمهمته التى لا يدرى متى يعود منها ، وسوف يكون ذلك اختبارا آخر لصحة النقود التى يحملها معه · لا ينبغى أن يحمل نقودا زائفة وهو ذاهب لمثل هذه المهمة ·

عرج هذه المرة على مطعم فاخر خيل اليه انه كان يمر به دائما فى طريقه دون أن يفكر فى الدخول اليه والتعامل معه ، كان وجه صاحب المطعم غريبا حقا ، يجلس الى صدر المكان على طاولة فخمة بثياب شبه رسمية ، وسمت غريب ، ويتكلم لغة غريبة مع عماله وموظفيه ، لم تكن أناقة المطعم ونظافته وحداثة نظامه هى التى أذهلته فقط ، ولكن وجوه الزبائن والطريقة التى يأكلون بها ، طريقة تضج بالشبق والمتعة وعلى الموائد تتطاير الضحكات ، وبينها يتحرك الخدم بثيابهم الرسمية وبرشاقة لافتة للنظر وبأطباق عليها طعام غريب ، العيون تضج بشهوة الطعام . كأن الطعام متعتهم الوحيدة ، يجلس الى مائدة خالية ، لا يفهم كلمة واحدة من كلام النادل الذى اقترب منه متوددا ومبتسما وهو يشير الى قائمة الأطعمة ، التى أدرك فى هذه اللحظة انها مكتوبة بلغة لا يفهمها ، تحير قليلا ، يعرف انه فى هذا الطريق تكثر محال الأطعمة الأجنبية ، لكن ليس الى حد أنه لا يعرف لغة واحدة مما تستعملها . وكانقاذ للموقف ، أشار الى الطعام نفسه الذى يأكله الآخرون ، حين جاء اليه النادل بالطعام تأكد له ما كان قد بدأ يشك فيه خلال انتظاره !

لم يكن ما قدمه له يشبه أى نوع من اللحوم المألوفة ، لا لحم طيور أو حيوانات . لحم من اذن ؟ أو لحم ماذا ؟ الجميع يأكلونه بتلذذ غريب ونهم ، لا يمكن أن تكون الطريقة الوحيدة لاختباره هى أن يأكل بالفعل ؟ وماذا لو تأكدت هواجسه بعد أن يكون قد وقع فى خطيئة أكله ؟ ولكن كيف يتأكد وهو لم يذق يوما أبدا هذا الذى يخشى أن يكونه هذا الطعام اللعين .. !

يا له من صباح غريب ، بل يا له من يوم ! ماذا لو أدركوا انه هو وحده الذى لا يأكل ؟ لا يمكن أن يتدخلوا فى حرية الناس الى هذا الحد ؟ أين الخبز ليتظاهر بأكله فقط ... ولكن لا وجود هنا للخبز ولا لشىء آخر سوى اللحوم ، لحوم يشعر شعورا غامضا

بأنها لنوع من البشر يبدو أن هذا النوع من المحال الأجنبية تتخصص في استيراده وانضاجه بطريقته الشهيرة ، كيف لم ينتبه لما كان يسمعه عن وجود مثل هذه المطاعم التي يبدو أنه تورط في واحد منها ؟ ...

قام على الفور .. تاركا طعامه ... مقدما لصاحب المطعم قطعة أكبر من النقود ، اعتقد انها تغطى تكاليف الطعام الذى لم يمسه وتزيد .

لم يكد الرجل الأنيق الغريب المتصدر للمطعم يتسلم منه قطعة النقود ويتأملها حتى هب واقفا وعيناه تتسعان بذهول غريب ، ولأول مرة يتكلم بلغة يفهمها كان يتكلم بلغة أهل البلد هذه المرة .. قال له كمن يهمس بسر وهو يعاود تأمل النقود .

ـ معك الكثير من هذه العملة ؟

وقبل أن يسمع منه اجابة عاود الحديث .

ـ مستعد لأن أشترى منك هذه القطعة بمائة من مثيلاتها .. من عملة هذه الأيام .

ثم استطرد دون أن ينتظر توضيحا :

ـ طبعا أنت تعرف كل شيء ، ولهذا جئت لمحلنا ؟

ثم بنظرة بين الشك والرجاء ...

ـ لا تصدق أن هناك من يمكن أن يعطيك أكثر مما أقدم لك .. !

ـ اذا كنت تشك فى كلامى فسوف أعطيك فرصة للسؤال ولكنها لن تكون طويلة جدا . تذكر هذا ، فموعد بيع هذه العملات النادرة يقترب ... أنت تعرف كل شيء ، وثق انني لا أخدعك ! .

ـ لكى تتأكد من صدق كلامى ٠٠٠ خذ هذه النقود المائة فى مقابل قطعتك ، وفكر وهى معك ، دبر أمرك وهى معك ، ثم عد الى فى الوقت المناسب ٠

ـ تذكر أننى لن أنتظر الى ما لا نهاية ٠٠٠ لأشترى منك بقية القطع التى لديك ٠٠٠

كانت هذه آخر كلمة سمعها وهو يخرج من المطعم الغريب الذى لم يذق فيه طعاما ، وخرج منه بثروة لم تكن تخطر بباله ٠٠ ! لم يكن يوما غنيا ، ولم يملك رصيدا فى بنك ٠٠٠ كان دائما مشغولا بمهام غير عادية لا تدخل فيها النقود أبدا ، ما الذى يجرى فى هذا الصباح ؟ فى هذا الشارع الذى كان يظنه يعرف كل شىء فيه ٠ ؟!

النقود التى فى يده حقيقة واقعة ، أصبحت ملكا له يمكنه أن يشترى بها من أى مكان آخر الطعام الذى يسيغه ، يالسحر النقود وقدرتها على التنوع والتلون والتكاثر ، لو كان يعرف لحصل كل ما عنده من نقود فى البيت فى جيوبه كلها ٠٠٠ ولكن ما الذى عرفه حتى الآن بحق الله ومن ذا يصدق ؟ الرجل الذى رمى بنقوده الى عرض الطريق ، أم ذاك الذى يشتريها بمئة ضعف ، لم لا ينجاب ذلك الضباب ليرى الحقيقة ؟ وما الفرق بين النقود التى أخذها والتى دفعها ؟ لم لا يتأكد من الأمر فى أحد البنوك القريبة ؟ ولكن بيته الآن أقرب من أى بنك ٠٠٠ فليعد اليه ، وليستبدل كل نقوده أو بعضها ، وليتأكد فيما بعد ، فالرجل كان صريحا وصارما فى وعده ووعيده بأنه لن ينتظر طويلا ، وما هو آخر موعد لبيع هذه العملات النادرة ؟ وأين ؟ وكيف لم يعرف ان ما كان يمتلكه من هذا النوع النادر ؟ لأول مرة يبدو لنفسه غريبا كأنه من أهل الكهف !

هل يتسع الوقت لهذه التساؤلات البلهاء ؟ النقود التى فى جيبه ، فى يده التى فى جيبه ، تحسم كل تردد ، وتسوقه الى بيته ،

عائدا الى بيته . المهمة التى خرج لها فى هذا الصباح ، المهمة غير العادية يمكنها أن تنتظر قليلا . أما هذا الرجل المجنون فمن يقنعه بالانتظار ؟

عاد الى بيته مهرولا .. كان يظن أنه وحده الذى يهرول ، ولكنه لاحظ أن معظم المارة يهرولون أيضا ، كيف لم ينتبه الى مثل هذه المسألة من قبل ، يتصبب عرقهم ولكنهم يهرولون ، لا أحد يبصر الآخر ، يصطدمون ببعضهم ولا أحد يتوقف ليعتذر للآخر أو ليعينه على الوقوف لو سقط .. هذه هى العمارة التى يسكنها ، هذا هو المصعد ، هذه هى الشقة ، يضغط على الجرس ، تفتح له سيدة جميلة جدا ... فى عينها نظرة زوجة تسأل زوجها عن سر عودته المفاجئة قال لها وهو يدخل حجرته الخاصة : نسيت بعض الأوراق الهامة وجئت لآخذها ... تأكد له وهو يبحث فى أدراج مكتبه عن النقود التى كان يمتلكها أن السيدة الجميلة جدا والتى فتحت له باب شقته هى بعينها « مآثر » التى كان يحبها ويتمنى أن يتزوجها فى بداية شبابه ، هى الآن زوجته بالفعل .. هى التى فتحت له باب شقة كان طوال حياته يحلم بمثلها ، « أطفالى الصغار هناك يلعبون فى حجرات فسيحة » ، انهم أولاده نفسهم ولكنهم أكثر نظافة وأناقة وحيوية ، والأثاث بالترتيب نفسه الذى تركه هذا الصباح ولكنه كله لامع فاخر أنيق ، شقة الأحلام هذه كيف تبدلت فى مثل هذا الوقت الصغير ؟ وأين ذهبت زوجته الأخرى وشقته الأخرى وأولاده وقد تركهم فى المكان نفسه منذ قليل ؟

هل يتسع الوقت لكل هذه الأسئلة ؟ لماذا يبدو كل شىء عجلا وغريبا فى هذا الصباح ؟

ـ هل وجدت ما كنت تبحث عنه ؟

قالتها « مآثر » وهى تواصل عملها فى ترتيب البيت .

ــ ثم أضافت بلهجة اعتيادية :

ــ هل لهذه الأوراق صلة بمهمتك اليوم ؟ ..

قال بلهجة من يكذب لأول مرة :

ــ نعم .

ــ اذا تأخرت لأي سبب فلابد أن تتصل لأطمئن عليك .

ــ طبعا ...

ثم خرج ... شاعرا بأنه يقترب من لحظة غير عادية ، ربما كانت تلك هي المهمة غير العادية التي خرج من أجلها هذا الصباح ، كان لا يتذكر تفاصيل هذه المهمة التي تملأ وجدانه منذ ليال طويلة ... واعتقد أنه سوف يتذكر كل شيء عنها وهو في الطريق اليها ... كان ذلك حين غرقت الشوارع في ضباب كثيف هذا الصباح ثم تداعت الأمور ، خرج الى الشارع وقد ملأ جيبه بكل ما كان يملك من نقود . انه هو الشارع نفسه . لقد انجاب الضباب لتحل مكانه عواصف ترابية تتعذر خلالها الرؤية ، لكن مما يسهل مهمته رغم كل شيء أن المحل في الطريق نفسه . هذا هو البائع الأول ... الذي رمى بنقوده الى الأرض ... هذا هو البائع الثاني الذي قبلها بقيمتها نفسها ... لكن أين صاحب المطعم ؟

بل أين المطعم ؟ لا وجود لأحد ولا لشيء ... معارض ، بوتيكات ، محال للأقمشة وللأحذية ... معارض ، وجوه أجنبية ، ولهجات غريبة وشارع لا ينتهي وعواصف ترابية تتعذر معها الرؤية !

هل تأخر عن الموعد ، لم يحدد الرجل موعدا ، فقط قال له لا تتأخر . كم الساعة الآن ؟ الساعة في يده تشير الى الثامنة ...

في محل لبيع الساعات كانت ثمة ثلاث ساعات كبيرة تشير الى أزمنة مختلفة : العاشرة ، الثانية عشرة ، الرابعة ..

الشمس وحدها تشير الى الوقت الحقيقى ، ولكن الشمس كانت قد اختفت خلف عواصف التراب ، هذا يوم يجب أن يكون فيه كل امرىء ببيته !

لا ينبغى أن يقامر بالابتعاد كثيرا عن بيته الى حد يتعذر معه الرجوع . لكن كيف يعود خالى الوفاض بالرغم من الفرصة التى أتيحت له ؟ ليواصل السير ما دام لا يزال فى الطريق نفسه ... فالشـــوارع رغم العواصف الترابية لا تزال تغص بالناس الذين يهرولون ويصطدمون ولا يعتذرون أو يتوقفون .

أخيرا يلوح له محل الأطعمة الغريبة ، صاحب المحـل بثيابـه الرسمية وسمته الأنيق الغامض ، يتصدر المكان على طاولته الفخمة . الزبـائن ، النـدل ، الطعام الغريب . والضحكات الشيقة ، يتوقف أمام صاحب المحل ، أمام منضدته ، لا يمكن أن يكون قد نسيه بمثل هذه السرعة ، يعطيه ما معه من النقود ليعاونه على التذكر ، يتأملها الرجل ويرفع اليه وجها نكدا ملوحا ، هو الذى يتذكر هذه المرة أن هذا الوجه هو وجه البائع الأول نفسه ، وقد ارتدى الملابس الرسمية الأنيقة وكأنه يتنكر فيها ، لا ... لا يمكن أن يكرر فعلته ... ولكنه فعلها ، رمى بالنقود التى أعطاها له ... رمى بها كلها الى العواصف الترابية فى الطريق العاصف المترب ...

عبثا حاول أن يخطف نظرة الى قلب المحل لعلـه يجد الرجل الآخر الذى أعطاه الموعد وأعطاه النقود ... وتجمد فى مكانه حين رآه ... نعم رآه ... جالسا الى أحد المناضد يأكل بالنهم والتلذذ نفسهما ، وبجواره سيدة جميلة جدا تشاركه الطعام والضحكات ،

كانت هى بعينها السيدة الجميلة التى فتحت له باب شقته منذ لحظات ، السيدة « مآثر » التى حلم طول حياته بأن يتزوجها ٠

كانت لحظة كالزمن كله ٠٠٠ ماذا ينقذ ؟ والى أين يتجه ٠٠٠ ولو فكر فى مجرد العودة الى بيته فهل يمكن أن يجده فى المكان نفسه ؟ ومن تكون زوجه هذه المرة ؟ ٠٠٠ وكان عليه أن يتخذ قرارا بأسرع من لمح البصر ، وخطر فى ذهنه فى لمحة عابرة انه ربما تكون هذه هى المهمة « غير العادية » التى خرج من أجلها هذا الصباح ؟ ولكنه يذكر رغم كل شىء انه كانت هناك مهمة اخرى وانسان آخر ٠٠٠ ولعل هذه مهمة غير عادية جديدة ٠

عزيزى القارىء ٠٠٠

يمكنك دون شك أن تستمر فى قراءة هذه القصة ٠٠٠ بل وفى كتابتها كذلك ٠٠٠ ذلك اننى قررت فجأة أن أتوقف عند هذا الحد فى كتابتها ٠٠٠ لأسباب لا أجد أى معنى لذكرها ! ٠٠

أصوات فى الليل

ضاعت معالم الصوت الذى أيقظه فجـأة من نومه ، ضاعت فى اللحظات الفاصلة بين النوم واليقظة ، ولم يتحرك فى سريره حركة واحدة متوقعا أن يتكرر الصوت أو يتـكرر ما يكشف عن طبيعته ... ولكن شيئا ما لم يحدث ... ومع كل لحظة تمضى كان سكون الليل يزيد الهوة بينه وبين معالم الصوت الضائع ... بقيت أصوات الليل الرتيبة تتردد فى هدوء ... صوت المنبه يأتى من الصالة فى انتظام ، أنفاس زوجته النائمة بجواره تتردد فى ايقاع يشى باستغراقها فى نوم عميق ! بالتأكيد لم تسمع الصوت نفسه ! أكان هذا الصـوت جزءا من حلم رآه هو وحده .. ؟ عبثا حاول أن يتذكر هذا الحلم ، أمكنه أن يتذكر بعد قليل أن الصوت كان يشبه صوت سقوط جسم وانكساره .. طبق أو ما أشبه .. ! ولكنه تذكر فى اللحظة نفسها انه أغلق باب شقته قبل أن يأوى الى فراشه كما أغلق كل النوافذ ، مستحيل أن يكون ثمة لص فى شقته فحوادث السرقة فى الحى الذى يسكنـه شبه نادرة ، فمن يجرؤ على اقتحام شقة فى عمارة كبيرة بها ما يؤكد وجود أصحابها ، ففى

الصالة لمبة خمس شمعات تبقى مضاءة طول الليل ... حتى اذا استيقظ أحد الأطفال ليلا أبصر طريقه الى دورة المياه دون خوف ! وأسرة البواب ذى الستة أولاد تحتل مدخل العمارة . ربما استيقظ أحد أطفاله هو ليشرب فأسقط كوبا أو طبقا من مكانه ، ولكنه كان لابد أن يسمع صوت أقدامه وهو عائد الى حجرة نومه ! بالتأكيد ان ما سمعه كان صوتا فى حلم ، لماذا يصر على تذكره ؟ أيسر من تذكر الحلم أن يترك فراشه ليطمئن على أن كل شيء على ما يرام فى شقته ثم يعود الى النوم ! برودة تلك الليلة أبعدت هذا الخاطر عن رأسه لو أسلم نفسه مرة أخرى للرقاد لانزلق بسهولة الى الحلم الذى أيقظه وآنذاك يمسك به ، بذلك الحلم المراوغ من جديد ، وسحب البطانية على رأسه ، وأغمض عينيه ، واستسلم للنوم !!

« راح يهبط فى سهولة درجات سلم العمارة كما لو كان ينزلق عليها ودون أن يخشى السقوط ، ضوء الصباح الباكر ينير طريقه على السلم ، أبواب الشقق مغلقة وساكنة لاتزال ... لاحركة وراءها ... يرتدى ثياب الخروج كاملة ، لا يحمل حقيبة أوراقه الخاصة ، عم محمد البواب يفرك النوم عن عينيه فى مدخل العمارة لا أحد يمكنه الدخول أو الخروج دون أن يشعر به ! « عم محمد » ضخم الجثة ، كثيف الشارب ، جلبابه المفتوح على صدره حتى فى أيام الشتاء يكشف عن غزارة شعر صدره ... شعره كله أبيض عدا شعرات فى شاربه صفراء من التدخين ، مظهر القوة البادى على « عم محمد » لا يتسق مع شحوب وجهه ، وبطء حركته ، وتثاقل صوته حين يهم بالكلام ، أولاده الستة يتكومون فى الحجرة الجانبية الواطئة فى مستوى بدروم العمارة .. حراس العمارة لا يزالون نائمين تسترهم أسمال بالية ، ويحرسهم من برودة البلاط وبرودة الجو حمل صوفى وحيد تتجاذبه الأقدام والأيدى طوال الليل ، وفى النهار يتخذه « عم محمد » متكأ له فى جلسته

المهيبة أمام مدخل العمارة ! « عم محمد » وحده هو الذى ينام فى المدخل ذاته غير عابىء ببرد الشتاء ، يلوذ بمقعد رخامى كأنه تمثال مصرى قديم ملقى بغير عناية فى غير مكانه ! حين أبصره عم محمد نازلا فى هذه الساعة المبكرة زاد من حركة جسمه المتثاقل وسعل سعلة خفيفة ليكون مستعدا لرد تحيـة الصباح ·· ! هم بأن يسأله عما اذا كان قد سمع فى الليل أصواتا أو حركات لداخل أو خارج · ولكنه تراجع حين تذكر أن السؤال سوف يجر الى سؤال وانه هو نفسه لن يجد ما يقوله لعم محمد لو انه قال له : لماذا لم تقم سعادتك لتتأكد من مصدر الصوت فى شقتك ؟؟ وهل سرق شىء من الشقة ؟ كيف نزل دون أن يتأكد من أن شيئا ما قد سرق ! » ·

ـ صباح الخير يا عم محمد !

ـ صباح النور يا بك !

ـ هل جاء بائع اللبن ؟

ـ لا يجىء فى مثل هذا الوقت !

ـ حين يأتى أرسله الى شقتنا !

ـ هو يذهب بنفسه كالعادة فى موعده !

هل أدرك الرجل الضخم الأبله بلاهة الأسئلة ؟

لا يبدو انه أدرك شيئا ، كان يجيب بجدية كاملة وبتثاقل !

عاد يصعد السلم قفزا ، ليجد انه أغلق باب شقته دون أن يكون معه المفتاح ماذا يقول لزوجته عن نزوله فى مثل هذا الوقت ؟ دقات قلبه الذى أتعبه الصعود تختلط بدقاتـه للباب ماذا يقول لزوجته حـين تفتح له ؟ كانت نائمة حين غادر الشـقة ، وكذلك الأولاد ، كيف نزل ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟

بدت له الأجوبة أكثر غموضا من الأسئلة ... حمدا لله لأنه أخطأ فدق الباب دون أن يدق الجرس فوجيء بالباب ينزاح تحت دقاته فى بطء عن مكانـه ، لم يكن الباب مغلقـا اذن ؟ فى الشتاء يصعب احكام اغلاق الباب الا بمجهود ، ينضغط الباب بين المصراعين بسبب الرطوبة ، فيبدو وكأنه مغلق ويحتاج اغلاقه أو فتحه الى مجهود كبير ! كيف نسى هذه الحقيقة عن باب شقته ، كثيرا ما كانوا يتركونه هكذا ليال كثيرة ظانين أنه قد تم اغلاقه ، وفى الصباح يكتشفون انهم لم يسرقوا بسبب من حسن حظهم لا أكثر ، تمنى ألا تصحو زوجته على صوت الباب المفتوح عنوة حتى لا تقول له أين كنت ؟ ولماذا خرجت فى هذا الوقت ؟ زوجته لم تصح من نومها الثقيل ، هو الذى صحا هذه المرة أيضا من نومه ، ممسكا هذه المرة بحلمه المراوغ .. ! ولكنه حين استيقظ كان صوت الباب المفتوح عنوة لا يزال يملأ أذنيه فى قوة !!

وتذكر على الفور الصوت الأول ... صوت الطبق المكسور ، ثم هذا الصوت الثانى ... صوت الباب الذى يفتح أو يغلق عنوة لا يدرى !!

والويل له لو فقـد القـدرة على التمييز بين الحـلم المراوغ أو الحقيقة المراوغة !!

هذا الضوء الخفيف القادم من الصالة عبر زجاج باب حجرة النوم ... حقيقة لا شك فيها ، وسكون الليل ... ووعيه بهذا كله ... كيف يختلف وعي الانســـان فى الحـلم عن وعيه فى اليقظة .. ؟ والى أى مدى ؟ أحيانا كان يعى فى حلمه أنه يحلم دون أن يوقظه ذلك من حلمه .. !

وحين كان يصل الى هذه الدرجة الشفيفة من الادراك ينتابه فرح شيطانى .. ! يفعل كل ما يعجز عن فعله فى الواقع .. يحاول

الامساك بالمستحيل ••• يقفز فى المنحدرات ، ويستحم فى الأماكن البعيدة عن الشواطىء •• يرتفع صـوته بكل ما يخاف أن ينطق به •• ! يتحرر من قيود الزمان والمكان • ! يتحدى المخاطر مطمئنا الى أن اللحظة المهلكة حين تجىء سوف تـرمى باشلائه الممزقة الى شاطىء اليقظة فيصحو مرتعدا ••• ململما بقايا فرحـه بالمغامرة التى يدرك مدى عقمها •• !

لعالم الأحلام جغرافية خاصة ••• فثمة أماكن بعينها تتردد فى أحلامه أشجار وحقول ومساق وتلال ••• فى الحلم يتذكر أنه رآها فى حلم سابق وقد لا تشبه أى شىء يراه فى يقظتـه ••• ويتوقع أنه سيرى على الفور وجوها تنبت فى الأماكن نفسه ••• وتجىء الوجوه بالملامح نفسها ••• وجوه لا تكبر أو تصغر ، فزمن الحلم شبه ثابت ••• وربما كان هذا هو الفرق بين اليقظة والحلم ••• الزمن ••• وعى الانسان بالزمن ! دقات المنبه الرتيبة التى تأتى من الصالة شاهد آخر على أن ما يشعر به الآن ليس حلما ••! هل يقدر انسان على أن يبصر فى أحلامه ساعة تحسب الوقت ؟

الويل له لو فقد القدرة على التمييز بين أصوات الحلم وأصوات الحقيقة ! بين الزمن الثابت والمتحرك ؟؟ اذا كان هبوط السـلم وصعوده حلما ، فان صوت الطبق المكسـور والباب المفتوح عنوة يتأرجحان فى ذلك الخيط الدقيق الذى يفصل بين الصحو والمنام • هل ينتسبان الى الحلم أم الى الواقع ؟؟

وهل كان الباب يفتح أم يغلق ؟ هل انتهى كل شىء أم انه يبدأ الآن فقط ؟؟

نظر فى ساعة يده الفسفورية • لا يزال الوقت مبكرا جدا ، وقت يناسب اللصوص تماما ، وعليـه أن يتحرك الآن من فراشه ليضع حدا لهواجسه ، وقبل أن يعبث به دفء الفراش ويرمى به

الى حلم آخر يغرر به ويخدع حواسه ! ان ما يسمعه الآن حقيقى تماما ، ولكن الحقيقة تبدو غارقة فى السكون ، ويلفها ظلام شفيف ، ولا تبدو لها ملامح ، ومن المستحيل أن يدخل لص شقته ثم يجلس هادئا فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل حتى يعاود أصحاب البيت نومهم لو أن دخوله أيقظهم ؟!

أحيانا كان يفكر فى طبيعة تلك اللحظة التى ينتقل فيها الانسان من اليقظة الى النوم ، محاولا أن يمسك بها ولكنها لحظة مراوغة ككل شىء فى حياته الآن ... فحين تجىء يكون الانسان قد نام فعلا ، واذا ظل محتفظا بدرجة كافية من الوعى لتأملها فانها لا تأتى أبدا ولا يأتى النوم ... يا لها من ليلة مناسبة لمثل هذه التجربة فلا ينبغى أن يستسلم للنوم قبل أن يتأكد من حقيقة الأصوات التى يشك فى انتمائها الى عالم الأحلام !!

تقلبت زوجته فى الفراش ، أدارت وجهها ناحيته ، ردد سكون الشقة صوت هذه الحركة العابرة فكيف يتحرك اللص دون صوت ؟

لماذا لا يهيىء له سبيل الفرار بحركة أخرى أعلى صوتا ؟؟ يشعر اللص بحركة أصحاب البيت فيؤثر الفرار على المواجهة ، فاللص جبان مهما تسلح ، متى سمع بهذه الكلمة ؟ لو أن صوت الباب المفتوح عنوة كان هو البداية فلا بد أن يسمع حركة تالية ، أما اذا كان هذا الصوت هو النهاية فلن يسمع سوى السكون ، ولن تكون ثمة جدوى من قيامه أو حركته .. !فلينتظر بعض الوقت وبمقدوره لو أن اللص لم يخرج أن يحدد مكانه من حركته وأن يفاجئه فيتمكن منه ... هل هو لص واحد أم أكثر ؟ واذا فاجأ أحدهم فهل يلوذ الآخرون بالفرار أم تقع الواقعة ، وتحدث المأساة !!

من جديد تحركت زوجته ... فوجىء هذه المرة بحركتها ، خاف أن يغطى صوت حركتها أى صوت آخر ، ليتها تبقى نائمة

حتى لا يتدخل خوفها فى الموقف ويفرض عليه أو على اللصوص ما لا ينبغى من السلوك الطائش !!

ينتعل اللصوص أحذية كاوتشوك فلا يكون لحركتهم أقل صوت ، ولكنهم لا يمكن أن ينقلوا شيئا دون أية أصوات !!

فى الصالة جهاز تلفزيون ، وراديو ، وريكوردر ، ومجموعة من الفازات البلورية الغالية ضمنها تمثال يعتز به لأبى الهول !! وكلها غنائم يسهل حملها لو استعان اللصوص بسيارة خاصة تنتظرهم فى الخارج . الملابس والحلى والنقود هنا فى حجرة النوم ... ولا يمكن أن يفكروا فى اقتحامها فاللص جبان مهما ... من الذى قال هذه الكلمة السخيفة ؟ كيف يكون جبانا من يقتحم منزلا على ساكنيه ؟! وماذا لو اقتحم الحجرة ... وفى يده مسدس ؟ ان بمقدوره أن يطلب منه أن يعاونه فى تسليم النقود والحلى والملابس .. ؟ وأن .. « صوت اصطدام بأحد كراسى السفرة ... أقدام الكرسى تزحف على بلاط الصالة » ثم تصمت ... صمتا مريبا ترتجف له أوصاله .. ! ويتصبب منه عرق غزير بارد . لو كانت زوجته يقظى لسمعت دقات قلبه .. ! أغمض عينيه تماما بينما تيقظت كل خلية فى جسده متوقعا أن يفاجأ بمن يفتح باب حجرة النوم ... أو ... قد ينقذ التظاهر بالنوم كرامته على الأقل أمام الزوجة والأولاد .. ! كأنه فوجىء مثلهم بما يحدث . متى سمع بهذه السخافة الأخرى التى تقول ان الصدمة قد تدفع الى النوم أو الاغماء كما تدفع الى اليقظة .. يا ليلة السخافات المرعبة متى تنتهين ! سمع وهو مغمض العينين أنفاس زوجته تتردد فى هدوئها العميق .. ! من له بنوم النساء والأطفال ؟! متى بدأ يفتح عينيه فى رفق كأنه يخشى أن توقظ حركة أجفانه أحدا أو يراها أحد .. ؟ فوجىء بنور الصالة مضاء .. ! لم يصدق عينيه ، هل بدأ يعبث به حلم آخر ؟ أم أن الحقيقة هى التى تعبث به هذه المرة .. ؟ ربما

كان أحد أطفاله فى طريقه الى دورة الميـاه ٠٠٠ لا يجرؤ لص على اضاءة النور ، قد يستخدم بطارية صغيرة ، أما أن يضيء النور ٠٠ ؟ توقع أن يسمع باب الحمام يفتح أو يغلق ٠٠٠ أن يسمع صوت السيفون أو الشفاطة ٠٠٠ ولكن السكون المراوغ عاد يطبق على شقته ، استبعد أن ينادى باسم أحد الأولاد خشية أن يرد عليه السكون ، أن يكون الرد حركة قاتلة ، وقد ينم صوته عما يعانيه أو يوقظ من يريد نومهم· في تلك الليلة المرعبة عليه ألا يفقد القدرة على السلوك السليم ، أقل خطأ فى التقدير قد يعرضه مع أولاده لمأساة فاجعة دونها بكثير أن يفقد بعض محتويات شقته ، كل شيء يمكن تعويضه عدا الحياة ٠٠ ! حياته أو حياة أى فرد في أسرته ، لكن ماذا لو أن أحد أولاده قد سمع الصوت نفسه الذى سمعه ؟ لماذا لم يعد يسمع صوت المنبه ؟! لا يمكنه أن يتأكد من نوم أولاده في حجرتهم مثلما هو متأكد من نوم زوجته ! وقـد يرتفـع صوت أحدهـم الآن منـاديا : بابا أو ماما ؟! وآنـذاك يخضـع كل شيء للمصادفات المرعبة !! وقد تحدث الفاجعة !!

داخله اطمئنان مستريب حين بدأ يسمع صوت أقدام تتحرك فى الصالة ٠٠ ! تتحرك هذه المرة بهدوء وثقة ٠٠ ! أقدام صاحب بيت ٠٠ ! لا تملك أقدام اللصوص مثل هذا الثبات ٠٠ ! ولكنها لا تتحرك في اتجاه دورة المياه ٠٠ ! تبدو وكأنها تتحرك جيئة وذهوبا فى الصالة ٠٠٠ صوت باب الثلاجة المغناطيسى يفتح ثم يغلق فى قوة ٠٠٠ لم يعد لديـه شك فى أنـه أحد الأولاد ٠٠ ! يبحث عن طعام ، ربما نام دون عشاء وأيقظته لسعة الجوع ٠٠ ! كيف يكون للحقيقة مثل هذه القدرة على الخداع والمراوغـة ؟ هذا النوع من اللصوص لم يظهر بعد في بلاده ، اللص الجرىء الواثق الهادىء الذى يخدع حتى البوليس ، ويخيف حتى السلطة ، ويسلك كصـاحب حق ، لم يلتق به سوى فى أفلام السينما الأمريكية ، لصوص بلاده

مثل ناسها طيبون عادة ، وخائفون كثيرا ، وبعضهم يسرق بدافع الجوع ، ويطلب من الله الستر !! لماذا لا يرتفع صوته بكلمة واحدة ليثق بثقته ؟! أحس كأن صوته محتجز ··· يحاول أن ينادى لكن أحدا لا يسمعه ·· ! هو وحده الذى يسمع الأصوات فى الصالة تزداد وضوحا وثقة وهدوءا ، بعض الأبواب تفتح وتغلق دون حرص كما يحدث فى أى وقت من النهار ، كيف لا تصحو زوجته بعد كل هذه الأصوات ؟

لعله تعب النهـار ! لم يتصور أن يكون للتعب مثـل هذه المكرمة ! لو سمعت مثله هذه الأصوات ! لو عاشت هذه الهواجس ؟ ربما لدفعها الخوف أو الحماقة أو الثقة الى ما لا يدرى من السلوك الطائش ! هل يداخله شك فى أنه أحد أبنائه ؟ كيف يوضح لها أو للأولاد ما لايمكن أن توضحه الكلمات وحدها ؟ وحتى لو تركه اللصوص يفعل ذلك ·· فكيف يفهمهم أن وجوده ·· مجرد وجوده أهم من كل شىء يمكن أن يخسروه ؟! بعض الناس فى حاجة الى عمر كامل ليدركوا هذه الحقيقـة !! كيف يفهمهم ثم يبقى أبا مسموع الكلمة ، مستحقا لاحترام أولاده وحبهم ! كيف يقول لهم ان أعظم شىء يمكن أن يفعلوه فى هذه الليلة أن يظلوا نائمين حتى ينقذهم ضوء الصباح ؟!

هل استيقظ أحد أولاده فى تلك الليلة المرعبة ليكشف عنه كل الأغطية ·· ! وكل الثياب ؟! لا فالخطوات الهادئة الواثقة تزداد وضوحا وثقة والنور يطفأ ويفتح هناك ، والأبواب تفتح وتغلق كأنما ركلا بالأقدام ، والأصوات تصبح كلمات ، كلمات لها حروف ··· وتوشك أن يصبح لها معنى ·· ! ولن يجدى النوم أو التناوم أمام صلافة اللصوص ! كأن كرامته هى ما يريدونه فى تلك الليلة ·· ! وحتى لو ترك مكانه ··· ليسلمهم بنفسه كل شىء فواضح انهم لن

يقنعوا بغير اذلاله · هل بدأ يفقد القدرة على التفكير السليم والسلوك السليم ؟ وهل ضاعت منه كما تضيع دائما تلك اللحظة الفاصلة بين النوم واليقظة ؟!

ـ يمكن أن ننام هنا في الصالة !

ـ مستحيل الجو بارد !

ـ لا معنى لأن نوقظهم حتى نحصل على غطاء !

ـ لسنا غرباء ··· انتم أصحاب بيت هنا !

ـ هنا دفاية في الركن ··· لم لا نشغلها ؟؟

عبثا حول أن يتذكر الأصوات ·· ! أقاربه في القرية لا ينطقون بهذه اللهجة ، أصدقاؤه في المدينة لا يصل بهم الجنون الى هذا الحد !

ـ لسنا غرباء ··· أنتم أصحاب بيت !

الصوت الذى نطق بهذه العبارة مألوف لديه · ألفته ترجع لعشرات السنين ، وعبثا حاول أن يتذكر وعبثا حاول أن يتحرك ··· كل شيء يخرج من يده : الحقيقة والحلم وحتى الذاكرة ·· ! لا سيطرة له حتى على جسده ·· أين هي تلك اللحظات السعيدة التى كان يعى فيها وهو يحلم أنه يحلم ثم يندفع الى المخاطرة ؟ ···لو كان ما يراه كابوسا فيجب أن يصحو منه ، ولو كان حقيقة فلا مفر من المواجهة !؟

هاهم قادمون ··· أكرة الباب تتحرك ··· يراها تتحرك ··· الباب ، باب حجرة النوم يفتح فتحة صغيرة ··· في ضوء الشعاع الذى تسلل من الفتحة رأى أذنيه ··· نعم أذنيه الكبيرتين ··· في أعلى الأذن اليمنى فتحة صغير كانت أصابعه تعبث بها وهو طفل صغير ، هو صاحب الأذن الكبيرة المشدوخة ، لا أحد سواه يجرؤ على مثل هذا العبث المروع ، « العم سليم الشامى » ، رغم أن

ملامحه كانت مكسوة بالظلال فهى ··· هى ·· لم تختلف منذ آخر مرة رآه فيها ··· منذ ثلاثين عاما لا يكبر ··· لا ينال الزمن من وسامته ، من قدرته على صنع الغرائب ، أغلق الباب واختفى فجأة كما ظهر فجأة ·· ! كأنما ليمهله ·· ليمنحه فرصة للتفكير للتذكر ·· ! يتذكر الآن فقط أن آخر مرة رآه فيها كانت فى الحلم ··· حلم طويل متقطع وممتد على مدى السنين ، حلم ظل يطارد لياليه !! كل ذلك كان معقولا ··· أما أن يتحول الحلم الى حقيقة ؟ فهذا ما يصيبه برعب حقيقى دونه بكثير رعبه من اللصوص ! أحيانا لم يكن يصدق ان قصة الشامى يمكن أن تنتهى الى الأبد ··· كأنما كانت عودته فى الحلم نذيرا بعودته فى الحقيقة ··· أول مرة رآه فيها رأى العين كانت فى الليل ·· ! وهو طفل مستكن فى عباءة والده ··· والعم سليم يتكلم كلاما عذبا ورائقا وصافيا ··· وأبوه يسمع فى دهشة ··· وانبهار قصة القرابة القديمة بين الأجداد ·· وزيارات قديمة للقرية ··· بعد أقل من شهر واحد رأى فى عيون كل الناس فى قريته الدهشة نفسها والانبهار نفسه وأصبح « العم سليم » الذى لا بيت له ولا زوجة ولا ولد ينتقل بين كل البيوت ، ويأكل على كل الموائد ، ويحبه جميع الأطفال ، وتحبه أكثر أمهاتهم ·· ! حلاوته لا تنسى ، قدرته على حل المشكلات لاتنتهى ، لبياضه المشرب بالحمرة ، ولدقة ملامحه ، كانوا يسمونه الخواجة سليم أو العم سليم الشامى ، من يبيع الأرض ، ومن يشتريها ، ومن يزرعها ، ومن يطحن الحبوب ، ومن يداوى الحيوانات أو الناس ومن يصلى بهم ومن يرمى بهم فى السجون ·· ! العمدة والخفير والمدرس وضابط النقطة والفلاح والميكانيكى الجميع يجدون عنده حلا للمشكلات التى يستعصى عليهم حلها ، ولكنه هو نفسه بقى مشكلة بلا حل · فلا أحد يعرف حقيقة البلد الذى جاء منه رغم كل الحكايات ولا الغرض الذى بقى من أجله رغم كل الخدمات !!

وكيف يعيش فى القريـة رجل غريب بلا زوجـة أو أطفال أو عمل ، يسكن متوحدا فى أحد البيوت تخدمـه دائما بنت من القرية ، يعرف كل شىء عن بلدهم ، ولا أحد يعرف عنه شيئا حقيقيا يريح القلب ؟!

من الذى رفع صوته بهذا السؤال ؟ ثم صمت حين أيدتـه جميع العيون بينما خرست كل الألسنة ٠٠ ! « شلبى » الأجير الذى يزرع فى أرضهم ، هو الذى كان يكن له كراهية عميقـة ، « ابن الكلب » هكذا كان يتحدث عنه يأكل أطايب الطعام فى كل البيوت ٠ البخلاء لا يبخلون عليه ، مكانه فى الظل ، وشرابه الماء الرائق ، جيوبه ملأى بكل ما يحبه الأطفال ، وضحكات النساء وراء الأبواب من أجله ، وعيونهن عليه ، والناس كلهم يتبعونه كالكلب !!

كراهية شلبى له ، وحديثه عن هذه الكراهية هو الذى أفسح الطريق أمام كراهيـة النـاس ٠٠٠ كراهيتهـم المقهورة الخفيـة الغامضة ٠٠ ! حتى هو فى ذلك الزمن البعيد ٠٠٠ اكتشف بدوره أنه يكره العم سليم كراهية خفيـة ٠٠٠ تقاوم حلواه التى لا تنفد ، وتصطدم أو تتفجر بحب أمه له ، « للعم سليم » ، كلما زارها فى غيبة أبيه ، كلما وجدها تصر على مجالسته وتحيته ، كلما وجدها تصمت عن هذه الزيارات أحيانا ، وتشير الى بعضها أحيانـا أمام أبيه ، وأصبحت متعته وهو صبى أن يبحث عن هذه الكراهية فى همسات الناس ، فى نظراتهم ، أن ينصت اليها ، أن يحس بها حين يخرسون عن الكلام ، أن يطمئن الى وجودها فى نفوسهم جميعا ، كأنما يخشى أن يفتقدها ذات يوم ، وأسعده آن يجد هذه الكراهية ذاتها فى نفس أبيه ٠٠٠ فى أعماق نفسه ٠ لماذا لا يفصح أبوه عن كراهيته كما يفعل « شلبى » ؟ وتعمد ذات يوم أن يردد أمام أبيه أقوال « شلبى » عن « العم سليم » وفوجىء بأبيه يصمت صمتا مريبا وكئيبا ، ويدعوه بدوره الى الصمت ، ما الذى يحدث فى هذا البلد ؟

ولماذا أمه وحدهـا هي التي ترحب به ترحيبا حقيقيـا لا أثر فيه للكراهية ؟ رغم أذنيه الكبيرتين المضحكتين ، مرة فيأحد أحلامـه حاول أن يمزق أذنه الكبيرة بأظافره ، وفوجيء بأن هذه الأذن صلبة كأنها مصنوعة من العظم الرقيق الناعم ، لحظتها تقصفت أظافره وبكى ، وظل « العم سليم » يضحك ويقهقه وهو ينزله من على كتفيه، ويحذره من أن يعاود المحاولة حتى لا يؤذى أنامله !!

في الشهور الأخيرة عاود زيارته في الأحلام والغريب أنه كان يرتد في هذه الأحلام طفلا بينما يظل العم سليم الشـامي محتفظا بشبابه الدائم ، في هذه الأحلام كان يهم في كل مرة بسؤاله عن الطريقة التي خرج بها من قريتهم ولكنه لم يظفر منه باجابة واضحة لهذا السؤال ••• ولا يزال الغموض يكتنف هذا اليوم الذي خرج فيه العم سليم من القرية كما يكتنف حياته كلها !!

كل ما يذكره عن هذا اليوم هو الظروف التي أحاطت به • كانت شقيقة شلبي الأجير الذي يزرع في أرضهم قد أصبحت هي التي تقوم بخدمة العم سليم الشـامي في منزله النائي ، يذكر أن « شلبي » قاوم ذلك في أول الأمر وفي النهاية خضع لأوامر أبيه الذي هدده بالطرد من أرضه • وجاء يوم لا ينسى قتل فيه شلبي شقيقته • وأقسم ليقتلن العم سليم الشامي نفسه ، ولكنه لم يقتله • لقـد فوجيء الناس في قريته باختفاء العم سليم الشامي فجأة كما ظهر بينهم فجأة ، وآنذاك تكلم جميع الناس في القرية عن كل شيء ، حتى عن الأسباب التي قتل شلبي من أجلها شقيقته •• !

كانوا يتكلمون في همس ، وأحيانا في نحيب ، كيف تركوه يهرب ، وقتها صرخ شلبي : كيف تركتموه يبقى ؟ ولأول مـرة رأى أباه يبكي ويقول بصوت يتخلل نحيبه « من العار أن نظل نتكلم في هذا الأمر ، لقد رحل الرجل عنا فلننس هذا الموضوع ! » •

شلبي وحده هو الذى لم ينس ولم يسكت ، ظل يتكلم ويتكلم حتى قال عنه الناس أنه قد جن ، ثم اختفى بدوره عن القرية ، وقال بعض الناس انه يطارد العم سليم ليقتله ، وهمس آخرون : ضاق الناس بكلامه عن الموضوع وبجنونه فقتلوه وألقوا بجثته فى الرياح ليستريحوا ويستريح !!

ها هو « العم سليم الشامى » يعود ... يعود فى الحقيقة لا فى الحلم وبالتأكيد جيوبه ملأى بالحلوى ، ولن يدهش لو خرج الآن ليجد أولاده قد استيقظوا على صوته فاستأنسهم ، والتفوا حوله يسمعون قصة شائقة ورائعة عن عمهم الغائب أو عن قرابة الجدود ... قصة يصدقونها ويبتلعونها مع حلواه ... ثم تصحو زوجته لتسمع بدورها القصة نفسها ، ويومض فى عينيها البريق ذاته الذى كان يلتمع فى عينى أمه . ذلك لص من نوع غريب ومرعب . ذلك أنه لا يضع كرامة ضحاياه فى مأزق ... على الأقل فى بداية الأمر ولكنه سوف يضع حياته كلها وحياة أولاده مع الأيام فى مأزق لا مخرج منه !!

ماذا ينتظر ؟ لماذا لا يخرج الآن مرحبا ومستفسرا عن سر اختفائه وغيبته ؟ يجب أن يتركه يطمئن اليه فى البداية ، حتى يتمكن من الحصول على سكين من المطبخ ... لم لا ... لا يجب أن تكون ثمة بداية من أى نوع ... حتى لا ينزلق الى هوة الصمت المريب التى سقط فيها أبوه ... وسقطت القرية كلها ! لتكن البداية هى الوصول الى المطبخ ، والحصول على سكين من هناك ... ولتكن لحظة العناق بين الرجلين هى لحظة البداية والنهاية ... يعرف أن العم سليم لا يخدع بسهولة .. ! وقد يسبقه الى ما يسعى اليه ، لكن ليحدث ما يحدث .. ! ليمت هو نتيجة ذلك بيد سليم الشامى أو بيد أحد أعوانه ... فموته بهذه الطريقة الفاجعة سوف يسد الطريق أمام سحره الأسود ... لن يستمع الأولاد لكلامه

الرائق المسموم ولن يصدقوا الى الأبد الرجل الذى قتل أباهم أمام عيونهم .. ! دمه أو دم سليم الشامى يجب أن يسيل أمام عيونهم حتى لا تتكرر المأساة ! ليس هناك من طريق آخر ، زوجته بدأت تتحرك بجواره حركة من يستعد لليقظة ... كأنما أيقظها الصوت المسموم .. ! أو أيقظها صوت الأولاد فى الصالة ... وقد بدأوا يتحدثون مع العم سليم ! كيف نجح فى استمالتهم بهذه السرعة ، وأزال عنهم خوف المفاجأة .. ! لا حدود لقدرة هذا الشيطان ... ولا سبيل للمواجهة سوى أن يتذرع بشجاعة وذكاء بغير حدود كذلك لينقذ مغامرته من العقم . ماذا ينتظر ؟ يقفز من السرير نشيطا وكأنه لم يكن نائما قط ، سرت فى جسده رعشة دافقة .. ! رعشة رجل يواجه الموت فترتعش كل خلاياه بنبض الحياة .. ! شجاعته وحدها هى التى ستنقل لسليم الشامى الخوف من الموت ، فخوف انسان هو دائما ثمرة لشجاعة انسان آخر ، تسلل الى المطبخ على أطراف أصابعه ،لينتهز فرصة انشغاله مع الأولاد ، هل وزع سليم أعوانه هنا وهناك .. ؟ لا يجب أن تنم خلجات وجهه عما ينتويه ! عاد من المطبخ واضعا السكين فى جيبه ... عاد الى حيث يجلس اللصوص فى حجرة الصالون مرحبا وفاتحا ذراعيه لللحظة المهلكة ، اللحظة المهلكة تدنو منه كلما اقترب من سليم الشامى ... من عينيه الساحرتين اللتين تومضان ببريق الترحيب وكأنه صاحب البيت ... البريق ينفذ فى عينيه ، يخترقه ... يكشف طويته أمام سليم الشامى البريق النافذ يتكلم : « كنت أحملك على كتفى ، تعرف ان أذنى لا تعركان .. ! منذ لحظات كنت ترتعد خوفا من اللصوص ، كنت مستعدا للتضحية بأى شىء لتنقذ كرامتك أمام الزوجة والأولاد ! لن أمس كرامتك ... فلست سوى صديق قديم لوالدك ... لن تكون فى حماقة شلبى ! واذا كان لابد من العراك فلم العجلة أيها الأحمق وقبل أن تعرف شروطى ؟! لم لا تنتظر على حياتك فهى التى

ســـوف تزهق لو واصلت حماقتــك ••• بيد أحــد أتباعى •••
ألا تراهم ؟ لست أحب أن ألوث يدى بدمك ••• سأبقى بعدك لأقتل بيدى هاتين التابع الذى قتلك ••• سأقنع أولادك بأننى الذى ثأرت لهم ، ولن يحول موتك بينى وبينهم ، والزمن كفيــل بأن ينسيهم كل شىء !؟ كن عاقلا كما كان أبوك ، فقد ظفر على الأقل بحياته ، أنا مستعد للابقاء على حياتك من أجل أمك ••• كنت أحبها حقا ، ولكنك فهمت خطأ هذا الموضوع ، لماذا لا تتركنى أشرح لك الأمر ؟ كنت صغيرا ••• ولو سمعتنى الآن بعقــل الرجل لتغيرت أشياء كثيرة ، الدنيا تغيرت وكنت أظنك قد تغيرت وبدأت تفهم دنياك !

ـ أهلا العم سليم الشامى ••• لازلت شابا يارجل !

ـ أنا سليم المغربى ••• هل نسيت ؟

لا لن تخدعنى عن حقيقتك هــذه المرة ! العينان النافذتان تواصلان حديثهما المسموم وسط كلمات الترحيب وقبل أن يتعانق الرجلان عناقهما الدامى المهلك !

العم سليم يحمل « نور » صغرى أولاده على كتفيه كما كان يفعل معه ، وهو صبى ، يحملها كرهينة وكدرع فى الوقت ذاته ، لن تفلت منى هذه المرة ولو ماتت نور !

الدم وحده هو الذى سيمحو سحرك الأسود ، ولو واصلت الاستماع الى حديث عينيك فسوف يبقى صــوتك بينما يحتوينى الصمت المريب الى النهاية ، أنا ألقاك هذه المرة فى الحقيقة لا فى الحلم ، وهذا جسدك ملء ذراعى ••• وأصبحت لا أرى عينيك ! يده ترتفع بالسكين فى حركة خاطفة كالبرق ، ويسمع صوت السكين تنغرس فى ظهره ••• فى لحــم ظهره وعظامــه ••• تماما عنــد القلب •• !

اللحظة المهلكة تغشاهما معا بما يشبه الدخان ... بما يشبه الاختناق ... ورغم كثافة الدخان يرى وجوه أبيه وأمه وشلبى وأهل قريته كأنما تجمعوا كلهم على صوت الصرخة المدوية التى أطلقها القتيل ! فمزقت سكون الليل وجمعت حوله أيضا الزوجة والأولاد .

ـ ماذا حدث ؟ قالتها الزوجة الملهوفة بلهفة ! وهى تحيطه بذراعيها فى حنان !

ـ لا شيء ... كابوس ثقيل !

ـ بم كنت تحلم ؟

ـ لا شيء ... لا شيء .. !

ـ استرح قليلا ... سأفتح النافذة وأصنع لك شرابا ساخنا !

ـ ...

من الصالة سمع شهقة زوجته ، هم بأن يسألها .

ـ ماذا حدث ؟ ولكنه لم يقدر أو لعله لم يجد لديه أقل رغبة !

هى التى عادت بنفسها لتقول له بصوت مضطرب « باب الشقة نصف مفتوح ، التلفزيون والراديو وتمثال أبى الهول لا وجود لهم فى الصالة .. ! لابد أنهم النصوص . ربما سرقت أشياء أخرى .. !

صمتت حين وجدت زوجها صامتا ... لا مباليا كئيبا .. ! قالت وكأنما تداركت شيئا .

ـ ماذا بك ؟ بماذا تشعر ؟ لم لا تتكلم ؟

ـ ...

ـ لا يهم أى شيء ؟! المهم سلامتك أنت ! كل شيء يمكن تعويضه ··· المهم أنت · المهم سلامتك ·

ـ ···

ـ لماذا لا تتكلم ؟ فبم تفكر ؟

« كيف يوضح لها فيم يفكر ؟ كيف يقول لها ان الرجل الذى يعجز عن التمييز بين أصوات الحلم وأصوات الحقيقة لا يمكن أن يكون رجلا سليما ؟ كيف يوضح لها أن الحقيقة أصبحت تراوغه هى الأخرى كالأحلام ؟ وأن اللحظة الفاصلة بينهما تهرب منه دائما ؟ كيف يوضح لها أنه لم يعد يملك سوى شجاعة الأحلام حيث تصبح كل المغامرات عقيمة ؟ كيف يوضح لها ذلك كله دون أن يدفعها الى العجز عن التمييز بين العقل والجنون فى كلامه ·· ؟ وقتها تذكر شلبى ··· وتذكر أنهم قتلوه ··· فواصل الصمت ··· بينما صرخت زوجته صرخة مدوية تجمع حولها الجيران ··· وكان النهار قد بدأ يطلع !!

حرصا على سلامة النزلاء

كان يوما مثل بقية الأيام ٠٠ وفى الصالة الكبرى بفندق « النسر الذهبى » كانت الساعة تدق الخامسة كعادتها كل يوم فى الموعد نفسه ٠

وكما يحدث فى كل الأيام كان هناك من ينتبه الى دقات الساعة دون أن يشغله هذا الانتباه عما هو فيه ٠ وكان هناك من يرسل بصره الى الركن الذى يتحرك فيه بندول الساعة حركته الرتيبة ثم يتبع هذه النظرة بنظرة أخرى الى ساعته ليتأكد من دقة توقيتها ، وطبعا كان هناك من لا يشعر أصلا بهذه الدقات ٠

كان يوما مثل بقية الأيام ٠ أبواب الفندق الدائرية تدور ، يدخل نزلاء ويخرج آخرون فى حركة الباب الواحدة نفسها ، موظف الاستعلامات تطل من عينيه دائما تلك النظرة المرحبة التى تتوقع سؤالا ، عاملة التليفون ورجل البار ، وحاملو المشروبات يتحركون كل فى دائرة عمله حركة جديدة وقديمة ، وينطقون الكلمات نفسها لنزلاء قدامى وجدد بحرارة غير متكلفة وكأنهم ينطقونها للمرة الأولى ٠

لم يكن هناك ما يجعل احدا يتوقع أن يحدث شيء غير عادى في حياة الفندق اليومية العادية ٠٠ الفندق مثل كل شيء في الحياة له مظاهره التى يحرص على ظهورها وله خفايـاه التى يحرص على اخفائها ٠ وقبل أن تدق الساعة دقاتها الخمس الرتيبة بقليل كانت حياة النزلاء داخل حجرات الفندق تمضى هى الأخرى فى ايقاعها اليومى نفسه ، رجال ونساء يأكلون ويتكلمون ويفكرون ويبتسمون ويتشاجرون ويتعانقون ولا يقولون كل الحقيقة ، وكأنه من الضرورى أن يكون هناك شيء فى الخفاء لكى تمضى الحياة فى ايقاعها اليومى ٠

فى الحجرة رقم ١٠٥ كان « أحمد سعيد » يتمدد على كرسيه المريح فى الشرفة وهو يرسل نظرة كسولة الى أسطح المنازل المجاورة ويرتشف على مهل قـدح القهوة الذى تسلمته زوجته من النـادل لتضعه بنفسها أمام زوجها قبل أن تعود لاســتكمال زينتها أمام المرآة ٠

بطرف عينه كان يلمح صورتها فى المرآة من مكانه ، جميلة وأنثى وعاقلة ، يظهر عقل الانسان فى كل كلمة يقولها أو لا يقولها ، بل فى حركات جسده ، ويكاد يظهر فى المرآة ٠٠ ومع ذلك فقد كانت رحلتهما معا الى هذا البلد والى هذا الفندق بحثا عن عمل جديد وحياة جديدة آخر حل يائس لجأ اليه « أحمد سعيد » ليضع حدا أليما وناجحا لقصــة حب غير مشروع كادت تعصف بحياتهما الزوجية ٠

كان هو الذى غرق فى هذا الحب غير المشروع رغم ما تمتلكه زوجته من جمال وعقل ، أى سحر تمتلكه دائما تلك المرأة التى نحبها ولا نمتلكها ؟ كان بمقدوره الآن أن يتأمل قصة حبه وكأنها قصة حب انسان آخر ٠

وأن يتساءل عن لغز القلب البشرى وعن حقيقة ما يريده الانسان وما لا يريده حين يقول : انني أحب هذه المرأة ٠

كالزلزال تجيء لحظة الحب ، تشعر بها كل خلية في جسد الانسان وبدون شعور يتحرك المرء في كل اتجـــاه طلبا للنجاة أو النجدة فلا تفعل هذه الحركات اليائسة العشوائية سوى انها تجعلنا نشعر أعمق وأخطر بالزلزال وبالحب ٠٠٠ ثم تأتى بعد ذلك مرحلة الأسئلة البائسة والأجوبة الأكثر بؤسا حين نحاول أن نقنع أنفسنا بما ليس في حاجة الى اقناع ، وان نعقل أبعد الأشياء عن العقل ٠٠ هل هناك أكثر حماقة من عقد المقارنات بين المرأة التى نحبها ـ بدون حق ـ والمرأة الأخرى التى مات حبها فى قلوبنا مع أنه يملك كل حق فى البقاء ٠

البلاهة وحدها هى التى تحمل المرء على أن يخرج من هذه المقارنات بنتيجة تبرر ما لا يحتاج الى تبرير ٠

ورغم ذلك فانه الآن فقط يعتقد أنه لم يكن أبله تماما حين قرر مع المرأة التى أحبها أن يضعا معا بارادتهما حدا لحبهما ٠ البائس ٠
قالت له : الحل الوحيد الممكن هو أن تسافر ٠٠

ثم أضافت حين ظــل صامتا : وكأنها تجيب على أسئلة لم يسألها ٠٠ الباقى يتكفل به الزمن ٠٠ لحظتها لم يجد معنى لأى كلام يقوله ، ولكنه كان يدرك المعنى الكامن وراء كلامها ٠٠ لم يعد كلاهما يقوى على اخفاء حبه ولا على اعلانه ٠

كل الطرق مسدودة عدا طريق السفر ، وكما تقول هى سوف يتكفل الزمن بالحب وبالألم ، هل تملك الأيام القادمة لحظة يبرد فيها هذا الجحيم المشتعل تحت جلده ؟؟ ٠ نعم تملك ٠٠ كان يدرك هذه الحقيقة كما كانت تدركها هى ومن هذا الادراك القاسى نبع قرارهما المشترك ٠

لم يكونا صغيرين ، ومع ذلك فقد كان أجمل ما منحه لهما هذا الحب غير المشروع أنه أعادهما لساعات لا تنسى من عمرهما الى سنوات الشباب الأولى ، ولكنهمـا في لحظـة الحسم أدركا هذه الحقيقة التي يعجز الشباب عن ادراكها ·· ان هذا الحب الجميل الرائع سوف ينتهي حتى لو تحديا كل شيء حولهما ، وانهما سوف يخسرانه هو أيضا ضمن الخسائر الأخرى الكبيرة ·

أنه لا يصدق أنه أفلت حقا بقصة حبه تلك ·· لم تشـعر زوجته بأى شيء ·· ولم تكن هذه النتيجة ثمرة لحكمته وحده بل ثمرة لكياسة المرأة الأخرى التي أحبها والتي شجعته في لحظة الحسم على قرار السفر ·· ماذا كان يمكن أن يحدث لو عرفت زوجته أو حتى ساورها الشك في علاقته بتلك المرأة الأخرى ؟··

بمقدوره الآن أن يتساءل على مهـل عن معنى الحب ومعنى الحقيقة ؟ يترك للزمن اطفاء الحرائق لتى أشعلتها ·

ما قيمة الحقيقة ؟ أية حقيقة ؟ اذا كان الانسان لا يعرف عنها شيئا ·· المعرفة ·· متى تكون نعمة ؟ ومتى تكون نقمة ؟ الجهل ·· متى يكون الفردوس ؟ ومتى يكون الجحيم ؟ هل أفلت حقا بقصة حبه ؟ أم أنه أضاعها ؟ أحقا أنه لم يبق منها سوى تلك المجموعة من الرسائل التي لم يقو على احراقها فاحتفظ بها في احدى حقائب السفر ؟ ماذا لو رأت زوجته بالصدفة تلك الرسائل ؟؟؟ هل يمكن أن تغفر له ؟ انه خدعها ذات لحظة ؟ هل تذكر له أنه فعل أمرا غير عادى لانقاذ حياتهما معا ؟ · يستطيع أن يترك للزمن مهمة اطفاء الحرائق ، ولكنه لا يمكنه أن يترك هذه الرسائل للعبة المصادفة ·

فالزمن قد ينجح في أن ينسينا الحب لكنـه لا ينجـح عادة في أن يجعلنا ننسى الاهانة ··

دهمته هذه الفكرة كطعنة سكين ، هذه الرسائل وحدها هى التى ستبقى الى آخر العمر محتفظة بوهج حبه ، لكن قلبه الذى يحترق الآن بنيران حقيقية هو الذى لن يبقى على حاله ، هو وحده القابل لأن يحترق مرة أخرى بحب آخر ٠٠ لا لن يتعجل احراق الرسائل ٠٠ ولن يعدم طريقة لاخفائها ولن ٠٠

ـ فيم تفكر يا أحمد ؟

ـ فى حياتنا الجديدة يا عزيزتى ٠٠

ـ أتعرف ؟ كأننا عروسان ٠٠ قالتها وهى تغمز باحدى عينيها ٠

ـ ألا تخافين أن يسمعك الأولاد ؟

ـ انهم يلعبون فى حديقة الفندق ٠

ـ لماذا لا نمثل اذن دور العروسين ؟

ـ نمثل ؟ أتلك هى الكلمة التى وجدتها ؟

ـ دائما تخطئنى الكلمة المناسبة يا عزيزتى ٠

ـ قم وأغلق الباب بالمفتاح ٠

ـ نسيت أننا سنستقبل ضيوفا فى الساعة الخامسة ، وانك ٠٠٠

ـ اللعنة على كل الضيوف ٠٠ أنت الذى نسيت موعدهم ولم تلبس بعد ثيابك ٠٠ و ٠٠ دق باب الحجرة حين كانت الساعة تدق الخامسة ٠٠

فى الحجرة رقم ٥٠ كان « عادل السلامونى » يعقد رباط عنقه أمام المرآة ويرى فى المرآة نفسها زوجته وهى تقاوم كلمات على شفتيها ثم تنطق بها ٠٠

ـ لا أصدق أننا جئنا حقا الى هذه البلد ..

ـ دائما الأشياء الجميلة تبدو غير مصدقة ..

ـ لا أظن أن جمالها وحده هو الذى يجعلها كذلك .

ـ تعودين لاثارة الشكوك .

ـ يولد الانسان بلا شكوك .. ما تفعله هو الذى يزرعها ..

ـ يا عزيزتى أنا لم أفعل شيئا .. الشركة هى التى فعلت .. هى التى أعطتنى هذه المكافأة .

ـ لو كانوا يكافئون الناس بهذه الطريقة لما اضطر أحد أن يخرج من بلده .

ـ تتهميننى اذن بالسرقة ..

ـ لا اتصور ذلك لحظة واحدة فأنا أعرفك جيدا

ـ ماذا اذن تتصورين ؟

ـ ليتنى أستطيع أن أتصور شيئا محددا .

ـ لم يخترعوا بعد وسيلة لانقاذ من يصر على تعذيب نفسه .

ـ لا أحد يصر على أن يعذب نفسه .

ـ بودى لو أعرف ما الذى تريدينه بالتحديد من العودة الى هذا الحديث ؟

ـ الحقيقة .. لو كنت تريد أن تقولها .

ـ لو قلت لك ان صديقا أقرضنا هذا المبلغ ، سوف نسدده بعد أن نعمل هنا هل تصدقين ؟

ـ ليت الناس بهذه الطيبة ·

ـ لأننى أعرف أن هذا رأيك فى الناس لم أشأ أن أخبرك بهذه الحقيقة منذ البداية ، مع أن فيهم ··

« فى المرآة لمح فى وجهها رغبة فى تصديقه ، ولو أضاف لهذه القصة ما يجعلها قابلة للتصديق ·· » ·

كانت هى التى قاطعته بلهجة معتذرة بعد أن ألقت نظرة على ساعة يدها ··

ـ أسفة يا عزيزى ·· الساعة الآن تقترب من الخامسة ولا يجب أن نقابل الناس بهذا الوجه المتوتر ·

ـ أنت التى تعودين لهذا الموضوع بمناسبة وبدونها ·

ـ أعدك ألا أعود اليه ·· سأترك لك اختيار الوقت المناسب لتشرح لى كل شىء ·· المهم أن توفق الأن فى مقابلتك القادمة ·

أتم فى عجلة رباط عنقه ، وراح ينسق الأوراق التى سيحملها فى المقابلة الهامة التى سيحل موعدها بعد قليل ، والتى سيتقرر فيها الكثير بالنسبة لمستقبله فى العمل فى ذلك البلد الجديد الذى قدم اليه ·

وضع الأوراق كلها فى الحقيبة الجلدية التى لم تفارقه منذ هبطا الفندق ، ولو ألقت زوجته نظرة فاحصة لمحتويات الحقيبة لعرفت الحقيقة التى تبحث عنها ، يتمنى كل الناس أن يعرفوا كل الحقيقة ولكن كم منهم يمكن أن يبقى على حاله لو عرفها ؟

كيف يكون حال زوجته لو عرفت ان المبلغ الذى يملكه فى هذه الحقيبة أضعاف المبلغ الذى تعرف انه حصل عليه مرة كمكافأة ومرة كسلفة من صديق ·

كيف يكون حالها لو عرفت أنه حصل عليه في لعبة قمار ؟

البلهاء تظن أنه كان يجرؤ على مغامرة السفر الى بلد جديد وهو لا يملك سوى مبلغ يزيد قليلا عن أجرة السفر والاقامة لمدة أسبوعين ، يصاب الناس بالهوس من أجل أن يعرفوا الحقيقة التي يمكن أن تصيبهم بالجنون .

ولكن لماذا الجنون ؟ كان هو في أحسن حالات عقله وهو يصنع هذه الحقيقة التي لا تقوى زوجته على مجرد معرفتها .

كان يقف على الحافة المهلكة في لعبة القمار التي استدرجته اليها تسلية بدت في أول أمرها بريئة ، وفي لحظة من الصحو النادر التي لا تحدث في حياة الانسان كلها سوى عدد قليل من المرات رأى عمق الهاوية التي يقف على حافتها . ورأى أنه لا سبيل الى النجاة الا بتمزيق آلاف الخيوط الدقيقة التي اجتذبته الى هذه الحافة في ضربة واحدة تجمعت قوتها في ارادته حين ربح المبلغ الذي يحمله الآن في حقيبته ، كيف نتصور زوجته وهي التي لم تجرب مرة واحدة لحظة المقامرة نوع الارادة التي كان في حاجة اليها ليفلت بهذا المبلغ من حلبة اللعب ؟ ولكن هل أفلت حقا من نداء المقامرة ؟ ألم يفعلها مرة أخرى حين قامر بخروجه من بلده بهذه النقود بعد استبدالها بعملة صعبة في السوق السوداء ؟

والآن وقد أفلت بالنقود وبنفسه وألقى بجسده المنهك على شاطيء الأمان يمكنه أن يؤلف لزوجته قصة تمنحها أمانها الخاص . ولتذهب الحقيقة المهلكة الى الجحيم مع كل الراغبين في أن ينتحروا بها ، ولن يعود الى الفندق الا وقد وضع هذه النقود في أحد البنوك لينتهي قلقه وقتها الى الأبد .

والآن يا عزيزتي وبعد أن أعود سأوضح لك كل شيء ، المهم أن أراك الآن مبتسمة و .. خيل اليه أنه يسمع طرقات على البـاب .

فى الحجرة رقم ١٥ كان سامى بركات يلقى نظرة أخيرة على المرآة · قال لنفسه وكأنه يخاطب صورته فى المرآة :

ربما تكون هذه آخر مرة أراك فيها ياسيد « سامى بركات » سيكون من الصعب أن أنساك أيها الصديق بعد عشرة دامت أكثر من عشر سنوات . بعد ساعات أستقل الطائرة عائدا الى بلدى ، وبعد أن يلقى موظف الجوازات آخر نظرة غير فاحصة على صورتك يا سيد « سامى بركات » ، بعدها استرد وجودى وحقيقتى ، بعدها يعود الى الدنيـا عادل سالم ، أنا عادل سالم ، لم يعد هذا الاسم قادرا على أن يجعلنى ألتفت الى الوراء عند سماعه ·· هل يمكن أن ينسى المرء اسمه الحقيقى مهما غاب عنه ؟ وما حقيقة أى شىء فى هذه الدنيا ؟ وما معنى حقيقة لا يصدقها أحد ولا يعترف بها أحد ؟؟ كان من الممكن أن يقضى جزءا من هذه السنوات فى السجن نتيجة خطأ تورط فيه وهو فى بداية شبابه ، لولا جواز السفر الذى يحمل اسم « سامى بركات » الذى يشبهه الى حد كبير · قال له صديقه أحمد يومها :

ــ ليس أمامك ترف الاختيار ·

وكانت ظروفه أعقد وأخطر من أن تتركه يتردد أمام المخاطر وكانت أية مخاطـرة محتملة أخف وطأة من السجن المؤكد وضياع المستقبل والسمعة ·

سيكون أحمد بانتظاره فى صالة المطار ، أحمد وحده هو الذى يعرف القصة الكاملة ، هو الذى يعرف كيف أصبح « عادل سالم » « سامى بركات » فى بلد آخر غير بلده وكيف أثبت خلال ما يزيد على عشر سنوات أنه كان يستحق شيئا آخر غيرالسجن ، يستحق الشرف والتكريم والثروة التى حصل عليها حين أتيحت له الفرصة

الملائمـة • لكن يبقى السؤال ما قيمـة أية حقيقة لا يعرفها أحـد أو لا يصدقها أحد ؟

ما قيمة حقيقة يدين بوجودها لسبب بسيط جدا هو أن أحدا من موظفي الجوازات لم يصر على أن يؤدى واجبه على الوجه الأكمل ••

لا يزال شيء في داخله يرتعش بالخوف ، خاصـة وقد أصبح لديه ما يخاف عليه •

يجب أن يبقى موظفوالجوازات على عاداتهم الطيبة في عدم التدقيق في أداء واجبهم ، ويجب أن يبقى صديقـه أحمد ليؤدى واجباته الأخيرة لكي يعود « عادل سالم » الى حياته الأولى خاصة وقد سقطت العقوبة بمضي المدة •

فليس من المعقول أن يفلت من خطأ حقيقي ليقع أسير خطأ آخر كان هو طريقه الوحيد الى الصواب •

ألقى نظرة أخيرة على المرآة ثم على ساعة يده ، وضع في حقيبته جواز السفر الذي يحمل اسم « سامي بركات » وفي مكان آخر من الحقيبة وضع بطاقته الشخصية الحقيقية التي تحمل اسم « عادل سالم » ، وفي حقيبة واحدة ، الحقيقة والزيف • الحقيقة لا تساوى شيئا ، بينما ينحني كل من في الفندق أمام الاسم المزيف •

وحين مد يده ليدير أكرة الباب لكي يخرج خيل اليه انها كانت تتحرك وحدها في يده وللحظة لم يصدق ••

حين كانت الساعة تدق الخامسة أو ربما بعدها بقليل كان صوت يتردد في ميكرفونات الفندق يرجو السادة النزلاء أن يلزموا أماكنهم في هدوء ، وان يهيئوا الفرصة لرجال الأمن للقيام بواجبهم حرصا على سلامة النزلاء جميعا ، وأن يسمحوا لهم بتفتيش الحقائب والغرف لدواع أمنية هامة ••

مضت الدقائق بطيئة وشاقة قبل أن يعرف النزلاء جميعا أن شخصية كبيرة تحمل اسما غير اسمها الحقيقي كانت ضمن النزلاء وكانت هى المستهدفة للخطر .

وتنفس الكثيرون الصعداء حين ارتفع صوت الميكرفون يطمئن النزلاء على أن لحظات الخطر قد انتهت ، وأن بمقدورهم أن ينصرفوا الآن فى هدوء الى شئونهم العادية مطمئنين الى سلامتهم .

ولكن عددا من هؤلاء ، ربما أكثر من هؤلاء الذين نعرفهم كان من العسير عليهم أن يجدوا هذه السلامة التى يتحدث عنها رجال الأمن بصوت مرتفع فى جميع ميكرفونات الفندق .

نانى القطة السمراء

لا أحب بعد أن تنتهى أو حتى قبل أن ننتهى من قراءة هذه القصة أن تشغل نفسك أو تشغلنى معك بالسؤال عما اذا كانت أحداث هذه القصة قد وقعت لى فى الحقيقة أم فى الحلم . وأصارحك منذ البداية بأننى لا أجزم حتى لنفسى باجابة على مثل هذا السؤال ، فالحدود الفاصلة بين الحلم والواقع فى حياتى توشك أحيانا أن تختلط ، وأصبحت هذه المسألة لا تزعجنى كثيرا ، ولست أحب منذ البداية أن أطالع فى عينيك هذه النظرة المستريبة والتى تعنى أنك سوف تقرأ ما أكتب بوجس وحذر ، فليس يهمنى فى شىء أن تقرأ هذه القصة بوصفها شىء حدث فى الحقيقة أم فى الحلم ، فقد تكتشف فى النهاية ان مثل هذه الاعتبار لن يؤثر كثيرا على موقفك من هذه القصة ، بل قد تكتشف أن مثل هذه الحدود الفاصلة بين الحلم والحقيقة ليست بهذه الصلابة فى حياتك مثلما هى فى حياتى !!

فجأة أحسست أنه هو ··· من يسير بجوارى منـذ لحظات منذ بدأ الطريق يخلو تقريبا من المارة ··· منذ بدأ الطريق ينخلع عن المدينة ، ويوغل بين الحقول ··· منذ بدأت ظلال الأشجار تمسى أطول من الأشجار ذاتها ، وبالتأكيد كانت شمس الصيف هى التى تنحدر نحو المغيب . فقد كنت أستقبل بارتياح تلك النسمات الرقيقة الرطبة القادمة عبر الحقول المترامية على مدى البصر قبل أن يفاجئنى ذلك الشعور القوى بأنه هو ·· من يسير بجوارى منذ لحظات ولم أجرؤ على أن أرفع وجهى اليه لأتأكد من أنه هو ·· سيدى ومولاى الخضر عليه السلام ··· من يسير بجوارى منذ لحظات · ! وكيف أعرف أنه هو حتى لو نظرت فى وجهه فلم أكن قد أبصرت وجهه فى حياتى كلها مرة واحدة رغم أن طفولتى كلها كانت ملأى بصورة هذا الوجه الكريم منذ كنت أجلس فى المساجد قبيل صلاة الجمعة أستمع الى ترتيل سورة الكهف منتظرا فى لهفة ذلك الحوار المثير بين سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا الخضر ، وبالأخص عندما كانت الحيرة تبلغ مداها بسيدنا موسى لما يراه شرا أو خطأ فظيعا فى سلوك الخضر عليه السلام فينسى ما تعاهدا عليه من ضرورة الصمت عن السؤال ، فيجيبه الخضر محذرا ومذكرا : « ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا » ؟؟

ولكنى أتذكر فجأة أن صورة سيدنا الخضر فى طفولتى كانت تستمد ملامحها من وجوه الشيوخ الصالحين الذين كانوا يزورون قريتى ليعقدوا بها حلقات للذكر ··· وليمنحوا العهود أو يجددوها للمريدين ·· ثم بعد أن كبرت نسيت ملامحه القديمة المتجددة ··· روحه هى التى بقيت تصب فى روحى ·· قدرته على أن يرى ما وراء ظواهر الأحداث والأشياء ظلت تبهرنى ··· تمنيت بأن يأتى يوم يمنحنى الله مثل هذه القدرة ·· صليت كثيرا رددت الأوراد التى كان يحفظها أبى ويتلوها عقب كل صلاة ·· قرأت كثيرا وتأملت

كثيرا ... ولكن احداث الحياة التى كانت تفجعنى ظواهرها دون أن تتكشف لى حكمتها الخفية ظلت تقتلنى قتلا ... أخيرا دعوته ... رجوته ... توسلت اليه أن يلقانى فى الحلم او فى الحقيقة ولكنه ظل فى مكانه النائى لا يجيء بحيث اراه ولا يبعد حتى أنساه ، احترق بقربه كامل ، وبنأيه كحقيقة ! حتى كان ذلك اليوم الذى أحسست فيه فجأة أنه هو من يسير بجوارى منذ لحظات .. دقات قلبى تصرخ بين ضلوعى بأنه هو ، وأشعر أننى او فعلتها ونظرت اليه فسوف يختفى فى اللحظة نفسها عن عيونى ومن يدرى فقد اختفى لحظتها من الوجود !

سرت بجواره صامتا مرتبكا من الفرح والخوف يملأنى يقين لا قبل لى بمساءلته بأنه هو ... هل أبدأ بالكلام أم هو الذى سيبدأ ؟ وهل يطول بنا الصمت والمسير وظلال الأشجار تواصل رحلتها لاحتضان المكان كله ؟!

فجأة أحسست بأننى تعب ... جائع وتعب ... وبأننى لم أعد أقوى على المسير ... وبأنه هو ... سيدى ومولاى الخضر عليه السلام ينتحى جانبا من الطريق ، ويشير بيده الى شجرة وارفة الظلال لنستريح فى ظلها ... هل أفعلها الآن وأخطف نظرة الى وجهه الكريم ــ وكأنها حدثت عفوا ــ قلبى يحذرنى من غرورى ولؤمى .. ! انه يفهمنى دون كلمة ، ويفعل ما أنا فى حاجة اليه دون سؤال فلماذا أتورط فيما قد أندم عليه ؟آ

خيل الى أنه يبتسم ... ان وجهه الذى لا أراه يبتسم . أنه يقرأ ــ دون شك ــ كل خواطرى .. ! آنذاك فقط لمحته يضع على الأرض مخلاة لا شك انها كانت فوق كتفه ، لمحته يبسطها على الأرض ويخرج منها لفافة فيها خبز وجبن ويدعونى الى الطعام ، صوته يتخللنى بلا صوت ، وما أراه يملأنى يقينا بما لا أراه ... لماذا

يعاودني الحنين الى رؤية وجهه ؟ هـل يفعل مثل هذا أحـد غيره ؟ مددت يدى الواجفة الى الطعام بعيون ذاهلة منكسرة . كان قد مضى صوب الترعة المجاورة ليملأ منها كوز ماء ... تعمدت ألا أنظر اليه وهو قادم بالماء حتى لا أقع في المحظور ... تعمدت أن أنظر الى ناحية الحقل القريب لأرى فجأة تلك القطة السمراء تبرز من بين زرعه الكثيف الأخضر ... قطة سمراء لم أر فى حياتى قطة فى مثل جمالها ...اجتذبتها ــ دون شك ــ رائحة الطعام ... مدت رأسها وهى تموء فى صوت ضارع رقيق فظهرت أسفل عنقها تلك البقعة البيضـاء التى ضاعفت من جمالها ، وانعـكس فى عينيها الخضراوين شعاع الشمس الغاربة فبدا فيهما مهرجان من الألوان التى تقترب وتبتعد من اللون الأخضر ... مـدت يديها الأماميتين وقوست من ظهرها لتقفز فى رشاقة فوقالقناة التى كانت تفصل بينى وبينها ، وهبت فى اللحظة ذاتها نسمة رقيقة تموج بها شعرها الأسود الطويل الناعم فى موجات متتابعة زاد من تتابعها حركتها الرشقة وهى تقترب منى .. لا يفوق جمـال القطة فى سـكونها الا جمال حركتها ..! جائعـة أنت يا قطتى الجميلة رغم اخضرار الحقول من حولك وامتلاء زروعها بالثمار .. ! جائعة وجميلة ! أدنيت منها قطعة خبز حـين أدنت فمها من يدى ... تركتها تسقط من يدى .. ! اجتذبتها بيدهـا وشمتها قبل أن تأكلها على مهل ... برقت عيناها بوميض الامتنان واقبلت تتمسح بى ، لم تجفل حين تخللت بأصابعى شعرها الناعم الطويل ... ارتعشت أصابعى ... ارتعش جسدى كله ... أنت لا تعرف الحنان الا حين تلمس شعر قطة ناعم فرغت لتوها من الطعام وجاءت تتمسح بك .. ! متى عاد سيدى ومولاى ؟ متى وضع أمامها كوز الماء لتشرب ؟! متى ضمها اليه فى رقة وحنان ؟ متى رفعت رأسها ومدت عنقها وراحت تلعق ثيابه بلسانها ؟ متى أخرج من جيبه فى لمح البصر ذلك الموسى الذى

ومض نصله في ضوء الشمس الغاربة ؟ متى تردد بصرى فى لحظة خاطفة بين وميض النصل في يده ووميض الخوف فى عينى تلك القطة السمراء الناعمة ٠٠ ؟ لا أعتقد أنها أدركت ٠٠٠ لا أعتقد أنه كان هناك وقت لتدرك ٠٠٠ لعل وميض الخوف انبعث من مكان فى عقلها قبل الادراك بآلاف السنين ٠٠٠ وقبل أن تدرك ما حدث بل قبل أن أدركه أنا تماما ، كان سيدى ومولاى قد أجرى نصله الحاد اللامع على عنقها ، كانت قد فقدت الحركة والسكون معا ، ولابد انى فقدت للحظات عقلى وصوتى وكدت أفقد حياتى ٠٠ ! اذ كيف اتسع صدرى لهذه الصرخة المكتومة التى كان يمكن أن تضيق بها الآفاق !!

من غيره يفعل ما فعل ؟ ومن غير موسى يجرؤ على السؤال لكنه ٠٠٠ سيدى ومولاى كان يدرك ما أفكر فيه ! كل ما أنا فيه ! ولم يكن بيننا عهد على ألا أسأل وعلى ألا يجيب !

قام سيدى ومولاى وحفر فى الأرض حفرة وأنا أرتجف وأرى فيها جثة القطة السمراء الجميلة التى لم تعد قطة ولا سمراء ولا جميلة وأنا أرتجف !!

عاد الى جوارى ٠٠٠ أحسست أنه عاد ليجيب على سؤالى الذى لا أنطق به وأنا أرتجف !!

كان صوته يتخللنى ٠٠٠ كأنه قادم من أعماقى ٠٠٠ ولم أجرؤ على أن أرفع وجهى الى وجهه ٠٠٠ يقينى بأنه هو يصبح شيئا أقوى من اليقين ٠٠٠ صوته يأتى عبر نفسى وعبر الآفاق وكأنه يملأ الوجود كله ، وكنت وأنا أنصت اليه لا أزال أرتجف !!

« كانت مثل هذه القطة ٠٠٠ أعتقد يا بنى أن هذه القطة من سلالتها ٠٠٠ أنت لا تستطيع أن تقطع دابر شىء فى هذه الأرض ، لا قطة جميلة ، ولا فكرة جميلة أو قبيحة ٠ القطط والأفكار والناس

يتناسلون جميعا ويصرون على البقاء ، قد تتغير الأشكال وتتحور ٠٠٠ ولكن الجوهر يبقى ٠٠٠ الطيب والخبيث ٠٠٠ وأنت تستطيع لبعض الوقت أن تمنع تناسل الخبيث ـ تقول ولكنها قطة جميلة ـ أعرف يا بنى أن هذا النوع من القطط له سحر لا يقاوم ، أنه أجملها على الاطلاق ومهما يكن لون شعره أو لون عينيه (كنت لا أزال أرتجف وخيل الى وقتهـا أن لحظة الغروب قد تجمدت فى مكانها) ٠ وحين رأتها « نانى » فى الطريق ، وكانت عائدة من مدرستها ، سحرت بها كما حدث لك منذ لحظات ٠ وضعت حقيبة كتبها على الأرض ووقفت تتأملها فى ذهول ، « نانى » كانت طفلة جميلة ، شعرهـا طويل ناعم كان أبوها يدللها قائلا :

ـ أنت قطتى الصغيرة !

وفى المدرسة كان رفاقها يقولون لها :

ـ ان لك عينى قطة !!

وفى الحقيقة كانت فيها بعض خصال القطط ، فهى تحب أن يربت أحد على كتفيها أو شعرها ، كما تحب أن تدلل باسم « نانى » ، وحين عادت الى المنزل فى ذلك اليوم تحمل قطة سمراء جميلة بدلا من حقيبة كتبها التى نسيتها فى ذات المكان ، اختلفت الأسرة بشأن ما فعلته « نانى » ، تحفظ الأبوان فى البداية ٠٠ غضبت « سحر » الأخت الكبرى وقالت وهى تشير اليها :

ـ كيف نحتفظ فى بيتنا بقطة لها مثل هذه الأنياب والأظافر ؟
كان عصام الأخ الأصغر أكثر جرأة ٠٠٠ أدنى يده من يد القطة فراعه انها تبادر الى اخفاء أظافرها فى يدها ٠ صاح فى فرح :

ـ انها بلا أظافر ٠

نسيت الأم تحفظها حين رأت القطة تستكين بين ذراعى ابنها وكأنها قد أصبحت أما فجأة ، لمحت فى عينى نانى فرحا عميقا بتأييد أخيها ، وزوال تحفظ أمها • قالت « نانى » تحاول كسب أبيها :

ــ سوف تصبح لك قطتان يا بابا !

قال الأب منتظرا نتيجة التجربة :

ــ لماذا تصرين على حملها ؟

وكأنما كان السؤال للقطة ، قفزت من بين يدى « نانى » وراحت تتجول فى البيت ••• بيتها •• ! (آنذاك زايلنى الارتجاف قليلا ، وبدأت الشمس تنحدر نحو الغروب) •

فى تلك اللحظة أدرك الأبوان أن « نانى » قد عادت بدون حقيبتها فأمراها بأن تعود لتبحث عنها حيث نسيتها بينما راح الجميع يبحثون عن القطة التى اختفت عن عيونهم داخل الشقة حتى تعود « نانى » ! » •

وبدأ سيدى ومولاى وكأنه يلتقط أنفاسه قبل أن يستطرد :

« بعد أيام قليلة كانت « نانى » قد كسبت قضيتها ، « بوسى » هى التى كسبتها لها •• ! الأولاد هم الذين أطلقوا على القطة هذا الاسم ، تسللت « بوسى » الى قلب الأسرة بالبساطة والرقة نفسيهما التى تتسلل بها الى أى مكان فى الشقة ، فى أعماق « بوسى » روح الرحالة العظام ، لها طريقتها فى اكتشاف المكان ، وفى تقدير المسافات ، يقودها أنف حساس مدرب ويقف بها على حدود المخاطر حذر هائل لا يعادله سوى فضولها ، وسوى ثقتها التى لا تحد فى تقبل الآخرين لها •• ! حين تريد أن تنام فى هدوء تختفى

فجأة كأنها روح ··· ويشقى الأولاد في البحث عنها ··· ولكنها فجأة تعود اليهم من مكمنها ··· يجدونها تحت أقدامهـم أو فوق رؤوسهم وهم نائمون تهر وتمد يدها لتجتذب أصابع القدم أو اصابع اليد أو شعر الرأس ··· ودون أن يفتح الأولاد عيونهم يمدون أيديهم ويسحبونها لتنـام بينهم في سكون وسلام ، وتنام أصـابعهم في شعرها الناعم الطويل !!

وأحيانا تتكور على المنضدة كتمثال أبنوس لقطة ويغير التمثال أماكنه ثم تدب الحياة في التمثال ، وفي الحقيقة لم يكن تمثالا واحدا ولم تكن بوسى قطة واحدة ·· ! كانت تأخـذ عشرات الأشـكال والأوضاع المبهرة في جمالها الساكن · أما حين تلعب فقد كانت توقظ روح اللعب في الكبار قبل الصغار ولا يخجل الأبوان من اللعب معها أمام الأولاد !

قال الأب يوما للأم :

ـ لأول مرة يتفق أولادنا على شيء ··· ويدوم الاتفاق ·

قالت الأم مشاكسة :

ـ ليس الأولاد وحدهم !

تمتم الأب وعيناه ترمقان « بوسى » وهى تعبر الصالة ·

ـ كل هذا تفعله « بوسى » ·

قالت الأم :

ـ أحيانا أفكر في حقيقة ما فعلتـه بوسى بحياتنـا ، كيف أمكنها أن ···

ويقاطعها الأب :

ـ يكفيها فخرا أنها جعلتك تفكرين !

ـ يا رجل ··· تنتهز كل فرصة لتسخر منى ··· ثم أردفت : سامحك الله ·

ـ وجعلتك أيضا تعرفين التسامح !

ـ تصر على استفزازى ، ولكننى أغفر لك من أجلها !

ويكتسب صوت الأب نبرة جادة وهو يقول :

ـ فى الحقيقة أفكر منذ أيام فيما تفكرين فيه !

ـ فيم تفكر !

ـ فيما فعلته بنا « بوسى » ، ثم أردف بذات النبرة الجادة تختلف كلنا طوال النهار فى أشياء كثيرة ، ولكننا جميعا نحبها ··· كل واحد فى هذا البيت يحبها بطريقته ··· يتشاجر الأولاد حول ما يجب أن يقوم به كل واحد منهم من أعمال فى البيت ، ولكنهم لا يختلفون حين يتصل الأمر باطعام « بوسى » ، أو باحضار التراب الذى تحفر فيه لتقضى حاجتها ، ولا يرون فى الأشياء التى تتلفها أحيانا سوى مزحة يتندرون بها ، وحتى لو ضاقوا بهذا لأن بعض هذه الأشياء تخصهم فانهم يكتفون بتوجيه بعض النصائح « لبوسى » ، وكأنها تفهم لغتهم ··

ضحكت الزوجة وقالت :

ـ يا رجل ··· ضبطك بالأمس تتحدث اليها فى المطبخ حديثا طويلا !

ـ وأنت تفعلين ذلك أمام الجميع ··· تدللينها كأنها طفل ·

ـ ماذا أفعل ، كنت أريد أن أنجب طفلا ··· ولكنك كدت تموت من مجرد التفكير فى الأمر ؟!

ـ على الأقل بوسى لن تحتاج الى أن ندخلهـا مدرسه ٠٠ ثم أردف بذات النبرة الجادة المتأنية :

ـ ما أقل ما تأخذ وما أكثر ما تعطى !

قالت الأم بلهجة من يعرف ولكنه يسأل ليتأكد من أن السائل والمسئول يعرفان الشيء نفسه :

ـ ماذا تعطى ؟

قال الأب :

ـ تفجر فينا جميعا طاقة بلا حدود من الرقة والحنان !

ـ هل تصدق ؟ أحيانـا أشعر اننى أحبها مثـل « نانى » تماما !

ـ هى عندك امتداد « لنانى » ، وعند « نانى » امتداد لذاتها ، تعطى كل واحد فينا ما هو فى حاجة اليه !

ـ كنا نحيا بدونها ٠٠٠ هل نسيت ؟

ـ وبدون هذا الحنان ٠٠٠ هل تنكرين ؟

ـ كنا نحنو على أولادنا !

ـ ولكننا جميعا ، الكبار والصغار ـ بعد بوسى ـ نعرف هذا الحنان الخالص المنزه عن الغرض الذى يتجاوزنا جميعا ويتجه الى بوسى ، ويوشك فى نهاية الأمر أن ينفصل عنها ويصبح موجودا لذاته ، رغم انها خالقته ٠

ـ احب « بوسى » بدون فلسفة أما أنت فتفسد كل شيء حتى الحب بفلسفتك !

ـ فى هذه المرة لا أريد أن أفسد شيئا ·· أريد أن أفهم وأعتقد انك كأمرأة يمكن أن تساعدينى على الفهم ··· بمشاعرك !

ـ هذه أول مرة تعترف لى فيها بميزة عليك !

ـ هذه أيضا من حسنات بوسى !

ـ سوف تجعلنى اغار منها !

ويصمت الأب متأملا ثم يصرخ :

ـ ماذا قلت ؟ هل تعنين حقا ما تقولين ؟ أجيبى بصدق هل تغارين منها ؟

قالت الزوجة وقد روعها صراخ زوجها دون أن تخفى عنها نبرة الجد فى سؤاله ··

قالت بعد لحظة تفكير جادة :

ـ لا أغار منها !

قال الزوج فى فرح :

ـ زوجتى العزيزة ··· لقد أجبت على سؤالى !

ـ أى سؤال ؟

ـ سر بوسى !

ـ لست أفهم !

ـ لماذا لا تغارين منها ؟ لماذا لا يغار أحد الأولاد من حب الآخرين لها أو من حبها للآخرين ؟!

ثم أجاب دون أن ينتظر منها اجابة على سؤاله :

ـ لأن « بوسى » فى تقبلها لحب الجميع ·· فى استجابتها لحنانهم لا تفرق بينهم ··· لأنها حين تقبع هناك فى مكانها أو تتسلل بين الأيدى والأرجل أو تلعقها وتتمسح بها ، حين تموء أو تنظر فى امتنان تبعث مشاعر الحنان فى قلب الجميع وهى فى صدفتها ، فى مدارها كما ترسل الشمس أشعتها لكل المخلوقات !

انها تتقبل حب الجميع بطريقة واحدة ، وتبعث فى قلوبهم شعورها بالتقبل بالطريقة نفسها ·· لم تخيب مرة واحدة رجاء واحد ·· لون غريب من عدالة الحنان أو حنان العدالة ·

ـ تعود الى التفلسف ··· من حسن حظ بوسى انها لاتسمعك!

ـ يكفيها حبى ، ويكفينى حبها !

ـ ليتك تجعلنى أشعر بحبك كما تشعر به بوسى بدون كلام !

ـ أحيانا يحيرنى صمتها العميق ! كيف تصمت هذه المخلوقات المليئة بالحنان والحب والرقة ؟!

ـ زوجى العزيز ··· ليتك تقلد بوسى وتصمت قليلا !

ويصمت الزوج ولكن حديثه مع نفسه عن بوسى لا ينتهى · ويصمت الزوج ولكن حوار الأولاد مع بوسى وعنها لا ينتهى · وتصمت بوسى ولكن الحوار الذى بدأته مع الجميع يتغلغل فى حياة الأسرة ويغير فيها كل شىء خاصة حين تتخذ من اللعب اسلوبا لهذا الحوار ··· كانت تغضب وترضى وتخاصم وتصالح وتعبر عن هذا كله بطريقتها فى اللعب ، فهى تخمش بلا أظافر وتعض بلا أنياب حين ترضى ولكنها تظهر أظافرها وأنيابها حين تغضب ، ورغم كل شىء ظلت « بوسى » محبوبة ومحبة عارفة بما يرضيهم وعارفين بما يرضيها ، حتى جاء يوم راحت تموء فيه مواء متصلا ··· وعبثا

حاولوا أن يعرفوا ما الذى تريده بوسى ؟ أوشك الحوار أن ينقطع ! غيروا لها نوع الطعام ••• قلبوا فيها ••• أوشكوا أن يتبادلوا الاتهام بأن أحدهم اساء اليها ••• أو ترك أمامها طعاما غير صالح ••! قال الأب :

ـ نعرضها على الطبيب !

وتطوعت « نانى » بحملها الى العيادة البيطرية • قال الطبيب بعد السؤال والفحص وهو يكتم ضحكته :

ـ لا شىء بها ••• تريد أن تتزوج !

كتمت نانى دهشتها ، قال الأب ، محاولا أن يدارى شعوره بالحرج أمام طفلته •

ـ كيف نفعل لها ذلك ؟

قال الطبيب :

ـ دعوها تخرج من الشقة •• وسوف تدبر هى أمورها !

قالت نانى وهى تغالب ترددها :

ـ هل ستعود الينا ؟ قال الطبيب :

ـ لا تخافى •• تعرف القطط دائما طريق العودة !

وعادت « نانى » لتحكى القصة الغريبة لاخوتها وكأنها تحكى أخطر الأسرار ، وبدأ الأولاد جميعا يرقبون نتائج التجربة الجديدة بفضول وشوق وقلق وخوف وودعوها أمام باب الشقة فى شبه مظاهرة ، فوجئوا بأن مظاهرة أخرى من القطط كانت فى استقبالها ! كيف غاب عنهم انها كانت تتبادل معها المواء طول الوقت ؟ ألمحوا وهم يتكتمون الضحك والخوف معا الى سوء أخلاقها ! هل ستعود

حقا أم أن هذه القطط الضالة سوف تغويها وتغريها بحياة التشرد ؟ كانت « نانى » أكثر الأولاد قلقا وأسئلة عن مصير بوسى فى أيام غيابها · ! رأتها مرتين في الحلم والكلاب تطاردها ، وقامت من نومها فزعة باكية ، فزعت الأم لما أصاب « نانى » وتمنت ألا ترجع « بوسى » ··· حتى لا يزداد تعلق البنت بها ·· ومهما يكن قلقها الآن سوف ينتهى فى النهاية ، ولكن الجميع فوجئوا ذات مساء «ببوسى» تموء أمام باب الشقة وتخمشه بأظافرها ، استقبلها الأولاد بمظاهرة تفوق

مظاهرة الوداع بكثير ، التقطتها « نانى » فى حضنها ، وأمطروها بالأسئلة عما جرى لها وعما فعلته في غيبتها ، كانت بادية النحول والذبول ، وجرت فى أنحاء الشقة تتعرف على كل ركن فيها وعادت تستكين بين الأيدى المتلهفة ، وتصيب فى تردد من الطعام الذى أحضروه لها ، وتجيب على أسئلتهم بمواء ضعيف حينا ، ونظرات صامتة تنطوى على لمحات غامضة من الخوف والقلق !

وعجز الأبوان عن اخفاء قلقهما لما لاحظاه من تعلق « نانى » الشديد بقطتها ولكنهما نسيا القلق مع الأيام ·· ! ففى سهولة شديدة عاد كل شيء الى ما كان عليه ، ونسيت « بوسي » ذاتها مغامرتها ، وعادت ذات القطة الجميلة الساحرة التى تثير الحنان والرقة ، لم يتغير شيء فيها سوى أن بطنها بدأ يكبر ، وحين عاد بطنها الى حجمه الطبيعى كان هناك ثلاث قطط صغيرة تلوذ بأمها فى صندوق كبير من الورق المقوى أعده الأولاد للحدث السعيد !!

(كان الضوء الرقيق الذى يبقى بعد الغروب يزداد رقة ، وصوت سيدى ومولاى يزداد ألفة ، وومض فى رأسى خاطر كالبرق أنه حين يحل الظلام فسوف يصبح سيدى ومولاى مجرد صوت ، ورغم اقتراب الظلام فلم يكن بى ذرة واحدة من الخوف ، فضلا عن الارتجاف ، وبقيت أقاوم رغبتى فى النظر الى وجهه الكريم) ·

« بعد أيام قليلة كانت القطط الثلاث الصغيرة تحاول أن تقف على حافة الصندوق الورقى فى محاولة جريئة لكى تتجاوز حدود عالمها ... أصبح لكل طفل فى البيت قطة خاصة به يشارك أمها فى العناية بها ، وأصبح لكل قطة اسم ولكن علاقة من نوع خاص ظلت تربط « نانى » ب « بوسى » فهى التى جاءت بها ، وهى التى تحمل فى قلبها فيضا من الحنان يكفى الأم والابنة بل والأبناء جميعا ، وهى الوحيدة التى سألت أول سؤالين عن جنس القطط الصغيرة هل هى ذكور أم اناث ؟ وما الذى ستفعله بعد أن تكبر ؟ هل ستخرج بسورها لتتزوج وتنجب قططا أخرى صغيرة ؟ وكيف يمكن أن تتسع شقتهم الصغيرة لكل هذه القطط ؟ و .. !

كانت « نانى » بروحها الرقيق المشرق هى التى استشرفت المشكلة وقبل أن تقع بوقت طويل... استشرفتها فى أسئلة عابرة تظهر فى أحاديثها وتختفى .. الأبوان وحدهما هما اللذان كانا يلمحان فى الأسئلة وفى غيرها الحجم الحقيقى الغائص للمشكلة ... ولم تكن المشكلة فى تقديرهما هى فى اطعام هذه القطط بل فى الطريقة التى تتخلص بها هذه القطط من طعامها داخل شقة فى الطابق الثالث وفى أشياء أخرى كثيرة ، وأصبحت أحاديثهما عن القطط تخلو من طابعها الفلسفى أو الساخر أو المرح وحتى الردىء. فالقطط تواصل نموها ... وتعلق الأولاد بها يواصل نموه ... وسوف يأتى يوم لا محالة تتكاثر فيه الى الحد الذى يحتم ضرورة التخلص منها أو من بعضها فكيف يواجه الأولاد هذه المشكلة ؟!

وبدأ الحديث عن رغبة بعض الأصدقاء فى استهداء بعض القطط يتسرب الى أحاديث الأبوين بشكل عرضى بغية اكتشاف وقع المسألة على الأولاد !

وكما حدث فى أول مرة حين جاءت « بوسى » اختلفت ردود الأولاد . قالت سحر :

ـ لن أعطى قطتى لأحد ..

ثم أضافت حين لمحت ضيق أبويها :

ـ سوف أعطي من أولادها اذا هي أنجبت أولادا .

رفضت « نانى » مناقشة الموضوع ، ولاذت بالصمت ..

قال عصام الصغير :

ـ ان قطتي ولد فلماذا أتركه ؟

وأزاح الأبوان لبعض الوقت شعورهما بالمشكلة ، قال الأب فى محاولة يائسة لحل المشكلة عن طريق التفلسف .

ـ سوف يؤدى تكاثر القطط الى تفتيت مشاعر الأولاد حولها وسوف تحل المشكلة نفسها بنفسها !

ولكن المشكلة التى تجاهلاها بالصمت بدأت تعود فى أحاديث الأولاد أنفسهم ... كثرت أحاديثهم عن القطط الضالة فى الطرقات ... وعلى سلم العمارة التى يسكنون بها ... كيف تعيش وتأكل وتشرب ؟ من يلاعبها ؟ ومن يحبها ومن تحبه ؟ وكانت « نانى » هى التى تبدأ الأسئلة دائما ، والتقط أبوها طرف الخيط معتقدا انه قد يجد بداية لحل المشكلة ... أخذ يحدث « نانى » عن تأثير العادة على الانسان وعلى الحيوان ... أخذ يشرح لها كيف ان القطط الضالة تألف حياتها ودائما تجد ما تأكله ، وترضى بالقليل ، وليست لديها مشكلة كما قد تتصور !

وترد « نانى » :

ـ ولكنها سوف تكون مشكلة يا بابا لو تعرضت قططنا للضياع !

ـ وما الذى يجعلها تضيع ؟

ـ أنت يا بابا ٠٠٠ تريد أن تعطيها للناس !

ـ لأصدقائنا ٠٠٠ لن نتركها للضياع !

ـ هم قد يتركونها يا بابا !

ـ لا تخافى يا عزيزتى ٠٠٠ لن نعطيها لأحد !

ويشرق وجه « نانى » المستدير الناعم بفرحة مستديرة يغوص لها قلب الأب ٠٠٠ ماذا سيحدث لابنته لو مرضت أو ماتت أو عجزت قطتها عن العودة فى موسم الزواج ؟ وبـدأت أحاديث الأبوين عن المشكلة تأخذ طابعا عصبيا ، قالت الأم :

ـ فى موسم الزواج ، حـين ترغب القطط فى الخـروج ، لا نتركها بحيث تعود بعـد أيام ٠٠٠ بل نجعلها لمن يريدهـا من أصدقائنا ٠

ويصرخ الأب :

ـ صدقت هذه الحكاية ٠٠ أصبحوا بفضل ثرثرتك عن المشكلة لا يريدون أن تتكرر فى بيوتهم !

ـ نتركها فى مكان لا تستطيع العودة منه !

ـ هل جننت ؟ تلك هى المشكلة وليس الحل !

وتصيح الزوجة :

ـ مشكلة من ؟ لماذا لا تقول انك أنت الذى لا تريد أن تتخلى عنها ؟

ويرد محتدا :

ـ وهل تريدين أنت أن تتركيها بهذه الطريقة ؟

وتصمت الزوجة ، ويدرك الأبوان على نحو ما انها لم تعد مشكلة « نانى » وحدها • وتحاول الزوجة أن تخفف من حدة الموقف فتحيل الموضوع الى نكتة بدت بلا طعم :

ـ سوف تحل المشكلة لو أصبح لدينا « فيلا » واسعة تتسع حديقتها لعشرات القطط الجميلة ! •

(كان الظلام قد أصبح شاملا وكاملا ، وأصبح سيدى ومولاى مجرد صوت يتخللنى من كل مكان ، ولكن احساسى بوجوده المادى كان لايزال موجودا ، ورغم اننى لو تلفت حولى فلن أصبح قادرا على رؤية وجهه الكريم كما كنت أحب فاننى لم أجرؤ على التلفت) •

« ولكن المشكلة يا بنى ••• المشكلة التى كانوا يحاورونها ويدورون حولها طول الوقت بدت تدور حولهم وتطوقهم ، وكالعادة بدأت مع « نانى » أيضا •• !

بدأت ذات مساء فى ليلة شتوية باردة ، لم تكن « نانى » قد آوت بعد الى فراشها حين تناهى الى سمعها مواء ضعيف لقطة أمام باب الشقة ••• ظنتها قطتها وبدلا من أن تبدأ بالبحث عن قطتها بدأت بفتح باب الشقة ••• لتجد أمامها قطة صغيرة ضالة لا يزيد عمرها عن أسابيع قليلة ترتجف من البرد ، ولم تكد « نانى » تفتح الباب حتى تسربت القطة الصغيرة لائذة بالشقة حملتها نانى فى حضنها ودخلت بها على الفور ووضعت أمامها طبقا صغيرا فيه بعض اللبن راحت القطة تلعقه فى لهفة ، كانت أمها قد أحست بالباب يفتح ويغلق ، خرجت تستطلع الأمر ، حين رأت المشهد المثير لنا فى والقطة الصغيرة الضالة لم تملك نفسها من الصراخ :

ـ هذا ما كان ينقصنا ••• ألا يكفينا ما لدينا ؟ هل جننت ؟

وارتجفت « نانى » وكفت القطة الصغيرة عن الطعام ، وجرت ناحية الباب ... وجاء الأب ليجد « نانى » تقف فى انكسار وأمها تفتح الباب وتغلقه خلف القطة الصغيرة ! وأقبل بقية الأولاد على صياح الأم ليلمحوا المشهد الأخير المثير !

حدث هذا كله فى لحظات خاطفة عجزت الأم فيها عن أن تمسك بنفسها ، وعجز الأب عن التصرف الملائم وصمت الأولاد جميعا فى ذعر عدا « نانى » التى انفجرت فى بكاء عنيف .. !

كان ذلك الحادث الصغير الذى لم يستغرق سوى لحظات عجز فيها الأبوان عن الرؤية الصحيحة والسلوك الصحيح هو بداية النهاية !

« حين تضع بذرة صغيرة يابنى فى التراب وترويها بالماء فانها تنمو ، وآنذاك يواصل النمو دورته ، قال الطبيب محاولا شرح الموقف على طريقته ، ومحاولا حل المشكلة على طريقته أيضا وهو يحدج الأبوين بنظرة تهدىء وتعاتب :

ـ مسألة عزوف « نانى » عن الطعام والكلام والاستذكار واللعب وحتى عن اللعب مع قطتها لا تعنى تغيرا فى اتجاهها ناحية القطط ، انها ببساطة تعاقب أمها على موقفها ..

ثم أكمل وهو يواصل مخاطبة الأب :

ـ وتعاقبك على سلبيتك من هذا الموقف ، الأبرياء فى نظرها هم اخوتها ، وعن طريق الأخت الكبرى يمكن التسلل الى عقل « نانى » .. من المفروض أن نتصرف جميعا بعفوية وببساطة ، من الخطأ أن نتراجع بمحاولة اعادة القطة الصغيرة الضالة وخطأ أشد أى تصلب فى مسألة « بوسى » وأولادها .. يبقى كل شىء كما هو ، وقد يكون من المفيد أن تأخذ « نانى » وأختها الكبرى فى رحلة

ترفيهية الى مدينة جديدة ، تألف فيها البعد عن قطتها لبعض الوقت على أن تبقى القطة فى انتظارها ، ثم أكمل وعيناه تسقطان على وجه الأم :

ـ وقد يكون من المفيد يا سيدتى أن تعرفى أنك قد تؤذين ابنتك بسبب من حبك الشديد لها ، وان تعرفى أيضا أنك بدأت تشعرين بنوع من الغيرة من القطة ومن ابنتك أيضا فأنت تحبيهما معا بدرجة شديدة ، وأحيانا لا تفرقين بينهما !!

ثم تابع سيدى ومولاى حديثه الذى بدأ يقترب درجة من الهمس والنجوى :

حين تضع بذرة فى الأرض فلا بد أن يواصل النمو دورته ٠ فلقد انبثق عن البذرة ساق وكان لابد أن تتفرع عنه الفروع والأوراق ، ففى وقت واحد وفى مكانين مختلفين تداعت الأحداث ٠٠ ! فى المدينة التى اصطحب الأب اليها ابنتيه فى رحلة للترفيه عن « نانى » راحت « سحر » الأخت الكبرى تحاول تنفيذ وصية أبيها على طريقتها قالت لنانى وهما يعبران طريقا جانبيا تكدس على رصيفه عدد من الصبية المتشردين وضع كل منهم رأسه حيث يضع الآخر قدميه فى محاولة لالتماس الدفء الذى لا يوفره سقف أو ثوب ٠٠٠ كانوا رغم كل شيء غارقين فى النوم ٠٠٠ بعضهم فمه مفتوح ٠٠٠ وكلهم ثيابه ممزقة !

ـ انظرى ٠٠٠ ماذا تكون مشكلة أية قطة ٠٠ ؟

ولأول مرة نطقت « نانى » وهى تبصر مثل هذا العدد من المشردين فى مكان واحد :

ـ هل هناك كثيرون مثل هؤلاء ؟

قالت « سحر » مهونة :

ـ طبعا فى كل البلاد ··· وفى كل الدنيا !

ـ لا أصدق ! قالتها وسكتت بينما أردفت « سحر » :

ـ اذا لم تصدقى ··· اسألى بابا ؟

وحين سألت « نانى » أباها بوغت بالسؤال ، رأى فى عينيها لأول مرة الحجم الحقيقى لمشكلة ربما رآها ذات يوم وهو فى مثل سنها ثم لا يدرى كيف ظلت تصغر وتصغر حتى أصبح يمر بها كل يوم فى الطرقات دون أن يراها ·· !

لم يدر بماذا يجيب ؟ لقد عاقبته على سلبيته فى موقفه من القطة الضالة الصغيرة ··· ترى كيف يكون العقاب الآن ؟ وعلى من ستوقعه عليه أم على نفسها ؟ هل يقول لها الحقيقة لتهون مشكلة بوسى وأولادها ·· ويخلق مشكلة أفظع أم يكذب وتبقى المشكلة ، وتذكر أنه قرأ مرة هذه الحكمة « ان غرق ألف شخص فى الصين لا يؤلمنا كما تؤلمنا سنة مكسورة فى فمنا » · ولكنه لسبب لا يدريه لم يقتنع بهذه الحكمة ووجد نفسه يقول لها « لنانى » بعد لحظات صمت بائسة :

ـ نعم يا ابنتى يوجد كثيرون من هؤلاء ·· فى بلاد كثيرة !

ولم ترد نانى ··· لاذت هذه المرة بصمت أكثر عمقا وبقيت فى عينيها نظرات لم يقو على مواجهتها !

حدث هذا يا بنى فى المدينـة التى سافروا اليهـا التمـاسا للعلاج !

أما فى البيت الذى حلت به اللعنـة منذ حلت تلك القطـة السمراء الجميلة فقد كانت البـذرة تواصل نموهـا ··· كانت

« بوسى » قد افتقدت « نانى » منذ سفرهـا كما افتقدتها قطتهـا الصغيرة « مشمشة » ولكن « بوسى » التى سبقت لها مغامرة الخروج من البيت هى وحدها التى تسللت للبحث عن « نانى » ولم ترجع حتى ذلك الحين !!

وأسقط فى يد الأم ٠ ماذا تقول « لنانى » حين تعود لتسأل عن قطتها فلا تجدها ؟ راحت عبثا تبحث عن بوسي وتحكى القصـة لمن تسألهم عنهـا من الجيران ٠٠٠ كانت كل يوم تخـرج وتبحث وتحكى ٠٠٠ وانتقلت القصة من بيت الى بيت ومن شارع الى شارع ، كانت الأم فى لهفتها وجزعها تسابق الزمن تريد أن تعود « بوسى » قبل أن تعود « نانى » من سفرها !

وحين عادت نانى مع أبيها كانت قد سافرت الى مكان بعيد صامت ٠٠٠ الى الحد الذى لم تفطن فيه لغيبة « بوسى » ٠ هل أنت مصر يا بنى على أن تعرف نهاية القصة ؟

(كانت تلك أول مرة يوجـه الى فيها سيدى ومولاى سؤالا مباشرا ، وكأنه كان يأذن لى بالنظر الى وجهه الكريم لكنى كنت أدرك على نحو ما ان الوقت قد فات ، واننى حتى لو نظرت اليه فلن أنعم برؤية حقيقة وجهه) ٠

تمتمت بصوت خفيض : نعم !

« قلل الطبيب : ابحثوا عن القطة السمراء فقد تعيـد اليها الذاكرة ٠٠ !

كانت « نانى » قد غابت طويلا عن مدرستها ، وكانت قصتها الحزينة على لسان كل تلميـذة ٠٠ وكانت صفات القطـة السمراء الجميلة التى تستكن فى أسفل عنقها نقطة بيضاء تنتقل بين الشفاه ،

وخرج أطفال المدرسة ثم أطفال المدارس ثم أطفال المدينة وشبابها يبحثون فى الشوارع عن القطة السمراء الجميلة الضالـة ، دون جدوى . هل أنت مصر يابنى على أن تعرف النهاية كاملة ؟

(آنذاك عدت ارتجف ... واكتسب صوت سيدى ومولاى نبرة جديدة وغريبة ، ولم أقو على الرد ... ولأول مرة يداخلنى الشك فى أن يكون من أستمع اليه طول الوقت هو سيدى ومولاى الخضر عليه السلام . كان الوقت للتأكد من أى شيء قد مضى) .

وعاد الصوت الغريب النبرة يتدفق مع الظلام :

« لا احب أن أحكى القصة الكاملة لشيء ، لأنه لا وجود لمثل هذه القصة ... فى الواقع ... يمكنك أن تتخيل موقف الآباء فى المدينة ... يمكنك أن تتخيل المغزى الأخلاقى لقرار حاكم المدينة آنذاك بقتل كل القطط السمراء الجميلة ... يمكنك أن تتخيل « نانى » وقد أصبحت قطة بيضاء جميلة ضالة فى الطرقات .. ! يمكنك لو أردت أن تفهم معنى ما فعلت حين قتلت هذه القطة السمراء الجميلة التى كانت تفتنك وتثير مشاعر الرقة والحنان .. !

فحين تبدأ البذرة في النمو فلابد أن تكتمل الدورة اللعينة - ولم أفعل شيئا يا بنى سوى اننى اقتلعت هذه البذرة ، بذرة الحنان والرقة .. التى تبدأ معها المأساة وبها (لابد اننى فقدت فى هذه اللحظة صوتى وعقلى وكدت أفقد حياتى اذ كيف اتسع صدرى لهذه الصرخة التى كان بمكن أن تضيق بها الآفاق) ..

ترى ألا تزال تسأل ان كان ما رأيته قد حدث فى الحلم أم فى الحقيقة ؟

ترى ألا تزال تســـأل ان كان من قابلته هو سيدي ومولاي الخضر عليه السلام ؟

أم ان ما يشغلك الآن هو سؤال أهم وأعظم متى قرأت قصة كهذه ؟ أو متى كتبتها أو فكرت في كتابتها ٠٠ ؟ أو ما هي آخر مرة رأيت فيها قطتك السمراء قبل أن تضل هي أو تضل أنت ؟!

العصافير

كيف تبصر عصفورا عن قريب ؟ ربما لم تفكر يوما فى سؤال كهذا ، ولا أذكر اننى فى طفولتى كلها واجهت مثل هذا السؤال ، كانت القرية التى نشأت فيها تحيط بها الحقول من جميع الجهات ، كما كانت تمتلىء بالأجران ، التى تمتلىء بدورها فى مواسم الحصاد بالمحاصيل ، وهنا وهناك كانت تطير أسراب العصافير ، تملأ السماء وفروع الأشجار ، وأسطح المنازل ، كان منظرها مألوفا وطبيعيا الى الحد الذى لا يلفت النظر !

ودائما كانت تطير فى جماعات الى الحد الذى لم أفكر فيه انه يوجد هناك عصفور واحد منفرد أتمنى رؤيته عن قرب !!

ربما لهذا أحسست بالمفاجأة والدهشة حين طلب منى طفلى الذى لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره أن يبصر عصفورا عن قرب !!

قلت فى نفسى : لعله جوع أطفال المدينة لرؤية الطبيعة ! ولكن طفلى الذى أدهشه صمتى ، بقدر ما أدهشنى مطلبه أعاد طلبه فى صيغة سؤال وهو يرفع الى نصف وجهه مغمضا احدى عينيه :

لماذا تهرب العصافير يا أبى حين أقترب منها ؟؟

ـ لأنها تخاف !

ولماذا تخاف يا أبى ؟؟

ـ لو بقيت فى مكانها فسوف تمسك بها ... وهى لا تريد ذلك ... ثم أضفت بعد أن تلكأ السؤال التالى على شفتى طفلى :

ـ لانها تريد أن تبقى حرة !

ولكننى لا أريد الامساك بها يا أبى ... أريد أن أراها عن قرب .. فهى جميلة جدا .. !

ـ هى لا تعرف انك لا تريد الامساك بها .. ثم قلت محاولا أشاكسه : مستغلا صمته الطارىء :

ـ وربما لو وقفت لفكرت فى لمس ريشها الناعم ، والامساك بها !

ولكنى لا أريد الامساك بها ... أريد أن أراها عن قرب . قالها بتأكيد غاضب ، وهو يهم بالانصراف يائسا من تحقيق رغبته !!

ولكن رغبة طفلى أصبحت على نحو ما رغبتى !

تذكرت كل ما قرأته فى كتب التربية عن جدوى أن يقوم الأطفال بتربية الطيور والحيوانات والزهور وملاحظة نموها ... واعتقدت اننى سوف أحقق رغبة طفلى ورغبتى ، ورغبة علماء التربية ، حين أشترى له قفصا به زوجان من طيور الزينة الملونة ليراهما عن قرب .

حين أحضرت القفص فى اليوم التالى كاد طفلى أن يطير من الفرح ... لم يتخيل أن يتحقق أمله بهذه الصورة الرائعة ، وبهذه السرعة ، وامتلأت الشقة وخاصة فى لحظات الشروق والغروب

بزقزقة العصفورين ، وبفرحة ابنى . وبعشرات الحكايات التى يرويها كل يوم عن ألعابهما فى القفص ، والطريقة التى بها يأكلان ، ويشربان . ويقفزان ويتناغيان ، ويتشاجران ... !! كان هو الذى يغير لهما الماء والطعام فى العلبة المعدنية الخاصة بذلك فى القفص ، محاذرا أن يهرب العصفوران أثناء فتح باب القفص واغلاقه !

وكان هو الذى يغير مكان القفص فى الشرفة كلما تغيرت حركة أشعة الشمس أثناء النهار وكان هو الذى طلب مجموعة من أقلام الرسم الملونة ليرسم صورا للعصفورين تنقل الى الورق حركتهما والألوان الزاهية البديعة فى أجنحة العصفورين !!

ذات مساء عدت الى الشقة لأجد فى عينى طفلى نظرة واجمة وساهمة ، سألته :

ماذا يحزنك ؟

العصافير يا أبى !

ماذا حدث لها ؟

ــ لا تريد أن تأكل ... ولا تريد أن تلعب !

لماذا ؟

ــ لا أعرف !

كنت قد اشتريت كتابا عن تربية هذا النوع من الطيور وبملاحظة العصفورين فى اليوم التالى ، أدركت انهما قد أصيبا بمرض قد يؤدى بهما الى الوفاة . وخشيت من تأثير صدمة كهذه على نفسية طفلى . لم أرد أن أدخل فى تجربة علاج قد لا يجدى وقد يلحق بهما الموت قبل الشفاء . فكرت أن الوقت المناسب قد حان لأعلم طفلى درسا . وأبعد عنه شبح التجربة القاسية !

قلت له :

انها تريد أن تنطلق الى الفضاء ... انها تكره القفص وتحب الحرية ...

ـ ولكنها لم تكن تريد ذلك قبل الآن يا أبى ... كانت تأكل وتلعب !

كانت تحتمل وتنتظر ... ولكن يبدو انها لم تعد قادرة على الاحتمال والانتظار !

ـ وكيف تحتمل الجوع يا أبى ؟

هذا النوع من العصافير يحتمل الجوع . ولا يحتمل القفص .

ـ ولماذا أحضرت لى هذا النوع ؟

قلت متراجعا أمام اصرار طفلى :

كل العصافير تكره الأقفاص ... لكن بعضها يحتمل أكثر من الآخر ... لكن فى النهاية ...

ـ هل ستموت يا أبى ما لم نطلقها .. ؟

نعم ... ثم أضفت محاولا أن دفع بالموقف الى نهايته .

ـ ما رأيك لو أطلقناها الى الفضاء ؟؟

صمت الصبى ، قطب حاجبيه وهو ينظر فى حنين الى القفص وكأنه يبحث عن مخرج ، ثم قال بتصميم :

لا يا أبى ... ولكنى أريد أن أراها عن قرب وهى غير جائعة ، وغير خائفة !

أربكنى اصرار الصبى • وأذهلنى نطقه لهذه العبارة ••

« غير جائعة وغير خائفة •• »

قلت مستسلما :

ـ لا أدرى يا عزيزى كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟!

أنه أمر من الصعب جدا حدوثه كما ترى !

مرت لحظات صمت مفعمة بالحيرة ، لم أشأ أن أتدخل فيها بكلمة واحدة ، ربما لأننى لا أجد هذه الكلمة وربما لأننى تركت لطفل ـ لأول مرة فى حياته ـ أن يتخذ بنفسه القرار الذى كان لابد أن يتخذه حيال عجزى عن تحقيق أمنيته فى رؤية عصافير غير جائعة وغير خائفة عن قرب !

وفجأة مد يدا مترددة •• وفتح باب القفص •• وللحظات بدأ العصفوران وكأنما يترددان بدورهما فى الخروج من القفص •• وتردد الفرح والخوف والوجوم على وجه الصبى حين بدأ أول عصفور يقف على الباب المفتوح وينتظر أو يفكر قبل أن يتخذ قراره هو الآخر ! حين طار أول عصفور سقط على حافة الشرفة وبذل مجهودا ليسترد توازنه قبل أن يلحق العصفور الآخر ويسترد توازنه بجواره ••• ومرت لحظات لم يبرح فيها العصفوران مكانهما من حافة الشرفة ••• لحظات خيل فيها للصبى انهما سيبقيان هكذا دائما ليتحقق له الأمل الصعب العسير ، عصفوران بلا خوف وبلا جوع يراهما عن قرب !!

ولاحت فى عينى الصبى نظرة ود فيها أن يرجوهما فى تحقيق أمنيته ••• ويعدهما فيها بالطعام بلا قفص ! ولكن العصفورين قفزا الى الفضاء ليسقطا فى خلاء مجاور البيت ••

كنت أعرف انهما لن يذهبا بعيدا ، ولم أكن أحب أن يرى طفلى المصير القاسى الذى ينتظرهما ، قلت له وأنا أدعوه للدخول من الشرفة :

ـ سوف يطيران الى أقرب شجرة ، ويتخذان فوقها عشا ..

لم يرد الصبى ... ومضت فى عينيه نظرة حزينة مستريبة ..مضت أيام دون أن تفارق عينيه تلك النظرة الحزينة المستريبة التى تتابع العصافير البعيدة وهى تتقافز وتلهو وتلعب دون أن تسمح له برؤيتها عن قرب !!

انتظرت أن ينسى طفلى مثل كل الأطفال سؤاله وحزنه ولكنه لم يفعل ذلك الا فى ذلك الأصيل الذى طرق فيه باب حجرتى . ودخل على أطراف أصابع قدميه يشير الى لكى أتبعه فى صمت وحذر ... لم أسأله عما يريد فقد كنت سعيدا بنظرة السعادة فى عينيه وكان يكرر لى اشارته بأصبعه على شفتيه المضمومتين لكى أتبعه فى صمت . سرت وراءه الى حجرة صغيرة مخصصة للأشياء القديمة ، لها نافذة زجاجية مغلقة دائما تطل على مسقط خلفى للعمارة ، ولأن أحدا لا يدخل هذه الحجرة الا ليأخذ شيئا أو يتركه ...

أشار الصغير بأصبعه الى النافذة الزجاجية المغلقة دائما .. خلفها وعلى حافة الافريز الخارجى كان يوجد بينه وبين ماسورة المياه فى العمارة عش للعصافير ترتفع منه رؤوسها الصغيرة . وهى تهم بالتقاط الحب من أمها التى تذهب وتعود به !

كانت أمنية الصغير تتحقق على نحو رائع لم يخطر ببالى أو بباله كانت هناك عصافير جميلة تزقزق وترفرف بأجنحتها ، بلا جوع أو خوف ، كان هو فى مكمنه يراها كما تمنى دائما عن قرب !!

لن أنسى ما حييت نظرة الفرح فى عينى طفلى ... ويبدو أنه لم يجد فى عينى مثل هذه النظرة ... سألنى وهو يتقدمنى الى خارج الغرفة الصغيرة .

ألست سعيدا يا أبى لأنك أبصرت مثلى عصفورا عن قرب ؟؟

ـ سعيد جدا يا عزيزى ! لماذا تظن اننى غير سعيد ؟

لانك تبدو حزينا حقا يا أبى !

حاولت عبثا أن أرسم ابتسامة على شفتى ، ولكنه عاد وكرر السؤال :

لماذا أنت حزين يا أبى ؟؟

لم أدر ماذا أقول له ؟ لولدى . كان فى حاجة الى عشر سنين فوق عمره لأحدثه عن العصافير الجميلة التى يعشقها الكبار أيضا والتى يحلمون برؤيتها عن قرب وهى غير جائعة وغير خائفة ! ولكنهم لا يقدرون لأنهم لم يجدوا بعد مثل هـذه النافذة التى لا تحجب الرؤية ولكنها تحجب الخوف !

وأودعت حيرتى وحزنى قبلة على وجه الصغير السعيد حتى لا اقلل من سعادته ، وحتى يصمت متمنيا أن يجد جيله دائما هذه النوافذ التى لا تحجب الرؤية ولكنها تحجب الخوف . وحتى يبصر عصافيره الجميلة دائما عن قرب !!

عندما بكى سيدنا الخضر ...

في هذه المرة عرفته ، لأول وهلة عرفته ، لم تضللني ثيابه ، فأنا أعرف أنه يلبس لكل حال لبوسها ، وفي هذا الصباح كانت ثيابه مثل ثياب العاملين في مؤسسة البناء الحديث التي أعمل فيها ، وأغذ السير في سبيل الوصول اليها في موعدي .

كان الطريق زراعيا متربا ، وفي مثل هذا الوقت المبكر فان الطريق يغطيه ضبـاب كثيف يأتي من الحقول الخضراء المغطـاة أوراقها بالندى ، ومن الترعة التي تمتد بجوار الطريق الزراعي ، ومن قلب الضباب برز فجأة :

ـ صباح الخير .

ـ صباح النور .

قالها بصوت يقع بين الألفة والوحشة ، وقلتها بصوت يقع بين الرجاء والخوف وحل بيننا الصمت، صمت سمح لي بأن ألملم أجزاء نفسي التي بعثرتها المفاجأة . كانت قد مضت فترة طويلة على المرة

الأولى ــ والتى كنت أظنها الأخيرة ــ التى رأيته فيها ، ظننته غضب منى لأنى بحت بسره ، رويت للناس ما جرى بينه وبينى ، لكن هـا هو « سيدى ومولاى الخضر عليـه السلام » يعود ، من قلب الضباب يعود ، يرتدى ثياب العاملين فى مؤسسة البناء ، وكعادتى معه لم أحاول أن أرفع رأسى نحو وجهه الكريم ، الطريقة التى يظهر بها تملأنى يقينـــا بأنه هو ، صـوته الذى يقع دائما بين الألفة والوحشة . الدماء التى تركض فى شراييني قبيـل أن أسمع خفق نعليه ، وبالتأكيد فهو لم يغضب منى لأننى بحت بسره ولست فى حاجة الى أن أنظر فى وجهه لأتأكد من صدق ما أشعر به ، يكفى أنه عاد ، ولو جاء غاضبا أو معاتبا لضاقت بى الأرض بما رحبت ..

حسبى الآن أنه يعود ، فى هذا الصـباح يعود ، لعله التحق مثلى بالعمل فى مؤسسة البناء ، والطريق طويل لا يزال و ...
ومن قلب الضباب برزت فجأة سيارة فارهة أنيقة لم نشعر بقدومها ، شعرنا فقط بوقوفها المفـاجىء بجوارنا ، يقودها سائق لا أعـرف هويته ، لكن ملامح وجهه تشى بأرستقراطية ودودة مهذبة ، دائما كانت مثل هذه السيارات تقطع مثل هذا الطريق ، لانه أقصر طريق الى مدينة « المنصورة » ، ولكنها أبدا ما كانت لتتوقف لأحد ، تثير من خلفها زوابع ترابية ما تلبث أن تختفى بين الحقول لتظهر من جديد وجوه الفلاحين ووجوه العاملين فى مؤسسة البناء التى اختفت لبعض الوقت فى هذه الزوابع الترابية ..

من نافذة السيارة أطل الوجه الارستقراطى الودود المهذب وفى عينيـه سؤال ، ظننتـه يعبر هذا الطريق لأول مرة ، ويسأل عنه ، عن طريقه ، ولكنه قطع ظنونى بسؤال واضح :

ــ ما وجهتكما ؟

ــ مؤسسة البناء .

قلتها بلا تفكير ، ودون أن أسأل سيدى ومولاى عن وجهته ، وكأننى أعرفها كما أعرفه ٠

ـ انها فى طريقى ، والسيارة خالية ، يمكننى أن أوصلكما ٠

لم أجد جوابا ، لحظتها فقط أدركت أننى تسرعت بجوابى ، لعلى لم أكن أريد أن يكون معنا ثالث ، لعلى شعرت بأنه ليس من حقى أن أتخذ قرارا بالقبول أو الرفض فى أمر لا يتعلق بى وحدى . لعلى فوجئت بالعرض الكريم لأنه رغم بساطته ومنطقيته لم يكن مألوفا ٠٠

ـ انها فى طريقى ، والسيارة كما ترون تتسع لكثيرين ، ولن أتكلف شيئا فى توصيلكما ٠٠

فى هذه اللحظة كدت أقع فى المحظور ، كدت أرفع راسى الى وجه سيدى ومولاى لعلى أرى فيه ما ينم عن قبوله أو رفضه ، لكنى وقبل أن أفعلها ، وجدته يجذبنى بقوة من ذراعى بعيدا عن السيارة الفارهة والوجه الارستقراطى الودود المهذب ، وحين أفقت من هذه الجذبة كانت السيارة تمضى مخلفة وراءها عاصفة ترابية لعلها كانت تخفى خجل سائقها كما كانت تخفى حيرتى وخوفى وسرورى ، نعم سرورى لاننا عدنا وحدنا من جديد ، ومهما يكن ما وقعت فيه من خطأ فيكفى أننا لا نزال معا ٠٠ ولو كان ما أنتظره هو العقوبة ٠٠

ولم أنتظر ما يقوله أو يفعله سيدى ومولاى ، وجدتنى وأنا لا أزال مخلوع القلب والذراع أتوجه اليه بسؤال ربما ما كنت أجرؤ عليه لو لم أكن كذلك :

ـ لماذا نرفض منة لا تكلف صاحبها شيئا ، ونحن فى حاجة اليها ؟

فى الحقيقة لم أكن أعنى ما أقول تماما ، كنت كمن يعتذر عن شيء لم يفعله ، وكأننى أحاسب سيدى ومولاى وقبل أن يحاسبنى ، ومع اننى على يقين من أنه يعرف دخيلة نفسى ، وأنه يبتسم من سذاجة حيلتى لكى أدفعه لحديث أتمناه بقدر ما أخشاه .

فقد سمعته يقول بعد أن خلى ذراعى من قبضته :

ـ حين توجد أماكن خالية فى سيارة يقودها رجل وحيد فى الوقت الذى يسير فيه على الطريق نفسه عشرات الرجال والنساء فى برد الشتاء أو فى حر الصيف فمعنى ذلك أن ثمة خلل فى الأمور يا بنى ، ولن يستقيم الخلل بأن يفسح لى ولك مكانا فى سيارته .

ـ أليس من الأفضل يا سيدى أن يستقيم جزء من الخلل بركوبنا معه ؟

ـ أو تعتقد حقا أنه يستقيم جزء من الخلل بركوبنا معه ؟

ـ لو فعلها كل من يقود سيارة بها مقاعد خالية على طريق به أناس يمشون على أقدامهم فى برد الشتاء أو فى حر الصيف ! .

ـ نعم يا بنى ... هكذا يتفشى الفساد فى كل الأمور ... يبدأ بأمنية .. لقد فعلها رجل ، فنتصور أنه من الممكن أن يفعلها كل الرجال ، مع أنهم لم يفعلوها أبدا . وبدلا من أن نسأل أنفسنا : لماذا لا يفعلها كل الرجال ؟ ولماذا فعلها ذلك الرجل وحده ؟ نغلق بصائرنا لنلحق بما نظنه فرصتنا . مع أننا لو تريثنا قليلا لصدمتنا الحقيقة الواضحة فيما قاله وفيما قلناه ..

ثم صمت سيدى ومولاى قليلا كأنه يترك لى الفرصة لأفكر فيما قاله مع أن كلماته جعلتنى عاجزا عن أى تفكير ثم استرسل قائلا :

ـ ان هذا الرجل الارستقراطي الذى يبهرك برقته وانسانيته ليس أكثر سوءا منك ·

ولو رأيت دخيلته كما ترى دخيلتك لما وجدت فرقا كبيرا بينكما ـ على الأقل ـ بالنسبة لما عرضه علينا ولما رفضناه ··

فى دخيلتك « أن هذه منة لا تكلف صاحبها شيئا كثيرا ويمكنك أن تفيد منها دون أن تشعر بأنه يطوق عنقك بجميل » ·

وفى دخيلته « أنها فرصة ليأسر روح انسان بجميل لا يكلفه قليلا أو كثيرا » · كلاكما لا يرى سوى فرصته ، وهكذا يبدأ الفساد يا بنى طريقه · حين نغلق أبصارنا وبصائرنا عما سوانا ، حين نعتقد ان جزءا من الخلل قد أصلح لأن هذا الجزء يقع فى كلنا نحن ··

كدت أقول له ، لسيدى ومولاى « الخضر عليه السلام » : « أنت تعقد الأمور كثيرا يا مولاى ··· ولكننى لم أجرؤ » ومع اننى كنت أدرك أنه يدرك دخيلتى ، فقد ظللت صامتا ، وكأننى بصمتى هذا أعلن نوعا من الاحتجاج أو الرفض لا أقوى على اعلانه بصوتى ·

« هذا رجل يا مولاى لا نعرفه ولا يعرفنا ، يفعل خيرا لا يقصد به شخصا بعينه ، فلماذا ··· ؟؟

قاطعنى سيدى ومولاى « الخضر عليه السلام » ، قاطع صمتى ، قاطع خواطرى التى لم أعلنها وكأنه كان يتابعها كلمة ··· كلمة ··· قاطعها قائلا :

« كان مثل ذلك الرجل لا يعرف أحدا ولا أحد يعرفه ··· وكان يقطع طريقا كهذا الطريق فى سيارة ليست مثل هذه السيارة ، كان ذلك منذ سنين طويلة ، ولعل القرى التى كان يمر بها كانت مثل قرانا هذه ··· تتشابه القرى فى كل بلاد الدنيا فى أنها صغيرة ويعرف الناس بعضهم بعضا ، لم تكن سيارته لنقل الركاب ولكنها

كانت لشحن البضائع ، شاحنة كبيرة كانت تثير كثيرا من الغبار ، وكثيرا جدا من دهشة الناس وسرورهم وخوفهم فى ذلك الزمن البعيد ، وفى ذلك الزمن يقود السيارة من يملكها ، يمضى بها الى الميناء فارغة ، ويعود بها محملة بالبضائع التى تجئ من وراء البحار ليبيعها فى بلاد ومدن بعيدة غير تلك القرى التى يمر بها فى طريقه الى الميناء ...

وفى طريقه الى الميناء هجس فى رأسه أن يحمل معه فى عربته الخالية كل من يمر بهم من المشاة الى أى مكان يقصدونه ، ما دام فى طريقه .

ولعله قد دار برأسه السؤال نفسه :

ــ ماذا أخسر بنقلهم الى حيث يريدون ؟

ولعلهم قد دار برؤوسهم سؤالك نفسه .

ــ ولماذا نرفض منة لا تكلف صاحبها شيئا بينما تحقق لنا الفائدة ؟؟

ولعلهم طمأنوا أنفسهم بالطريقة نفسها التى تطمئن بها نفسك : هذا الرجل لا نعرفه ولا يعرفنا ، ولعله يقصد الخير لوجه الله ..

فى هذه اللحظة عبرت بجوارنا سيارة أخرى أنيقة وفارهة دون أن تتوقف فحمدت الله ، بينما جاء صوت سيدى ومولاى هادئا نقيا وصافيا رغم غبار الطريق .

ــ لكن لا شئ يبقى كما هو ، لم يبق الرجل الغريب غريبا ، فى كل القرى كانوا يتحدثون عنه ، ويتوقعون مقدمه ، ويصفون ثيابه وحديثه وشاحنته ، الجميع كانوا يتحدثون ، الأغنياء الذين

يركبون بجواره فى كابينة السيارة . والفقراء الذين كانوا يتكدسون خلف الكابينة مكان البضائع .

« هذا رجل يرى بلادا لا يرونها ، وينقل بضائع لا يعرفونها ، ويقدم لهم معروفا دون أن ينتظر الجزاء » وهذا هو الأمر الذى بقى أكثر غرابة من الرجل .

ولكن حتى هذا لم يبق كما هو .

ذات يوم ، توقفت الشاحنة أمام احدى القرى وهى عائدة من الميناء ومحملة بالبضائع التى لا يعرفونها ، قال الرجل « الغريب » ، وكانوا قد جعلوا من هذه الصفة اسما له :

ـ ان عطلا أصاب ماكينة السيارة ، ولن يتمكن من اصلاحها سوى مهندس فى المدينة البعيدة .

والتف حوله أهل القرية ، التى تعطلت أمامها الشاحنة كانت هذه أول فرصة ليردوا الجميل الى الرجل الذى طالما طوق أعناقهم بجميله ، أولموا له وليمة كبيرة ، قدم كل واحد من داره شيئا ، وتطوع رجل لم يكن فى داره ما يقدمه بأن يذهب الى المدينة البعيدة ليجىء بالمهندس الذى يصلح السيارة ، وذهل الغريب من كرمهم أو هكذا بدا لهم ، ولكن ذهولهم كان أشد حين أخرج لهم من شاحنته صناديق من الفاكهة لم يروا مثلها أبدا فى أسواقهم القريبة أو البعيدة وأقسم أن يذوقها كل واحد من أهل القرية ، ولم تكن حيرة الأغنياء فى القرية بأقل من حيرة الفقراء ، فجميعهم لم يذق فى حياته كلها فاكهة بهذه الحلاوة فى طعمها وشكلها . وجميعهم بات فى حيرة من أمر هـذا الغريب الذى أرادوا أن يردوا بعض جميله فطوق أعناقهم بجميل أشد . ولكن جميعهم كان لديهم من الوقت ومن الفضـول ما يدفعهم الى أن يسألوه عن اسم هذه الفاكهة ، وأين تزرع وأين تباع وكم ثمنهـــا !؟

فى هدوء أجاب الرجل الغريب :

ـ انها تزرع فى بلاد الهند ، واسمها عند أهل المدن ، « الهندية » ، وثمنها غال جدا ، فلا يشتريها سوى سكان القصور فى المدن البعيدة ، وقد قدمتها لكم كهدية تعبيرا عن محبتى ...

ـ ألا تتاجر فى غير هذا النوع من الفاكهة ؟

ـ أتاجر فى كل الأنواع ثم أضاف وابتسامة هادئة تتراوح على شفتيه : لدى فواكه مثل التى تشترونها من أسواقكم .

ـ وبكم تبيعها أيها السيد ؟

ـ مثلما تشترونها .

ـ أيمكن أن تبيعها لنا ؟

قالوها وكأنهم يريدون أن يقولوا للرجل : اننا نريد بهذه الطريقة أن نرد لك بعض الجميل .

ـ نعم لو اردتم ، ودون أن تكونوا فى حاجة الى السعى للحصول عليها من الأسواق القريبة أو البعيدة .

قالها وكأنه يريد أن يفهمهم أنه يفهم أسبابهم الحقيقية وأنه لا يزال صاحب اليد العليا .

مرة أخرى توقفت بجوارنا سيارة أنيقة فارهة ، أطل منها وجه أنيق مهذب ، ولكنه هذه المرة سألنا فى وضوح عما اذا كان هذا الطريق يوصل الى مؤسسة البناء ؟

وحين أجبته هز رأسه شاكرا ومضى مخلفا وراءه عاصفته الترابية ودون كلمة .

كان غريبا أن يقصد مثل هذا العدد من السيارات الأنيقة مؤسستنا فى هذا الصباح الذى ألتقى فيها بسيدى ومولاى ، ولكنى لم أشأ أن أقطع حديث سيدى ومولاى بأى سؤال جانبى ..

كان يتابع حديثه بصوته العميق الرائق :

« فى اليوم التالى فوجىء أهل القرية بخص خشبى مقام على الطريق الزراعى قد عرضت فيه على شكل بديع وجذاب أقفاص من الفاكهة التى كانت تعرض فى أسواق المدن البعيدة او القريبة ولأول مرة يرى كل الناس فى هذه القرية وفى القرى المجاورة كل هذا القدر من الفاكهة معروضة فى طريق ذهابهم الى الحقول وفى طريق عودتهم منها ، معروضا بطريقة جذابة ومبهرة ، وأنت تعرف أنه فى كل القرى ، فى كل البلاد ، وحتى فى أيامنا هذه يوجد أناس فقراء لا يكادون يغادرون القرية يعيشون ويموتون فى حقولها وفى دروبها ، لا يرون شروق الشمس أو غروبها فى غير أرضها وسمائها ، وكان الأمر بالنسبة لهؤلاء أكثر غرابة واثارة فهم لم يذهبوا الى أية سوق ، ولم يذوقوا أية فاكهة وكانت المرة الأولى التى يتذوقون فيها طعم الفاكهة هى التى حل فيها الغريب بقريتهم حين تعطلت شاحنته أمامها ، وكان من الطبيعى أن يكون ما ينتظرونه من هذا الغريب الذى يحملهم فى شاحنته أحيانا ، ويذيقهم من فاكهته أحيانا ، كان من الطبيعى أن ينتظروا منه الغرائب دائما ، وأن يتوقعوها بلا دهشة ، ولم تكن مفاجأتهم كبيرة حين وجدوه يقف ذات يوم أمام خصه الخشبى الذى يبيع منه الفاكهة لمن كانوا يشترونها من الأسواق من أغنياء القرية .

أقول لك انهم لم يفاجأوا كثيرا حين وجدوه بنفسه يقف بدلا من البائع الذى جاء به مع الخص ، ليقول لهم ، لفقراء القرية واجرائها ، وكأنه يرد على سؤال فى عيونهم لم ينطقوا به ..

ـ يمكنكم أن تأخذوا من الفاكهة وأن تسددوا ثمنها فى نهاية الشهر أو نهاية العام ٠

وحين لمح على وجوههم ابتسامة غير مصدقة ، حين أوضح بعضهم بأنهم لا يعرفون النقود ولا يملكونها ، وانهم يشتغلون بطعامهم فقط ، أجابهم قائلا :

ـ يمكنكم أن تأخذوا من الفاكهة ، وأن تسددوا ثمنها عملا عندى ومعى ، على ظهر هذه الشاحنة .و فى الميناء ٠٠ » كانت السيارات الفارهة الأنيقة تتتابع على الطريق الزراعى هى وزوابعها الترابية ، تقف أحيانا ولا تقف فى أكثر الأحيان بطريقة كادت تشتت انتباهى فلا أحسن الاستماع الى سيدى ومولاى ، كما كنا نكاد نقترب من مؤسسة البناء ، وأحس مولاى بحيرتى وقلقى وتشتتى ، وخوفى من أن ينتهى الطريق ودون أن تنتهى القصة ، وشعورى بأن أمرا غير عادى يجرى على هذا الطريق الزراعى بسرعة هذه السيارات وليس بالسرعة التى يتحدث بها سيدى ومولاى ٠٠ »

ـ لا تقلق يا بنى ، فالقصة كادت تنتهى ، ما الذى تريد أن تعرفه بعد ذلك ؟

وتحولت ملامح وجهى الى سؤال كبير صامت فاستطرد سيدى ومولاى :

« كانت تلك هى المرة الأولى فى تاريخ هذه القرية التى يذوق فيها الناس جميعا طعم الفاكهة بنقودهم أو بعملهم أو بدين الى أجل قريب أو بعيد ٠ وكان جديرا بهذا اليوم أن يدخل تاريخ القرية ، فهو أول يوم يأخذ فيه عدد من أجراء القرية شيئا وقبل أن يدفعوا ثمنه ويجدون من يثق فى مجرد وعدهم بالسداد ٠

وهو أول يوم يأكل فيه الناس جميعا من الفاكهة نفسها . ولكن هذا اليوم لم يبق سوى يوم واحد ، بعدها قال أغنياء القرية للرجل الغريب ، أنت تستأمن هؤلاء الفقراء على ثمن الفاكهة ، فلماذا لا تبيع لنا من « الهندية » وندفع لك فى آخر العام ؟ ألسنا أحق منهم وأجدر بالثقة ؟؟

وهكذا عادت قريتنا سيرتها الأولى ، عادت نوعين من الناس ، بعضهم ينعم بما لا ينعم به الآخرون ، لا يوحد بينهم سوى الديون .

ـ هل أنت مصر على أن تسمع بقية القصة ؟

قالها سيدى ومولاى بضجر .

ـ نعم .

قلتها بلهفة تكاد تصل الى حد الرجاء بأن يسرع فى رواية القصة وقبل أن ... واستطرد سيدى ومولاى :

ـ وهكذا لم تصبح قريتنا أكثر سعادة مع انهم جميعا أصبحوا يذوقون الفاكهة لأول مرة . ذلك أنهم لا يزالون يشعرون بالمسافات تفصل بينهم ، ولم يوحد بينهم سوى انهم جميعا مدينون للغريب ..

يومها قلت لهم : هذا رجل ملعون ، وهذه فاكهة ملعونة ولكن أحدا لم يستمع الى .

قلت له بلا تفكير : وأين كنت يومها ياسيدى ؟

ـ كنت عجوزا فى هذه القرية .

قالها بالبساطة نفسها التى يتحدث بها طول الوقت ، ثم استطرد :

ـ فى نهاية العام جاء الرجل الغريب ليسترد ديونه من القرية طبعا كان هناك من سدد ديونه وكان هناك من لم يفعل ، ولم يكن من سدد ديونه هم الأغنياء وحدهم • ولم يكن الفقراء هم من امتنعوا وحدهم عن سداد الديون •

كان لابد أن يجىء يوم الحساب ، وحتى فى هذا اليوم أثبت لهم الرجل الغريب أنه لا يزال أكثر رجل عرفوه براعة وذكاء وفضلا عليهم جميعا • وأنه بحق رجل الغرائب والمعجزات ••

قال لهم : لا تبتئسوا أيها الرجال لكل مشكلة حل ، ومشكلتكم انكم لا تملكون نقودا كافية ، انكم تزرعون أرضكم قمحا وحبوبا أخرى رخيصة الثمن ، هل فكرتم فى أن تزرعوا أرضكم كلها فاكهة ؟ فتسددوا ديونكم وتأكلوا وتربحوا وتصبحوا أسعد قرية على وجه الأرض •• قبل أن يسألوا سؤالا واحدا وقبل أن يفيقوا من دهشتهم قال لهم :

ـ سوف أحضر لكم البذور والسماد وكل ما من شأنه أن يجعل أرضكم صالحة لانتاج الفاكهة •

وقبل أن يفيقوا من دهشتهم الثانية عاجلهم بقوله :

ـ مستعد لأن أدفع لكم من الآن ثمن محصول الفاكهة الذى ستنتجه الأرض فى العام القادم بثمنها اليوم حتى تطمئن قلوبكم ، كل ما أريده أن توقعوا لى على ورقة بأننى صاحب أشجار الفاكهة التى سوف أجلبها لكم ، أملك الأشجار وما تثمره وأنتم تملكون الأرض فهى أرضكم ••• » •

قالها الرجل الغريب وهو يخرج من جيبه كيسا مليئا بالنقود لم تر مثله قريتنا فى حياتها كلها وراح أمام العيون الذاهلة يعد النقود ويعد من يملكون أرضا من أهل القرية •

هل أنت فى حاجة يا بنى لأروى لك بقية القصة ؟

كان رأسي يدور بما أسمعه ، ولم أجد ما أقوله سوى أن أهز رأسي راجيا سيدى أن يتم قصته :

استطرد وكأنه يقرأ كل خطرات نفسي :

ـ طبعا تقول انه منح نقوده لمن يملكون أرضا فما الذى منحه للفقراء والأجراء ؟ وأقول لك : انه لم يكن فى حاجة الى أن يمنحهم شيئا فلا شيء يتوقف على قبولهم أو رفضهم ، ولكنه مع ذلك منحهم وعدا كان له أثر السحر فى نفوسهم منحهم « وعدا » بأن يضاعف أجورهم فمن يعمل فى حقول الفاكهة غير من يعمل فى حقول القمح والبرسيم ...

وهكذا مضت الأمور يا بنى وتطورت .

« فى البداية كان الرجل الغريب يملك الأشجار وأغنياء القرية يملكون الأرض ، وكانت تلك أول مرة تنفصل فيها الأرض عن أشجارها ، وحين تنفصل الأرض عن أشجارها فمعنى ذلك أنه قد حان الوقت لينفصل الفلاح عن أرضه وشجره ، لقد غرقت القرية فى الديون مع انها كانت غارقة فى النقود كذلك .

تسأل عن سر هذا اللغز ، لقد فقدت النقود قيمتها يابنى ، ذلك ان أهالى القرى المجاورة كانوا قد فعلوا الشيء نفسه ، ووقعوا تحت السحر نفسه ، سحر النقود فكفوا عن زراعة القمح والبرسيم وتربية الماشية ، وجاء يوم كان الفلاحون جميعا يبحثون عن رغيف الخبز وقطعة الجبن واللحم فلا يجدونها ، وطبعا لم يكن هناك سوى الرجل الغريب يمكنه أن يشتريها لهم من بلاد بعيدة بأغلى مما كانوا يشترون الفاكهة بكثير ، وفى هذه المرة ، ما كانت النقود الكثيرة لتكفى ،

أو لتبقى فانت تعرف أن الناس لا تحيا بالفاكهة وحدها ٠ ولكن من يستغنى عن الخبز أو قطعة الجبن أو قطعة اللحم ، ولم يكن هناك « بد هذه المرة سوى أن يبيعوا أرضهم وعرقهم للرجل الغريب من أجل لقمة الخبز وقطعة الجبن ، لم يكن هناك سوى أن تكتمل دورة الدائرة فحين تنفصل الأشجار عن أرضها ، لابد أن ينفصل الانسان عن أرضه وشجره وحريته جميعا ٠ وكانت البداية فى هذا كله يا بنى جميلا صغيرا طوق أعناق الرجال وأعمى بصائرهم وأبصارهم ٠ كانت البداية فى هذا كله أن بعض الناس ظنوا ما تظنه أنت الآن من أن اصلاح جزء من الخلل يمكن أن يكون أفضل من أن يبقى الخلل كاملا ٠ مع أنه لا يكون هناك اصلاح للجزء أو الكل ما دمنا لا نبصر فيما يقدم لنا سوى ما يصيبنا نحن منه ليوم واحد أو لأيام قليلة ٠٠

كنا قد وصلنا الى مؤسسة البناء الحديث ، وكانت الضجة التى تقترب منا ونقترب منها تمنعنى كما تمنع سيدى ومولاى من أى تعليق أو سؤال ٠

وكانت الضجة تفرض علينا أن نسأل عن السر ٠

سر الزحام والعربات الفارهة الأنيقة التى توقفت جميعها أمام المصنع الكبير ، والأعلام والزينات التى تطوق مداخل المؤسسة وتناثر السر على ألسنة عشرات العمال الذين أحاطوا بنا من كل جانب ونحن فى طريقنا الى مقر الحفل الكبير فى فناء المؤسسة الفسيح ٠

ـ انها ليلة القدر ٠

ـ مناسبة تقيمها مؤسسة اعلامية كبيرة فى كل عام من أجل العمال فى كل مكان ٠

ـ ينتشر مندوبون عن المؤسسة فى أنحاء القطر يدعون العمال لتوصيلهم الى أماكن العمل ٠٠٠

ـ السعيد من يركب معهم ، هو الذى يلتقى بليلة قدره ٠

ـ يسألونه عن أحواله وما يريده ، وكل ما يطلبه يتحقق له ٠

ـ لقد ركبت معهم ، وحدثتهم عن مرض زوجتى دون أن أعرف شيئا ٠

ـ حظك من السماء ، سوف تعالج زوجتك فى أرقى المستشفيات عند أشهر الأطباء ٠

ـ لقد ركبت معهم وحدثتهم عن حاجتى الى جهاز تلفزيون ولو كنت أعلم لطلبت ٠٠٠

ـ سوف تتحقق امنيتك على كل حال ٠

ـ ولكنهم لم يتوقفوا بجوارى ٠

قالها أحد العمال ٠

ـ لم يكن المندوبون فى كل السيارات ، هؤلاء مدعوون للحفل ٠

ـ ٠٠٠٠٠٠٠٠

ـ ٠٠٠٠٠٠٠٠

حين بدأ الحفل ، ظهر الوجه الارستقراطى الودود المهذب بجوار مدير المؤسسة ، وبدأوا ينادون أسماء من ظهرت لهم ليلة القدر ، ومع كل اسم كان يتقدم أحد العمال تحيطه آلاف العيون بالدهشة والحيرة ٠٠ والحسرة وفجأة توقف الوجه الارستقراطى الودود المهذب وقال للأمانة هناك عاملان توقفت بجوارهما ليلة القدر ، ولكن لسوء حظهما لم يستجيبا لندائها ، وقد قررنا أن نحقق امنيتهما لو تقدما الآن الى المنصة ٠

تلفت الى جوارى ، وكأننى أطلب النجدة ، ولكننى لم أجده بجوارى ، وكان على أن اتخذ هذه المرة قرارى منفردا ٠

النداء يتكرر ، وآلاف العيون تبحث عن رجلين أخطأهما الحظ ، وعاد يبحث عنهما ٠

النداء يرجو ، لان منحة القدر لا ينبغى أن ترد ، وما لم يتقدم من يستحقها الآن فسوف نلجأ الى القرعـة للبحث عن مسـتحق جديد ٠

الوجه الارستقراطى الودود المهذب تومض فيه عينان براقتان وتفتشان الوجوه بحثا عن وجهين ، ربما لا يزال يذكرهما ، لو ظل سيدى بجوارى لما أخطأنا الوجـه ذو العينين النفاذتين ، قـدماى ترتعشان ووجوه زوجتى وأولادى وأقاربى تلوح لى فى كل مكان أتطلع اليه ٠

طائر الحظ أتعبه التحليق ، وأنا أشد تعبا ، وحتى لو تقدمت وحدى لما حلت بى سوى نقمـة سيدى ومولاى ، فالجائزة لرجلين أحدهما يضع احدى قدميه خارج الزمان والمكان ٠٠

النداء يتكرر ، وشعور قوى بأنه يرهق النـاس بأشد مما يرهقنى ، وبأن سيدى ومولاى يجب أن يفعل شيئا ٠ ليسكت هذا النداء الملح ٠ ولكن يبدو ان سيدى ومولاى قد فعل كل ما يقدر عليـه ٠٠

الاعياء يشدنى الى الأرض ، وأشعر أنه يجب أن يتقدم رجلان ملعونان قبل أن يشد الاعياء والاغراء كل هذه الجموع المتعبة الى الأرض أو الى المنصة فى أعظم سقطة ٠

ربما كنت قد سقطت تماما حين خيل لى أن رجلين يتقدمان الى المنصة وسط صخب جماهيرى مجنون ، ولم أشعر بأية دهشة حين سمعت الوجـه الارستقراطى الودود المهذب يعلن بلهجـة ودودة مهذبة أنه تعرف على الرجلين نفسيهما . أنهما فعـلا يستحقان الجائزة .

فى تلك اللحظة خيل الى اننى أراه سيدى ومولاى يعود الى جوارى ليساعدنى على الوقوف ، فى هذه المرة لم استطع أن أمنع نفسى من النظر فى وجهه الكريم ولكنى لم أستبن ملامحه فقد كانت عيناه وربما عيناى غارقة فى الدموع ...

التعب

«مجرد سؤال» .

لا أدرى متى بدأت ألاحظ أن شعورى بالتعب يطغى على شعورى بأى شىء آخر ؟؟

« أصل الحكاية »

ربما كانت زوجتى هى أول من لاحظ ذلك ، لاحظت اننى أردد كثيرا ، بمناسبة وبلا مناسبة كلمة التعب ، وكل مشتقاتها وما يشير اليها ، آخر مرة حدث فيها ذلك ، كنت مستيقظا لتوى من النوم ... بجوار السرير يقف « عصام » أصغر أبنائى ، فى عينيه سؤال نسيت أنى أجلت الاجابة عنه كثيرا ! صرخت فيه معتقدا أنه هو الذى تسبب فى ايقاظى .

ـ لماذا لا تدعونى أستريح لحظة ؟

قالت زوجتى بصوت حاولت أن يجىء طبيعيا :

ـ ما هي الحكاية ؟ لقد نمت ساعتين ، ولم يوقظك أحد !
شعرت بالخجل وبالتعب معا ، تذكرت على الفور كل المواقف المشابهة ، لم أعرف كيف أشرح لها الأمر تابعت زوجتي بعد أن أخرجت « عصام » من الحجرة وبلهجة رقيقة وساخرة معا :

ـ سوف ينتهي بك الأمر الى أن تصدق حكاية تعبك هذه !
« قبل هذه الأيام كنت أشعر أحيانا بالتعب ، ولكن كان ذلك واضحا ، مفهوم الأسباب ، ومحدد المعالم حين أسير طويلا قدماى تتعبان ، ضلوعي تتعب حين أنحشر في « الأتوبيس » ، صدري يتعب من كثرة التدخين ، عيناى تتعبان من كثرة القراءة ، رأسي يدور بالصداع حين تتقاذفه مشكلات كثيرة مختلفة الأنواع والأحجام ، كان ذلك كله مفهوما ، ويزول التعب بزوال أسبابه ، لكن ما أشعر به في هذه الأيام شيء مختلف تماما .. تعب آخر لا أميز أسبابه ، تعب يسرى في جسدى كله كأنما مع الدماء ، ينام ويقوم معى يعمل ويستريح معى .. ! » .

قالت زوجتي وكأنما أتعبها صمتي :

ـ هل تخفى عني بعض متاعبك ؟ دائما كنت تحدثني عنها ، لماذا لا تفعل ذلك الآن ؟!

لم أدا ماذا أقول لها ؟ قلت محاولا أن أحول الموضوع الى نكتة ولو كانت سخيفة :

ـ لا أعرف ... يبدو أنه السن ... لقد تجاوزت الأربعين ... ألم يخبرك أحد بذلك ؟ ما الذى يحدث للناس بعد هذه السن ؟؟
ووضعت على شفتى ابتسامة بائسة وكأنني أنتظر ردا على سؤالى ؟ قالت وهى تهم بالانصراف .

ـ يصبح دمهم ثقيلا !

ـ أين تذهبين ؟ اننى متعب حقيقة ! لماذا لا تأخذين الموضوع بجد ؟ حين عادت زوجتى لتجلس بجوارى على حافة السرير ، لمحت فى عينيها نظرة مشفقة ومدركة ، وكأن صراخى الذى هو بلا معنى قد أصبح له عندها معنى !

قالت وهى تطوف كتفى :

ـ لماذا لا تذهب الى الدكتور ؟

ـ ماذا أقول له ؟ ليس هناك شىء محدد أشكو منه ٠

ـ قل له أنك متعب !!

ـ تمزحين ثانية !

ـ أبدا ٠٠ سأذهب أنا لأقول له اننى متعبة ٠٠٠ منك !

« أول زيارة لأول طبيب »

عيادة الطبيب الباطنى الكبير ملأى بالمرضى أو بالمتعبين ! زوجتى هى التى قالت بعد أن أسلمت لها أمرى :

« الطبيب الباطنى موكول بكل الأمراض التى لا نعرف لها مظهرا واضحا ، وهو وحده الذى يمكنه أن يوجهك الى أى طبيب آخر فى ضوء فحوصه الأولية » ٠

لو كنت أعرف أن بداية الراحة هى ألا تكون مسئولا ، لفعلت ذلك منذ وقت بعيد !

ورغم اننا حجزنا لدى الطبيب بالساعة والدقيقة ، فيبدو أنه لا مفر من الانتظار ٠٠ الانتظار دائما ٠٠٠ أين قرأت هذه الفكرة الساخرة التى تقول : « ان الانتظار أصبح علامة فى حياتنا ، ولابد

أن تنشأ فنون أو أعمال يمكن أن يشغل بها المنتظرون أنفسهم ، ولابد أن تتنوع هذه الفنـون لتنـاسب كل موقف فمن ينتظر فى طابور الفراخ غير من ينتظر فى عيادة طبيب ، غير من ينتظر مقعدا فى قطار أو سيارة ، وهؤلاء جميعا يختلفون عمن ينتظر حلا لمشكلة تبدو بلا حل !

ـ هذا الرجل ... ألا يشبه تماما عمك الحاج حبيب ؟ قلت لها .. لزوجتى وقد باغتتنى السؤال محاولا أن أتفحص الرجل الذى أشارت اليه بطرف عينيها !

ـ لو لم أكن متأكدا من موت عمى منذ سنين لقمت من فورى ، وقبلت يديه ، وسألته عن أخبار أهلى فى البلد !

« زبائن الطبيب الباطنى أغلبهم من الفلاحين ، أغلبهم يشبهون أعمامى وأخوالى وكل أقاربى ، الآن فقط ألاحظ أن أقاربى جميعـا كانت لهم وجوه مريضة وكنت وأنا صبى فى القرية أعتقد ان الوجوه كلها لابد أن تكون هكذا ، جلدها كأنه مشدود على العظم ، لونه أسمر ... سمرة تخفى شحوبه ... والعيون غائرة منكسرة كأنها تتوقى رؤية شىء لا تحبه ويبـدو أننى نسيت كل شىء عن هذه الوجوه ... » .

ـ غريب انك لازلت تذكرين وجه عمى !؟

ـ كنت أحبه ... كان رجلا فيه قسوة وحنان ، من النادر أن تجد رجلا مثله !

« زوجتى تحل مشكلة الانتظار بطريقتها ... عمى رحمه الله رغم ان حياته كلها كانت انتظارا متصلا لما لا يأتى أبدا فلم يكن يلوح على وجهه أى أثر للقلق أو التعب ... كان كل شىء فظيع قد حدث فى حياته وانتهى منذ وقت مبكر جدا ... فعاش بقية حياته لا يخاف

ولا يرجو ! كان خفيرا نظاميا يتوقع اللصوص والمخاطر والمخاوف وقد حدثت كلها أو بعضها مرة أو مرات ثم هربت منه ، من قسوته أو من حنانه لا أدرى ، كان الانتظار قد أصبح عمله الذى لا يضيق به صبره وصدره !

عمى الآخر المريض فى العيادة يتململ فى مقعده ، يضع يده على مكان الألم فى بطنه ، عندما يدخل الى الطبيب سوف يشير الى مكان الألم ، أما أنا فالى أى شيء أشير ؟ أشير الى كلى قائلا :

ـ أنا متعب يا دكتور !

ـ أنت تكلم نفسك بصوت عال ! قالتهـا زوجتى بهمس . وابتسمت ملاطفة ومحرجة حين لاحظت حرجى ٠

ـ فيم تسرح بينما أحاول أن أكلمك ؟

ـ لا شيء ٠٠٠ أفكر فى عمى الذى مات ، وعمى الآخر الذى لا يزال يقاوم !

ـ لماذا لا تتسلى بقراءة هذه المجلات ؟

كيف لم ألاحظها من قبل ، هذه الكومة من المجلات الموضوعة أمامى منذ جلست ؟؟ مع انها موجودة لأمثالى رحت أقرأ العناوين ٠٠ !

« عصر الوفاق وآثاره الغامضة والخطيرة على الدول الصغيرة والنامية ! » ، ولم أقرأ التفاصيل ، فى مجلة أخرى لفت نظرى هذا العنوان :

« المقاومة الفلسطينية تفقد فى صراعها مع بعض الأنظمة العربية أضعاف ما فقدته فى صراعها مع العدو الاسرائيلى ! » ونحيت المجلة الأخرى جانبا لأقرأ هذا السؤال فى مجلة ثالثة :

« الصين ٠٠ هل تصبح العدو الأول لأمريكا وروسيا معا ٠٠٠ ؟ » ، ألا يوجد موضوع يناسب المرضى والمتعبين ٠

« فرنسا تصر على تفجير قنبلتها النووية محافظة بذلك على قوتها الدفاعية الخاصة » ٠

ولا ينقذنى من قراءة التفاصيل سوى الممرض أخيرا جاء دورنا ٠٠٠ الطبيب وحده هو الذى لا ينتظر ٠

ـ أهلا ٠٠٠ بسمة بالمقاس ٠٠٠ عيناه على ويده على القلم يكتب الاسم والسن والعمل ، يرفع رأسه برهة ويتفحصنى وهو يكتب المهنة ٠٠٠ ثم يلقى نظرة على نتائج التحليل المبدئية التى يقوم بها الممرض من تلقاء نفسه قبل دخولنا اليه !

ـ ما الذى تشكو منه ؟

جاءت اللحظة الحرجة ، قلت وأنا أحدق فى عينيه الزجاجيتين!

ـ شعور قوى ودائم بالتعب ٠٠٠ ثم أضفت ، لا أملك تحديدا لمظاهره أو أسبابه !

ابتسامة أخرى بمقاس أكبر قليلا ٠

ـ دعنى أفحصك أولا ٠

وأستسلم لأصابعه المدربة ، لسماعته ، لأوامره بأن انهج وأسعل لجهاز ضغطه ، ثم أخيرا وقد عدنا لمكاننا الأول فى حجرة مكتبه لأسئلته :

هل تأخذ أجازتك ؟ أين تقضيها وكيف ؟

هل هذا معقول ؟ كم ساعة تعمل فى اليوم ؟ هل تقوم بأعمال أخرى غير الكتابة ؟ ما هى ؟ ولماذا ؟

هل الكتابة التى تحب أن تكتبها لا تدر عليك أجرا يتناسب مع ما تعتقده فى أهميتها ؟؟ لماذا ؟ -

لماذا لا تأخذ هذا النوع الآخر من الكتابة الذى لا تحبه وكأنه جزء من عملك الحكومى ؟؟

ما علاقتك بأصدقائك ؟ جميعهم ؟ ألست تبالغ ؟

ما آخر مرة زرت فيها قريتك ؟ متى كان آخر خطاب تلقيته أو أرسلته لأحد ؟

عند هذا الحد أستأذن زوجتى فى أن تنتظرنا قليلا بالخارج ثم أضاف متلطفا معى :

ـ يمكنك ألا تجيب على أى سؤال لا يروق لك !

وسأل الدكتور أسئلة أخرى أرى من حقى قياسا على ما أعطاه لى من حقوق الا أذكرها هنا ، ولكنى للأمانة أذكر أن أسئلته الأخيرة لم تكن كلها تدور حول علاقتى بزوجتى أو بغيرها من النساء !! » . ابتسامته الأخيرة تحولت الى ضحكة مجلجلة حين فرغ من آخر سؤال فى استجوابه ، قال وقد بدا أنه حطم فى حديثه معى كل الأطر والمقابيس :

ـ فى الحقيقة ... طريقتك فى الاجابة هى التى استدرجتنى لكل هذه الأسئلة ، لم يكن هذا من حقى ... لكن لا يجد الطبيب دائما زبونا مثلك ... ثم أضاف بعد فترة تمهل :

ـ ليس لك عندى علاج فصحتك الجسدية على ما يرام ومن المفروض أن أنصحك بزيارة الدكتور « يحيى » الطبيب النفسى المعروف فى العمارة المقابلة ، لكننى أشعر بعد هذه الدردشة أننا أصبحنا صديقين ، ومن حقى كصديق أن أصف لك ما جربته بنفسى

حين مررت بحالتك نفسها مع اختلاف الأسباب ••• نعم تختلف الأسباب لكن النتيجة واحدة فالشعور بالتعب يحدث هنا (وأشار الى رأسه الذى لاحظت آنذاك فقط أن شعره أكرت يغزوه الشيب ، كما لاحظت أن عينيه الزجاجيتين قد أصبح لهما لون رمادى وردى) ان العلاج الوحيد الذى أجدى معى (ثم بدا فجأة كمن تذكر شيئا فضغط على الجرس ، وطلب من الممرض أن يحضر لنا فنجانين من القهوة ، وفى اللحظة نفسها قدم لى سيجارة من علبتـه غير ملاحظ أننى كنت أدخن بالفعل سيجارة كانت فى يدى) استطرد معتذرا :

ـ العلاج الوحيد الذى أجدى معى هو اننى تركت نفسى أغرق فى العمل ، كنت أحرص قبل ذلك على أن يكون لى وقت فراغ ، خلاله أقرأ أو أفكر أو أخالط الناس لكننى اكتشف مع الأسف أن ميكروب التعب اللعين ينمو فى مثل هذا المناخ •• لابد أن تواصل العمل حتى اللحظة التى يعجـز فيها هذا (وأشار مرة أخرى الى رأسه) عن التفكير فى مسألة التعب أو غيرها من المسائل ، أن تعمل وتعمل دون تفكير فى غير العمل ذاته ••• بعدها لا يبقى لك سوى متعة الحيوان بالنوم والطعام والجنس والشراب ••• (آنـذاك دخـل الممرض بالقهوة ، وتخيلت لحظتها مـدى سـخط المنتظرين بالخـارج من المرضى) بينما استطرد الدكتور وهو يرتشف قهوته :

منذ ما لا أعرف من السنين كنا جميعا ننعم مع أبناء المملكة الحيوانية جميعا بهذه المتـع الرائعـة ثم حدثت هذه القفزة التى لا يعرف أحد سرها ، وحين ننام ونأكل ونشرب ونضاجع النساء فان هذه اللحظات هى التى تلمس فيها أقدامنا الأرض فنشعر ببعض الراحة ، وهى راحة موقوتة لأننـا نعاود القفز من جديد ، ألمح فى عينيك نظرة سخرية لا تهمنى وقد تهم الدكتور يحيى لو آثرت أن تذهب اليه وقد تجدى معك طريقتى فى العلاج وقد لا تجدى •

انني أتحدث معك كصديق ، ومهما يكن فثمة أمل عظيم فى راحة أعمق تنتظرنا جميعا ... تنتظر أبناء المملكة الحيوانية كلها ... فانت تعرف أنه حتى هذه الحيوانات البائسة كانت قد قفزت بدورها قفزة أشد غموضا فى أسبابها وأسلوبها من مادة الكون الأولى .. وحين يجيء الموت فاننا نقطع فى جزء أقل من الثانية تلك الرحلة المخيفة التى أوصلتنا اليها هذه القفزات المضنية منذ ملايين السنين وآنذاك سوف تستريح راحتك العظمى . ثم وقف الطبيب فجأة محييا » وكأنما خشى أن يجره هذا النوع من الحديث الى عالم التعب وقف دون أن ينتظر رأيى فى كلامه ! وكأنما قد قرر فجأة أن يعود الى العمل .

حين رويت لزوجتى ملخصا نصف أمين لما دار بين الدكتور وبينى من حوار منذ خرجت لم يخفف ذلك من غضبها عليه ، قالت وهى فى فورة الغضب :

ـ الشيء الوحيد المعقول فى كلام هذا المجنون هو نصيحته لنا بأن تزور الطبيب الآخر ! ثم أضافت :

ـ أنا واثقة أنك قد وجدت الآن سببا واحدا معقولا لمتاعبك! ثم تابعت بالعصبية نفسها :

ـ لماذا لم تقل له السبب الحقيقى فى انه يعمل كالبغل طول الوقت ؟ أتعرف ؟ كان فى عيادته ما يقرب من عشرين مريضا فى ثلاثة جنيهات أجرة الكشف ، وهذا يعنى انه يحصل من عيادته وحدها فى الليلة على ما يزيد عن خمسين جنيها ، يحصل عليهم من أمثال عمك الحاج حبيب ثم يطالبك ـ هذا الحيوان ـ بأن تعمل مثله ؟!

ولم أقل لزوجتى رأيى الحقيقى لا فى كلامها ولا فى كلامه .

الزيارة الأولى للطبيب الثانى .

عيادة الطبيب النفسى أجمل وأرق ، مرضاه أكثر بؤسا رغم ان أغلبهم أفندية ــ بعضهم يغرق فى الضحك والآخرون فى الكآبة وليس بينهم أحد من أقاربى ! العيادة آكثر ازدحاما بسبب المرافقين للمرضى ، انتظار آخر ، ومجلات لا تمتد اليها يدى ! ولوحات من ريف مصر وريف أوروبا على الجدران لا تتوقف أمامهــا العيون ، فعيون المرضى هنا تبدو كأنها تنظر الى المجهول وتحاول أن تراه فى داخل نفوسهم أو خارجها !

عينا الطبيب النفسى تمسكان بي منذ لحظــة دخولى حجرته بينما أشعر بالعجز عن الامساك بهما ، لم ألاحظ متى ولا كيف أشار على زوجتى بالخروج هكذا من البداية ، ويبدو أنه فعل ذلك بقدر هائل من الكياسة ، فقد نبهتني وهي خارجة الى انها ستنتظر بالخارج بناء على رغبة الطبيب دون أن يلوح عليها أى ضيق أو تبرم !

كان يعرف اسمى من كشف أمامه : أسماء المرضى ، شعرت بالراحة والقلق معا حين أخبرنى منذ البداية ، وبطريقة عفوية وودية أنه يتــابع أحيانــا بعض ما أكتب ،وربما لهــذا السبب لم يبــدأ بالاستجواب التقليدى بل قال متلطفا ، انه كان يود لو أتيحت له فرصة لقائى لمناقشتى فى بعض ما أكتب ! (شعرت أن ذلك مجرد مجاملة) ثم تابع صاحكا : « انه لا مانع عنده لو دفع لى هو أجرة الكشف » (لاحظت آنذاك أن سواد شعره لا يماثله الا سواد عينيه، أنهما لا يعكسان عمره الحقيقى الذى يلوح فيما حول عينيــه من تجاعيد) .

أحببت أن أخلصه من عناء المجاملة والبحث عن مدخل فقلت له بعد أن شكرته مباشرة :

ــ أشعر يا دكتــور بتعب شديد دائم وملح لا أستطيع أن أحدد معالمه أو أسبابه ! أشعر به فى أوقات الراحة مثلما أشعر به فى أوقات العمل !

ابتسم الطبيب ابتسامة من فهم مناورتي وعدم تصديقي لمجاملته . قال بلهجة لا تخلو من سخرية :

ـ ما دمت متعبا الى هذا الحد فلم العجلة ؟

قلت محبطاً :

ـ أريد أن استريح !

قال مسايرا :

ـ هل رآك طبيب باطني ؟

ـ نعم .. الدكتور رفعت ، وهو الذى ... قال مقاطعا

دون أن يفقد روح الود :

ـ كيف بدأت الحالة ؟

ـ تلك هي المشكلة ... لو كنت أذكر حادثا أو موقفا محددا بدأت بعده هذه الحالة لقلت : ربما من هنا السبب لكي ...

ـ يمكنك على الأقل أن تذكر كيف كنت تشعر قبل هذه الحالة حين تواجه بعض المتاعب ؟

ـ بشكل عام كنت أشعر ان المتاعب هي الاستثناء في حياتي وليست القاعدة ... كنت أعرف أسباب المتاعب وأحددها وأحاول التغلب عليها ، لكنها كانت تتزايد يوما بعد يوم ، أو هكذا كان شعوري بها ، تتزايد وتتشابك وتتداخل ، وتوشك أن تصبح هي القاعدة ، تصبح موجودة في كل شيء لدرجة انك لا تستطيع أن تمسك بها وتبعدها أو تزيحها مؤقتا الى مكان آخر ، موجودة في كل شيء لدرجة أنك لا تستطيع أن تلم بها أو تعرفها !

نعم ··· فجأة تهرب منك هذه الأسباب ··· تصبح مجهولة بقدر ما هي معلومة وواضحة ··· ليس هذا الكلام من أعراض تعبي ، بل هو احساس حقيقي . فعلا أصبحت لا أعرف من أين أبدأ ؟ وكيف أمسك بأي طرف لخيط المتاعب الذي يلتف حول كل شيء ؟

وقال الطبيب :

ـ تعتقد انك لو عرفت هذه الأسباب أو على الأقل بدايتها فسوف تعرف طريق الراحة ؟

ـ أظن أن تلك تكون هي البداية الصحيحة !

ارتسمت على شفتيه ابتسامة فيها ظل اشفاق قال :

ـ اما ان وراءك عمل هام جدا ، أو انك تعتقد ان ورائي مثل هذا العمل ؟!

ثم استطرد مقاطعا دهشتي :

ـ وحتى تطمئن الى أنه ليس ورائي مثل هذا العمل دعني أروي لك قصة حدثت لي منذ شهور (لحظتها ورغم أنه استرخى في جلسته تماما ليوحي لي بضرورة الاسترخاء تحول الاشفاق في عينيه الى تعب ··· تعب كهذا الذي كنت أراه أحيانا في عيني حين أقف أمام المرآة لحظة مغادرتي الفراش) · فاجأني مرة أخرى بقوله :

ـ أنت لم تصدقني حين قلت لك انني كنت أود لقاءك وبدوري أرجوك ألا تصدق انك سوف تعرف طريق الراحة بمجرد أن تعرف أسباب التعب ، المهم الآن أن نتكلم معا بكل ما نقدر عليه من صدق ، وألا تحاول القفز الى النتائج أو الى الراحة ، لقد احتجت الى وقت طويل جدا لكي تصل الى ذروة التعب ، وأنت الآن في القمة ، أية محاولة للقفز الى السفح قد تعني الهلاك ·· !

ـ ماذا تحب أن تشرب ؟

ـ قهوة !

ـ لو لم أكن أعـرفك جيدا لما فكرت فى أن أروى لك هذه القصة ، ولست أوريها لمجرد أن تثق بأننى أعرفك بل لأننى متعب مثلك تماما ، وحاجتى الى رأيك لا تقل عن حاجتك الى رأيى !

لم أقو على مغالبة الضحك ، قلت : يبدو ان هذه أحدث صيحة فى العلاج النفسى !

ـ استطرد متجاهلا سؤالى وضحكى معا :

ـ منذ شهور كنت فى رحلة ٠٠ يمكن أن تعتبرهـا رحلة عمل ٠٠ كلفت بزيارة مجموعة كبيرة من العاملين فى أحد الأماكن النائية ـ بحكم المهنة لا تنتظر أن أروى لك أسماءهم أو طبيعة عملهم أو مكانه ـ وفى الحقيقة كل ذلك لا يهم فى جوهر الموضوع ، ولكن اذا أردت أن تتصور الجو وتعيش فيه فيمكنك أن تتخيل مجموعة من الشباب يعملون فى الصحراء للبحث عن البترول مثلا أو ما أشبه ، عمل كما ترى وطنى وهام ولكن ظروفه قاسية ، صحراء ٠٠٠ تشتد حرارتها صيفا وبرودتها شتاء ، معلبات فى أغلب الوقت ، لا ظل شجرة ولا طيف امرأة ، لا أسرة ، ولا زيارات ، لا سينما ، لا شوارع أو مارة ، أو باعة ، أو دكاكين ، فى كلمة : لا شىء مما ألفوه طوال حياتهم !

ـ اشرب قهوتك ٠

« فى ظل هذه الظروف تنشأ بالطبع مشكلات كثيرة ، لكن المسئولين عن العمل لم يتخيلوا أن تصل الأمور الى حد الشجار والعنف والقتل ، وكانت مهمتى أن أحاول فهم هذه المجموعة من

العاملين ··· فهم المشاكل التى أدت الى تفاقم الموقف الى هذا الحد ، وحتى لا تتكرر المأساة ! ولكى أفهم مشاكلهم كان لابد أن أكسب ثقتهم لأسمع منهم كلاما آخر غير ما يقولونه للمحقق !

وبدأت مشكلتى حينما وجدتهم جميعا يلوذون بصمت قاتل حتى بعد أن طلبت الانفراد بهم ، وبالتحديد بهذه المجموعة التى أثارت الشغب والعنف !

فجأة قال لى أصغرهم سنا وهو شاب تخرج حديثا من الجامعة من هذا النوع من الشباب الذى يطيل شعره ويقضم أظافره فى لحظة الغيظ :

ـ لماذا جاءوا بك الينا ؟ ماذا تريد منا ؟ كن شجاعا أنت وتكلم !

ـ أنت تعلمون أنكم هنا فى مهمة · قوطعت :

ـ نحن نعلم أنك واحد من الرقعاء الذين يأتون بين حين وآخر للتفرج علينا ، والقاء بعض الكلمات السخيفة ثم يهرولون الى بيوتهم وظروف حياتهم المريحة ! ولم أعد أعرف من الذى يتكلم :

ـ ابق معنا هنا ··· عش أياما أو شهورا أو أعواما مثلنا ، وستعرف كل ما تريد معرفته !

ـ قد تتشاجر مثلنا ··· فيبعثون لك برقيع آخر تنشب أظافرك فى عنقه !

احترمت منطقهم ، طلبت بقائى معهم وقتا غير محدد · لم تكن اجابة طلبى أمرا ميسورا لكننى أصررت ···

ـ أرجوك لماذا تنظر حينا الى الباب وأخرى الى ساعتك قالها الطبيب بغيظ :

ـ المنتظرون فى الخارج ! قلتها بلهجة اعتذارية ٠

ـ ربما كانوا أحسن حالا منك ومنى ٠٠ ثم اســتطرد : « بعد شهر واحد عرفت لماذا يتشاجرون الى حد الموت ولماذا يثيرون الشغب ؟ ودون حاجة الى أن أسمع منهم كلاما كثيرا ٠٠٠ لم يكن ثمة ألغاز، وحين أخبرت المسئولين عنهم بما ينبغى أن يحدث لكى يعودوا الى حالتهم الطبيعية ، وحتى لا يتكرر الشغب من غيرهم ٠ قالوا :

ـ ان هذا شبه مستحيل ، فـالأمر يتعلق بظروف أكبر منا ومنهم ومن علمك !

ـ اذن قولوا لهم حقيقة هذه الظروف !

ـ وتقول لنا انك طبيب ! كيف جاءوا بمثلك الينا ؟

ـ نعم ٠٠٠ أقول هذا لأنى طبيب !

ـ أنت مريض أكثر منهم !

ولم أجد ما أقولـه لهم ٠٠٠ لمجموعـة الشباب التى آثارت الشغب ولغيرهم ممن بدأوا يثقون بى ، لأول مرة وجدتنى مضطرا الى أكاذيب من هذا النوع ٠٠٠ اننا نكذب كل يوم كما نتنفس ، لكن هناك أكاذيب تقصم ظهرك وأنت تنطق بها ، قلت لهم ، لمن وثقوا بى :

ـ سوف تسير الأمور على نحو أفضل تقريبا ، لا تقلقوا ورحت أودعهم واحدا واحدا !

بعض من وثقوا بى جمعوا لى باقة ورد ، لا أدرى كيف جمعوا زهورها فى مثل هذا المكان ! قال من يقدمها لى :

ـ سوف نذكرك بنا ٠٠٠ لا تتركها تذبل فى مكتبك ! الشاب الصغير الذى يطيل شعره ، ويقضم أظافـره والذى كان قد أصبح صديقى هو الذى رفع يده وأهوى بهـا على وجهى ، وأنا أمد يدى لوداعه بين ذهول الجميع ! أنقذته من أيديهم ، كمـا أنقذنى من سخطى على نفسى ! كانت دهشتهم لا حد لها حين أصررت على عدم اثارة الموضوع أمام أحد من المسئولين عنهم !

من يومها وأنا متعب ، كنت فى حاجة الى مريض من نوعك لأتكلم معه ٠ تعتقد أنك متعب لانك بدأت تجهل أسباب تعبك ، ولكن هذا أخف أنواع التعب ، فلديك على الأقل أمل فى أن تعرفها وأن تكون تلك بداية الراحة لكن حين تعرف هذه الأسباب ، وتعرف أنك لا تملك لها تغييرا فهذا هو التعب الحقيقى ٠ يا صديقى أرأيت الآن اننا معا فى حاجة الى أن نلتقى وأن نتحادث ، وألا نستعجل القفز الى النتائج أو الراحة ! هل أطمع الآن فى تحديد موعد نلتقى فيه لأسمع منك القصة الحقيقية لمتاعبك بطريقة أفضل مما فعلت فى هذه الزيارة ؟!

ـ أين تحب أن يكون موعد اللقاء ومكانه ؟

ـ أمام المدخـل الجنوبى الشرقى لاستاد القاهرة الساعـة الرابعة يوم الخميس القادم حيث تقام المباراة الفاصلة فى الساعة الخامسة بين النادى الأبيض والأحمر !

ـ هل أنت من عشاق الكرة ؟

ـ أصبحت من عشاقها ، فاذا راق لك الموعـد ؟ قلت متفحصا عيون الطبيب المتعبة ٠

ـ متى حدث ذلك العشق ؟

ـ بعد شهور من شعوری بالتعب ··· أصبحت أجد راحتی الکبری هناك ···

« لا شیء یجعلك فی قلب الحیاة وخارجهـا فی الوقت نفسه مثل کرة القدم لأنها أعظم الوسائل لفقدان الوعی بترکیزه فی شیء واحد لا حدود لاثارته وجماله وروعته !؟ ·

من الذی قال هذه الکلمات ؟ وارتسمت علی شفتی الطبیب بسمة غامضة · قال : أذکر انی قرأتها فی قصة بعنوان « ····· » هل تذکر هذه القصة ؟ قلت وأنا أستجمع قوای ، وأشد علی یده :

ـ سوف نلتقی فی الموعـد نفسه ، وفی غیره ، لکن أرجوك أن تکتب أیة روشتة لأقدمها لزوجتی التی تنتظر فی الخارج !! ·

هذه المرأة

حين خرج الأستاذ « حافظ عبد السلام » من المؤسسة التى يعمل فيها الى الشارع ، تلفت خلفه بطريقة لا شعورية ، وتعمد أن يمشى قليلا قبل أن يشير الى أول « تاكسى » خال يمر به ويقول للسائق فى عبارة مقتضبة ـ بنك الاسكندرية ـ شارع قصر النيل .

أخيرا أصبح وحده لبعض الوقت ، فى كل مرة ينفرد فيها بنفسه يدق فى رأسه جرس التليفون ، ويبدأ هذا الحوار الذى بدأ فى الوقع منذ أسابيع فى بيته .

ـ ألو .

ـ منزل الاستاذ « حافظ عبد السلام » ؟

ـ نعم .

ـ الأستاذ حافظ عبد السلام الذى كان مدرسا فى العباسية الثانوية للبنات سنة ١٩٦١ .

ـ هو والله العظيم ·

قالها بلهجة بين الشك والرجاء واصطناع المرح ·

ـ نذكر ليلى عبد العزيز ؟

ـ دهمته المفاجأة ، قال بلا تحفظ :

ـ لم أنسها أبدا ·

ـ هى التى تتحدث اليك الآن ·

ـ قالتها بلهجة جذلى ، لهجة شخص فوجىء بنصر مبكر · قال ولا يزال تحت تأثير المفاجأة محاولا أن يتذكر الصوت ·

ـ هذه فرصة سعيدة جدا ما كنت أتوقعها بعد كل هذه السنين ·

مضت لحظات صامتة ، نمت عن اضطرابها هى الأخرى ·

ـ تريد أن تعرف لماذا أتصل بك ؟ وكيف عرفت ··· ؟

ـ قاطعها وهو لا يزال عاجزا عن اختيار كلماته :

مهما تكن الأسباب فأنا سعيد بسماع صوتك و ······ قاطعته بلهجة من استردت نفسها ·

ـ كنت أخشى أن تكون قد نسيتنى تماما ·

ثم عاد الصمت ··· كأنما أدركا معا فى الوقت نفسه أنهما تورطا فى أكثر مما كانا يريدان ـ على الأقل فى هذه اللحظة ـ قال كمن تنبه فجأة الى شىء :

ـ شىء واحد هو الذى أريد أن أعرفه الآن ، وبسرعة هل يمكننى أن أراك · ؟ ومتى وأين ؟

قالها بلهجة تشي بشعوره بأن الوقت والظروف لا يسمحان بتأجيل هذا السؤال ٠

فانت بلهجة الفاهم :

ـ آسفة لانني اتصلت بك فى البيت ، لم تكن أمامى فرصة أخرى ثم استطردت لانقاذ الموقف ٠

ـ ما رأيك فى اليوم الرابع من الشهر القادم فى بنك الاسكندرية بشارع قصر النيل الساعة العاشرة صباحا ؟ لم يستطع أن يمنع نفسه من أن ينفجر فى ضحكة عالية وهو يسأل :

ـ لماذا بنك الاسكندرية واليوم الرابع من الشهر ؟

قالت وهى تضحك ضحكة الظافر :

ـ البنك هو أفضل مكان تقابل فيه سيدة ، الانتظار هناك مشروع للجميع ، واللقاء بالصدفة أمر طبيعى ، والناس مشغولون بسحب نقودهم أو ايداعها أو عدها ، وفى اليوم الرابع يكون البنك هادئا نوعا ما ٠

ـ لازلت البنت الشقية التى عرفتها منذ خمسة عشر عاما ٠

ـ أرجو أن أجدك كما كنت يا أستاذ حافظ ٠

ـ ستجدين أشياء كثيرة قد تغيرت عدا رغبتى فى لقائك ٠

ـ الى اللقاء اذن فى هذا الموعد ٠

ـ لم نتكلم بعد ، كنت أخشى أن ٠٠٠٠

ـ أعرف وأقدر ٠٠٠ يكفى الآن أننا اتفقنا على موعد ٠ ثم أضافت وكأنها تريد تغطية انسحابها المفاجىء :

ـ مادا نقول اذن حين نلتقى ؟

ـ مع السلامة ٠

القى نظرة على ساعة يده ، كانت تقترب من العاشرة كان يجب أن يكون هناك فى وقت مبكر ليراها وهى تدخل البنك ، ليتعرف عليها وقبل أن تتعرف عليه ، ترى كيف تبدو بعد كل هذه السنين ؟

رآها فى خياله كما كانت منذ خمسة عشر عاما ، فى ثيابها المدرسية الرمادية أطول التلميذات قامة ، وأكثرهن جرأة وجمالا تخيلها تدخل البنك بثيابها المدرسية ، بحقيبة كتبها التى كانت تحملها على ظهرها كالأطفال ٠ مع أنها لم تعد طفلة ٠٠٠ كان يقول لها فى تلك الأيام الماضية :

ـ يا مجنونة متى تعقلين ؟

فترد ضاحكة ضحكة يختلج لها كل قوامها وشعرها ورأسها ويديها وهى تقول :

ـ تقول عنى مجنونة وأنا أشطر تلميذة عندك ٠

كانت أشطر وأجمل وأجرأ تلميذة ، وكان يفعل المستحيل ليقاوم حبه لها ، كان فى بداية حياته العملية ، يدرك مسئوليته كمدرس فى مدرسة ثانوية للبنات ، يعرف ان العيون كلها مفتوحة عليه باعتباره المدرس الأعزب الوحيد فى المدرسة ، ولولا الحاجة الماسة الى تخصصه ما وافقوا على نقله الى هذه المدرسة ٠

ولكنها هى كانت بحساسيتها المفرطة ، بسنوات عمرها الثمانى عشرة ، كانت تدرك أنه يكتم حبه لها ، وحين تسنح لها أية فرصة لم تكن تبذل أقل جهد لاخفاء حبها له ولكنه لم يسمح لهذا الحب المتبادل المكتوم أن يتجاوز دائرة التعبير غير المباشر عن نفسه ٠

لم تكن ظروفه تسمح له بالزواج ، أو حتى للارتباط مع فتاة لا تزال أمامها سنوات من التعليم فى الجامعة ٠

فى ذلك الوقت كان يجب على الأقل أن يضع حدا لتعلقها به ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك بطريقة حاسمة باترة تركها تشعر بحبه المكتوم لها ، وترك نفسه تسعد بكل الحيل التى تلجأ فتاة فى هذه السن للتعبير غير المباشر عن حبها له ٠

يدرك الآن بوضوح ، كم كان ينطوى موقفه هذا على قدر كبير من الأنانية والنذالة ٠ كيف لم يدرك ذلك فى الماضى ؟

كانت السيارة قد بدأت تسير ببطء فى زحام شارع « سليمان باشا » ٠ وقبل أن تدخل شارع قصر النيل ، ساعة يده تشير الآن الى العاشرة تماما ، كالعادة يصل دائما متأخرا ، وبعد فوات الوقت ٠

فى مرات عديدة ، وهو يسير فى شوارع القاهرة تمنى أن يلتقى بها مصادفة ، حتى بعد أن تزوج وأصبح أبا لطفلين ظلت هذه الأمنية تنقر فى قلبه ، لم يكن سعيدا فى زواجه ، ولكنه كان كان دائما يقنع نفسه بأن هذا هو الزواج ، وربما يرجع قدر كبير من شعور الناس بالتعاسة فى الزواج أو فى غيره الى ذلك الغموض المقيت الذى تنطوى عليه كلمة السعادة ٠ أكان يخدع نفسه طول الوقت بهذه الكلمات ؟

وماذا يكون ما يشعر به فى هذه اللحظات ان لم يكن هو السعادة الحية الدافقة ؟ ومن الغريب أن تتشابه أعراض الخوف والسعادة ، لحظة المواجهة تقترب ٠

أيخاف هذه اللحظة التى طالما تمناها ؟ هى التى بدأت ، هى التى كانت تبدأ دائما ، هى الآن فى أوج ازدهارها ، وهو فى أوج انكساره ، ترى ما الذى تريده تماما ؟

عماذا تبحث ؟ الحب ؟ الزواج ؟ المغامرة ؟ ماذا تعرف عنه ؟ وماذا لا تعرف ؟

توقفت السيارة أمام بنك الاسكندرية ، دخل مع الداخلين راح يمسح المكان بعينين زائغتين ، من خلف منظار راكن ، انداح في قلبه شعور بالراحة والقلق حين لم يجد في صالة البنك سيدة واحدة ، انتحى مكانا قصيا وراح يراقب الباب من خلف صحيفة يتظاهر بقراءتها ..

أيدرك الناس في البنك أنه الوحيد الذي جاء وجلس دون أن يسلم أوراقا في شباك الايداع أو السحب ؟

قام وتمشى في صالة البنك لينقذ نفسه من سخافة تفكيره وسلوكه ، هاهي قادمة .. هي ليلى عبد العزيز ، رأسها المرتفع كرأس الحصان شعرها الطويل وقوامها وثقتها ، المكياج الذي تضعه سيدة فوق الثلاثين يعجز عن اخفاء ملامحها الفتية النضرة ، الأنف الحاد ، والعينان الثرثارتان ، تلوح فيهما هذه المرة نظرة غريبة لا تقبل الترجمة الفورية ، نظرة ثابتة تقودهما الى شباك الصرف ، يقينا لم تبصره ، فجأة يستدير رأس الحصان ، وتقبل عليه في حفاوة هامسة :

ـ أهلا

قالتها وهي تسلم ثم أضافت :

ـ لن أتأخر كثيرا ، ومضت من جديد ناحية الشباك ، اكتشف بعد أن مضت أنه لم ينطق بحرف واحد ، ربما نطق وجهه بالكثير ، لم يستطع في فترة الانتظار أن يعد أسلحته للمواجهة القادمة ، أسلم نفسه لقلق سعيد أخرس ، تمنى ألا يدخل البنك شخص يعرفه ، لاحظ أنها لا ترتدي جوربا ، وأن لون « جيبتها » الأزرق

الغامق ، ينسجم مع لون « بلوزتها » الفيروزية ، أخيرا جاءت لتجلس بجواره فى هدوء ، وضعت حقيبة يدها بينهما . قال وقد تذكر أنه لم ينطق حتى الآن بحرف :

ـ هناك أشياء يبدو أنها ستظل تحدث للكبار والصغار معا ، وفى كل وقت ...

قالت :

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل هذه الحيرة التى أشعر بها الآن ، لا أدرى كيف أبدأ الحديث ولا من أين ؟

ـ ولا يهمك أبدأه أنا ، ثم تابعت ضاحكة بصوت هامس مـرح ...

ـ اسمى ليلى عبد العزيز ، العمر ٣٢ سنة ، الحالة الاجتماعية متزوجة منذ سنوات ولم أنجب أطفالا ، المهنة محاسبة فى الشركة الأهلية للتامين على الحياة ، الغرض من المقابلة لى خدمة فى مؤسسة الأدوية التى تعمل خبيرا فيها ، وتذكرت أنك كنت يوما تحب أن تقدم لى أية خدمة فلجأت اليك ...

أحس أنه يدخل معركة حديثة بأسلحته التقليدية البائسة ، وبلا خطة ، وأن مصيره فى كفة القدر ، ومع أنه لم يصدق حكاية الخدمة التى لها فى مؤسسة الأدوية الا أنه قال لها بطريقة عفوية لمجـرد مسايرتها فى الحـديث والى أن يسترد نفسه أمام الهجوم المفاجىء :

ـ وما هى هذه الخدمة يا سيدتى ؟

ضحكت ضحكة ناعمة وهى تقول :

ـ غلبتني بهذا السؤال ، أردت انقاذك من الحيرة فوضعتني في مأزق ٠

أذهلته بساطتها وجرأتها ، وقبل أن يقول كلمة واحدة تابعت بالصوت الهامس نفسه :

ـ أتعرف ؟ لم تتغير كثيرا ، في الماضي كان يعجبني خجلك ٠٠ أما الآن فلا أدرى ٠٠٠٠

قال وقد استرد نفسه :

ـ لا تنخدعى بالمظاهر ، لدى من الشجاعة ما يجعلنى أقول لك اننى مفتون بكل شيء حتى بطول لسانك ٠٠٠

قالت وهى تكتم ضحكة ناعمة :

ـ حدثنى عن أخبارك ٠

ـ يبدو أنك تعرفينها أكثر منى ؟

ـ لا تترك الغرور يدير رأسك ، لقد عرفتها بالصدفة وستعرف بعد قليل كيف حدث ذلك ٠٠٠

قال محاولا أن يكون فى مثل بساطتها :

ـ متزوج ، ولى طفلان ٠٠٠

ـ هذه كارثة ٠٠٠

ـ من النوع الذى يخففه أنه يحدث لكل الناس ٠٠

فى تلك اللحظة نادى الصراف اسمها ، شعر بأنه قدم له طوق النجاة فى الوقت المناسب ، كان الحديث يتجه نحو طريق محفوف بالمكاره ٠ عادت بعد أن تسلمت نقودها ، كان بعض الناس قد جلس بجواره ، قالت وهى لا تزال واقفة :

ـــ ما رأيك في الخروج من هنا ؟

ـ لا مانع ..

ثم أضاف وهما يتجهان ناحية الباب :

ـ الى أى مكان تحبين أن نذهب ؟

ـ نتمشى فى الشارع ...

قال بلا تفكير ...

ـ لماذا الشارع ؟

ـ الشارع أفضل مكان بعد البنك ...

لم يشأ أن يبدو أقل منها شجاعة ، مع أنه يفقد نفسه فى الشارع الا حين يكون وحيدا ، مع الناس لا يعرف كيف يسمع أو يتكلم ..

قالت وهما يسيران متجاورين :

ـ منظرك يضحكنى ، لماذا تتلفت كأن الناس جميعا يعرفونك ؟

قال وقد شعر بأن التظاهر لا يجدى :

ـ يمكننا أن تقابل زوجك الآن ...

ـ سأعرفك به ، وأقول له انك كنت أستاذى فى العباسية الثانوية ، قابلتك فجأة فى الشارع .

ـ لازلت البنت المجنونة ...

ـ يبدو أنك لم تتغير كثيرا ، ثم أضافت بالبساطة نفسها :

ـ هل عندك مانع من أن تعرفنى بزوجتك ؟

ـ لا أظن أنه يسعد أية زوجة أن يقدم لها زوجها سيدة فى مثل جمالك ؟

ثم يبدو أنها سعدت كثيرا بهذه الاطراء ، فوجىء بها تسأله :

ـ هل تحب زوجتك ؟

ـ مستعد أن أقول كل شىء عن زوجتى وعن نفسى ، لكن ليس بهذه الطريقة ، وليس فى الطريق ٠٠٠

ـ تفكر بالحدائق والكازينوهات ٠٠٠

ثم استطردت قائلة وقبل أن يرد :

ـ هل تعتقد ن الحب الحقيقى خرافة ؟

كاد يقول لها :

ـ نعم ٠

ولكنه قال :

ـ الخرافة الحقيقية أن نعيش بلا حب ٠

قالت فى بساطة أليمة :

ـ لم أعد أحب زوجى ٠٠٠٠

ـ تزوجتما عن حب ؟

ـ نعم ٠

ـ ما الذى جرى ؟

ـ أكذب عليك لو قلت اننى مقتنعة بسبب واحد من الأسباب التى أذكرها لنفسى ، فمعها قد يبقى الحب وبدونها قد يذهب ٠٠

كاد أن يحدثها عن المفهوم الغامض للسعادة وللحب وأن ذاك وربما كان السر فيما يشعر به الناس من تعاسة ، ولكن جو الشارع يفقده القدرة على مثل هذا الحديث ، وربما خوفه من أن يقوده ذلك الى نهاية لا يحبها ...

وجد نفسه يقول :

ـ لم تحدثيني عن موقف زوجك ..

ـ حين طلبت منه الانفصال رفض بشدة ، يعاملني كما تفعل بالجنون .

ـ معنى ذلك أنه يحبك ، ويحب جنونك ..

ـ حتى ذلك لم أعد أجد له معنى ...

كاد أن يحدثها مرة أخرى عن المعانى الغامضة التي تضللنا فى البحث عنها ولكنه قال لها :

ـ هل تظنين أن لمسألة عدم الانجاب دخلا في الموضوع ؟

ـ لا أظن ...

ثم التفتت اليه قائلة بنبرة غريبة :

ـ أنت عندك أطفال ... هل لا تزال تحب زوجتك ؟

وقع سؤالها عليه من جديد كالمطرقـة ، تجره الى مواجهـة حاسمة ، ومع ان لديه اجابات جاهـزة لمثل هذا السؤال لنفسه أو للناس الا أنه شعر بأنه سوف يفقد احترامها لو نطق بواحدة منها .

وما لم يتحدث بلغتها فسـوف ينقطع الحوار الذى لم يكد يبدأ . قال لها فى محاولة يائسة لانقاذ الموقف :

ـ دعيني أسألك بصراحة ، ما الذى تقصدينه بكلمة الحب ؟
قالت بنبرة تقطر سخرية ٠٠٠٠٠

ـ الحب الذى بدونه تصبح الحياة خرافة ؟ هل نسيت ؟

خيم عليهما صمت ثقيل مرهق ، كان الشارع سكت فجأة ، كاد أن يقول لها :

ـ أنت مجنونة فعلا ٠٠٠

لكنه كالعادة اختار حلا وسطا سخيفا قال :

ـ لازلت قادرة على اثارة الخوف في نفس اي رجل ٠٠٠

لم أرد أبدا سوى الحب ، ولكنى لم أجد دائما سوى الخوف أو الرغبة في الخداع ٠٠٠

قالتها بلهجة تقطر صدقا ويأسا ٠

ولأول لحظة تصيب كلماتها قلبه ، وكأنما ينكشف عنه حجاب ثقيل ، هذه انسانة قد تكون بسيطة جدا ، وصادقة جدا ، ولهذا السبب يخافها كل الناس ٠

قال بخوف هذه المرة من أن يكون قد أضاع آخر فرصة :

ـ مستحيل أن نتكلم بهذه الطريقة فى الشارع ، هناك الكثير الذى يجب أن نقوله بطريقة أفضل فى مكان معقول ٠

ـ مثل الفنادق ، والشقق المفروشة ٠

ثم أضافت حين غرق فى المفاجأة ، كأنما لتنقذه ٠

ـ لا تخف ، لم أكن أريد أن أهيم بك فى الشوارع ، ثم أشارت الى عمارة قريبة قائلة :

ـ سوف أحجز موعدا عند طبيب بهذه العمارة ، هل عندك مانع ؟

ـ أى طبيب ؟ قالها ليعيد جو الحديث الطبيعى ٠

ـ الدكتور شكرى أخصائى أمراض النساء ٠

أمام مصعد العمارة كان ينتظر بعض السكان ٠ أشارت الى السلم قائلة :

ـ أنه فى الطابق الثاني ، لا أظنك أصبحت عجوزا على صعود السلم ٠

حاول أن يطمئن نفسه بعودتها الى الحديث الطبيعى المرح صعدا السلم متجاورين ، عند التفاتة الدرج مسك بيدها فى يده ، فوجىء بأصابعها باردة ، بعد نظرة خاطفة الى أعلى السلم وأسفله جذبها ناحيته وقبلها فى خدها ، رأى وجهها فقط وهو يقبلها وربما لو نظر اليها قبل ذلك لما فعل فعلته ٠

لم يشعر انها سعيدة ولا انها حتى فوجئت ٠

أدرك أنه يتخبط ، وأن الخيط الدقيق الذى ظل يربطهما كل هذه السنين يتمزق فى أول لقاء ٠٠

ـ لم أتصور أن هذا يغضبك ٠

قالها بعد أن خرجا من عيادة الطبيب :

ـ لم أغضب لما فعلت ٠٠٠ لن تفهمنى ٠٠٠ ثم أضافت :

ـ سوف آخذ تاكسى من هنا ، كانت فرصة طيبة يا أستاذ حافظ ٠

ـ غير معقول كل ما حدث ، لا أتصور أن نفترق هكذا ؟

قالت :

ـ كلمات قليلة أود أن أقولها قبل أن أتركك ·

أنصت في يأس :

ـ لك صديق في مؤسسة الأدوية اسمه « حمدى » ·

ـ تعنين حمدى خليل ؟

ـ نعم ·

ثم أضافت :

ـ انه زوجى ·

دار به الطريق ، بدأ يفهم كل شيء ، ولكنها هي كانت تتكلم وكأنها تشك في ذلك ·

ـ أعتقد أنه وجه اليك الدعوة لزيارتنا ، اعتذر بأية طريقة ·

ثم تابعت :

كان دائما يتحدث عنك ، ومن خلال ما سمعته خيل لى ، انك تعيش في مثل ظروفى ، وان حاجتى لك قد تكون فى مثل حاجتك لى ، كنت تحدثه عن كل شيء ، والغريب أنه لم يكن يخفى عنى شيئا · طبعا لم أقل له اننى كنت أعرفك ، ولم أرد أن تتم علاقتنا من خلف ظهره ، لو تأكدت ظنونى لطلبت منه الانفصال وتزوجتك · ربما كنت مجنونة فعلا ، ولكن هذه هي الحقيقة ·

لم يدر ماذا يمكن أن يقول ؟ خيم عليه صمت ثقيل أشد ثقلا من أى صمت عرفه فى كل حياته ·

كانت هذه السيدة ، حقيقة هذه السيدة التى تفجرت أمامه فجأة . وفى زمن قصير جدا ، أكبر من أن يحتملها ، من أن يقوى على مواجهتها ، حين أراد أن يتكلم ، حين تحييه بهزة رأسها وهى تركب التاكسى الذى أشارت اليه . واختفى التاكسى عن عينيه فى شوارع القاهرة ، وحين سار على مهل يتأمل فى كل ما حدث منذ لحظات . شعر بمزيج من الراحة والخوف . وأنه في حاجـة الى مكان هادىء يلملم فيه نفسه التي سقطت فجأة من علو شاهق .

لم يتصور يوما أن تكون الخمسة عشر عاما بهذا الارتفاع !

(٢)

الزعيم

الزعيــم

كنا نتجه بالســـيارة الى الميـــدان الكبير ، الذى اعتـــاد « الحمالون » فى المدينة أن يتجمعوا ـ تحت شـــجرة وارفة ، فى جانب منه ، كمكان معروف ـ يقصد اليهم فيه من يحتاجهم ٠

قلت لصديقى « مرسى » :

ـ يقع هذا الميدان كما ترى عند مدخل المدينة حيث تتجمع الأسواق فى داخلها ، وعند بداية الضواحى حيث تتوزع المناطق السكنية ، وبذلك يكون الحمالون فى الطريق الطبيعى لمن يحتاجهم ٠

قال « مرسى » وفى عينيه نظرة فضول تختلط بقطرات العرق اللامعة خلف منظاره الطبى :

ـ من الأشـــياء الجميلة فى هـــذه المدينـــة النظام ، للمناطق السكنية مكان ، وللأسواق مكان ، للحمالين مكان ٠٠

ثم أضاف وهو يجفف عرقه :

ـ الحر وحده هو الذى فى كل مكان ·

قلت « لمرسى » ونحن ندور فى الميـــدان لنصـــل الى موقف السيارات :

ـ ومع ذلك فهم يقضون نهارهم فى الشارع تحت ظل هــذه الشجرة قال « مرسى » ، كمن تذكر شيئا يخشى أن ينساه :

ـ من الأشياء البائسة هنا ، الأشجار ، لم أتصور أن يصبح اللون الأخضر بهذا اللون ؟

ومع أن ملاحظة صديقى كادت تفتح شهيتى للتعليق الا أننى لم أرد ، كنت مشغولا بالبحث عن مكان نترك فيه السيارة وكنما اعداه صمتى بابداء ملاحظة جديدة لها صلة بما شغلنى عنــه فقال بنفس الدهشـــة :

ـ يخيل الى أن السيارات هنا أكثر عددا من الأشجار ومن الركاب ·



« مرسى زميل الدراســة القديم ، قــدم الى هذه المدينة منذ أسبوعين للعمل ، لايزال يرى كل شىء فيها مثيرا للدهشة ، منذ أيام قليلة استأجرنا له (خالد وأنا) مسكنا مناسبا (خالد زميل الدراسة الثالث وأقدمنا فى هذه المدينة) واليـــوم اشـــترينا معه الأثاث الضرورى ، الذى بدونه لا يكون البيت بيتــا ، وزودناه بالفـلوس والنصائح اللازمة لكل وافد جديد على هذه المدينة ، وكان من أهم هذه النصائح ان يؤجل شراء المفروشات وأدوات المطبخ لحين وصول زوجه وأولاده وكنا قد تركنا خالد بجوار الأثاث لنعـــود ببعض الحمالين لنقل ما اشتريناه الى شقة مرسى » ·

حين نزلنا من السيارة ، عبرنا الشارع فى اتجاه الشجرة التى يتجمع تحتها الحمالون ٠٠ كانوا متفرقين تحتها بعضهم يستند بظهره الى جذعها ، وبعضهم ينام على العشب الجاف متوسدا ذراعه أو حبله ، وآخرون يجلسون متكورين ، وحين بدا واضحا أننا نتجه اليهم هبوا جميعا وتجمعوا حولنا ، ودون أن ينطق أحدهم بكلمة ، كانت عيونهم التى تحيط بها هالات من العرق والتراب تتفحصنا فى انتظار أن نفصح عن هدفنا ٠

فى تلك اللحظة فقط ، رأيته ينتزع ظهرد من على جذع الشجرة ، كان آخر شخص ترك مكانه فيهم ، وكأنما كانوا جميعا فى انتظاره ، فقد أفسحوا له الطريق ليتقدم الينا ، ويقول فى لهجة المسئول :

ـ نعم ؟

كان واضحا أنه أكبرهم سنا ، لعله فى الخمسين من عمره ولكن قسوة المهنة جعلته يبدو أكبر من ذلك بكثير نظراته ثابتة وجامدة لا تعبر عن شيء ، كأنها لمجرد أن يبصر بها وفى قامته انحناءة خفيفة تركتها المهنة ، ألقى الى الأرض ببقايا سيجارة كان لا يزال يدخنها ، وينفث دخانها من انفه الطويل الذى يبدو أكبر من حجمه الطبيعى بالنسبة لوجهه المستطيل الشاحب ، الذى تنبت فيه لحية خفيفة يختلط فيها الشعر الأبيض بالأصفر ، واضح أنه لا يربيها ولا يحلقها ٠

قلت : هناك بعض الأثاث أمام محل « البيت العصرى » نريد نقله الى شقة فى شارع النزهة ٠

آنذاك قال الرجل بلهجة تشى بلغة البلد الذى جاء منه ليعمل فى هذه المدينة ٠

ـ لا مانع ٠٠ نذهب معكم الى المحل الآن ٠

ثم جذب حبلا كان معلقا بفـرع الشـجرة وراح يلفه حـول وسطه ·

قلت وأنا أنظر الى الحمالين المحيطين بنا :

ـ لا نريد أكثر من رجلين فالمنقولات بسيطة ، ومن هناك سنأخذ شاحنة لنقلها ·

ـ الأجر هو الأجر ·· تحدده المنقولات لاعددنا ·

ـ على الأقل يأتى منكم من تتسع لهم العـربة ·

قلتها وأنا أشير الى السيارة الواقفة فى الجانب الآخر من الطـــريق ·

وبنظرة ثاقبة اختار العجوز اثنين من الحمالين وعاد الآخرون الى أماكنهم ·

قلت له :

ـ لم نتفق على الأجـر ·

ـ نتفق هناك بعد أن نرى المنقولات ·

ـ سريران ودولاب وثلاجة ومكيف ومنضدة طعـــام ومقاعد و ···

ـ هذا لا يفيـد ثم أضاف وهو يهم بعبور الشارع :

ـ الشــــقة فى أى طـابق ؟

ـ الثـــالث ·

ـ هل يوجد مصـعد بالعمـارة ؟

ـ لا ··

ركب ثلاثتهم فى المقعد الخلفى ، وجلس « مرسى » بجوارى ومضينا فى اتجاه « البيت العصرى » ، بين لحظة وأخرى كنت ألمحهم فى مرآة السيارة : العجوز ، والشابين ، أحد الشابين يحمل فى وجهه أنفا يبدو أنه يمت بقرابة الى أنف العجوز ، وفى عينيهما نفس الزرقة ، كما أن صدرية الشاب تماثل فى قماشها صدرية الرجل الكبير الذى عاد يدخن ٠

قلت « لمرسى » مستخدما لهجتنا الاقليمية بصوت هامس :

ـ حتى بين هؤلاء ، لابد من وجود زعيم يبرم الاتفاقات والصفقات قال مرسى ضاحكا وبنفس الصوت الخافت :

ـ والآخرون يقومون وحدهم بالعمل ٠

ـ لا أظن أن الزعيم فى هذه المهنة يملك هذا النوع من الترف٠

ـ للذكاء سحر لا يقل عن سحر القوة ٠

ـ ليس مع هؤلاء الذين لا يستخدمون سوى عضلاتهم ؟٠

ـ الرجل يبدو شديد الذكاء والمراس ٠

ـ هذا من سوء حظ من سيتصدى لمساومته ٠

ـ « خالد » طبعا هو الذى سيقوم بهذه المهمة ٠٠ بهذا نعطى الخبز للخباز ٠

ـ كان زعيمنا فى الكلية يقود المظاهرات ، ويتصدى للبوليس، ويدافع عن أصحاب الحقوق و ٠٠

قال « مرسى » كمن تذكر شيئا ووجد فرصة مناسبة للتلميح اليه :

ـ يخيل الى أن شيئا ما قد تغير فى خالد و ٠٠

ولم يكمل حـــديثه كأنما أراد أن يعــرف أولا أثر ملاحظتـــه الأولى ٠

قلت لنفسى : « كنت أظن أن المدينــة وحــدها هى التى تثيــر دهشـــــته » ٠

ثم قلت له مشـــــجعا :

ـ شيئا واحدا فقط ؟

وكأنما دفعه تشجيعى الى المزيد من الحذر قال :

ـ لا أدرى ٠٠ مجرد احساس ؟

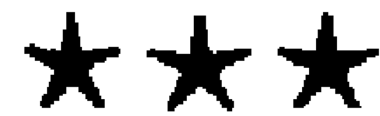
قلت مشـــــجعا أكثـــر :

ـ خالد فقط هو الذى تغير فيه شىء ما ؟

قال فى مرح وتلطف :

ـ على الأقل أنت لم تكن زعيما ، ولم تنذر نفسك لقضية ٠

وهذه المرة لم أرد لأننا كنا قد وصلنا الى المحل ٠



أمام محل البيت العصرى ، كان خالد فى انتظـــــارنا ، رغم المكان الظليل الذى كان واقفا فيه ، فقد كان قميصه الأبيض يلتصق بجسده في أكثـــر من مكان ، وتقابلنا جميعـــا بجـــوار الأثاث قلت للعجـــوز :

ـ هذه هى المنقـــولات ٠

تقدم يتفحصها ويتلمسها وكأنه سيشتريها ، دار حولها وتوقف قليلا أمام الثلاجة الـــ ١٤ قدما ٠٠ والمكيف ٠٠ وعاد ليقول بلهجـــة حيادية وكأنه يقرر أمرا طبيعيا ٠

ـ خمسة عشر دينـارا ٠

تقدم منه « خالد » ليشعره بأنه سيد الموقف ، وقال بصـوت هادىء وكأنه يحكى حكاية :

ـ منذ أسبوعين فقط نقل لى بعض الحمالين أثاثا كاملا لشقة كبيرة بخمسة دنانير فقط ٠٠ ثم أضاف :

ـ هل تظننا نجهل أسعار أى شىء هنا ؟

سأله العجـوز ٠٠

ـ لأى طابق ؟

ـ للطـابق الثـالث أيضـا ٠

(وكان الحمالان الشابان واقفين فى صمت خلف العجـوز يتابعان الحوار فى انتظار النتيجة) ٠

قال العجوز مشيرا ألى الثلاجة :

ـ هذه الثلاجة وحدها أنقلها بعشرة دنانير ، وأنت طبعا تهمك سـلامتها ٠

قال خالد بنبرة بين الجد والسخرية :

ـ تريد لكل واحد منكم الأجر الذى أخذه الحمالون الآخرون الذين نقلوا أثاثا كاملا فيه ثلاجة وغسالة ٠٠ و ٠٠

ـ يا سيدى اذا لم يعجبك اتفاقى يمكنك أن تستعين بهـم فى نقـل أثاثك ٠

قال خالد وقد أصبحت لهجته سخرية خالصة :

ـ للأسف لم يتركوا العنـوان ٠

قال العجوز مؤكدا شعوره التام بسخرية خالد :

ـ أعرف جميع الحمالين فى المدينة ·· لو ذكرت لى اسم واحد منهم آتى لك به فى الحال ·

ـ للأسف لم يتركوا الاسم ولا العنوان ·

قال العجوز مؤكدا نديته لخالد حتى فى السخرية :

ـ لو كنت مكانك وعرفت مثل هؤلاء الناس الطيبين ما تركتهم هكذا دون معرفة ·

مع أن خالد هو الذى أدخل عنصر السخرية فى الحوار فقد قال بلهجة تنم عن غيظ مكبوت :

ـ هل تظننا جئنا بكم لنتسلى بالكلام معكم ؟

ـ نخرج من بيوتنا للعمل ، ولم يكن الكلام يوما عملنا ··

قالها العجوز بنبرة جنحت للاعتدال دون أن تخلو من التعريض ·

قال خالد محاولا الخروج من دائرة الثرثرة :

ـ ما ستفعلونه هو نقل الأثاث الى الشاحنة ثم نقله منها الى الشقة فهل ··

ـ قاطعه العجوز :

ـ لو أصاب أثاثك أى شىء من المسئول ؟

قال خالد بصبر نافد :

ـ ماذا سنأخذ منك لو أصابه أى شىء ؟

ـ لن تأخذ منى شيئا لأنى سأنقله لك فى سلام ·

قالها العجوز بهدوء وثقة ·

ـ يعنى تصر على هذا المبـلغ ؟

ـ قلت كلمتى ·· لماذا لا تقول كلمتك ؟

ـ لأنك جئتم الى هنا سأعطيكم ستة دنانير ·

قال العجـــوز مشيرا الى مرسى :

ـ من أجل هذا الرجل الطيب الذى لم يتكلم كلمة واحـــدة سنأخذ منكم ثلاثة عشر دينارا ·

وخيم صمت ثقيل ، وبدا التململ على «مرسى» وعلى الحمالين الشابين فقلت محاولا تقريب الهوة بينهما ملاحظا أن الجـو الحـار لا يعمل فى صالحنا :

ـ اسمع يا رجل سنعطيك سبعة دنانير وهذا آخر كلام ·
صرخ خـــالد :

ـ اسكت أنت ·· هكذا أنت تطمعهم فينا ·

قال العجوز فى هدوء مخاطبا خالد ومهددا ·

ـ لماذا تغضب ·· أعدنا الى المكان الذى جئنا منه ·

عاد خالد يمسك بزمام الموقف :

قال لى بلهجة قاطعة :

ـ اعطنى مفتاح الســـيارة ثم قال لهم :

ـ تفضلوا ، سأعيدكم الى نفس المكان ·

ـ قال « مرسى » الذى كاد يسقط من الاعياء ، وهو يرى السيارة تبتعد بهم وبخالد :

ـ لولا أنكم تفعلون هذا من أجلى ، ولولا حرصى على عدم احراجكم لرجوتكم أن توافقوا على ما قاله العجوز ٠

ثم أضاف وهو عاجز هذه المرة عن اخفاء دهشته :

ـ ألم أقل لك أن شيئا ما تغير فى خالد ؟

مع أن سؤاله المجدد لمس أوتارا حساسة فى نفسى الا أننى قاومت رغبتى فى تجريح خالد ، خاصة أمام « مرسى » الذى لايزال يرى ثلاثتنا فى اطار الماضى ، شعرت أنه من الصعب أن أوضح « لمرسى » فى لحظات معنى التغير الذى يحدث للناس هنا فى سنين والذى ربما يحدث له فى المستقبل ، وأن خالد لا يصطنع أسلوبا فى المساومة لمجرد الرغبة فى توفير نقود « مرسى » ؟

قلت له :

ـ هون عليك ٠ انها احدى مناورات خالد ، سوف يعود بهم بعد اكمال المفاوضات فى الطريق ٠

لم يرد مرسى على كلماتى ، وبدا كأنه شرد بذهنه فيما جرى أمامه ٠

قلت مصرا على اخراجه من شروده :

ـ أنت لم تعمل بعد بفلس واحد ، فهل تظننا نتركك تبدد نقودنا ؟ أم أن الأجور العالية هنا تغريك ببعزقة النقود ؟

ظل مرسى شاردا ، وبدوت كأننى أكلم نفسى ٠

بدت المفاجأة واضحة على وجه « مرسى » حين عاد « خـالد » وحـده هذه المـرة ٠

كان وجهه مغبرا وشاحباً وان حـاول أن يبـدو غير مبـال وهو يقـــول :

ـ العجوز الملعون ٠٠ لم يتزحزح عن المبلغ الذى طلبه ٠

صرخ مرسى ٠

ـ ولماذا لم تأت به ؟ هل سـنحمل هـذا الأثاث على ظهورنا ٠٠ الشمس تكاد تغـــرب

قال خالد بثقة وكأنه لا يريد أن يعترف بهزيمته ٠

ـ ولذلك سوف يعودون بأنفسهم ٠٠ لن يتركوا هذه الصفقة تفلت منهم فى آخـر النهار ٠

قال مرسى وكأنما سئم وصاية خالد :

لو كانوا يريدون ٠٠ لعادوا معك أو ساوموا على مبـــلغ أقـــل ٠٠

قال « خالد » مستردا روح الوصى والزعيم ، مغتصبا ابتسامة باهتة على شفتيه :

ـ الأولاد الذين معه ٠ ٠يلحون عليه الآن كما تفعـــل أنت معنـــا ٠

ولم يضحك مرسى لما قاله خالد كنكتة ٠

قلت محاولا تخفيف الموقف والبحث عن مخـرج :

ـ واذا لم يعودوا ؟

قـال خـالد :

ـ تذهب أنت ومرسى لهـم مرة أخـــرى ، وأنا واثق أنهـم سيقبلون بثمانية دنانير أو عشرة على الأكثر ·

قال مرسى وكأنما عز عليه أن يتعرض خالد للمهانة بسببه

ـ ألا يوجد غيرهم ؟

ـ لا ··

ـ وهؤلاء الذين تحدثت عنهم ·

ـ هل صدقت هـــذه القصة ؟

★★★

حدث كل شيء كما توقعه خالد ، فحين ذهبنا اليهم أنا ومرسى كانوا فى انتظارنا ·

قال العجوز (الذى بدا مبتسما لأول مرة) قال لمرسى :

ـ من أجلك أنت سأنقل الأثاث ولو بدون نقود ·

قال مرسى مبـــادرا :

ـ تنقله بعشرة دنانير فقط ·

ولم يعد هناك معنى لتـــدخلى ·

قال العجوز :

ـ هو ما قلت ·· وعدنا بهم ·

★★★

كانت الشمس قد غربت تماما حين وصـــلنا الى المنزل الـــذى توجد به شقة « مرسى » فى شارع النزهة ·· توقفت السيارة وبعدها

الشاحنة التى تحمل الأثاث ، وحدث هنا ما حدث أما البيت العصرى ، العجوز يتحرك بسرعة ، ويصدر الأوامر ، ويشارك فى كل صغيرة وكبيرة ٠

هذه المرة لسلامة انزال الأثاث ، كما كانت هناك لسلامة رفعه ووضعه فى الشاحنة ٠

طوال الطريق لم نتبادل ثلاثتنا الحديث ، مع أننا كنا وحدنا فى السيارة ، لعله الارهاق فالجو لا يزال حارا رغم غروب الشمس ٠

لعله شعور بالهزيمة والاحباط لا نعرف له معنى ٠

وحتى حين وقفنا أمام المبنى نرقب الحمالين وهم يعملون ظللنا زاهدين فى الحديث ٠

العجوز يأمر الحمال الذى يشبهه ، بأن يقف وراء الباب الخلفى لصندوق الشاحنة ليحمل الثلاجة على ظهره فى لحظة انزالها من على الشاحنة ، ويقفز هو والحمال الآخر الى ظهر الشاحنة ليقوما بزحزحة الثلاجة وانزالها برفق على ظهر الحمال الواقف على الأرض ٠

حين بدأ الحمال يتحرك بها فى اتجاه سلم البناية كان العجوز يسبقه ليضىء له أنوار السلم ثم يصدر له أوامره الارشادية :

ـ انحن قليلا ٠

ـ خذ يمينك ٠

ـ توسط السلم ٠

ـ لا تنزل يدك عن مؤخرة الثلاجة ٠

كنا نتابع المشهد فى صمت مشوب بقلق مجهول المصدر لعلها لحظة الغروب في يوم شديد الحرارة ، لا نكاد نسمع سوى خفق أقدامنا على السلم ، وصوت العجوز الصاخب وحده هو الذى كان يخفف من قلقنا الغامض ·

كان خالد قد بقي خارج المبنى بجوار بقية الأثاث فى انتظار أن يعود الحمالون لنقله ·

وفجأة بدت الثلاجة التى كنا نرقبها وهى ترتفع خطوة بعد خطوة فى ثبات ، بدأت تهتز ، وتوشك مقدمتها أن تصطدم بسقف السلم ، حدث ذلك قبل أن نسمع صرخة مكتومة تنبعث من تحتها ، وقبل أن نبصر بقعا من الدم يتتابع نزولها على درج السلم ·

يبدو أن العجوز كان أسبقنا الى ادراك ما حدث فحين بدأنا بحركة لا شعورية نمد أيدينا كأنما لنمنع سقوط الثلاجة ، كان هو قد أصبح تحتها تماما ملتصقا بالحمال الذى ندت عنه الصرخة ·

وكان هو بدوره يصرخ فيه :

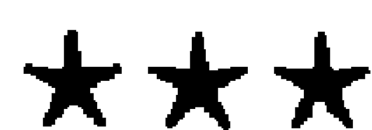
ـ انحن أكثر منى ، ودعها تنزل على ظهرى ·

ثم طلب منا أن نعد لها لتستقر على ظهره ·

وحين أصبح مسيطرا عليها تماما ، عاد يصعد بها فى ثبات وتوازن ·

حدث الأمر كله فى لحظات خاطفة ، كنا أنا ومرسى نبدو خلالها حائرين مذهولين ، حتى ونحن نلبى أوامر العجوز ، وحتى ونحن نرى خالد الذى جاءت به الصرخة يصعد السلم قفزا . ليستوعب الموقف فى لحظة ويطلب منا أن نبقى مع الحمالين حتى

يتم نقل الآثاث ، وانه هو سـيأخذ الحمال المصاب فى السـيارة الى مستشفى « دار الشفاء » القريب من البناية ٠



حين أخبرت العجوز بأن زميلنا خالد هـو الذى أخذ المصاب الى المستشفى القريب ، هز رأسه ونطـق بضع كلمـات بلغتـه الأصلية ، لم أفهم لها معنى ، ثم عاد يتحـرك بسرعة لينتهى من عمله مع الحمـال الآخـر ٠

تحركنا أنا ومرسى بلا شعور ننقل معهم المقـاعد والمناضد الخفيفة ، كأننا نريد أن نتجنب الحديث حول ما حدث ٠

لمحت قطعة قماش قديمة على السلم وجدتنى أحملها وأمسح بها قطرات الـدم البـاقية على الدرج حتى لا نراها فى صعودنا ونزولنا كانت تسيطر على مشاعر غريبة أما مرسى فقد بدا مستسلما لشعور بالكآبة وربما بالتشاؤم عجزت ملامحه عن اخفائه ٠

كنا نوشك أن نفرغ من نقل الأثاث حين عاد خـالد وحـده توشك نظراته أن تسبقه الينـا ٠

قـال للعجـوز :

ـ جئت لأطمئنك ٠٠ كاظم بخير ٠٠ النزيف سطحى من الأنف ـ سآخذك اليه الآن ٠٠ لتراه بنفسك ٠

خيل الى وأنا أستمع الى خالد ، أننى أرى لمحـة من خـالد القديم كان يتكلم بثقة وبطمأنينة انتقلت الى العجوز الذى لم يكـد يسمع كلمات خالد حتى جلس على آخـر كرسى كان لا يزال أمـام المبنى وطلب منا كوب مـاء ٠

رأيت خالدا يجرى هنا وهناك قبل أن يلمح بقالة على مقـربة من المبنى ، فدخلها ليعود ببضع علب من العصير البارد ٠

فجأة قال العجوز بعد أن بل ريقه وهو يهم بالقيام :

ـ لو كان كاظم بخير لم لم يعـد معك ؟

ـ تركته يستريح قليلا تحت ملاحظة الطبيب ثم تابع بنبرة عاتبة ورقيقة .

ـ الا تصـــدقنى ؟

عاود العجوز الجلوس ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة مبللة بالعصير وهو يقول لخـالد :

ـ أصـــدقك وأثق بك .

لأول مرة أشرق وجه خالد بلمحـــة من الرضى وراح يشرب زجاجته وهو يقف بجوار العجوز ويربت بيده على كتفه .

قلت لمرسى الذى كان لا يزال غارقا فى الكآبة :

ـ ألا تحمد الله لأن الاصابة سطحية ؟

ـ طبعـــا ..

ـ لماذا لا تفكها اذن ؟

تأملنى طويلا ثم قال وكأنه لم يعد يرضى بطريقتى فى الـكلام
ـ بالنسبة لما يحزننى فالمسألة لا تختلف .

★★★

حين فرغ العجوز من شرابه هب واقفا .

قال خالد للعجـوز :

ـ انتظر سوف أوصلك فى سيارتى .

قال العجـــوز :

ـ شـكرا ٠٠ سأركب مع سائق الشـــاحنة فالمستشفى فى طريقنا ٠٠

قال خالد بتصميم :

ـ لا ٠٠ سأذهب معك ، وأوصلك أنت وكاظم الى أى مكان بعـد المستشفى ٠

قلت لخالد هامسا ، وقد ظننته يذهب معـه ليدفع له حسابه:

ـ أعطينا الرجـل حســابه ٠

قال لى :

ـ بينى وبينه حساب خاص ، أريد تسويته وسأعود بعـد أن أوصـــله ٠

ثم توجه خالد الى السيارة وركب العجوز بجـواره ، وفى المقعد الخلفى ركب الحمال الثانى ، ومن مكانى وقبل أن تغيب بهما السيارة كنت أرى رأسيهما من الخلف يتقاربان فى مودة ٠

★★★

قال مرسى ونحن نصعد السلم الى شقته الجديدة :

ـ كأننى أرى خالد القديم ٠٠ لكنى لم أفهم شيئا مما رأيته قبـل ذلك ؟

مع اننى دهشت لتوارد المشاعر معه الا أننى وجدت نفسى عازفا عن تصديق أو تكذيب مشاعره أو مشاعرى غرقت فى الصمت الذى كان غارقا فيه ، وربما فى نفس الكآبة ٠٠ كيف أشرح له ما أبدو غير قادر على فهمه ؟ ولعلى لم أجد معنى للكلام ٠٠

أكنت مشفقا عليه أم على نفسى ؟

لماذا أصادر حريته فى الملاحظة والتفكير ؟ .. لماذا أقدم له أحكاما على الناس والأشياء ؟ لماذا لا أتركه يعيش تجربته ؟

أكان قرارى بالتزام الصمت حكمة أم مجرد تبرير للهروب ؟

لا أدرى ..

المهم أن مرسى لم يعاود السؤال .

واحـد منهم

« أنت يا أستاذ خليل نوع آخر من الزملاء ، ولهذا السبب وحده أتحدث اليك بما لا أتحدث به الى أى زميل آخر ٠

ان لى نظرة لا تخطىء للانسان الذى ألقاه ، ومنـذ شرفت المدرسة وأنا أدرك أنك مختلف عن بقية المدرسين الذين يجيئون من كل بلاد الله فى كل عام ، لا تظن أنى أقول مثل هذه « الأخبار » لكل أحد ، وفى هذا البلد يجب أن تكون حذرا فلا أحد هنا يعرف الآخر معرفة جيدة ولا أحد يريد ذلك ، أول شىء لفت نظرى اليك هو ميلك الى الصمت ، الناس هنا جميعا يحبون الكلام ، ومع أنهم مدرسون من المفروض أن يكونوا قد زهدوا فيه الا انهم جميعا ثرثارون بشكل أو بآخر ، الكلام فى هذا البلد كالبضائع ، كثيرة ٠ ومن كل نوع ، وبعضه مغشوش وأحيانا تدفع فيه ثمنا غاليا ما لم تكن حريصا ، ولكن دعني أقـول لك كلمة واحدة بلا ثمن رغم أنهـا تساوى الكثير : أنت رجل طيب ، وبالتأكيد ان أمك قد دعت لك

كثيرا ، واستجاب الله دعاءها كله ، ومن حسن حظك أنك قد جئت لهذه المدرسة ، ومن حسن حظى أننى التقيت بك ٠

لماذا تنظر فى ساعة يدك ؟ هل انتهت حصصك ؟ أم أن وراءك موعدا ؟ (فى تلك اللحظة دق جرس البـــدء للحصـــة الأخيرة) ٠

خطف الأستاذ « بهيج » كراسة تحضيره من فوق مكتبه قال وهو يهرول ليلحق بحصته : انتظرنى حتى نهـــاية الحصـــة ، وسأوصلك الى أى مكان تريد ٠

ومضى دون أن تكون أمامى أية فرصة حتى لكلمة شكر ٠



لم يكن أمامى سوى أن أنتظر فحر الكويت يصـــيبنى بنـــوع غريب من الشعور بالضياع واليأس ، وكثيرا ما سألت نفسى : متى أتعود هذا الحر أو متى ينقضى ؟ ودائما يبرز الأستاذ « بهيج » ليضع حدا لهذا السؤال البائس ٠

وفى الواقع أن ظهور الأســـتاذ « بهيج » فى مثل هـــذه اللحظات ، واهتمامه الذى يفوق اهتمام أى زميل آخر ، جعلنى لا أفكر كثيرا فى دوافعه لهذا الاهتمام ، ولا حتى فى طريقته فى تقديمه ، كنت أظهر ميلا واضحا ـ فى الحدود التى ترضى شعوره بالفراسة ـ لتصديق أى كلام يقوله عن حكاية أننى اختلف عن بقية الزملاء ، ودعوات أمى ، وغير ذلك ولم لا أفعل ؟ لقد كانوا بدورهم يختلفون كثيرا عنه ، على الأقل فى أن اهتمامهم بشأنى قد توقف بعد تقديم فنجان واحد من القهوة ، وبعض الأسئلة عن البلد ، وسنة التخرج ، وزملاء الدفعة وعن استعدادهم لتقديم أية

خدمة أطلبها ، وشعورهم الكامل بالطمأنينة ما دمت لم أطلب شيئا ..

لست أنكر أن جزءا من عقلى ، جزءا لعينا من عقلى ، كان يتمنى لو أن هذا الاهتمام بى صدر عن شخص آخر مثل الأستاذ « محجوب » انه عاقل جدا ، يتكلم بحساب كلمات قليلة تشعر أنه يحوم بها دائما حول الحقيقة فى أية مسألة يثرثر حولها الزملاء مفضلا دائما أن يترك لك مهمة اكتشافها بنفسك ..

وكان يبطن سخريته الدائمة من الأستاذ « بهيج » بغلالة رقيقة ناعمة تجعل من هذه السخرية مادة للفكاهة لا للتجريح ..

ولكن اهتمامه بشأنى كان مثل كلامه قليلا جدا ، ولا ينفع بشىء فى حر الكويت ..

فى تلك اللحظة دخل زميل آخر هو الأستاذ « مبروك » ، زفر زفرة طويلة وهو يقذف بأوراقه فى درج مكتبه ، قال وهو يهم بالخروج بعد أن مسح قطرات من العرق من على زجاج نظارته وجبهته بورقة « كلينكس » .

بعد اذنك .. سوف أذهب الآن لالتقاط زوجتى وأولادى من مدارسهم المتباعدة .. رحلة عذاب كل يوم بسبب زحمة الخروج من الدوام .. فى هذا البلد لابد أن تصبر كثيرا أنت تأخذ الكثير ، وتدفع الكثير كذلك ..

قال هذه الكلمات فى صورة خبر ونصيحة معا ، وكانت تلك طريقة البعض فى تقديم اعتذار مهذب لعدم قدرته على توصيلى معه .. الأستاذ محجوب هو الآخر له طريقته فى تقديم نصائحه بالصبر ، فقد لاحظ : أن القرآن الكريم قد تحدث طويلا وكثيرا عن جزاء الصابرين وتذكرت أن أمى قد نصحتنى به كثيرا فى

طفولتى ، ولكن أحدا أبدا لم يدلنى على طريقة محددة لتنفيذ هذه النصيحة بنجاح ..

***

ــ تفضل يا مولانا ، قالها الأستاذ « بهيج » الذى كان يدللنى أحيانا بهذا اللقب ، وهو يضع صفا من الكراسات على مكتبه .

ــ أنا جاهز ، وتحت أمرك ، تريد أن تمر بالسوق ؟ أو تذهب الى أى مكان آخر ؟ أم تفضل العودة الى البيت ؟

ـ البيت ..

أشك كثيرا أنه سمع ردى .. فقد اندفع الى خارج الحجرة وأنا أهرول خلفه .. توقف فجأة لدرجة أننى كنت قد تجاوزته حين توقفت لانتظاره ، انهمك فى الحديث مع زميل لا أعرف اسمه ، حين ينهمك الأستاذ « بهيج » فى الحديث لا يفطن لشىء آخر . وبالأخص الى الفارق المخيف بين درجة الحرارة داخل وخارج الحجرات ، وفى هذه المرة كان لابد أيضا أن أحتمل حتى يفرغ من حديثه فانتظار الأستاذ « بهيج الأنصارى » أرحم ألف مرة من انتظار الأتوبيس الذى لا تعرف له موعدا ، أو التاكسى الذى يأتى أو يقف بمزاجه أو لا يأتى أبدا ..

« آسف تأخرت عليك ، ماذا أفعل يا أخى ، لا أحب أن أتخلف عن خدمة أحد ، وحكى لى موجزا مفيدا عن تاريخ حياة الزميل الذى كان يتحدث اليه ختمه بتلخيص للخدمة التى قصده فيها .. ثم قال وهو يدور بعينيه بحثا عن المكان الذى ترك فيه سيارته » من أصعب الأمور فى الكويت أن تجد مكانا لسيارتك

« لكل شيء مشاكله ، حتى السيارة التى نقتنيهـــا للراحة تصبح مشكلة حين يصيبها العطل ، وما لم تكن مفتح العينين فســـوف يسرقك الميكانيكى والكهربائى والحداد والمنجد وكلهم فقط لاصلاح سيارتك آخر شيء يفكر الناس هنا فى صيانته هو صحتهم ، وهم لا يكتشفون هذا الا بعد فوات الوقت ، العام الأول ··

ـ « تفضل ها هى السيارة ·· سأل نفسه وأجاب · » ماذا كنت أقول ؟ : العام الأول هـــو أصعب أعـــوام الكويت ثم تقـــل الصعوبة فى العام الثانى ، وعادة ما تحلو الكويت أكثر فأكثر كلما مرت الأعوام وفى العام الذى تقرر فيه أن تعود الى بلدك تجد نفسك عاجزا عن تنفيذ القرار ··

قال وهو يدير محرك سيارته :

ـ « اسألنى عن كل شيء هنا فأنا أقدم مدرس فى المدرسة ، قلت لى انك تفضـــل الذهـــاب الى البيت ، وقبـــل أن أهـــز رأسى بالايجاب تابع قائلا : لو أخذت رأيى فى مسألة السكن ما وافقتك أبدا على أن تسكن فى أحد الأحياء الكويتية لألف سبب أهمها أن من حق صاحب البيت فى أى وقت أن يطلب منك اخلاء الشقة فلا يكون لك حق الاعتراض على ذلك ، (ولم تكن مشكلة السكن الشهيرة قد ظهرت فى ذلك الوقت ، ولم أتخيل أنه يمكن أن يحدث بينى وبين صاحب البيت ما يدفعـــه الى أن يطلب منى اخـــلاء الشـــقة) ·

وحين حاولت أن أوضح للاســـتاذ « بهيج الأنصـــارى » « ما يدور فى رأسى سمعته يقـــول وهو ينبه ســيارة أخرى بالضرب على الهـــورن » ··

« الحمد لله أنك لم تشتر بعد الكثير من الأثاث وبالنسبة لهذا الموضوع فسوف أضع خبرتى كلها تحت أمرك سأذهب معك غدا الى

سوق الحراج تذكر غدا ، وهناك سوف نجد فرصا هائلة لشراء أشياء ممتازة ورخيصة ٠٠ لن أتركك أبدا تتورط فى خطـأ آخـر مثل موضوع السكن ، (كنت أود أن أقول له : أننى ســـمعت بمسألة سوق الحراج هذه ، ولكنى لا أميل لشراء أشياء قديمة قد تربكنى بحاجتها الى الاصلاح وأنا بدون سيارة ، أن هنــاك أشــياء أفضل أن تشترك زوجتى فى اختيارها ولهذا لابد من الانتظار حتى تلحق بى بعد اسبوعين ، ولكن هذه الرغبة لم تتجاوز أبدا نطـــاق التفكير فيها ولم يدفعنى أبدا للتعبير عنها) ٠

« أنت كثير السرحان يا أستاذ خليل ، يجب أن تنتبه الى كل كلمة أقولها لك ، فليس من السهل هنا أن تجد انسانا يتطوع بأن يقول لك الحقيقة ٠٠ الناس هنا ٠٠ أستغفر الله يا أخى أنا لا أحب أن أتقول على أحد بسوء ، ولكنى سأرتكب ذنبا أكبر حين لم أحذرك منهم ، وأنت رجل طيب وسليم النية ، وقد خلقنى الله ــ كما ترى ــ أحب خدمة الناس الطيبين ، « فطرة الله التى فطر الناس عليها » ، حين قدموا الى الكويت ، كل الزملاء الذين معنا فى الحجرة ، قمت بالواجب كل منهم ، أقول هذا لا منا ولا أذى ، ولكنها الحقيقة ــ علم الله ــ لا أزيد فيها ولا أنقص ، الأســتاذ محجوب اشتريت له أثاث منزله كله من « الحراج » ، المكيفات والثلاجة ، والكراسى (وأقرضته كل ما احتاجه فى الشــــهور الأولى من نقود ، والآن لو كسر طبق فى مطبخه فالعبد لله هو المسئول ، وبدلا من أن يوبخ زوجته يقول لى : شورتك العظيمة ، واختيارك الهائل ٠٠

ماذا أقول وماذا أترك ؟ الأستاذ « مبروك » أوصلته عامين بسيارتى ، قبل أن تصبح له سيارة ولزوجته أخرى ، كدت أقول له : ان الأستاذ مبروك لا يملك سوى سيارة واحدة يذهب بهـــا لاحضار زوجته ، ولكنى حمدت الله على أننى لم أفعل فقد سبقنى الأستاذ بهيج لتوضيح الأمور :

« وحين ارادت زوجته بيع سيارتها : وأردت شراءها لزميل جديد مثلك ، لم يوافق الأستاذ مبروك على الثمن الذى قدرته للسيارة وقال بكل تبجح : نعرضها فى السوق ومستعد لأن أعطيها لصاحبك بثمن يقل عشرين دينارا عن سعر السوق من أجل خاطرك » ·

فى هذه اللحظة انتابنى حماس شديد لأن أوضح للأستاذ بهيج أن عرض الأستاذ مبروك لا يخلو من المعقولية ، وأن أسأله لماذا تتعب نفسك بالتدخل فى هذه الأمور ؟ ·

ولكن حماسى سرعان ما تبخر فجأة وأنا أستمع الى الأستاذ بهيج يختم حديثه قائلا :

« ويسبب الطمع فى الفلوس ظل الأستاذ مبروك وزوجته مترددين فى بيع السيارة حتى تحطمت منها فى حادث لأنها لا تجيد السواقة ، نجت بمعجزة من الحادث لتبيع السيارة بعد ذلك بتراب الفلوس ، حقا ·· وان ربك لبالمرصاد » صدق الله العظيم ·

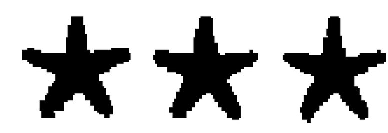
ـ تفضل يا مولانا ·· قالها الأستاذ بهيج وهو يفتح باب السيارة كنا قد وصلنا الى البيت ، بيتى ، وكنت فى دهشة شديدة من مهارته فى القيادة ، رغم أنه لا يكف عن الحديث ، وفكرت لجزء من الثانية أن أطلب منه أن يكف عن توصيلى الى البيت ، ولكن لفحة الهواء الساخن التى صفعت وجهى وأنا أغادر السيارة جعلتنى أقول له :

ـ تفضل معى لنتغدى معا على طريقة العزاب ·

ـ أنت تخجلنى بهذه الدعوة يا أستاذ خليل ، فهذا واجب علينا ، لكن اذا كنت مصرا فلى شرط واحد لقبول الدعوة ·

ـ موافق على كل شروطك !

ـ أن تتركنى أقوم وحدى بتجهيز الطعام ·· هواية قديمه من أيام التلمذة ·· يا لها من ايام ·· تذكرنى بها فجاة يا أستاذ خليل ·· ألم أقل لك انك نوع آخر من الزملاء ؟



كنت أفكر فى الوقت الذى سيحتاجه الأستاذ بهيج قبل أن يتوج مجموعة اكتشافاته باكتشاف أننى لا أزيد عن أن أكون واحدا منهم ·· وغدا آخر مثل بقية الزملاء الأوغاد ·

وفكرت ان مثل هذا الوقت ينبغى أن يطول كثيرا لأسباب كثيرة ، وأن مثل الأستاذ « بهيج الأنصارى » بنشاطه وحيويته وأيضا بذكائه ·· أقصد بنوع ذكائه ، قد يحبط كل خططى فى اطالة هذا الوقت ، وأنه اذا حدث أن نجحت حقا فى اطالة هذا الوقت فلن يكون لهذا النجاح سوى معنى واحد هو أن الأستاذ بهيج لن يكون مخطئا هذه المرة حين يكتشف مسألة نذالتى . ولو جاء ذلك الاكتشاف متأخرا ·· قليلا ·

ولكن ما كنت أتمناه بحق ، وهو أمر يبدو لى عسير التحقق هو أن يلتمس لى الأستاذ بهيج بعض العذر فى هذه النذالة بحر الكويت ، وأن يصدق أننى كنت حقا أشعر نحوه بحب كبير وتعاطف لا حد له ، لأنه كان يحترق فى كل فصول العام بحر آخر لا يقل لعنة عن حر الكويت فى أيام الصيف ··

كلمات متقاطعة

(١)

ـ فى أول لقاء لى معه ، أدركت على نحو ما أنه لن يكون الأخير سألنى : ما دوافعك للعمل عندنا فى مشروع « تعمير الصحارى » ؟ •

قلت له بلهجة تكاد أن تكون طبيعية :

ـ الأجور التى تدفعونها •

قال وهو ينظر فى طلبى الموضوع أمامه ، وبه المؤهل والسن ونوع الخبرة ومدتها ، ودون أن يبدو على وجهه أى شعور بالدهشة لما كنت أظنه صراحتى :

ـ ما العمل الذى يمكن أن تقوم به هنا ؟

ـ أى عمل •• !

قلتها بلهجة تكاد أن تكون طبيعية :

لكنه قال (مؤكدا مـرة أخـرى أنه ليس من النوع القابل للاستفزاز) ٠

ـ مبدئيا يمكن أن تعمل في « قسم العلاقات العـامة » ، لتأخذ فكرة عن العمل هنا ، ونأخذ فكرة عنك ٠٠ ننظـر بعد ذلك في كل شيء ٠٠ ثم أضاف موضحا :

ـ طبعا سيكون عملك في العلاقات العامة بأجر مؤقت ٠

أدركت على نحـو ما أنني لم أكسب أول جولة على النحـو الذي كنت أود ، فما سمعته عنه هـو الذي دفعني الي أن أتجنب التورط في الأجوبة التقليدية ، كما أن رغبتي في استفزازه لكي أجره الى مناقشة من أي نوع لأستعرض أمامه ما كنت أظـن مواهبي قد باءت بالفشل ٠٠

ورغم ذلك كله فقد امتلأت احساسا لسبب لا أدريه بأن لقائي هذا معه لن يكون آخر لقاء ٠

(٢)

ـ في الفترة التي عملت فيها « بالعلاقات العامة » سـمعت عنه الكثير ، لكن ما سمعته لم يكشف لي النقاب عنه بقدر ما كان يكشفه عن أولئك الذين تحدثوا الي عنه ، أما هو فقد كان كحـزمة قوية من الضوء ، تكشف كل من يقترب منها لكنها هي تظـل غامضة المصدر والمدى على أولئك الذين يقعون في طريقها ، ورغم وضوحها الشديد ، ومع اختلاف الناس في الحكم عليـه اختلافا يعكس ما بينهم من فروق ، فقد كانوا يتفقون حين يكون الحـديث عن كفاءته ونزاهته ، وأنهما وحدهما اللذان يحتفظان له بمركزه كمدير للمشروع يثق به كل أعضاء مجلس الادارة فضلا عن رئيسها ٠٠

وحين طلبنى للقائه فى المرة الثانية ، قلت لنفسى :

ـ حان الوقت لأعرف ماذا قالوا له عنى ؟

كانت ملامح وجهه كما رأيتها أول مرة ·· هادئة وصـافية كأنها ليست ملامح الرجل الذى يعمل طول الوقت، عبثا تحاول أن تستشف منها مالا تريد أن تبوح به ·

سألنى وفى أعماق عينيه ظل ابتسامة :

ـ أريد أن تعمل فى مكتبى ·· ما رأيك ؟

فى هذه المرة بذلت مجهودا لكى أبدو طبيعيا وأنا أقول له :

ـ انه لشرف عظيم لى يا سيدى ·

وقبل أن أترك نفسى على سجيتها ، دفع الى بجملة من التقارير كانت معدة على مكتبه قائلا :

ـ لن أكلفك بأى عمل قبل أن تفرغ من قراءة هذه التقارير التى يمكن أن تعرف منها الكثير عن طبيعة مشروعنا ·· الخطوات التى انجزت ، والتحديات التى لا تزال ·· والعمل الذى تقوم به فى مكتبى ··

وحين استقرت التقارير فى يدى ، كانت يده تمتد الى ملف أمامه ، راح يلقى بنظرات سريعة على ما فيه من أوراق ، ويكتب عليها تأشيراته ، استغرق فى عمله لدرجة أنه لم يشعر بى وأنا خارج من مكتبه ، متأكـدا من صـدق ما سـمعته عن طـريقته فى العمل ·

(٣)

ـ بعد أيام قليلة فرغت خلالها من دراسة التقارير كنت أسأل نفسى هذا السؤال :

ـ هل أطلب لقاءه ، وأخبره بأننى فرغت من التقارير ولـدى ما أقوله بشأنها ؟ أم أنتظر حتى يدعونى هو الى لقائه ؟ وفى النهاية رجحت أن أنتظر ، فلم أشأ أن أبدو كمن يريد أن يثبت قدرته وسرعته فى الانجاز ٠

وحين طال انتظارى ، رحت أنفذ اللقاء المنتظر ـ فى خيالى ـ وأدير بينه وبينى هذا الحوار :

ـ هـل أنت مقتنع بجدوى هـذا المشروع الذى جئت لتعمل فيه ؟

قلت لنفسى : لو فعلها وواجهنى بهذا السؤال فسيكون هدفه الأول أن يعرف مدى غرورى ؟ وسوف أكون أبله حقا لو رحت أردد أمامه ما قرأته عن مغزى المشروع بوصفه تجربة علميـة رائـدة ، لا تقاس جدواها فى ضوء الحاضر بل فى ضوء المستقبل ٠٠ فبعد العثور على المياه الجوفية فى قلب الصحراء ، لم تعد المشكلة هى استخراج الماء وضخه بطريقة اقتصادية ، بل المشكلة الرئيسية هى فى الطريقة التى يمكن أن يضعوا بها حدا للعواصف الترابية التى تهب من قلب الصـحراء الكبرى فى بعض المواسم فتردم الزرع الأخضر النامى ، وتدفن جهود الرجال ، وأحلام العلماء ، وأموال الشركات المساهمة تحت التراب ٠

وفى بساطة كان خبراء المشروع يؤكدون :

ـ ليست هناك سوى طريقة واحدة ٠ أن تصبح هذه الصحراء

كلها خضراء ، آنذاك لن تكون هناك رمال ناعمة تنقلها العواصف حين تهب فى طريقها ٠٠

وهكذا بدلا من أن تقضى الصحراء على الزرع الأخضر بعواصفها الرملية ، يقضى الزرع الأخضر على هذه العواصف حين يغطى وجه الصحراء ؟

أليس هذا هو شكل الصراع الأبدى بين الانسان والطبيعة ؟ وهو صراع تحسمه فى النهاية ارادة الانسان وهكذا كان خبراء التكنولوجيا يؤكدون أنهم لا يزالون حتى فى هذا العصر فى حاجة الى روح الفروسية ؟

أيمكن حقا أن يستدرجنى المدير الى مناقشة مثل هذه الأمور معه ؟

ومع ذلك فقد كنت أقول لنفسى لو فعلها فسوف أنتهز الفرصة لأوجه اليه سؤالا قد لا يبدو شديد الصلة بجدوى المشروع وربما لا أحد هنا يجد وقتا للتفكير فيه ٠

لو فعلها وفتح لى معه باب الحديث فسوف أسأله :

ـ هل فكرتم فى تأثير مشروعكم على البلاد التى تحيط بالصحراء ؟ ان بها أراض كثيرة خصبة بدأ يزحف عليها الخراب نتيجة للنزوح الدائم للأيدى العاملة الى أرض هذا المشروع ؟

كما أن هناك فى جنوب الصحراء أراض كثيرة قابلة لزراعة ويمكن أن تعطى الكثير جدا فلم لم تفكر شركتكم فى استصلاحها ؟

حين دعانى الى مكتبه ، لم أكن قد انتهيت الى قرار واضح ، تركت كل شىء للصدفة ، كان يتحدث فى التليفون ، وخلال الحديث يقول لزواره كلمة أو كلمتين ، (ربما كانت لها علاقة بالموضوع) ويجرى بعينيه على ورقة أمامه ٠٠

(فيما بعد عرفت أن تلك طريقته حتى لا يأخذ زواره راحتهم فى مكتبه) ٠

حين وضع سماعة التليفون التفت الى قائلا وكأنه يكمل حديثا سابقا معى وبهدوء شديد كأننا وحدنا فى الحجرة ٠

ــ ضمن ما قرأت كان هناك تقرير خاص بزراعة « المانجو » ٠

ــ نعــــم ٠

ــ سيأتى غدا مستر « هارفى » خبير « منظمة التغذية العالمية » فى زراعة المانجو سوف تقابله فى المطار ، المهم أن تعد اليــــوم مذكرة من خلال ما قرأت عن تجربتنا فى زراعة المانجو لعرضــها على الخبير قبل اجتماعه مع اللجنة المختصة ثم استطرد وهو يمد لى يده بورقة بها برنامج الخبير ٠

ــ لابد أن تعكس المذكرة جوهر تجربتنـــا فى هــذا الموضوع فنحن لن نستفيد كثيرا من أفكار الخبير الدولى الا اذا عرف أن لنا أفكارا خاصة عن الموضوع ، وهذا ما يجب أن يكون واضحا فى المذكرة ، ربما ينسف الخبير كل أفكارنا عن الموضوع نسفا ، لكن سيكون معنى ذلك أنه بدأ يفكر معنا بحق ٠٠

وقبل أن أعلق بكلمة كان جرس التليفون يدق فى مكتبه من جديد ، وكان هذه المرة يتحدث أيضا وكأنه وحده فى مكتبه بلهجة صافية رائقة وحاسمة فى نفس الوقت فلم يشعر بى وأنا أغادر مكتبه ٠٠ وكانت تلك هى بداية عملى معه ٠

(٤)

ــ بعــد شــــهور من عملى معــه تعلمت أن أبلع الكثير من تساؤلاتى ٠٠ ليس لأنى وجدت لها أجوبة شافية ، بل لأنها كانت

تبدو لى مع الوقت كنوع من الأسئلة « الميتافيزيقية » التى يمكنها أن تنتظر قليلا ‥ لأن أسئلة جديدة تطل برأسها كل يوم من قلب الصحراء التى تنبض بهدير الآلات وبعرق الرجال ، وبالمزرع الأخضر الذى يتربص به الموت ‥ لأن حياة جديدة هنا لا تكف عن تحديك بالأسئلة الجديدة التى قد تنبع من العمل أو بمـا يحيطك من نظم وعلاقات تجعلك فى حاجة الى أن تكتب اسمك كل يوم فى ورقـة أمامك حتى تظل تذكر من أنت ؟

فالمشروع يجتـذب بنقـوده ونفوذه ، وتيارات عمله المتجدد المتدفق ، وبشهرته المدوية أناسا من كل جنس ولون وعمر وثقافة ، ويجد هؤلاء الرجال والنساء أنفسهم أمام أسئلة من هذا النوع :

« هل يمكن أن يصبح العمل هو الوطن ؟ وتصبح الخبرة هى القيمة التى تتضاءل الى جوارها كـل القيـم ؟ وتصبح النقود هى التعبير عن كل قيمة ؟ هل تصبح علاقات العمـــل بديلا لعلاقات الحيــاة ؟

وهل تنجح لغة العمـــل المشـــترك فى أن تربط أولئك الذين يتحدثون لغات مختلفة ؟

ورؤى المستقبل هـــل هى قادرة على أن تنسى المـرء ذكريات الماضى ؟ الغريب أن أحدا من الناس هنا لم يكن يطرح صراحة هذه الأسئلة لأن أحدا منهم لم يكن يحب أن يعترف لنفسه أو لغيره بأنه يفكر بأى مستقبل له فى هذا المشروع ٠

فجميعهم يصرحون بأنهم جاءوا للعمل بضعة أعوام يجمعون خلالها بعض المال ثم يعودون الى بلادهم ٠

أكان هذا يعنى أنهم يشكون فى جدوى المشروع ومستقبله ؟

لا يمكن أن نصدق ذلك إلا بقدر ما نصدق أن استمرارهم فى العمل بعد سنين عديدة ، وبعد أن أصبح بعضهم فى عداد الأثرياء فعلا دليل على أنهم يثقون بجدوى المشروع وبمستقبله ؟

مع أن الناس جميعا كانت تغلى صدورهم بمثل هذه الأسئلة فكأنما هناك اتفاق ملهم ومبرم على ألا يخوضوا فى اجاباتها وحين حاولت أن أبحث عن أسباب وراء هذا الاتفاق المبرم ·· لم أجـــد أسبابا مقنعة لكنى كنت مضطرا الى أن ألاحظ استمرار ظاهرتين ··

أن عددا قليلا جدا من العاملين فى المشروع هو الذى يصدق فى حديثه عن العــودة الى موطنــه وأن أعــــدادا كبيرة جــدا من الناس تأتى كل يوم لتسأل فى العلاقات العامة عما اذا كان المشروع لا يزال فى حاجة اليهم ؟

ولم يكن هناك ما يماثل قدرة الناس على امتصاص أسئلتهم الا قدرة المشروع على امتصاص هؤلاء الذين يجيئون كل يوم من مختلف البلاد المجاورة ··

وكان من الطبيعى أن أسأل نفسى أسئلة على درجة كبيرة من البلاهة مثل : ما هو الحجم الحقيقى للصحراء ؟

وما القوة الحقيقية لهذه الشركة التى نعمل فيها ؟

كيف تستوعب كل هؤلاء الناس فى مشروع لا يزال الغموض يحيط بمستقبله ؟ وهل بقى أحد حقا فى البلاد المجاورة ؟

وأحيانا كنت أنقض الاتفاق الملهم وأسأل هؤلاء القادمين وقبل أن تبرم الشركة معهم أى اتفاق عمن بقى هناك وهل سيأتى الجميع الى هنا ؟

وطبعا كانوا يجيبون على ما يظنونه مزاحى قائلين :

ـ فى سن الزواج لا يفكر الشاب أن يكتب عقدا على البنت التى يحبها ، بل يحب أن يحصل على عقد مع شركتكم ؟ ان شركتكم هى الجنس الثالث الذى يتزوج الرجال والنساء جميعا ٠ (كنت أبدو فى نظر القادمين واحدا من أصحاب الشركة) ٠

وكان السؤال الذى لم أجد فرصة لأقوله للمدير يجد دائمـا الفرصة ليطل من جديد متحديا كل الأسئلة ٠

لماذا يصرون على تعمير الصـــحارى بينما يتركون الأرض الخصبة دون تعمير ؟ والأرض الخضراء يزحف عليها الخراب بعد أن يزحف العاملون فيها الى أرض المشروع ؟

(٥)

ـ بعد سنين من عملى فى الشركة كنت قد أصبحت جزءا منها ، أمارس دون تفكير سلوك العاملين فيها ، أشارك فى اتفاق الصمت الملهم ، ولدى القدرة على أن أتحدث ساعات فى لا شىء ، وأغرق فى البلادة دون أن أشعر بالقرف من نفسى ، وأعمل كالبغل مع أنى أستخدم منجزات التكنولوجيا أحيانا كثيرة ٠٠٠ وحين يومض فى داخلى شىء كالبرق ولا أملك أن أتحدث به أو عنه ٠٠٠ ألجأ الى دفتر صغير أسجل فيه مثل هذه الومضات ٠

(٦)

ملحوظات دونتها فى مذكرتى فى أوقات متفرقة :

(أ) الأيام هنا متشابهة كأنها يوم واحد طويل ينام الناس خلالها نوما منقطعا ، وعيونهم مفتوحة أو نصف مغمضة ، وأحيانا

لا يمكنهم التمييز بوضوح بين ما يرونه فى اليقظة أو فى الحلم .

(ب) أشعر انى أحصل على ثقة المدير ، فأنا أتفاهم معه بأقل قدر من الكلمات ، وحتى الآن لم يحدث ما يشى بسوء تفاهم معه ، ورغم قلة الكلمات التى نتبادلها .. أمس سمح لنفسه بأن يتنهد أمامى .. وأن الاحظ كم هو مرهق . ووصف شخصا لا أعـرفه ـ وطبعا لم أسأل عنه ـ بأنه حمار (وكان يتحدث بشأنه مع شخص آخر بالتليفون) .

(جـ) الناس هنا يموتون فى الغالب فجأة ، وكأن الموت يعرف أن هذه هى الطريقة الوحيدة الممكنة للتعامل معهم فلو أنه قام بأية مقدمات ، لربما عادوا جميعا الى بلادهم ليموتوا هناك ، مما قد يؤدى الى فشل المشروع . لماذا يحرص الناس على الموت فى بلادهم ، مع انهم أقل حرصا على الحياة فيها ؟

أليس ذلك نوعا سخيفا من الأنانية ؟ أم أنه لون جـديد من الوطنيـة ؟

(د) ثقة المدير بى تزداد مع الوقت ، كـان وقت العمـل قد انتهى ، دون أن ينتهى هو من فرز الأوراق التى أمامه ، ويبدو أن التعب قد نال منه فلم يبق كعادته لينجز كل شىء حتى بعد نهاية الوقت ، طلب منى فى لهجة ودودة أن أفحص هذه الأوراق المتبقية ، وأرتبها حسب الأهمية ليراها فى صباح الغد ، وحين تفحصت هذه الأوراق وجدت بينها بعض الأوراق الشخصية ... وكأنها مسودات رسائل يكتب منها سطرا أو بضعة أسطر تبدأ كلها ودون أن تنتهى باسم صديقى العزيز « سيد موافى » أهى مصادفة أن يكون اسـم المدير « سيد كريم » وأن يكون اسمى « سيد منصور » ؟

أهذا هو السبب فى أننى قرأت هذه البدايات التى لم تكتمل لهذه الرسائل ، أم أننى أعتذر بذلك عن فعلتى ؟ ولماذا أعتذر ما دام

هو قد سمح لى بتنظيم أوراقه ؟ ألا يتضمن هذا تفويضا بقراءتها ؟ لكن أليس من الجائز أنه فى غمرة التعب والعمل نسى ما تحتويه كل هـذه الأوراق ؟

(هـ) الناس هنا قادرون ــ وهذه احدى المعجزات الحقيقية للمشروع ــ على أن يدخروا الكثير ، وينفقـوا الكثير فى نفس الوقت ..

انهم يدخرون النقود ، والتحف الثمينـة ، وقطع القماش الغالية التى يشترونها دون أن يكونوا فى حاجة اليهـا ، وأوقات الهناءة ، والأجازات ، والحماسة والرغبة فى توطيـد العلاقات ، ويفضلون على ذلك كله أن يقوموا بعمل اضافى وهم يعملون حساب كل شىء ويدققون فى كل الأمور الا حين يجلسـون الى موائـد الطعام ..

ربما كان هذا هو السبب فى ميلهم الى السمنة رغم العمـل المتواصل .

(و) اذا صح حدسى ، فأنا فى طريقى لكى أصـبح صـديقا للمدير بالأمس كنت أقدم له آخر المعلومات اللازمة لكى يتخذ فى ضوئها قراره النهائى بشأن مشروع لتربية المواشى .

استبقانى بنظرة لم أر مثلها فى عينيه من قبل .. كانت تشى برغبته فى أن يتحدث الى صديق .. قال لى :

أتعرف ... ؟ ليست المعلومات هى كل ما ينبغى أن ترجع اليه قبل أن تتخذ قرارا هاما ... هناك صوت داخلى لابد أن تحسن الاستماع اليه ... صوت تتجمع فيه كـل خبرات حيـاتك التى لا تعـرف عمـرها الحقيقى ولا مصـدرها ولا تعـرف كيف تتكون فى داخـله ...

أتعرف من أول انسان حدثنى عن ذلك ، « سيد موافى » كدت أنسى نفسى وأقول له :

ـ أجل ·· أعرفه ·· أليس هو ··

ولكنى قلت له :

ـ من سيد موافى ؟

ـ صديق عمرى كله ··· ثم تابع ·

ـ لم أره منذ عشرين عاما ·· تصور ؟ عشرين عاما قضيتها فى المشروع وهو لا يزال فكرة تناقشها الشركة (كنت أدعو الله ألا يدق جرس التليفون ، وألا يدخل أحد وألا يتذكر المدير أنه المدير) ·

عشرين عاما أنا مدين بها كلها له ، لولاه لكنت فى عداد الموتى ثم قال : لم لا تجلس ؟ قالها بصوت ودود هامس وحين جلست استطرد قائلا :

ـ يظل الانسان يعمل هنا كأن أحدا يطارده ·· فجأة يتذكر أنه قد مضى على ذلك عشرون عاما ·

ان مجرد مرور الزمن شيء يبعث الرعب لو قدر لك أن تراه كما أراه الآن ···

صدقنى لم أشعر بذلك الرعب وأنا أواجه الموت منذ هذه السنوات العشرين ، كنت أيامها فى مثل سنك أو ربما أصغر قليلا ··· أيامها ، كنا (سيد موافى وأنا) فى مهمة لنسف موقع يحتله المستعمرون فى بلادنا ، وكان على كل منا أن يؤدى مهمة مختلفة ويعود وحده ··· كانت الأوامر التى نحملها صريحة وواضحة بضرورة أن يعود من يبقى منا على قيد الحياة دون أن يسمح لهم

بالأمساك به وحين أصبت برصاصة فى ساقى لم أعرف كيف جاء « سيد موافى » وحملنى على ظهره وعاد بى ..

قلت له بعدها بوقت طويل :

ـ كيف فعلت ذلك متجاهلا الأوامر ؟

قال ـ هناك أمر واحد حقيقى .. هو ما ينبغى أن تنصت اليه فى الأوقات الحاسمة ، هو صوتك الداخلى وقد أمرنى أن أعود بك . ثم تنهد المدير فى عمق وقال بنفس الصوت الهامس المتذكر ودون أن أستحثه بأى سؤال :

ـ حين زينت له يجىء معى لنحمل معا فى هذا المشروع رفض بشدة .

ووقتها سألنى : ما الذى يدفعك الى الذهاب الى هذا المشروع .

قلت له مازحا مذكرا ..

ـ صوتى الداخلى ...

ـ نترك بلادنا بعد أن تحررت ؟

ـ من أى القيود تحررت وفى أيها سقطت ؟

ـ حتى لو كانت هذه فكرتك فلتبق ولتكافح لتحريرها ... من جديد .

ـ تعبت من معركة الصواب والخطأ ... أريد أن أفعل شيئا لا يمكن أن يكون خطأ .

ـ تعنى زراعة الصحراء ؟

ـ نعـــم ٠

ـ حتى هذه ، الصواب والخطأ فيها رهن بالنتائج ٠

ـ سأحاول ٠٠

ـ حاول أن تكتب لى أيضا من هناك ، أما أنا فسأكتب لك دائما من هنا ٠٠٠ واحذر أن تختفى فى هذه الصحراء فلا تتـرك أثرا ولا نسمع عنك ٠٠

كان المدير يتحدث كمن يتحدث الى نفسه ، شاخصا بعينيـه الى المجهول كأنه يرى « سيد موافى » أمامه أو لعله يظننى هو ٠٠٠ ثم استطرد كمن أفاق فجأة ٠

ـ تصور ٠٠ وفى بوعده ٠٠ ظل يكتب لى طوال هذه الأعوام العشرين ، فى البداية كنت أرد على رسائله ثم تحققت نبوءته ٠٠ يبدو اننى تهت حقا فى هذه الصحراء ٠٠ دون أن أدرى ٠٠ منـذ ما يزيد على عشرة أعوام وأنا لا أرد على رسائله دون أن يكف هو عن الكتابة الى ٠٠

لو أن رسائله انقطعت عنى لقلت لنفسى معزيا :

ـ ربما مات صديقى ٠٠

ولكنه ظل يكتب لى ليؤكد لى دائما أنه لم يمت ، وأن الذى مات حقا هو أنا ٠٠

ثم تمتم بصوت مخنوق بدمعة متحجرة ٠

ـ يبدو أننى تهت فى هذه الصحراء ٠

قلت مواسيا ومترددا حتى لا يوقظه وجودى من صحوته :

ـ ولكنها يا سيدى لم تعد صحراء ٠٠

ومضت فى عينيه نظرة مخيفة قال :

ـ ستكون مصيبة حقا لو كانت الأرض هى التى أصبحت خضراء بينما قلوبنا أصابها الجفاف ·· !

ثم استطرد بعد تنهيدة قصيرة :

ـ كنت أقول لنفسى متعللا بمثل هذه الأعذار ·· (حين يتصل الأمر « بسيد موافى » فلا يمكن أن أكلف أحد مساعدى بالكتابة له ·· لابد أن أكتب له بنفسى) ثمة أشياء لا أحد غيرى يمكنه أن ينقلها له ··· « سيد موافى غير كل الناس لا أحد غيرى يفهم مغزى الكلمات القليلة التى يكتبها لى ··· كيف أكلف غيرى بالرد عليه ·· سيعرف أن هذه ليست كلماتى ·· وسيعرف أننى تهت حقا فى الصحراء ··

وهكذا مضت كل هذه الأعوام ··· يدخل الزائرون من كل بلد وجنس ولون ·· وأقابل وأكتب عشرات الرسائل كل يوم ·· و « سيد موافى » يبقى الوحيد المنتظر فى حجرة الزوار ·· قلت فى محاولة يائسة وماكرة لانقاذ الموقف والدخول فيه :

ـ أتسمح لى يا سيدى أن أنقل له ما حدث اليوم فى رسالة أكتبها بنفسى ·

رفت على شفتيه ظلال ابتسامة باهتة وقال :

ـ منذ جئت لتعمل معى ، وأنت تلتقط أفكارى وهى سوانح ربما ليس مصادفة أن لنا نحن الثلاثة اسما واحدا ، وفى الحقيقة لم أعد أحتمل ألا أكتب له ، ولم أعد قادرا فى نفس الوقت على مواجهته ·· بالكتابة ·· وفى الحقيقة أنا لا أدرى لماذا تحدثت لك كل هذا الحديث ·· ربما كنت أريد أن أقول لك : « أنت الشخص الوحيد الذى يمكن أن ترد عليه باسمى ودون أن يدرى أنك شخص

آخر . سوف أحضر لك بعض رسائله ، وأكتب له كما تحب وابعث اليه برســالة لا أريـد حتى مراجعتهـا .. يخيل الى أننا أصبحنا صديقين الى حد التآمر ، ويمكنك تقليد حتى توقيعى على خطاب مكتوب على الآلة الكاتبة ..

وفجأة صحا مديرى فى صحوته ..

وقال وهو يدفع بقصاصات يبدو أنها كانت فى درج مكتبه .

ــ هذه بعض رسائله ... يمكنك أن تقرأها ثم تكتب له ما تراه مناسبا .. وآسف على أنى أخرتك كثيرا هذا اليوم وأخبرنى فقط بعد أن ترسل الخطاب .

(ص) الناس هنا يشتد حنينهم الى العودة ، ويكثرون من الحديث فى ذلك حين يموت أحدهم ويشيعونه الى مقره الأخير ، الصحراء قاسية فى ابتلاع الموتى ، فرق كبير بين أن تهيل على الميت ترابا أو رمالا ... الرمال ثقيلة على الجســد ، ولو كان جسد ميت ، فهى لا تسمح بأى قدر من الهـــواء أو الحركة ، وما لم تكن روح الميت قد صعدت حقا الى بارئها ، فسوف تدفن معه الى الأبد فالرمال لا تسمح بالحركة حتى للروح .

(ز) أيمكن أن يتشابه خط الرجلين الى هذا الحد ؟؟

« سيد كـــريم » و « سيد موافى » ؟ لم يكن « سيد موافى » يحرص على كتابة تاريخ لرسائله ، فكيف ارتبها تاريخيا لأفهمهـا أفضل وليكون ردى عليها معقولا ... ؟ ســأحاول . هل خلط مديرى المرهق دائما ــ ودون أن يدرى ــ أوراقه الخاصة بأوراق صـديقه ؟

وكيف أميز أوراقهما وخطهما متشابه ...

البحث عن الأوراق المختلطة :

(٧)

« هذه بعض القصاصات التى تسلمتها من المدير على أنها رسائل جاءته من صديقه « سيد موافى » وهى أحيانا بلا توقيع ، ولا تشبه الخطابات التقليدية ، ·· وأكتفى بتسجيلها هنا ··· ضمن مذكراتى ·

(ف) اخبار مشروعكم لا تزال تهز الدنيا ، وشركتكم الكبرى لا تكف عن الدعاية للمشروع من خلال اعلاناتها عن سلعها الكثيرة التى تملأ الأسواق ، وتغطى كل الاحتياجات وكأنه لم يبق لها سوى أن تزرع الصحراء هى الأخرى ·

ويخيل الى أحيانا أن هذه أبرع وسيلة للدعاية فأنت لا تعرف هل المقصود حقا هو الدعاية للمشروع من خلال الاعلان عن السلع التى تنتجها الشركة القائمة به أم أن الغرض الحقيقى هو الدعاية (بطريقة غير مباشرة) عن السلع التى تنتجها شركة لها مثل هذه الأهداف الانسانية كتعمير الصحارى من أجل مستقبل أفضل للجنس البشرى كله ؟؟

ومهما يكن هدف شركتكم فهى ولا شك شركة عظيمة وناجحة ، وأتمنى لك كما تمنيت دائما كل نجاح بشرط ألا يشغلك عن مجرد الكتابة لنا ···

أمس زرت قريتنا ، والجميع هناك يسلمون عليك والأحوال كما تعرفها ، ولقد خطر ببالى خاطر لا أكتبه لك كفكاهة بل كحقيقة ··· لقد سألت نفسى حقا لم لا يكون لشركتكم فرع هنا فى قريتنا وفى القرى المجاورة ·· فكر فى ذلك ·· فقد تنجح فيما فشل فيه ابناء جيلنا حين ظنوا أن كفاحهم كله يمكن أن ينتهى بطرد المستعمر ؟ ·

« سيد موافى »

(ط) وجـدت هـذه الورقة الصـغيرة ضـمن الأوراق التى تسلمتها من المدير ولا أعرف مصدرها « أن منظر شجرة خضراء فى غابة قد لا يلفت النظر ولكن منظر شجرة خضراء فى الصحراء يمكن أن يهز الروح ·· أيمكن أن يكمن فى هذه الفكرة جزء كبير من سحر المشروع ؟ »

(ى) هل يمكن أن يكون الحب والصداقة ليسا سوى شكلين مراوغين للحاجة والمصـلحة ؟ وحين تنتفى الحاجة أو المصـلحة يختفى الحب والصداقة معا ·· والا فقل لى بالله عليه كيف أفسر صمتك اللعين ؟ وكيف تفسر أصرارى على أن أكتب لك رغم هـذا الصمت ؟ لو جئت لزيارة بلدك مرة واحدة ربما لأدركت كما لا يمكن لأحد أن يشرح لك أن النقود التى تبعث بها لأقاربك بين وقت وآخر ليست أبدا هى كل ما هم فى حاجة اليه منك ·· أما فيما يتعلق بى فثق انه لا يهم كثيرا أن ··· « هكذا وجدت هذه الرسالة ناقصة وفى أسفلها وجدت هذا التعليق بخط سيد كريم الذى أعجز عن التفريق بينه وبين خط « سيد موافى ») ·

لا يمكن أن يكون حبا أو صداقة أو حتى كراهية ذلك الـذى يحدث بين من يلتقون فى المطارات والفنادق بين من يلتقون وفى أعماقهم أنهم مسافرون بعد شهور أو أعوام يحتاج الحب والصداقة ·· الى الزمن والأرض والخيال والأمل ·· يحتاجان الى وطن فهل سيأتى وقت أشعر فيه أن المشروع قد أصبح وطنا بحق ؟؟

وأن أجد هنا صديقا أو حتى عدوا ·· ومتى ؟

هذه القصاصة دخلت هنا عن
طريق الخطأ وهى من يومياتى

« سيد منصور »

(ك) حين تهب العواصف الترابية يشعر الناس بما يشعرون به حين يشيعون واحدا منهم الى مقره الأخير ٠٠ ويبدأون فى الحديث عن ضرورة العودة الى بلادهم فالعواصف الترابية تدفن السماء والأرض . وتدفن الشمس والقمر والنجوم . وتبدو وكأنها تريد أن تدفن الناس أنفسهم وهم أحياء ، ويرتجف الزرع الأخضر ، ويعجز عن أن يأوى الى أى مكان ، وتصبح جذوره التى كانت تمده بالحياة هى مقتله ٠٠ انه لا يستطيع أن يهرب منها أو بها ٠٠ ويتسلل التراب الناعم الى كل مكان لا تسلم منه عقول الناس وقلوبهم . ويتحدثون بأسى عن العودة ولكن كبار المسئولين عن المشروع وحدهم يؤكدون ان نوبة العواصف قلت بكثير عن الماضى مما يؤكد نجاح المشروع ولا تكاد العواصف تنجلى حتى يردد الجميع هنا ٠٠ لا شك أن العواصف قلت بالفعل عن السنين الماضية وأصبحت أقل ضراوة ٠٠٠

(ل) فكرت مرة أن أكتب الى رئيس مجلس ادارة شركتكم الموقرة ليحاسبك على عدم ردك على رسائلى ، ويأمرك بالكتابة الى صديق قديم ، ساعتها تصورت أنك لن تقدر على مخالفة أوامر رئيس مجلس الادارة وسوف تكتب الى حتما ولو بضعة سطور ٠٠ وضحكت من هذه الفكرة المضحكة وعدت كعادتى أكتب اليك أنت ٠٠ قانعا بصمتك الذى أفسره بما يروق لى واثقا من أن السطور التى يمكن أن تكتبها لى بأوامر رئيس مجلس الادارة لن أجد فيها أى شىء منك ٠٠ يا ويلى ٠٠ لو كانت هذه هى الحقيقة ، انه لم يبق منك شىء مما كنت أعرفه وأحبه ٠

(م) « برقية » ٠

الحريق الذى دمر قريتنا حدث نتيجة ماس كهربائى والمشكلة أن الأهالى رغم دخول الكهرباء الى القرية لا يزالون يضعون

القش على الأسطح ، الجديد والقديم يعيشان معا فى بلدتنا ٠٠ الأهالى يشكرونك على معونتك والحكومة بذلت ما فى وسعها ٠ ولا زلنا نملك بعض القدرة وبعض الامل ٠٠ لم يعد أهل القرية غاضبين لعدم عودتك كما كانوا ٠٠ فالمبلغ الذى أرسلته من تلقاء نفسك بعد أن سمعت بخبر الحريق كان أكثر من ضرورى ولازم ٠٠ ولعلهم أخيرا وجدوا بعض المغزى فى بعدك عنهم ؟ » ٠

« سيد موافى »

(ن) « برقية » ٠

والدك انتقل أمس الى رحمة الله ٠٠ مات وهو يشكرك على كل ما بعثت به اليه والى القرية ٠٠ كان يتمنى أن يراك قبل موته لكن سبقت ارادة الله ٠٠ قمنا باللازم ومجيئك الآن ٠٠ لن يكون ضروريا ما دام لن يراك ولن تراه لا تترك هذا الموضوع يؤرق ضميرك » ٠

سيد موافى

(س) ليست هذه أول مرة يحدث فيها حريق يدمر قريتنا ولكنها أول مرة يبدو الناس فيها متخاذلين عن بناء القرية من جديد بعد مثل هذا الحريق ٠٠

ما السبب لا أدرى على وجه اليقين ؟ هناك أقوال بأن الحريق لم يحدث قضاء وقدرا ٠ وأن هناك اهمالا جسيما يصل الى حد التخريب وقع من المسئولين عن توصيل الكهرباء الى القرية ؟

بل ان البعض يؤكد قصد التخريب ، ويطالب بضرورة التحقيق فى هذا الأمر قبل اعادة بناء القرية ٠

على أنه يمكن أن يكون هناك سبب آخر أذكره لك وحدك لتخاذل الناس ، فالجيل الجديد كله تجتذبه أضواء مشروعكم ، حتى ليبدو الخيار بين العمل فى بناء القرية ، والعمل عندكم أمرا مضحكا لهذا الجيل من أبناء القرية ؟ هل تصدق ؟

سـيد موافى

(٨)

ـ الفكرة والقرار

لا أدرى كيف هبطت عى رأسى هذه الفكرة ، واتخذت بعدها هذا القرار ، بعد أن قرأت الأوراق المختلطة .

الفكرة : « أن » سيد موافى هذا هو نفسه « سيد كريم » ، لا أعنى أبدا أن « سيد موافى » شخصية وهمية اخترعها « سـيد كريم » فقد يكون « سيد موافى » حى يرزق ويكتب الرسائل لسيد كريم أحيانا .. دون أن يرد عليها .. وأغلب الظن أن هذا حقيقى .. ولكن المسألة لا تختلف بالنسبة للفكرة المجنونة التى هبطت على رأسى .. ولكى تتضح الفكرة دعونى أحدثكم عن القرار :

بدلا من أن اكتب رسالتى المنشـودة الى « سـيد موافى » بتوقيع سيد كريم أكتبها الى « سيد كريم » بتوقيعى « سيد منصور » ولماذا أزعجكم بالتفاصيل .. اليكم صورة هذه الرسالة فقد كتبتها بالفعـل منفذا قرارى :

« سيدى المدير .. سيد كريم

منذ جئت الى هنا .. وأنا أنتظر الفرصة كى أتحدث اليـك كما يتحدث الانسان الى الانسان .

وها أنت قد أتحت لى أخيرا هذه الفرصة ، وسأكون مجنونا بحق لو تركتها تفلت ٠

قد اتخذت قرارك الخطير بأن تفتح لى قلبك ، وطلبت منى أن أكتب رسالة باسمك الى صديقك سيد موافى ٠٠

ولقد ألهمنى موقفك هذا أن أتخذ بدورى قرارا منفردا مستقلا ٠٠ وهو أن أكتب الرسالة التى طلبتها ٠٠ أن أكتب لك أنت موقنا أننى أنفذ تعليماتك نفسها فسيد موافى هو أنت نعم يا سيدى ٠٠ أنتما شخص واحد ٠٠ والرجل الذى ظل ينتظر منك الاذن بالدخول أكثر من عشر سنوات ٠٠ هو أنت ٠٠ هو ذاتك الحقيقية ٠ ولو سمحت له مرة واحدة أن يدخل اليك مع غيره من الزوار ، لما واجهت غير نفسك ٠٠ لقد كنت تقابل كل الناس ما عداه ٠٠ كنت واثقا من أن صبره لن ينفد ، وأن قدرته على تصديق الأعذار التى تقدمها له لن تنتهى ٠٠ فليس مثل الانسان من هو أقدر على تصديق نفسه ؟ ان مرور الزمن ليس وحده المرعب يا سيدى ، ولكن المرعب حقا هو أن يمر الزمن فيجد الشخص الواحد قد أصبح عدة أشخاص لا يتقابلون ، ولا يتكلمون وفى حاجة الى ما يشبه المعجزة لكى يحدث بينهم لقاء ٠

أعرفت الآن لماذا لم أستطع أن أتحدث اليك طوال السنين الماضية كما يتحدث الانسان الى الانسان ؟

لأن الذى يهرب من نفسه يهرب من كل الناس ٠٠ ولو صدقت أن المعجزة التى كنت بانتظارها ٠٠ والتى لا تقل روعة عن تعمير الصحارى يمكن أن تقع فى هذه اللحظة فسوف تأذن لى بعد قراءة هذه السطور فى أن نجلس معا ونتحدث كما يتحدث سائر البشر ، وأقول لك كل الأسئلة التى كنت احتجزها فى صدرى طول الوقت، والتى لا أجد أحدا مثلك يملك القدرة على الاجابة عليها لو أراد ٠٠

أعرف اننى أتجاوز بهذه الرسالة كل حدودى ، وقد تعاملنى بأقسى مما عاملت «سيد موافى» ٠٠ وقد تكون هذه الرسالة آخر ما أقوم به من أعمال فى أرض المشروع ولو فعلتها يا سيدى وفصلتنى فلن أنسى لك ما حييت هذا الجميل ٠٠ لأنك سوف تكون قد قدمت الى المساعدة التى أشعر أننى عاجز عن تقديمها لنفسى »٠

« سيد منصور »

(٩)

ـ لم أنتظر حتى يطلبنى الى لقائه ، ولم أبعث له بالرسالة مع أحد ٠٠ دخلت من تلقاء نفسى ، تلقانى بنظرة ملؤها الدهشة قال :

ـ الأرواح جنود مجندة ٠٠ هل تصدق كنت سأناديك فى نفس اللحظة ٠٠ ؟

كان وجهه مشرقا اشراقا رائعا ٠٠ أشار الى المقعد المجاور فجلست وأنا شبه مأخوذ بالنظرة الغريبة التى كانت فى عينيه ٠٠

(كان قد أصبح المدير مرة أخرى)

استطرد :

ـ منذ أيام صدر قرار سرى باعتبار المشروع قد تجاوز مرحلة التجريب ، ويمكن تعميمه فى صحراوات أخرى كثيرة ٠٠ وسأكون عضوا منتدبا لتمثيل مجلس الادارة فى المواقع الجديدة ٠٠ ولم أجد خيرا منك ليأخذ مكانى فى المشروع هنا ٠٠ واذا كانت هناك

معجزة حقيقية لا تقــل عن تعمير الصحارى فهى تقدير المسئولين هنا للعاملين عندهم ··

ثم قال وهــو يغادر مقعده ··

ـ أنا ذاهب الآن لمقابلة رئيس مجلس الادارة لأعلنه بموافقتك ·· (كان قد أصبح فى منتصف الحجرة)

لم أترك مكانى ·· كان كل شىء فوق الاحتمــال ·· قــال وهو يغادر الحجرة كمن تذكر شيئا :

ـ بعثت بالخطاب الذى كلفتك به ؟

ثم أضاف مازحا وهو يختفى عن عينى ·

ـ هذا الخطاب سيكون آخر عمل قمت به فى وظيفتك السابقة وأعتقد أنه سمعنى وأنا أقول له بصوت متخاذل :

ـ نعــم ··

ودون أن أخرج الخطــاب من جيبى ··

ذلك الحــلم

لكل منا أحلامه ، أقصد عالم أحلامه ، ولو كنت ممن يتذكرون أحلامهم فسوف تتذكر أنه يســير فى خط مواز لعــالم يقظتك عــالم آخر قوامه أحلامك ، أعنى كل أحلامك ، فعالم الأحلام ليس مجــرد نتف أو شظايا ، انه لا يكون كذلك الا بقدر ما يكون عالم اليقظــة كــذلك !

واذا كنت ممن تحصل عليهــم نعمــة التذكر أو نقمتــه فسوف تذكر بلا شك أن لأحلامك تاريخ ، توشك حلقــاته أن تتصل ، وأن تاريخ أحلامك لا يهيم فى الفراغ ، فلكل الأحلام جغرافيتها التى قد تتفق أو تختلف عن جغــرافية الواقع ! لعــالم الأحــلام ألوانه وروائحه ، بره وبحره ، طيوره وحيواناته وأشجاره وغاباته ، وفى النهاية منطقه الخاص الذى تتلاشى فيه الحدود بين الواقع والحلم!

فى اليقظة كما فى الحلم كنت أتذكر ذلك المكان . أتذكر أننى رأيته مرارا فى أحلامى ، فى اليقظة كما فى الحلم كانت تعترينى تلك الرعدة التى تبعثها فى النفس رؤية منظر يتعانق فيه الجمال والجلال . فى لحظة يرق فيها الضوء ويصفو فلا تدرى أهى لحظة غروب أم شروق ؟

ذلك الطريق الذى أجدنى فجأة فى منتصفه تحدق به أشجار غابة كثيفة ، يتفرع منه الى اليمين ممشى هادىء أو ناعم تفرشه الأعشاب القصيرة ، على جانبيه حشائش خضراء ناعمة وعالية كأنما لتحجز عن رؤية ما وراءها ، ما بداخلها !

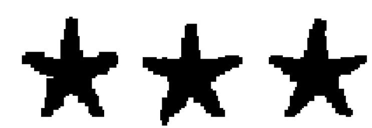
يتسلل الى شعورى بالجمال والجلال شعور بالرهبة ، رغم أننى سرت فيه مرارا فى أحلامى الماضية ، رغم أننى أعرف ماذا سأراه فى نهايته عندما ينتهى الطريق الى بداية حديقة رحبة فسيحة تحيط بذلك القصر الغريب المهيب ! قصر لا ينتمى طرازه الى عصر بعينه ، كأنما اشترك فى بنائه على حلقات مهندسون من كل العصور، بعض حجراته تبدو وكأنها قد نحتت فى قلب الصخور التى يتربع فوقها القصر الغريب المهيب ، بعض شرفاته تغطيها قباب من العصور الوسطى ، مداخنه ذات طابع عصرى ، بعض سقوفه مثلثة لتتوقى جليدا لا يسقط أبدا فى أحلامى كلها !

تذوب رعدة احساسى بالجمال والجلال والرهبة فى شعور قوى بالألفة والصداقة للمكان كله ، للقصر المهيب الغريب . لحديقته التى تبدو وكأنها تركت لتنمو على طبيعتها ، ثمارها فى متناول اليد ، طيورها فى كل مكان ، سورها من الأشجار القصيرة التى زرعت بقصد أن تكون سورا يحدد بداية القصر ونهايته .. يفصل بين أشجاره وأشجار الغابة ، للمكان أصوات هى أصوات الرياح والطيور وخشخشة الفروع والأوراق ! وفى انتظار صوت بشرى فى هذا المكان يجىء صوت آخر ، صوت أعرفه وأتوقعه وأخشاه

رغم ذلك ! صوت يجمدنى فى مكانى فلا أقترب خطوة أخـرى من القصر المهيب الغريب ، صوت أسمعه وأراه فى نفس الوقت ، أراه فى حركة العشب الأخضر الذى تنبىء حركته فى هـذه المرة عن حركة الجسم الذى يتخلله فى هدوء وثقة ، وفجأة أراه أمامى ، بارزا من خلال الأعشاب الطويلة الناعمة ، بشعره المسترسل الذى يتخلل بياضه سواد وغبرة ، بأذنيه الطويلتين المتدليتين ، بتلك النظرة التى أعرفها كما تعرفنى ، نظرة تراها فى عيون كل حارس يعرف واجبه ، لا يزيد عنه ولا ينقص ، نظرة لا تتصف بالعدوان ولكنها لا تسمح لمن يراها بالتفكير فى أى عدوان ، تحسم المعركة فى خاطرك ، ولا تأذن لك بالتفكير فى الخداع أو المخاتلة !

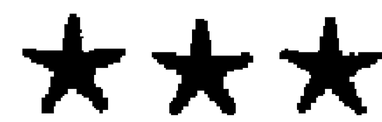
لا أمل فى دخول هذا القصر قبل أن أرى أو يرانى واحد منهم ، واحد من أهل البيت الذى تمتلىء أحلامى كلها ايمانا بأنهم أهـلى !

آنذاك قد يعرف ذلك الحارس الذى يظهر فى كل أحلامى أننى واحد منهم ، جدير بثقته هو أيضا ، بأن يستقبلنى ـ كما لا شك يستقبلهم ـ هاشا بذيله ، مداعبا بأظافره وأسنانه ، ولكن أحلامى كلها كانت تمضى واحدا وراء الآخر دون لقاء معهم ·· مع واحد منهم ·· دون فرصة واحدة للاقتراب من سور القصر ، فضلا عن أبوابه ! دون أن يكون هناك دليل واحد على وجودهم ·· سوى وجوده ·· هو وحده الكائن الحى حول هـذا القصر الذى يؤذن وجوده بوجود أناس يحيون داخل ذلك القصر الغريب المهيب ! وهو وحده الذى يحول دون لقائى معهم ، ودون التأكد من وجودهم !!



ودائما كنت أنتظر حلمى ، أنتظره فى هذا المزيج الرائع من الجمال والجلال والخشية والترقب ، واثقا من أن شيئا ما لابد

أن يحدث ـ ولو فى الحلم ـ فأعود الى القصر الذى تمتلىء أحلامى كلها شعورا بأنه بيتى ، متنقلا بين حجراته الحافلة بالغـــرائب والأسرار . متعرفا الى من فيه من أهلى واخوتى . الذين لم يتركوا ما يدل على وجودهم سوى ذلك الحارس الذى أحبه بقدر ما أخشاه، وأتوقع أن يتم بينى وبينه حوار المحبين حين يعرفنى وأعرفه !



فى هذه المرة وجدته ، لا كما كنت أجده فى كل مرة سـابقة حـرا طليقا !

فى هذه المرة كان ثمة حبل طويل يلتف حول عنقه ، يربطـه الى ما لا أراه من أشجار الحديقة !

فى هذه المرة كان يرقد مادا ذراعيه ، مقعيا على خلفيته ، مشرعا فى عينين ثابتتين كأنه يرى ، فى نظرة واحـــدة ـ كل ما حـــوله !

لأول وهلة أحسست براحة نزقة .. أهـــل البيت لابد قـــد عادوا ! فما من أحد غيرهم يملك أن يمد اليه يدا بمثل هذا الحبل ! لحظة لقائى بهم قد دنت ! أصبحت أبواب القصر وسلالمه فى متناول يدى وقدمى ! لن أنتظر حتى أرى أو يرانى واحد منهم !

متى زايلنى هذا الشعور بالارتيـاح ؟ كنت دائمـــا أتمنى أن تكون لحظة لقـائى بهـم هى لحظة لقائى به ، وهو يتنقل فى مهابته وطلاقته ، كنت أتمنى أن أشرح كيف كان يقوم بدوره فى غيبتهم ! ما هكذا ينبغى أن يفهم ذلك الحارس العظيم أننى أنتهـز فرصـة لا يملك فيهـا حريته لأنال حريتى فى الدخول الى هذا القصر !

ما هكذا ينبغى أن يعامل الحراس العظام ممن اعتمدوا عليهم ووثقوا بهم ! لماذا يربطونك فى هذا الحبل الطويل ؟

لماذا لا تريد يا صديقى أن تصدق أننى واحـد من أهل البيت؟ طالت غيبتى كما طالت غيبتهم !

لماذا أرى فى عينيك نفس النظرة التى كانت تشل قدمى ؟

كأنك تقول لى : اننى قادر على أن أوقفك فى مكانك وأنا مشدود الى مكانى !

لكن لماذا يربطونك حقا بكل هذه الحبـال ؟

أرى حبلا مشدودا الى الوراء يربطك بما لا أرى من الأشجار ولكن ماذا يعنى ذلك الحبل الآخـــر الذى يمتـــد الى ناحيتى كأنه يدعونى لكى أمسك به ، لكى أتجرد من كل مخاوفى وأمسك به !

متى لاحظت أنه يمتد الى ناحيتى وكأنه يريد أن يمسـك بى وقبل أن أمسك به ؟

متى بدأت ألاحظ أنه لم يعد حبـلا واحد بل حبـالا كثيرة تنساب هنا وهناك كأنها خيوط من الدماء النازفة !

متى بدأت يا صـديقى استوعب الحقيقة المروعة فى هذا المكان الذى كان يتعانق فيه الجمال والجلال والخشية والترقب ؟ كان ذلك حين حاولت الامساك بواحد من هذه الحبال لأجد يدى وقد أصبحت فجأة ملوثة بدمك !

فى حياتى كلها ، فى أحلامى كلها لم أر حارسا مثلك لا ينسى وهو ينزف ، وهو مشدود الى ما لا يرى من الأشجار أنه لا يزال حارسا ، يمتلك نظرة الحارس وقدرته على أن يرى كل شىء ، وأن يوقف كل شىء فى مكانه !

ولكن لماذا أتوقف حتى عن نجدتك ؟ يقينا لم نعد وحدنا فى هذا المكان يا صديقى ! ولعلى لا أحلم هذه المرة !

كيف حدث ذلك ؟ كيف تسلل القاتل الى هذا المكان الـذى كنت أخفيه فى أحلامى ؟ وأين كان أهل البيت حين دوت الطلقة ؟ ومن أين جـاءت ؟

وماذا يقصد القاتل ؟ يقينا لا يقصد مجرد قتلك ! ويقينا انه لم يذهب بعيدا عني وعنك ؟! ولو خرج أهل البيت فى هـذه اللحظة لما وجدوا غيرى ملوثا بدمك !

كنت أريد أن أحدثهم عن شجاعتك فهل بمقدورك أن تثبت لهم براءتى ؟!

أفكر فى اثبات براءتى وأنت تنزف ! أليس هذا دليلا على أننى مثل أهل البيت .. أمتلك نفس القدر من نذالتهم ! خيوط الدم النازف تمتد وتتشابك وتملأ المكان حولى برائحة الموت والجـــريمة ، ولا أحـد يشم الرائحة سوى طيور الغابة التى لا أسمع غيـر أصواتها وهى تتنادى وتقترب ، وتنظر وتنتظر ؟!

هل ترى نظرتها ؟ وهل تدرك معنى انتظارها ؟

أما أنا فاعترف أننى عاجز عن فهـم نظـرتك !؟ عاجز عن فهم صمتك ! لم لا تصرخ لتـــوقظ النيام ؟ أم أنك لا تقـوى حتى على الصراخ ؟ أم أنت تدرك أن هذه الصرخة سوف تجىء لك بكل شىء عدا أهل البيت ؟!

ما الذى تراه ولا أراه وأنت تواجه لحظة الموت ؟

يقولون ان الحقيقة كلها تبين فى هذه اللحظة ؟

فهل أصبحت ترى حقيقة أننى خائف أن ألقى بنظرة الى الوراء لأتبين معنى الأصوات التى أسمعها .

معنى الخطوات التى أشعر أنها تتوقف ورائى ! من كل ناحية لا أراها .. تجىء .. أسمع صوت تقصف الأوراق تحت الأقـدام

التى تسير فى ايقاع هادىء ثم تتوقف ·· ورائى تتوقف ·· لتراها أنت وحدك بلا فزع · لترى عجزى عن مداراة فزعى وأنا أكتفى برؤية كل شىء فى عينيك !

لماذا لا يخرج أهل البيت الملعون لانقاذى وانقاذك ؟ هل يعلمون أن موتك سوف يكون دليل موتهم الوحيد ؟ الأصوات تأتى من كل ناحية عدا البيت ، والحقيقة التى كنت أخشى أن أتلفت لأراها لم تعد تحتاج الى تلفت ·· أصبحت تحيط بى وبك ، تحاصرنى كما تحاصرك !

كيف كنت تراها طول الوقت دون أن تطرف لك عين ؟

أفظع الحقائق هو ما لا تقوى على تصديقه وأنت تراه !

كل هذه الذئاب الجائعة والضباع المفترسة تجىء ·· من كل مكان فى الغابة تجىء ·· تتشمم خيوط الدم ·· تتبعها ·· ثم تقعى فى هدوء ·· على مقربة منك ·· على مرأى منك ·· تنظر وتنتظر ! رغم جوعها تنتظر ، رغم نظرة العجز فى عينيك تنتظر ، رغم روح الافتراس تنتظر !

كيف كانت تختفى فى هذا المكان الذى يتعانق فيه الجلال والجمال ؟

كيف عجزت عن رؤيتها فى كل أحلامى الماضية ، كنت أخافك أنت ولا أخافها ! كنت أخاف حريتك دون أن أفكر لحظة فى أنها هى التى كانت تربط كل هذه الوحوش فى أوكارها !

وها أنت الآن ترى الحقيقة التى لا تبين الا فى لحظة الموت حقيقة أنها كانت تخافك ! ولكنها فى هذه المرة تعلم أن لخوفها نهاية لا تستعجلها ، نهاية وضعها أولئك الذين وضعوا الحبل فى عنقك ·

يقينا سوف يعودون ، أولئك الذين وضعوا الحبل فى عنقك ·

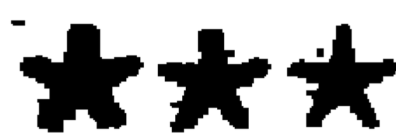
ويقينا أنك كنت تحبهم وتثق بهم والا لما استطاعوا أن يفعلوا ذلك ! واذا كانوا قد تأخروا قليلا فلأنهم لا يريدون أن ينظروا في عينيك قبل أن تغلقهما الى الأبد ، هم أيضا ينتظرون ! هم على يقين من أنك لن تموت برصاصهم بل سوف تقتلك الحقيقة التى تتكشف لك الآن وسط هذا الجلال والجمال ، في هذه اللحظة التى لا ندرى هل هى لحظة شروق أم غروب ؟

يقينا سوف يعودون ، ربما من قلب الغابة ؟

ربما من قلب القصر الذى يبدو صامتا كأنه لا ينبض فيه قلب !

كأنك تنتظر منى أن أفعل شيئا أو أن أشهد بشيء !؟

كأنك لاتزال تحلم بالنجدة ، يالك من أنانى ! ليس ثمة سوى طريقة واحدة ·· لنجدتي ـ وأرجوك أن تغفر لى ـ فان هذا القطيع الهائل من الذئاب والضباع لم يتركنى حتى هذه اللحظة الا لأنه لا يرانى لأن عيونه معلقة بعيونك في انتظار أن تغمضهما لحظة واحدة ·· وليتك تفعل الآن ، حتى لا ترانى وأنا أقعى في مكان وسط كل هذه الذئاب والضباع ، ليتك لا ترى أظافرى وأنيابى وذيلى وهى تنبت ، هل هناك لنجاتى من سبيل آخر ؟



ألمح في عينيك كلمات مختنقة ·· كأنك تشير الى طريق آخر للنجاة ·· نجاتى هذه المرة ونجاتك ، وقبل أن أواجه بدورى حقيقتى المفزعة ·· حقيقة ان كل هذه الذئاب والضباع هم أهلى واخوتى

الذين كنت أنتظرهم طوال الوقت ! قبل أن يصبح الحلم الفظيع حقيقة فظيعة !

كلمات تهيب بى أن أجمع كل قواى ، وأن أصحو فجأة من هذا الكابوس المروع ·· ! فهل تتحقق هذه الصحوة ·· ؟ هل تتحقق هذه الصحوة !

السيد « م ، م ، م » وحكايته
مع الوجه الذى لا يتغير ··

« مقـــدمة »

كان السيد « م ، م ، م » رجلا مهذبا حقا ، وفى طفولته كان طفلا مهذبا كذلك ، مع أنه ولد فى القرية ، فقد كانت ثيابه فى أغلب الوقت نظيفة وناصعة ، لأنه لا يلعب مع الأولاد الأشـــقياء الذين يمزقون ملابسهم ويوسخونها !

والسيد « م ، م ، م » مثل كل الرجال المهذبين الذين وجدوا أسرة متماسكة تحسن تربيتهم ، وتبعث بهم فى الوقت المناسب الى المدارس ـ بالتدريج ـ الابتدائية ، الثانوية ، الجامعة · لا تخـلو حياته من أناس يحبونه ، وأناس يكرهونه ، مع أنه قلما يتـورط فى فعل أشياء تضايق أحدا منه ، لكنه مثل كل الرجال المهذبين يدرك على نحو ما أن الحياة كذلك وان الاختلاف بل والتغير سمات طبيعية فى الناس وفى الأشياء ، لا شىء مثل الآخر ، ولا شىء يبقى على حاله وربما لهذا لا يضيق تماما بما يلقاه فى حياته وفى حياة الناس من تباين وتغير ، بل يتلقاه شبه راض ، شبه متوقع ، ومهما يكن حجم التباين أو نوع التغير !

هكذا كانت البـداية :

متى بدأ السيد « م ، م ، م ، » يلاحظ أن ذلك الوجـه هـــو وحـده الذى لا يكاد يتغير ؟

لكن متى رأى ذلك الوجه لأول مرة ؟

ثم متى تأكد له أنه هو نفس الوجه ، نفس الملامح الجـادة السمراء ، نفس العينين الغائرتين اللتين يصعب فى غير ضـوء الشمس أن تميـز لونهما البنى أحيـانا ، العسلى أحيانا ، الأسود أحيـانا ؟!

نفس الشعر الخشن الأكرت ، نفس الأذنين اللتين لم يرهمـا أبدا لأن ثمة لاسة صوفية أو قطنية تدور حول الرأس ، تدور صيفا وشتاء لتحميهما من الحر أو البرد وتكاد أن تحجب معهما جرحا قديما فى صفحة الوجه اليمنى أو اليسرى ، وأحيانا فى الجبهة ، وآنذاك تدور اللاسة الماكرة بحق لتخفى جرح الجبهة !!

متى رأى حقا ذلك الوجه لأول مرة ؟!

يذكر أنه كان فى القرية ، أول مرة ذاقت فيها قريتهم طعـم مياه الشرب النقية ، التى تأتى من محطة بعيدة لتنقية المياه عبـر مواسير تمتد فى باطن الأرض ، كان صاحب ذلك الوجه الأسـمر الحاد الملامح هو الذى يحمل فأسا تختلف عن كل الفئـوس التى يراها فى قريته ، حديدتها أكثر طولا وأكثر صلابة ، وهو الذى يحفر باطن الأرض لتمتد فيها هذه المواسير ضمن شبكة كبيرة تغطى جميع القرى وفى الحقيقة لم يكن وجها واحدا هو الذى يصنع ذلك ، ولكنه أعنى السيد « م ، م ، م » عجز فى ذلك اليوم عن أن يميز بين كل هذه الوجوه التى كانت تقوم بنفس العمل ، عجز عن أن يجد بينها فروقا واضحة ، كانت كلها سمراء لوحتها الشمس ، يبللها العرق ،

أغلبها يحمل جرحا هنا أو هناك ، ودائما كانت هناك اللاسة تكاد تخفى الجراح والملامح ، وحتى حين كان واحد منها يبدأ الغناء ، كانت كلها تغنى معه ، وهى منكفئة على الأرض تحفرها ، على المواسير تحملها وتدفنها فى باطن الأرض !

ولم يكن الفضول الشديدة يوما من صفات السيد « م ، م ، م » فقد أوصته أمه وربما أبوه بألا يهتم بما لا يفيده ، وألا يشغل نفسه بشئون الناس فليس وراءهم سوى الشر والمشاكل ، ولم يكن معنى هذا طبعا أن السيد « م ، م ، م » لا يحب الناس ولا يفعل الخير ، بل كان يكتفى بحبهم على البعد ، يتفرج على الموالد والأعراس والأعياد دون أن يشارك فيها بدور ، وحين يفعل الخير يفعله ويجرى قبل أن يراه أحد ودون أن تلمس يده يد الفقير أو السائل ، ولولا أن أصحاب هذا الوجه كانوا مسالمين جدا وغرباء ولا يتسع وقتهم لغير العمل والغناء لما قدر له أن يعرف ما عرف عنهم ! وكان حريا به أن ينسى هذا الوجه تماما لولا أن رآه مرة أخرى بعد عدد من السنين ، كان السيد « م ، م ، م » قد أصبح فتى يافعا ، سافر الى عاصمة الاقليم ليستكمل دراسته فى المرحلة الثانوية ، وكان هناك كما كان فى القرية فتى مهذبا ، كذلك جلبابه النظيف أصبح بدلة نظيفة وأنيقة ، وحجرته مرتبة ومنسقة ونافذتها تطل على أرض خلاء فسيحة ، اختار له أبوه الحجرة فى هذا البيت المنعزل بعيدا عن الضجة ، بعيدا عن رفاق السوء ، حتى يذاكر فى هدوء وينجح فى تفوق ! فوجىء ذات يوم بضجة هائلة فى المكان الخالى الفسيح ، آلات ضخمة تدك الأرض ، وأيد كثيرة تحمل الفئوس التى تختلف عن الفئوس فى قريته ، وتحفر أساسا لعمارة جديدة تجرى الاستعدادات لبنائها ، ووقتها ـ ورغم تهذيبه الشديد ـ حلم بجيران ، بالتحديد بجارة حسناء تسكن فى العمارة الجديدة ولكنه وقبل أن يتحقق حلمه بالجارة الحسناء تحقق من أنه يرى نفس الوجه الذى رآه فى قريته منذ سنين • الوجه

الأسمر الملوح بالشمس والمبلل بالعـرق ، لم يتغير فيـه شيء ، حتى مكان اللاسة ، كان هو الذى يحفر الأساسات وينقل الطوب الأحمر فى سطور منظومة على ظهره ، ويصعد السقالات حاملا قصـاع الأسمنت المعجون ، ويغنى .. ! ولا يبدو أن شيئا ما قد تغير سوى نوع العمل ، نفس العمر كأنه لم يكبر كل هذه السنين ، نفس الثياب، الوجه الواحد المتعدد !!

وفى الواقع أنها لم تكن هذه هى المرة التى انتابه فيها الرعب من رؤية هذا الوجه الذى لا يتغير ، كان قد بدأ يعـرف الكثير عن هذا الوجه ، فهو قادم من أقاصى الصعيد ، وهو متنقل أبدا وراء العمل هنا وهناك ، وهو يختلف عن وجوه الفلاحين فى القرية حيث يولد الفلاح ويعمل ويكبر ويموت فى نفس القـرية ، كان السـيد « م ، م ، م » قد بدأ يعـرف الكثير عنـه وعن أشياء أخرى كثيرة ، وينسى الكثير مما يعرف ، وكانت دهشة المعرفة المتجددة لا تسمح له بالتفكير طويلا فيما يعرف ! والذى حدث أنه نسى تمـاما هـذا الوجه بعد أن اختفى من أمام عينيـه ، بعـد أن ارتفعت العمـارة، وسكن بجواره كما كان يحلم وجه فتاة كالقمر ، أحبها على طريقته من بعيد ، وحقق معها فى الحلم ما كان يتمنى أن يحققه فى الواقع، كانت الفتاة تسكن فى البيت المقابل ، أما نصائح أبويه فقـد كانت تسكن فى رأسه ، ولم يكن غريبا أن ينجح فى الثانوية العامة بتفوق رغم قصـة حبه التى كانت تتحرك فى رأسه مع الدروس ودون أن تصطدم بها ودون أن تتحرك خطوة خارج رأسه !

وكانت النقلة الكبرى فى حياته يوم دخل الجامعة من أوسع أبوابها ، اختـار كلية العلوم رغم أن مجموعة كان يرشحه لكليـة الطب ، لم يقدر على أن يتخيل نفسه يوما أمام جثـة كائن بشرى يمزقها بالمشرط !

أما كيمياء البترول فهذا هو العلم الخالص الذى قد يسـعد الانسان دون أن يغوص فى 1لامه !

فى الجامعة اكتشف أنه لم يعرف الحب أبدا قبل هذه المرة كانت هذه بنتا حقيقية ، يعرف اسمها ، يعرف ملمس يدها ، تتحدث اليه بصوت مسموع واضح ، صحيح فى العلوم وفى السينما وفى الكرة وفى السياسة ، ولكن لتقول له من خلال ذلك كله انها تحبه ، وبالتحديد تحب تهذيبه الشديد وتفوقه معا !!

ولم يقل لها أحبك أبدا رغم أنه كان يموت فيها .. !

ولكنه قال لها : يجب أن تهتمى بدروسك لنسافر فى بعثة واحدة الى الخارج كزوجين !

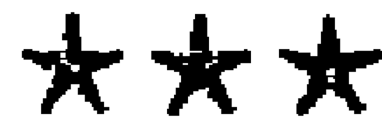
ولم يكن يجد معنى لدهشة زملائه لأنه ظل يحب بنتا واحدة أربع سنوات كاملة !

أما هى فلم تجد معنى لذلك الوجوم الشديد الذى انتابه فجأة فى نهاية تلك الليلة التى دعته فيها الى فنجان شاى فى احدى « الكازينوهات » على النيل بمناسبة عيد ميلاده ، كان هذا «الفنجان شاى » هو الهدية الوحيدة التى وافق على قبولها منها ، كما كان أقصى مغامرة حب قاما بها خلال أربع سنوات ، فى تلك الليلة كانا سعيدين ، كادا يلمسان النجوم ، فأحلامهما تبدو على بعد شهور قليلة ، النجاح والسفر والبعثة و ... وفجأة يقطع أحاديثهما صوت غناء .. غناء مكتوم .. قادم هذه المرة من شاطىء النهر ، لا صلة له بالموسيقى الخفيفة الهادئة التى تأتى من ميكرفون « الكازينو » فجأة يلوح فى ضوء أنوار « الكازينو » الهادئة وجه أسمر لا تكاد تتضح ملامحه ، وجه مندفع الى الأمام كأنه يوشك أن يسقط لكن حبلا غليظا يدور هذه المرة حول الكتفين ، حبلا يجر وراءه مركبا شراعيا محملا بالأوانى الفخارية ، هذا الحبل الذى يجر المركب المطوى الشراع فى عكس اتجاه الريح هو وحده الذى يمنع الوجه المنكفىء الى الأمام من أن يسقط عى الأرض ، ولكنه لم يكن قادرا على منعه من الغناء المكتوم الذى يتردد مع ايقاع

القدمين اللتين تغوصان فى أرض الشـاطىء الطينية الرخوة التى تنمـو فوقهـا الأعشـاب !

تصورى .. الدنيا كلها تتغير عدا هذا الوجه !

نطق السيد « م ، م ، م » بهذه العبارة على نحو مفاجىء بعد لحظات صمت مفاجئة ، ثم عاد الصمت مغلفا هذه المرة بقدر من الوجوم ، لم تستطع هى أن تفهم معنى وجومه فى تلك الليلة ، معنى استمرار وجومه !؟ وعجزت الاشارات المبتسرة التى أومأ بها الى قصته مع هذا الوجه أن تعتذر لها عن وجومه فى مثل هذه الليلة وهذه المناسبة ، أو حتى أن تجعلها تفهم معنى هذه القصة ، المعنى الحقيقى لها !



لمحات عن حياة السيد « م ، م ، م » فى أوربا

ست سنوات زمن كبير جدا فى حياة الأفراد ، بل والجماعات والمسألة دائما هى ماذا يحدث خلالها ؟

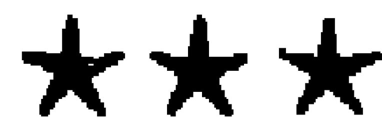
أصبح السيد « م ، م ، م » الدكتور « م ، م ، م » ، وعلاقة الحب أصبحت علاقة زواج ، وتوقف طموح الزوجة قبيل الماجستير بسبب الأجور المرتفعة لدور الحضانة فى أوربا ، والأجور المنخفضة لأعضاء البعثات من مصر ، ولأسباب أخرى كثيرة لا أهمية لذكرها ، ووقعت فى حياة السيد « م ، م ، م » ثلاثة أحداث . هامة ، الأول : أنه أصبح أبا لطفلتين جميلتين جدا ، الثانى : أنه لم يبصر مرة واحدة ذلك الوجه الذى لا يتغير ، ثالث هذه الأحداث وربما أهمها أن فكرته عن التغير قد تغيرت الى حد كبير !!

الواقع أن الأمانة التى نلتزمها فى كتابة هذه اللمحات من حياة السيد « م ، م ، م » تحتم علينا أن نعيد النظر فى صياغة الحـدث الهام الثانى فى حياته ، وألا نترك حرصنا على فضيلة الايجاز يؤذى فضيلة الأمانة !

فالحقيقة أن السيد « م ، م ، م » قد أبصر الوجه الذى لا يتغير خلال هذه السنوات الست عدة مرات ··· فى خياله !! ويتصـــل بتوضيح هذه المسألة أن نوضح قليلا الحدث الهام الثالث فى حياة السيد « م ، م ، م » ونعنى به « كيف أن فكرته عن التغير قد تغيرت الى حد كبير » ! فمع أن تخصصه فى كيمياء البترول كان يقف به عند حد دراسة وجوه التغير التى يمكن أن تحدث فى حياة الانسان نتيجة لتقدم المعرفة فى مجال تخصصه والتطور المذهل فى تطبيقات هذا التقدم فى شتى نواحى الحياة ·· الا أنه لم يتوقف ـ برغمه ـ عند هذه الحدود ، فقد كان يعيش كل يوم وفى كل مجال منذ سافر الى أوربا صدمة التغير ، ووجد نفسه دون أن يدرى يفكر طويلا فى معنى هذا التغير ، فى اتجاهاته ، فى معدلات سرعته ، فى المجالات التى يشملها سواء فى العلوم البحتة أم فى العلوم الانسانية ، وفى النهاية وجد نفسه يقارن بين معنى وايقـاع التغير هنا وهناك فى وطنه ، ورغم كل ما كان يقرأه ويســمعه عن التغير فى بلاده فقد كانت الهـوة التى تفصل بين ما يحـدث هنا وهنـاك تملؤه بالفزع وربما كانت هذه هى المرة الأولى التى شعر فيها برعب حقيقى حين رأى ـ فى خياله ـ الوجه الذى لا يتغير ، وحين خيل اليه أنه يسمع على البعد غناءه المكتوم ، وهو يعمل ليغير كل شىء فى بلده ودون أن يتغير ! أعتقد أننا بهذه الطريقة فى سرد هذه اللمحات عن حياة السيد « م ، م ، م » قد أسأنا الى فضيلتى الأمانة والايجاز معا فنحن لم نذكر شيئا عن الشىء الذى لم يتغير فى حياة السيد « م ، م ، م » طوال هذه السنين ورغم كل ما قلناه عن التغير ، ونعنى به تهذيبه الشديد ، وقد نجم عن هذه الواقعة أنه كان يشعر برعب حقيقى آخر يشبه ذلك الرعب الذى كان يشمله حين يرى ـ فى خياله ـ الوجه الذى لا يتغير ، كان يشعر بذلك الرعب كلما فكر فى أن اجتياز مثل هذه الهوة التى تفصل بين بلاده وبين أوربا ، أن اجتياز مثل هذه الهوة قد يحتاج الى العنف أو الى ما يشبه الجراحة الأليمة على

مستوى الشعب كله • ويبدو أننا قد نســـينا تماما أن الســـيد « م ، م ، م » قد رفض فى بداية حياته دخول كلية الطب حتى لا يجد نفسه مضطرا لتشريح جثة انسان !!

وقد كان يريحه أحيانا ما يسمعه ـ فى شــك كبير ـ من أن التغير فى بلاده يتم بلا عنف ودون اراقة دماء ، وفى كل مرة كان يسمع فيها مثل هذا الكلام كان يقول : أيمكن أن تتحقق هذه المعجزة ؟ أيمكن أن يكون هذا الكلام صحيحا رغم الدعايات المضادة العنيفة ؟ ثم عاد الدكتور « م ، م ، م » الى بلاده فى نهاية عام ١٩٦٧ •



السيد « م ، م ، م » يعود الى بلاده :

حين عاد السيد «م ، م ، م» الى بلاده فى أواخر عام ١٩٦٧، لم يكن قد فعل ذلك فى الحقيقة لمجرد أن المهمة التى ســـافر من أجلها قد انتهت ، بل فعله لأنه رفض رفضا قاطعا النصائح الكثيرة التى همس بها البعض فى أذنيه ، لكى يبقى هنا ، ويعمــل ، ويعيش الى أن تتضح الأمور أو تنصلح !

وحين عاد كان يعرف تقريبا ما سيلقاه فى بلاده ، ومثل كل الناس كان يريد أن يعرف كيف حدث ما حدث ؟! وكان اعتقاده أنه قد يجد اجابات غير التى قرأها وسمعها فى الخارج ، وأنه سيضع يده على الحقيقة بشكل أو بآخر ، وأنه فى النهاية سيجد مع مواطنيــه طريقا للخلاص ، على الأقل لبداية الخلاص !!

وظل يرى ويسمع ويقرأ : كان هناك من يقول : لقــد حــدث ما حدث لأن المسئولين عن التغيير فى بــلاده ، قد اتخــذوا العنف أسلوبا ، ولم يترددوا فى البطش بمن يخالفهم فى الرأى ، فســـاد الخوف ، وضاعت الحقيقة فى ظلامه ، وانكسرت روح الأمة الواحدة ، وهى تواجه الخطر الواحد !

وكان هناك من يقول : لقد حدث ما حدث لأنهم لم يتخـــذوا العنف أسلوبا لاحداث تغيير حقيقى ، ولجأوا الى الحـــلول الوسطى المقيتة فضاعت البلاد وقبل أن تولد من جديد !! كان عقله مع أصحاب الرأى الثانى ، وقلبه مع أصحاب الرأى الأول ٠

(وقد رأى بعض الأطباء الذين تولوا علاج الدكتور « م٠م٠م » فيما بعد أن ذلك كان بداية الانقسام (الذى أصبح خطيرا) فى شخصيته والذى لم يظهر تماما فى البـــداية ، لأنه كان جزءا من الانقسام الأخطر الذى كان موجودا فى بلده كله) ٠

ودائمـــا كما يقولون ، وكما كان الدكتور نفســه يعتقد : كان العمل أفضل وسيلة لالتماس الحقيقة ، والتماس الصحة ، وقد بدأ الدكتور عمله بعد فترة وجيزة مـــع العاملين فى نقـــل مصـــانع « البتروكيماويات » من مدينة السويس (التى كانت مهددة بالقصف المستمر من مدافع العدو فى الضفة الشرقيــة للقنــاة) الى مدينــة الاسكندرية !!

وفى هذه الفترة من حياته قدر له أن يرى وأن يعيش جزءا من الحقيقة ٠٠٠ حقيقة العنف الشامل الفظيع الذى لا يستهدف فردا أو فئة أو طبقة ! العنف الأعمى الذى لا يفرق بين من يحمل بندقية أو فأسا ، بين مصنع أو شجرة أو مدرسة ! العنف الذى يوحد الناس أمام المصير الواحد !! وفى هذه الفترة من حياته قدر له أن يبقى فترة طويلة غير مصدق لأمرين مع تحققه من وقوعهما تماما !

الأمر الأول أن لا يزال يحيا رغم الاصابة التى كادت تودى بحيـــاته !

الأمر الثانى أنه رأى بعينيه (ولأول مرة) الوجه الذى لا يتغير وهو يتغير ! وهو يصبح مثل بقية الوجوه !!

فحين ذهب الى مدينة السويس ـ لأول مـرة ـ رآه هنـاك ، ولـم تذهـله المفـاجأة هذه المرة ، كان هـو الذى أقـام ستائر من الأسـمنت المسـلح حـول خزانات الزيت ، وأقامهـا حـول كل المواقـع التى تحتـاج الى تحصـينات ، لم يـكن ينقصـه سوى بدلة الجنود ، وحين صدر القرار بنقل المصانع من السويس كان هو الذى يمهد الطـريق أمام الجرارات والروافع ، وحين كانت تتعطل الآلة أحيانا كان هو الذى ينقل ويجر ويسحب ، وحين كانت تجىء لحظة العنف الدامى ، كانت تصبغ كل الوجوه بلون واحـد تعجز اللاسة الماكرة عن اخفائه ، ولم يعد ذلك الوجه وحده هو الذى يحتاج الى تغطية جراحه القديمة ، فقد كانت الجراح تملأ صفحات الوجوه ! كل الوجوه !

وحين جلس الدكتور « م ، م ، م » على شاطىء البحر فى الاسكندرية فى التماس الهدوء والحقيقة ، عجز البحر عن أن يمنحه الهدوء أو الحقيقة ، ففى كل مرة كان يطالع صورته أمام أى سطح ساكن لامع كان يرى الرباط القطنى الأبيض الذى يحيط برأسه وأذنيه فى شكل لاسة تخفى وجها أسمر ، وشعرا خشنا ، وبعض الجراح !! على أن الدكتور « م ، م ، م » لم يصارح أحدا فى هذه الفترة من حياته بما كان يخيل اليه أنه يراه ، واكتفى بتجنب الوقوف أمـام الأسطح الساكنة اللامعة !!

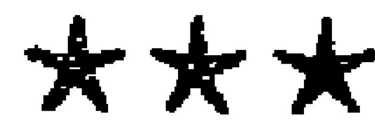
قال الطبيب لزوجة السيد « م ، م ، م » :

ـ « ان ما يردده زوجك عن شعوره بوجود عقلين يحكمان هذا البلد عقل ظاهر طيب ، وعقل شرير خفى ، وأنه لايدرى كيف يعمل معهما ، فأحدهما يدمر ما يقوله أو يفعله الآخر ، وأحيانا يلوح أن السلطة الفعلية فى يد العقل الشرير الخفى ، وأن العنف لا يجىء من العدو وحده وأنه يخشى أن يجد نفسه متورطا فى أمر يقع به فى مصيدة العنف ! » ان هـذا الكلام يعنى أن الشرخ الذى حـدث فى

شخصية الدكتور يزداد عمقا ، فهو يعكس ما يشعر به فى داخله ، وفى هذه المرحلة من العلاج سوف نكتفى بالعقاقير المهدئة !

ـ ولكنه أصبح عازفا عن العمــل ، يكثر من الأجازات ، يسهر ويشرب منفردا ، لا شيء يثير اهتمامه ، حتى ولا طفلتيه اللتين كان يحبهما الى درجة العبادة !

ـ لا جــدوى من مناقشته فيما يفعــل الآن ، لننتظر مفعول العقاقير المهدئة فى هذه المرحلة !



حادث عرضى وهام يقع فجأة

فى حياة السيد « م ، م ، م » :

كان عائدا بعد منتصف الليل ، رأســـه مثقل بالشراب ولكن روحه منتعشة ومحلقة ، لماذا يتقاتل الناس حتى الموت فى هــــذا العالم الجميل الساكن ؟؟ أغراه الشارع الطويل الخالى بأن يسرع فى القيادة ليتناغم ايقاع روحه مع ايقاع السيارة المسرعة !! لو زادت السرعة الى حد كبير جدا لتصبح فى سرعة الضوء لتحولت السيارة بمن فيها الى موجات من الضوء !! يالها من طريقـــة للانتحـــار !

لماذا يصرون على وصـــمه بالمرض ؟ وما هى الصـــحة ؟ أن يضنوا عليه بالشراب الذى يطلق اسار روحه ! اللعنة على كـــل الأصحاء ! ، الأصحاء وحدهم هم الذين يلجأون الى العنف عندما يمتلكون المزيد من القوة ! ولا سبيل الى الغاء العنف الا بتوازن القوى !

لماذا لم يحقق الله توازنا طبيعيا بين قوى البشر كهذا التوازن الذى حققه بين النجوم فى أفلاكها ، وبين الكهارب فى ذراتها ؟!

لماذا يتحتم على الانسان وحده أن يصل الى التوازن عبر بحر من الدم والعنف ثم يحدث الاختلال من جديد لأن قوى البشر تنمو بطرائق مختلفة ، وفى ايقاع مختلف !؟

أمن الضرورى أن يكون هذا العـذاب ثمنـا أبديا للحـرية والاختلاف والتغير ؟ لماذا لا تتشابه الوجوه الا فى لحظات الفزع أو الموت ؟!

صرخة فزع هائلة تقترب منه بسرعة السيارة المسرعة ، تندفع قدمه اليمنى بطريقة لا شعورية لتدوس على « البريك » ، السـيارة تتوقف بالكاد ، بعد أن تنغمس مقدمتها فى الحائط الترابى الذى يرتفع على جانب حفرة تقطع الطريق ، كيف لم يبصر هذا المصباح الأحمر الكابى ؟ ولكن هاهو يبصر بين الفزع والدهشة وفى نفس المصباح « الوجه الذى لا يتغير » ... !

يبصره وهو يخرج من الحفرة التى كان يعمل فيها وهو مغطى بأكولم التراب التى دفعتها مقدمة العربة المندفعة ! كاد يقتله ويقتـل معه ! عليه اللعنة ! دائما يعترض طريقه ! « انتبه .. هنا عملية توصيل كبلات الكهرباء « شركة حسن عـلام » تخيل ورأسـه يدور أن هناك لافتات فى طول البلاد وعرضها تحمل هذا التحذير « انتبه ... هنا رجل ملعون ... يغير كل شىء ولا يتغير .. احذروا قتله لأنه لا غنى لكم عنه » .

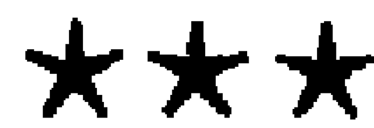
ـ أنت رجل أعمى ... تقود السيارة وأنت مخمور ، فاقدا لصوابك كدت تقتل الأبرياء وتقتل نفسك !

قالها شرطى المرور وهو يتفقد اجازة القيادة ودفتر السيارة ، قالها وهو يعمل بمساعدة الوجه الذى لا يتغير على نقله من سيارته الى سيارة أخرى كانت تمر بعد لحظـات لتنقله الى أقرب مستشفى؟

ـ الحمد لله جاءت سليمة ، ربنا ستر ! لا مؤاخذة يا بيه ! قالها الوجــه الذى لا يتغير بعــد أن نقله مع الشرطى الى السيارة الأخرى !

قالها مواسيا ، ومعتذرا عن التراب الذى أسقطه عليه وهو يشارك فى حمله الى السيارة !

قالها قبـل أن يعــود ليزيح الســيارة التى كان يستقلها « م ، م ، م » الى جانب الطريق مع الشرطى !



ماذا قالت زوجة السيد « م ، م ، م » للطبيب ؟

ـ لا زالت حالته مقلقة ياسيدى حتى بعد عودته الى البيت ، لا يزال يتصور أنه قتل العمـــال الذين كانوا يحفرون الطــريق ولا يصدق أنهم هم الذين أنقذوا حياته !

ثم أضافت بلهجة مترددة تنم عن قلق عميق وكأنها تبوح بسر خطير !

ـ « أمس فتح نافذة الحجرة فى الطابق الثالث ، كان عامل البياض يتدلى على سقالة معلقة لدهان واجهة العمارة بالصدفة كان بجوار النافذة ، لم يكد يراه حتى أطلق صرخة عالية ، لولا لطف الله لسقط الرجل من الطابق الثالث ! ثم أجهشت الزوجة بالبكاء !

حاول الطبيب تهدئتهــا ، قال لها بعــد أن أمر لها بفنجان قهــوة ٠

ـ يا سيدتى ٠٠٠ زوجك سىء الحظ ، الحادث الذى وقع له فى الطريق جاء فى وقت غير مناسب ، فضاعف من سوء حالته ،

وعلى كل حال نحمد الله فقد كان من الجائز أن تكون النتائج أقسى !

ثم أضاف محاولا توضيح الأمور :

ـ لدى زوجك شعور عميق بذنب لم يرتكبه ، يعاقب نفسه على أشياء لا دخل له فيها ... ! ثم تابع فى لهجة اقتراح : ليتكم ـ بعد تحسن زوجك ـ تسافرون للعمل فى أى بلد عربى ! فربما ... يؤدى تغيير الظروف الى نتائج أفضل ؟!

★★★

مقتطفات من الفترة الأخيرة

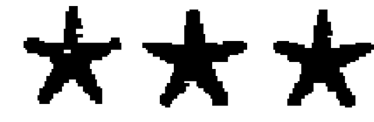
من حياة السيد « م ، م ، م » :

المعلومات التى وصلتنا عن هذا الجزء من حياة الدكتور « م ، م ، م » يشوبها الغموض ، بسبب تعدد مصادرها ، ولسنا نقطع بصحة كل ما نورده هنا ، وقد جاء على ألسنة عديد من الشخصيات التى تصادف أن تقابلت معه أو عملت فى عدد من البلدان العربية المنتجة للبترول التى تنقل بينها التماسا للطقس المناسب لصحته ومزاجه !

★★★

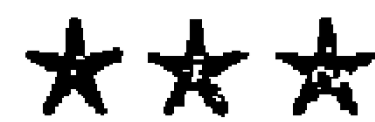
★ هناك رأى حظى بما يشبه الاجماع عن تحسن واضح فى الصحة العامة والمزاج والدخل ، ويقال ان هذا التحسن وصل الى قمته بعد حرب أكتوبر المجيدة ، حتى أنه فكر بعدها فى العودة فورا الى وطنه ، ولكن زوجته من ناحية ، وأخبار الأزمات

الاقتصادية فى بلده من ناحية أخرى توقفنا بهذه الفكرة عند حدود التفكير الدائم فيها !!



ـ « يزعم بعض الرواة أن التدهور المفاجيء الذى حدث فى صحة الدكتور « م ، م ، م » سببه المباشر تمزقه بين رغبته الملحة فى العودة الى بلده ، وعجزه عن تنفيذ هـذه الرغبة (اختلفت الأقوال فى أسباب هذا العجز) .

بينما يضيف بعض الأصدقاء ذوى الصلة الحميمة بالدكتور أن السبب الحقيقى « هو الطريقة الغريبة والمفاجئة التى بدأ يظهر بهـا الوجه الذى لا يتغير فى تلك البلاد التى تنقل بينهـا الدكتور « م ، م ، م » كان يظهر فجأة وبأعداد كبيرة فى أماكن خالية ثم يختفى لتظهر فى مكانه عمارات وطـرق مرصوفة ، ومستشفيات وفنادق ونواد وحدائق !! » .



« يزعم بعض من عادوا أخيرا من آخر بلد استقر بها الدكتور « م ، م ، م » أنه لقى حتفه فى حادث سيارة ، آخر سيارة اشتراها ، وقد كان يقودها وهو فى حالة سكر بينة » كدنا نصدق هذه الرواية لانقطاع أخبار الدكتور « م ، م ، م » عن كل أصدقائه ، ولكن عدم عودة زوجته وابنتيه من ناحية وعدم ظهور نعى رسمى له فى صحف بلده أو فى صحف البلد الذى كان يعمل به ، جعلنا نفسح مكانا ـ فى هذه المقتطفات ـ لرواية أخرى ـ كنا نتردد فى قبولها لأسباب سترد خلالها !!

الرواية الأخرى :

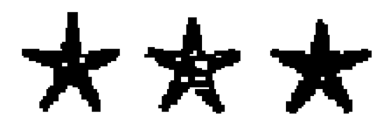
تقول هذه الرواية : ان الدكتور « م ، م ، م » لم يمت تماما ، ولكن المصير الذى انتهى اليه لا يختلف كثيرا عن الموت ، بل ربما كانت اشاعة موته أكرم كنهاية !

تقول الرواية – وهى تنسب فى الجزء الأخير منها الى زوجته – ان حادث السيارة صحيح ، وأن الدكتور حين فتح عينيه بعد اصابته وهو بين الحياة والموت وجد أن الوجه الذى لا يتغير هو الذى يندفع الى سيارته المحطمة ليخرجه منها وينقله الى سيارة الاسعاف ٠

(ان هذا الجزء المبنى على مصادفة غريبة هو الذى جعلنا نتردد فى قبوله ، ولكن لا شىء سوى هذه المصادفة يجعلنا نتقبل النهاية المبنية عليها) ٠

تقول الزوجة : لقد وقع الحادث بجوار بناية كبيرة كان يعمل فيها « الوجه الذى لا يتغير » باعداد كبيرة ، وكانت شاحنة ضخمة تحمل شكائر الأسمنت الى هذه البناية هى التى صدمت سيارة الدكتور وحطمتها تماما ثم تضيف الزوجة : « فى فترة العلاج التى لزم فيها الدكتور « م ، م ، م » سرير المستشفى ، حلم أنه مات فى حادث السيارة ، وأن أحدا لم يتقدم لاخراج جثته من السيارة المحطمة ، لقد هرب سائق الشاحنة بعد الحادث متخليا عن كل مسئولية ٠ وكان ما يخافه الدكتور وهو ميت فى هذا الخلاء ، أن بعض الوحوش قد تجىء وتمزق جثته ٠٠٠ لقد ظل يقتله الخوف خلال موته حتى ظهر الوجه الذى لا يتغير ٠٠٠ بأعداده الكبيرة فى المكان الخالى ٠٠٠ وحملوه الى مقبرة حفروها بفئوسهم التى تختلف عن فئوس الفلاحين فى قريته ، ثم دفنوه فيها ، ووقفوا على حافة المقبرة ليهيلوا فوقه التراب بنفس الفئوس ، وآنذاك استيقظ الدكتور

« م . م . م » من الموت صارخا ، ليروى الحلم المفزع لزوجته ..
ثم يقول بصوت متقطع آخر كلمات نطق بها ـ لم أكن أتصور أنه يخفى وراء وجهه المسالم كل هذا العنف ! ثم تقول الزوجة : ان زوجها لا يزال يعيش ولكنه عازف عن أى كلام !



كلمة اخيـرة

اننا ننقل هذه الرواية على مسئولية رواتها نقلا عن الزوجة وعلى مسئوليتها ، ويضيف هؤلاء الرواة : أنهم أوجدوا عملا لهذه الزوجة تقديرا لخدمات زوجها ولتتحمل مسئولية حياتها وحياة البنتين ! وهذا هو السبب فى عدم عودتها الى بلدها !

ملحوظة أخيرة :

سوف نعيد كتابة النهاية لهذه اللمحات من حيـاة السـيد « م ، م ، م » فى ضوء أية حقائق جديدة يمكن أن تظهر !

الى من يهمهم الامر

كما ترى من العنوان هذه ليست قصة ، وقد يزعم بعض المغرضين أنها كذلك ، ورجائى ألا تصدقهم حتى يتبين لك الأمر ، ورجائى أن تصدقنى فى أنها مجرد « طلب » يمكن اذا أردت أن تضيف اليه صفة « عاجل » لمن يهمهم الأمر ، ومن فى يدهم القدرة على التنفيذ •

« طلب » ينتظر منك شيئا أكثر من مجرد قراءته ، ينتظر منك توقيعا بالعلم ، ورجاء بسرعة التنفيذ ، هذا طبعا بعد اقتناعك بما يجىء فيه •

أخشى أن الشك بدأ يتسرب اليك فى جدية هذا الأمر أو فى جدواه ، فأنت فى الغالب تعرف مصير مثل هذه الطلبات ، ويقينا أنه قد سبق لك أن وقعت العديد منها ، وانتظرت ـ دون جدوى ـ أن يهتم أحدهم بطلبك ، ولكن الأمر يختلف قليلا هذه المرة فنحن لن نتوجه بطلبنا هذا الى أحد من سادة البيروقراطية فى هذا العصر الذين تنحصر مواهبهم فى تعطيل مطالب البشر واحباط أمانيهم

الطبية ، بل نتوجه به الى سادة العصر الحقيقيين ، الى السـادة العلماء والمخترعين الذين أثبتوا دائما وفى كل الظروف أن انجازاتهم أكثر سرعة وقدرة من أحلام البشر ٠

وفى الحقيقة نحن لا نكتب اليهم لهذه الصفة وحدها ، وانما ــ وهذا ما أعتقد أنك سوف توافق عليه بعد الالمام بهذا الطلب ــ لأنهم هم الذين تسببوا ــ بحسن نية طبعا ــ فى حدوث هذه المشكلة التى يتضمنها هذا الطلب ٠

كان يجب منذ البداية أن أعرفك بنفسى وبالمشكلة ، وبالنسبة للأمر الأول فأظن أنه يكفى جدا أن تعلم أننى واحد من العاملين فى الدولة ، أية دولة ؟ لا يهم ٠ فكل الدول فى عصرنا هذا ترفع نفس الشعارات ٠

هل هناك دولة لا تزعم أنها تسعى جاهدة لكى توفر لرعاياها كل فرص السعادة ؟

هـل هناك دولة لا تزعم أن توفير هـذه الفرص رهن بتوفير الحرية والكفاية والعدالة ؟

هل هناك دولة لا تزعم أن العمل الجماعى المنظم الذى يعتمد الأسلوب العلمى تفكيرا وتطبيقا هو الطريق الصحيح لتوفير الحرية والكفاية والعدالة ؟

وبالتالى فما معنى أن أحدد الدولة ما دامت كل الدول تعلن نفس الأهداف لدرجة تجعلك تدهش لأمر واحد هو اصرارها رغم ذلك على أن تعيش كل دولة داخـل حدودها فقط ، واستعدادها للدفاع حتى الموت عن هذه الحدود لو مستها دولة مجاورة ٠

أظنك توافقنى على أن أبدأ بتحديد المشكلة ؟

والمشكلة ببساطة تبدأ مع تطبيق الهدف الثالث المشار اليه سابقا ۰۰۰ أعنى حرص الدولة على العمل الجماعى المنظم فالدولة التى أنتمى اليها توقظ كل العاملين من أبنائها فى تمام الساعة السادسة ليكونوا فى أماكن عملهم فى تمام الساعة السابعة والنصف تقريبا ، وفى الحقيقة أن الدولة لا توقظهم بالمعنى الحرفى لهذا التعبير ، فهذا أمر بالغ الصعوبة من الناحية العملية ، ولكنها تترك لهم حرية اختيار الطريقة التى بها يستيقظون ، انها تكتفى بأن تحاسب من يتأخر منهم عن موعد حضوره فى السابعة والنصف بشكل يجعله يفكر جديا فى الطريقة التى يكون بها فى أعلى درجات اليقظة فى تمام الساعة السادسة ۰

لم أكن أدرك بهذا القدر من الوضوح ، قبل أن أصبح واحدا من العاملين فى الدولة ، أن الساعة السادسة هذه تأتى مبكرة جدا فى فصل الشتاء ، وخاصة فى لياليه الباردة ، وبعد أن عرفت هذه الحقيقة بالوضوح اللازم أيقنت أنه من الخطأ بل ومن الخطر أن أعتمد على تقديرى الذاتى للوقت ، واحساسى العام بضوء النهار أو حركة الحياة فى الشارع لاستيقظ فى الوقت المناسب فالواقع أنه حتى الطيور فى دولتنا لا يمكن الوثوق أو الاعتماد على تغريدها فى الوقت الملائم ۰

وكان لابد أن ألجأ الى من يهمهم الأمر فى عصر العلم والتكنولوجيا لمساعدتى فى الخروج من هذا المأزق ، وكانوا ـ كما سبق أن المحت ـ عند حسن ظنى ، لقد أمدونى بذلك « المنبه » العجيب الذى يدق فى الوقت المناسب جرسا ناعما يتموج صوته فى درجات تعلو وتهبط ، ولا يصمت الا بعد أن أكون قد استيقظت تماما ، وجلست فى السرير مدركا لحدودى وأبعادى متذكرا اسمى ووظيفتى ، مبصرا أهم معالم الحجرة ، عارفا بما يجب على أن أفعله بعد ذلك ۰

ومرت أيام كثيرة قبل أن ألتفت الى هذه الحقيقة الغريبة ، حقيقة أن المنبه لم يعد يوقظنى ـ وللأمانة التاريخية أسجل أننى فى خلال هذه الأيام الكثيرة كنت خلال أحاديثى الخاصة أشيد بفضل المنبه العجيب ، وأحرص على أن أقدمه للضيوف منوها بميزاته الفريدة ، ولكننى سرعان ما أقلعت عن هذه العادة السيئة بعد أن اكتشفت ـ وقد كان ينبغى أن أعرف ذلك من نفسى ـ أن جميع الضيوف والأصدقاء لديهم تقريبا نفس المنبه الذى لم يعد عجيبا ، ما الذى كنت أقوله قبل ذلك ؟

أجل كنت أقول ان المنبه لم يعد يوقظنى ، نعم بدأت أدرك أننى أستيقظ وحدى فى الموعد الذى دربنى عليه المنبه جيدا ، ومدركا لكون المنبه العجيب لا يزال يدق بجوارى دقاته الرتيبة أستيقظ وحدى وأظل أتقلب فى الفراش مدركا لحدودى وأبعادى العادية ثم تجىء الساعة السادسة عادة بعد أن أكون قد صحوت تماما فيرسل جرسه المتموج الذى كنت أستيقظ عليه ، ويصبح دورى بعد ذلك أن أمد يدى لأسكت صوت الجرس ٠

فى البداية بدا لى الأمر كمزحة ، ثم بدأت أشعر به كخدعة ثقيلة أن يصبح دورى هو أن أصحو كل صباح لأسكت صوت المنبه الذى يصر على أن يدق فى نفس الموعد ، وكأننى لازلت فى أمس الحاجة اليه ٠

وفى الحقيقة اننى مدرب منذ وقت بعيد على طرد مثل هذه الأفكار المزعجة فسرعان ما طردت هذه الفكرة السخيفة وأعنى بها فكرة الخداع هذه عن رأسى بعد أن رددتها الى أصولها العميقة الكامنة فى ميل الجنس البشرى الى الجحود والنكران ، صحيح أننى

لم أعد فى حاجة الى أى منبه ، وأن المنبه هو الذى فى حاجة الى لأسكته فى الوقت المناسب ، ولكنى لا يجب أن أنسى بأية حـال أنه هو الذى قام بزرع منبه آخر ٠٠ يدق فى داخلى دون صـوت ، ويجعلنى أصحو قبل الوقت المناسب من تلقاء نفسى فلماذا ننسى فضل ذوى الفضل فى أول لحظة لا نحتاج فيها الى فضلهم ٠

وهكذا نجحت فى أن أعيد علاقتى «بالمنبه» ـ الذى لم أعد فى حاجة اليه ـ الى اطارها الصحيح الذى ينبغى أن يقوم بين الانسان والآلة حين يصبح الانسان نفسه من بعض نواحيه نوعا من الآلة ، أعنى حين تصبح له فضائلها الأثيرة كالدقة والنظام والانضباط ، وقد كان حريا بالأمور أن تمضى بينى وبين منبهى العزيز على هذا النحو الموضوعى الهادىء لولا أن تدخلت أيـام الجمع والأعياد والعطلات الطارئة لتفسد هذه العلاقة ٠

أعتقد أننا قد وصلنا الآن الى النقطة الحاسمة فى المشكلة واذا كنتم مثلى من العاملين فى أية دولة من هذه الدول التى تأخذ مأخذ الجد البند الثالث من الأهداف السابقة فأغلب الظن أنكم سـوف تفهموننى جيدا ولن تبخلوا بتوقيعكم على هذا الطلب وعند نهايته ٠

فى أيام العطـلات وبالتحديد فى أيام الجمـع التى ننتظرها جميعا بفارغ الصبر خاصة فى أيام الشتاء لتنعم بدفء الفراش ، وبمتعة أن يبقى الانسان نائما على راحته ، مسلما نفسه للأحـلام ولهذه الرؤى التى لا تدرى هل تنتمى الى النوم أم الى اليقظة ٠

بمتعة أن ترى على مهل هذه اللحظة السحرية التى يفقد فيها العالم كثافته ، ويصبح أكثر رقة وعذوبة وسيولة ، اللحظة التى تذكر فيها بلا مناسبة أشياء مرت منذ عشرات السنين ، ووجوها لم تعد تلقى أصحابها ، وتسمع رنين ضحكات يعجز الزمن عن أن يسكت أصداءها فى نفسك ٠

هذه اللحظة التى يتنقل فيها الانسان بين مملكة اليقظة ومملكة النوم دون أن يدرك أن ثمة حدودا فاصلة ، ودون أن يطلب منه احد ان يبرز هويته ٠

هذه اللحظة التى تتلاشى فيها حدود الزمان والمكان ، وتسقط كل الأقنعة ، ويضحك الأطفـــال وعيونهم مغلقة وقـد يبكى الملوك ورؤساء الجند ، وتتذكر وعدا لم تف به منذ أعوام ، وينسى الرجال الشجعان أنهم كذلك ، وينادون أمهاتهم اللواتى مضت على موتهن عشرات السنين ٠

هذه اللحظة التى عاشت فى كل العصور الماضية ، دون أن يطلق عليها الرصاص ، ولم يصدر ضدها حكم واحد فى كل محاكم التفتيش والتى تسعى لكى تبقى فى عروق المستقبل كما يبقى نسغ الحياة فى أوراق الشجرة وجذورها ٠

هذه اللحظة التى تلتقى بها مرة كل أسبوع هى ما أسعى أيها السادة الى انقاذه بعد أن تبين لى ذات صباح يوم من أيام الجمع ان المنبه الذى كان أثيرا قد تسبب ـ ربما بلا قصــد ـ فى اصــابتها اصابة توشك أن تفضى الى الموت ، ودعونى أشرح لكم الأمر ٠

أعرف أنكم جميعا فى مساء كل خميس لا تنسوا أن تضغطوا على زر صغير فى منبهاتكم حتى لا يدق الجرس فى موعده كل صباح وحتى تلتقوا بلحظتكم الغالية فى صباح الجمعة ٠

ومثلكم أيها السادة فعلت نفس الشىء ، وأعتقد أنكم مثلى بدأتم تكتشفون حقيقة الجريمة فى صباح كل جمعة ، الجريمة التى يبدو « المنبه » ـ الذى كان عجيبا ـ بريئا منها براءة الذئب من دم يوسف ، صحيح كان لا عجب لدق جرسه المتموج ، ولكن المنبـــه الآخر الحقيقى لا يزال يدق فى موعده ، يدق بداخلنا دون أن يملك أحد أن يمد يده الى مكانه فى عقولنا ليبطل مفعوله أو ليوقف جرسه الذى يعــلو ويهبط ٠

جميعكم أيها السادة تمرون دون شك بهذه التجربة لو أنكم تعملون فى دولة من هذه الدول التى تنعم ببركات العصر التكنولوجى وتعنى بصفة خاصة بتنفيذ البند الثالث ٠

جميعكم دون شك تستيقظون مثلى على درجات مثل درجات السلم الحقيقى أو الموسيقى ، وفوق احدى درجات التذكر تذكرون أن اليوم هو يوم الجمعة ، ولكن ذلك يحدث عادة بعد فوات الأوان ، بعد أن تكون اليقظة الحادة اللعينة التى يحدثها المنبه الداخلى قد غرست أنيابها فى جسد اللحظة الناعمة الغضة ، بعد أن تكون قد قتلها قتلا ومضت بنا بعيدا خارج اطار القدرة على أن نعود الى تلك الأرض السحرية التى تتلاشى فيها الحدود بين اليقظة والنوم ٠

اننى أيها السا ةداحمل المنبه ـ الذى يبـدو بريئا ـ كل المسئولية واحملها لكل الدول التى تعنى عناية خاصة بالبند الثالث٠

واعرف أن بعض المغرضين ، أولئك الذين سـبق لهم أن زعموا أن هذا الطلب الجاد جدا والعاجل كذلك مجرد قصة هازلة أعرف أنهم سوف يأخذون الأمر مأخذ السخرية ٠

وقد يقولون : فى الوقت الذى تمر فيه دولنا بأقسى الأزمات ويقتل المئات بلا معنى ، يأتى رجل غير مسئول ويطالب بانقاذ لحظة الحلم ، ويروى لنا بعض الفكاهات التى تنقصها الفكاهة عن المنبه ٠

اننى أيها السادة أرجوكم ألا تلتفتوا كثيرا الى هؤلاء المغرضين فهم موجودون دائما فى كل زمان ومكان ولن ينجح أعظم المخترعين فى القضاء عليهم ٠

وفى نفس الوقت فاننى أنبه ـ دون منبه ـ الى خطورة المسألة التى يتضمنها هذا الطلب ، ولست أدرى كيف يمكن أن تكون صورة الانسانية لو أن هذه اللحظة السـحرية قد ماتت فى حـاضرها أو مستقبلها ٠

وأؤكد لكم أننى لا أهزل لو زعمت أنه ربما كانت كل هـذه الأزمات الحادة التى يهتم بها المغرضون الذين ألحت اليهم سببها ذلك العدد الكبير من المنبهات الذى استشرى فى العالم منذ وقت ليس بالقصير ٠

اذا اقتنعتم معى أيها السادة بجدية الأمر وخطورته فأظنكم توافقوننى على أن نتوجه بمطلبنا هـذا مشفوعا بتوقيعاتكم الى المسئولين الحقيقيين عن هذا التهديد الخطير الى لحظة الحلم الذهبية الى سادة عصر التكنولوجيا أولئك الـذين اخترعوا المنبـه الأول العجيب ليخترعوا لنا منبها آخر مضـادا يجعلنا نتذكر فى الوقت المناسب اليوم يوم الجمعة دون أن توقظنا الذكـرى أو تأتى بعـد فوات الوقت ٠

انهم يخترعون الصاروخ المضاد للصاروخ فهل يعجزون عن اختراع منبه يجعلنا نتنبه دون أن يوقظنا الانتباه ٠

ان ثقتى كبيرة فى سادة هذا العصر ، وفى الحصـول على توقيعك الكريم لو لم تكن أنت نفسك واحدا من المغرضين ٠

(٣)

الجميع يربحون الجائزة

الحدود

حين قرأت الخبر لأول وهلة ، لم أصدق عينى ، وكأنما أردت أن أتأكـد من حقيقة ما وقعت عليـه عينـاى بقراءة النعى كاملا :
« انتقل الى جوار ربه « الحاج صالح الخضر » من أعيان « الزهايرة » والد رفعت المدرس بالتربية و ... » .

هو اذن « الحاج صالح » ولا أحد سواه ، ولأول مرة تبدو لى حقيقة الموت غريبة . حين تتصل بالحاج « صالح الخضر » .

« عن عمر يناهز الثمانين » أية غرابة فى أن يموت رجل عن هذه السن ، ربما كانت الغرابة أنه حتى فى هذه السن لم يكن يلوح فى صورة العجوز الذى ينتظر النهاية ، فمنذ رأيته وأنا صبى أجرى فى شوارع القرية ، ثم وأنا طالب اذاكر أحيانا مع ولده « رفعت » ، ثم وأنا موظف أتنقل بين الأقاليم ، ولا أنسى حين أعود الى القـرية أن أزوره كواجب مقدس . فى كل هذه المراحل كان عمى « الحاج صالح الخضر » يبدو دائما كما هو ، ملامح وجهه البارزة الهادئة المتباعدة ، خطواته الثابتة لاتسرع ولا تبطىء ، الشعرات البيضاء

فى رأسه ولحيته كأنها لاتزيد ولاتنقص · ومهما يكن الموقف فلا شيء يجعل كلماته الرصينة تخرج عن وقارها ، عيناه : واحدة مفتوحة بحدة ، والأخرى نصف مفتوحة ، كأن هناك دائما شيئا يجب أن يخفيه عن الناس ·

عمى « الخضر هــذا قد أصبح جزءا من قريتنا كالترعة التى تمر بها ، وكمئذنة المسجد ، التى تلوح من بعيد · لا أحد يجهله ، كما لايجهل هو شيئا يمكن أن يقع فى الزهايرة ، فهو « مســاح » يقيس الأرض لمن يبيع ويشترى ليعين حدودها ، وامام للصــلاة ، ومأذون يزوج ويطلق · وكان تاجرا لبعض الوقت ، تنتهى عنــده المشاكل والمنازعات ، وتبدأ منه مشاريع الاصلاح ، بنى مع الناس أول مدرسة ، وجدد المسجد القديم وأقام مئذنته ، وهاهو أخيرا يموت كما يموت كل الناس · فكيف يصدق المرء فى سهولة أن تبقى قريتنا بدون الحاج صالح الخضر ؟

« الموت حق » · قلتها لنفسى وأنا أطوى الصحيفة التى نشرت نعيه ، فى مناسبة كهــذه لابد أن أعود الى قريتى لأعــزى ، وأتلقى العزاء ، « فالحاج صالح الخضر » أبو القرية كلها ، لابد أن نكون جميعا فى وداعه ، ربما لا ألحق بمراسم الدفن ، لكن حسبى أن ألحق بمراسم العزاء ·

فى طريقى الى القرية ، كانت المشاهد القديمة تتراءى لعينى ، والتاكسى يمرق بين الحقول على الطـريق الزراعى ، فى أى شيء تختلف حقول القمح عن مثيلاتها فى العام الماضى ؟ باعة البرتقال ، وسائقو الشاحنات الضخمة ·· يغطون رؤوســـهم بنفس الطواقى الصوفية التى تلتف حول الرأس والعنق ، وقطعان الماشـــية التى تسبقها أو تركض خلفها الكلاب الأليفة فى الريف ·

فى الريف تبدو الدنيا ثابتة الملامح ، وهكذا كان الحـــاج صالح الخضر تتجمع فى ملامح وجهه وشخصيته روح ذلك الريف

الهادىء الساكن ، فى طفولتى كان يأسرنى ذلك الهدوء وتلك الوداعة التى تشمل كل شىء ، النبــات ينمو فى هــدوء لايكاد أحــد يشعر بحركته ، الماشية تسير فى بطء ، وتمضغ طعامها بنفس البطء وحين يحكى الناس نفس القصة ، فانهم يتوقفون عند نفس المقاطع ، وتألف ملامح الوجه انطباعاتها التى ربما تتأثر بالوقت وبالمكان ، فهى فى الصباح غيرها فى المساء أو فى الظهيرة ، وفى أوقات العمل غيرها فى أوقات الراحة على المصاطب ، أو فوق أكوام القش المتكومة فى الأجران ٠

لاتتأثر هذه الملامح كثيرا بالموضوع الذى ترويه ، فالموضوع فى حياة القرية ثابت لا جديد فيه ، الأغنياء أغنياء ، والفقراء فقراء ، والأرض تزرع بنفس الطريقة منذ آلاف السنين ، « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » ، ولم يكن هناك مايثير طفولتى سوى شغفى بأن أعرف من أين تأتى تلك اللحظات التى يتبدد فيها ذلك الهــدوء ، وتختفى تلك الوداعة ؟ ليتحول ذلك الشعور العميـق بالسلام والأمان الى صرخة فزع يتجمع حولها الرجال والنســاء والأحزان ٠

كان هذا الشغف هو الذى قاد خطـــاى الى عمى الحــاج صالح الخضر ، لكن قبل أن التقى به كنت أبحث بنفسى ، فى حدود قدرتى على أن أرى وأفهم ٠ فى البداية كنت أعتقد أن هذه اللحظات تأتى من المواقف التى يتجمع فيها الناس خارج اطار العمل ، فى الأعراس والموالد ، حيث يختلط الصغار بالكبار ، والنساء بالرجال ، حيث لايمكن لأحد أن يعرف على وجه اليقين من فعل ماذا ؟

فى مثل هذه المواقف التى كان يخافها الناس بقدر مايحبونها ، غالبا ماكان يحدث الشجار ، وتنطلق صرخة الفزع التى تبدد الهدوء والوداعة ٠

وعمرهم ماعرفوا الأسباب الحقيقية لما يحدث من شجار فى مثل هــذه المواقف ، لكنه لايكاد يحدث حتى ترى هــؤلاء الودعاء الطيبين ، وقــد انفلت زمامهم ، وخـــرج من أعماقهم ذلك الوحش الكامن ، وانطلق ليطارد فريسة كانت طول الوقت بجواره دون أن يفكر فى العدوان عليها ، وفى مثل هذه المناسبات قد يصيب الوحش الغاضب من لايريد ولايقصد ، ويبدو كأنه يخطىء دائمــا هــدفه ، حتى ولو كان يعرفه · ودائما كانت تبدو المسافة شاسعة بين الأسباب الظاهرة للشجار ، والنتائج البشعة ·

كنت فى حاجة الى سنوات أكثر قبل أن أعرف أنه توجد هناك مواقف أخرى تأتى منها هذه اللحظات الحافلة بالعنف الحقيقى الذى لايخطىء هدفه ، وأن بطل هذه المواقف هو ذلك الرجل ذو الملامح الهادئة والصوت الرصين عمى « الحاج صالح الخضر » ·

كانت الصرخة فى هذه المرات تأتى من بعيد ، من قلب الحقول أو من أى مكان يوضع فيه الأساس لبناء جديد · حيث يقف الحاج صالح الخضر بين الرجال ، يدق مساميره الحديدية التى تشد اليها خيوط الدوبارة القوية ، وتمتد مع القصبة الضخمة التى تقيس حدود الأرض حين تنتقل ملكيتها من شخص لآخر · وغالبا مايكتشف مالك الأرض الجديدة أن الحدود بين أرضه وأرض الجيران قد تداخلت ، هنا أو هناك ، وأن أحدهم قد انتزع الحديد الذى تدقه « المساحة » ليفصل بين الأراضى المتجاورة · ويكون من الصعب على المالك القديم أن يصدق أنه كان طــول الوقت يزرع أو يبنى فى غير أرضــه ، وعلى المالك الجديد أن يتنازل عن شبر واحد أثبت قياس الحاج صالح الخضر الذى لايخطىء أنه من حقه ·

هنا كان يتفجر عنف حقيقى لاتجدى فيه حكمة الرجال ، عنف صاخب هادر لاينتظر لحظة واحدة حتى تأتى الحكومة لتعطى لكل

ذى حق حقه ، عنف لا تنفع فيه شفاعة شافع ، ولا تخفف منه قرابة أو صداقة ٠

وما كان يحيرنى بحق هو ذلك الهدوء القاسى الذى لايفارق وجه « الحاج صالح الخضر » وهو يرى هذا العنف ، كأنه مسلم به مقتنع بضرورته . يذهب الى عمله متوقعا أن المخاطر قد تكون فى انتظاره ، دون تردد يقوم بعمله ، بهدوء وأناة وأمانة يعلن نتيجته على الملأ ، وهو يدرك أنه قد يفجر كارثة بكلماته ، يحدث ما يحدث ، يموت من يموت ، يجرح من يجرح ، ويشارك الحاج « صالح الخضر » فى فض النزاع أو تخفيف الكارثة ، ولكن موقفه من فض هذا النوع من النزاع يختلف عن موقفه فى فض المنازعات الأخرى ٠

فهو هنا يبدو كأنه مسلم بضرورة مايقع ، لايملك سوى تخفيف الكارثة ، أو اقناع الأطراف بالانتظار حتى تأتى سلطة الحكومة لاقرار الحق ، لكنه فى المنازعات الأخرى كان يتصرف باقتدار وحكمة ، وكأنه على ثقة من قدرته على اقناع كل الأطراف بما يريد ٠

لم يخرج عن هدوئه القاسى الا فى ذلك اليوم المشئوم الذى قتل فيه « محروس المداح » ٠ ذلك أن محروس المداح كان أحـــد الأجراء الذين لا يملكون سوى عرقهم ، يعمل فى الحقول باليوم أو بالشهر فى بيت صاحب الأرض التى يزرع فيها ، ينام فوق السطح صيفا ، وفى مخزن الأعلاف شتاء ، لا بيت له ولا زوجة ، مقطوع من شجرة كل ما يمتلكه هو فأسه ، « ودف » ينقر عليه بأصابعه وهو يغنى فى الأعراس والموالد ، « وحلم بأن يكون له بيت صغير يتزوج فيه » ، وحين يريد أحد ليغنى له فى عرس أو مولد يأتى له فى بيتـه واذا سأل عنه أحـد من القــرى المجاورة وجد من يدله على بيته ، ويقــول له :

ــ هاهو بيت محروس المداح ٠

وكان أن وضع محروس المداح قرشا فوق قرش ليصبح له بيت مثل كل الناس ، وأحيانا كان يجد من يقول له ساخرا :

ـ سوف ينتهى عمرك يامحروس قبل أن تجمع ثمن البيت ·

فكان يرد ضاحكا :

ـ على الأقل سيكون معى ما أشترى به مقبرة لايدفن فيها غيـرى ·

كان محروس وديعا مرحا ، ورغم قسوة الحياة التى عاشها، لم يسمع منه أحد كلمة تنم عن كراهية أو حقد أو شكوى ، وفوجىء الحاج صالح الخضر ذات صباح بمحروس يدق باب بيته :

ـ أهلا يا محروس ·· خير يابنى ·· ؟

ـ اشتريت قطعة أرض صغيرة · نصف قيراط ، أريدك أن تقيســـها لى ·

ـ أين ؟

ـ فى الخرابة الواقعة خلف منزل «الشناوى» ·

ـ مبروك يا محروس ··

قالها « الحاج صالح الخضر » بشكل آلى ولكنه تابع بلهجة قلقة كمن تذكر شيئا ·

ـ ألم تجد غيرها ؟ لماذا هذه القطعة من الأرض ؟

ـ هى وحدها ما يناسبنى · فلا أحد يريد شراءها · وثمنها هو ما أقدر عليــه ·

ـ والشــــناوى ··؟

قالها بنفس النبرة القلقة ·

ـ عرضها عليه أصحابها باعتباره أولى بها ، ولكنه رفض شراءها ·

ـ ووافق على أن تشتريها أنت ؟

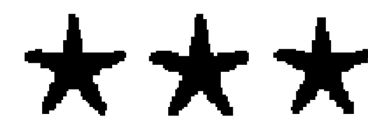
ـ نعـــم ٠

ـ هل أنت متــأكد ؟

ـ تعــال معى وسترى بنفسك ٠

ـ يفعل الله ما يشاء يابنى ٠

قالها الحاج صالح وهو يجمع أدوات القياس ويمضى معه ٠



كنت واحدا من الذين تجمعوا حول «الحاج صالح الخضر» فى ذلك اليوم المشئوم ، وهو يقيس الأرض الخراب الكائنـــة خلف منزل «الشناوى» ، لأول مرة لا يعلن الحاج صالح نتيجة القياس على الملأ ٠ وهمس فى أذن محروس المداح بما لم يسمعه أحد ، لأول مرة عجــزت ملامح وجــه الحــاج صالح عن أن تحتفظ بهدوئها القــاسى ٠

ســمع النــاس صوت « محروس المداح » وهو يقول بصوت مرتفــع :

ـ هذه أرضى ٠ دفعت ثمنها كاملا ، ولابد أن أتســـلمها كامــلة ٠

عاد الحاج صالح يهمس فى أذن محــروس بما لم يســمعه أحــد ، وعلامات القلق تزداد وضــوحا على وجهه :

وعاد محــروس يصرخ :

ـ كان من حقه أن يشتريها ، فلماذا رفض ؟

آنذاك استرد وجه الحاج صالح هدوءه القاسي ، وأعلن على الملأ أن الجدار الغربي لزريبة المواشي التي يمتلكها « الشناوي » يقع في جـزء من الأرض التي اشتراها محـروس المداح ، وأنه لابد من هدم ذلك الجدار ، ليأخذ محروس أرضه كاملة ٠

آنذاك تقدم الشناوي وأولاده من حوله ، وقال بصوت خشن مخاطبا الحاج « صالح الخضر » :

ـ أنا مستعد أن أدفع ثمن هذا الجزء لمحروس ، ولكن لن أهدم جدارا بنيتـه ٠

قال الحاج صالح الخضر :

ـ ليس هذا عدلا ، فمـا يتبقى من الأرض لا يصلح لبنـاء حجرة بمنافعها ، اما أن تشتريها كلها ، وقد تنازلت عن هذا الحق أو تتركها كلها لتصلح للبناء ٠

ـ لن أشتريها كلها ولن أترك الجـزء الذي بنيت فيه ٠

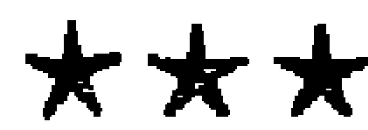
قالها بلهجة حاسـمة منذرة ، ورأى النـاس في لهجـة « الشناوي » بداية شر كبير ، وأحسوا أنه يتكلم بلغة المستخف بقدرة محروس المداح على أن يحمي حقه ، وتمنوا جميعا في صمت لـو تراجع محـروس عن شراء هذه الخرابة المشئومة التي لم يفكر أحد غيره في شرائها ، وربما لأنهـم يعـرفون أن الشـناوي وأولاده طامعـون فيها ٠

وتطلعت كل العيون الى محروس المداح ، المقطوع من شجرة، الذي لا يملك غير فأسه ودفه ، ترجوه في صمت أن يتراجع عن هذه الصفقة اللعينة ، أول صفقة عقـدها في حيـاته ، وحتى لا تكون الأخيرة ٠

لا أحـد يدرى كيف أحس « محـروس المـداح » بهـذه العيـون ·

لا أحد يعرف فيمـا كان يفكر ، ولكن الصمت الذى خيـم على الجميع ، والانتظار الأليم وضعاه لأول مرة فى حيـاته فى موقف ، ربما لم يتخيل يوما أن يجد نفسه فيه حين كان يغنى فى الموالد والأعراس · كان يعرف مثل هـذه اللحظات الصامتة · وكانت العيون كلها تنظر اليه ، وتنتظر أن يغنى ، وأبدا لم يخب رجاء هذه العيون المتطلعة المنتظرة ·

فى هذه المرة لم يطل انتظـار النـاس ، تكورت يده عـلى مقبض فأسه ، كما تعودت أن تتكور حين كان يعمل فى الحقـول ، وارتفع الفأس فى يده لينقض على الجدار الغربى لزريبة الشناوى · وفى لحظة كالبرق ارتفعت فئوس كثيرة ، ربما كان وحده الـذى يراها فى يد أولاد الشناوى ، ولكنها لم تمنعه من أن يفعل ما فعل· ودوت صرخة الفزع اللعينة فى سماء القرية ·



بعد أيام من ذلك الحادث المشئوم بدأت علاقتى بعمى «الحاج صالح الخضر» · سألته :

ـ لماذا تركتهم يقتلون محروس المداح ؟

ـ هو الذى قتل نفسه ·

ـ كيـف ؟

وحكى لى ما جرى بينه وبين محروس ، حتى رجاءه الهامس له بأن يتخلى عن هذه الصفقة اللعينة ولكنه رفض ·

سـألته :

ـ هل كان يعـرف أنهم يمكن أن يقتلوه ؟

ـ ربما تأكد من ذلك ، فى وقت لم يعـد بمقـدوره فيه أن يتـراجع ٠

ـ كان يمكن أن ينتظر حتى تأتى الحكومة وتعطيه حقه ٠

ـ يا بنى ٠ رؤية الانسان للظلم تفقده أحيانا صوابه ٠

ـ يا عمى الحاج صالح ٠ عن أى ظلم تتحدث ؟ هل تعتقـد أن هذه هى أول مرة يظلم فيها « محروس المداح » ؟ هل تعتقد أنه أخذ حقه فى أى يوم مضى ؟ لماذا قبل الظلم طول حياته ، وثار فى هذه المرة وهو يعلم أنه قد يدفع حيـاته ثمنا لهذه الثورة ٠

لأول مرة رأيت ابتسامة حزينة ترتسم على ملامح وجهـه البارزة المتباعدة ، وقال :

ـ كبرت يابنى ٠

ثم اسـتطرد وقد عادت الى ملامح وجهـه تلك الصرامة الهـادئة :

ـ ان الظلم وحده لا يكفى ٠ حين يكون الظلم عاما وشاملا حين يصبح مألوفا كالتقاليد ، حين لا تعـرف له سببا واحدا أو مصدرا واحدا ، حين لا يكون مجسدا فى شىء ترى حـدوده وتعرف أوله وآخره ، حين لا يكون هناك من يرى ومن يسمع ، فان الناس يحتملون الظلم يابنى ، ولكن فى لحظة كهذه اللحظة التعسة، حين نقيس الحدود يكون كل شىء واضحا ذلك الوضوح الأليم ، ويتواجه الظالم والمظلوم فى لقـاء يزيد من تعاسته وجـود من يتفرج على هذه المواجهة ، انها لحظة لا يحتملها أحد ولا يقدر على انقاذ الانسان منها سوى أن يموت ، أو يموت ظالمه ٠

ثم تمتم فى صوت مخنـــوق :

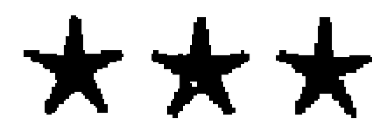
ــ لقد تعبت من هذه المهنة يابنى · ولابد أن أتركها لغيرى ·

يومها لم أجد بنفسى أية رغبة فى أن أثقل عليه بالأسئلة ، لكن صداقتنا الحقيقية بدأت منذ ذلك اليوم ، واستمرت حتى اليوم الذى قرأت فيه نعيـــه ·

كنت أسأله دائما عن كل ما لا أفهم من شئون القرية ، فقط خجلت من أن أسأله عن السبب فى أنه لم يترك مهنته القاسـية كما قال لى بعد مقتل « محروس المداح » ، دون أن يسكن يوما فى البيت الوحيد الذى امتلك أرضه ·

لقد ظل حتى آخر لحظة من حياته يقيس الأرض ، ويعــلن للناس الحقيقة التى قد تؤدى الى موتهم · وها هو أخيرا يمــوت دون أن أوجه اليه سؤالى الأخير ، ودون أن أتلقى منه اجـابة عليـــه ·

ولأول مرة يبــدو لى الموت أمرا غريباً حين يتصل بالحـــاج صالح الخضر ، ويبدو لى أكثر غرابة حين يأتى هكذا دون سبب واضح كالدفاع عن حق مغتصب ؟



من بعيد كانت القرية تقترب · مئذنة المســـجد التى بناها الحاج صالح الخضر ، الترعة التى تمر بقرية الزهايرة ، الهدوء الخادع الذى يلف كل شىء ، وتوقعت أن أجد الحاج صالح الخضر

فى بيته كما تعودت فى كل مرة أزور فيها قريتى ، وقلت لنفسى : لن أنسى هذه المرة أن أوجه اليه سؤالى دون خجل · لماذا ظل حتى الآن يمارس مهنته · لماذا لم يكف عن اعـلان الحقيقة القاتلة ؟

توقفت السيارة أمـــام الخيمة التى يجلس فيها المعــزون « ورفعت » صديق طفولتى يستقبلنى أمام الخيمـــة ·

ـ البقية فى حيــاتك !

قلتها وأنا أشد على يد صديقى القديم ·

ـ أطال الله بقاءك !

سمعتها منه ومن كل المعزين الذين درت عليهم فى الخيمة !

ـ جئت فى الوقت المناسب ، سوف نتحرك بعد قليل للدفن !

بعد لحظات ، تحركت القرية فى صفوف غير منتظمة تتداخل وتتسع مع ضيق الشوارع واتساعها ، تردد فى خشوع أدعيتهـا المأثورة فى وداع أبنائها الى العالم الآخر ، ودائما كان هنـــاك من يتحدث فى أمور دنيــاه !!

داخل المسجد الكبير صلى بعض الناس صلاة الجنازة على الميت ، ثم بدأت القرية تسير فى اتجاه الهضبة التى توجد فوقها قرية الموتى · كانت هناك سحابة من الغبار تظلل الموكب ، وتتحرك بحركته ، وتختلط بها كلمات الناس ، وأحيانا تختفى ملامحهم ·

أمام المقبرة توقف الموكب ، وامتدت الأيدى تحمل الجثمـان الى مقره الأخير !

واستقر الجثمان فى مكانه من الأرض التى كان وحده يعرف أسرارها !

وارتفعت الأصوات :

ـ لا اله الا الله !

أحسست بنداوة الدموع فى عينى · كان الحـــاج صـالح الخضر قد غاب عن عينى كأنما بأسرع مما ينبغى ، كأنه هو الذى فعل ذلك ، وعلى طريقته فى حسم الأمور !

ولأول مرة يمضى وحده دون أنيحمل معه أدوات القيـاس التى كانت لا تفارقه ، لم يعد فى حاجة اليها ، فقرية الموتى التى لا تزيد ولا تنقص ، والتى يتجاور فيها أهل « الزهايرة » لأول مرة فى سلام أبدى ، الظالم والمظلوم · لا يحتاج أحد فيها أبدا ، الى أن يعرف حدود ما يحتاج اليه ، أو ما يستحقه !!

بطاقة شخصية لرجل مجهول الهوية

من رأى منكم هذا الرجل فليدلني على عنوانه ؟

أغلب الظن أننا جميعا قد رأيناه ، ليس يهم عدد المرات ، المهم أنه فى كل مرة قال كل واحد لنفسه : هذا رجل لا ينبغى أن نضيعه ، ان صداقته فى حد ذاتها مغنم كبير ·

ومع ذلك فيبدو أننا جميعا قد ضيعناه ، واذا كان هناك من لا يزال يحتفظ حتى بعنوانه فليدلنى عليه ·

انه لا ينتمى الى طبقة بعينها ـ ومهما يكن مفهوم الطبقة ـ تجده بين الأغنياء والفقراء ، تجده بين من تعلموا فى أرقى المدارس وبين من علمتهم الحقول والمصانع أو الحوانيت والشوارع ·

ومهما يكن دينه أو لهجته أو سحنته فانه فى جوهره لا يختلف ·

أعرف أنه سوف يصاب بالفزع أولئك الذين لا يروق لهم كثيرا أن يتحدث أحد عما هو جوهرى فى الانسان ·

ولست أريد أن أطمئنهم ، فكل ما أريد أن أجد أحدا يدلنى على صديقى الغائب ، ولن أتردد فى قبول نصيحتهم لو كانوا يملكون مثل هذه النصيحة ٠

أغلب الظن أنك قد التقيت به فى تلك الفترة الذهبية من حياتك التى كنت تهتم فيها بأن يكون لك ثروة من الأصدقاء ، قد كان له رأيه فى الصداقة والأصدقاء ، فالصديق عنده هو من تشعر بالحاجة اليه حين لا تكون فى حاجة معينة الى أحد معين ٠

ولست أنكر أننا كنا نتهمه بالمغالاة ، ولكن أحدا منا لم يكن يتصور أن يأتى يوم نفقد فيه حتى عنوانه ٠

كنا فى العادة نلتمس الأصدقاء فى مواقع الحاجة اليهم ، وحين كانت ثروتنا من هؤلاء الأصدقاء تتعاظم كان ذلك يعنى من بعض نواحيه أننا نملك الكثير من الحاجات ، ونملك الكثير من القدرة على اشباعها ، وكان ذلك من بعض الوجوه مثار اعتزاز الكثيرين منا ٠

ولكن أحدا منا ـ فى هذا العصر الذهبى من عصور الصداقة ـ لم يفقد يوما الشعور القوى بالحاجة اليه ، ولم يفقد يوما القدرة على التمييز بين نوعية هذه الحاجة ، وبين بقية الحاجات الأخرى التى تتعدد بتعدد الأصدقاء الآخرين ٠

كنا نذهب اليه حين تشبع الحاجات الأخرى المتعددة فى لحظة التوازن النادرة هذه ، كما نلتقى عنده لنكتشف دائما أن ثمة حاجة اليه من نوع رفيع ٠ يمكن أن نسميها حاجة الحاجات ٠

وهى حاجة لم تكن تكشف النقاب عن وجهها الا فى بيته يوم كان له بيت نعرف عنوانه ، كما نعرف الطريق اليه ٠

ربما كانت من نوع الحاجة الى المعرفة حين لا تخدم المعرفة غرضا بعينه ، ربما كانت من نوع الحاجة الى الحقيقة حين تصبح الحقيقة حقا لكل الناس ٠

ووقتها كنا ندرك أن لحظة التوازن التى تخيلنا أنها تقودنا الى بيته لم تكن قد جاءت أبدا قبـل قدومنا الى هذا البيت ، وأنها لا تتحقق لنا جميعا الا فيه ، والا بلقائنا معه ٠

ووقتها كنا ندرك أن الكثيرين من الأصدقاء أصبحوا لايرون بعضهم الا فى بيته ، وكان هذا الادراك القاسى دافعنا الى أن نحرص على زيارته ، لأن هذه الزيارة أصبحت فرصتنا الوحيدة لنلتقى معا، ونلتقى معه حول حاجة الحاجات ٠

متى كان ذلك ؟ والى متى استمر ذلك ؟ لم أعد أذكر تماما ، واذا كان بينكم من لا يزال يذكر فليذكرنى ٠

ولكنى أذكر رغم هذا كله أننا فى هذه المرحلة من حياتنا ، وفى قلب هذه الزيارات كنا نختلف معه ٠ كنا نختلف حول مفهومه للصداقة وللأصدقاء ، حول مفهومه للحاجات وأنواعها وأولوياتها٠ ومع الأيام أصبحنا ندرك فى وضوح أننا نمضى فى الطريق المعاكس لطريقه ، وأنه لهذا السبب يحدث الخلاف ، ويعمق ، وتتسـع المسافة باتساع المسير ٠

كنا نمضى فى طريق تعدد الحاجات ٠ وتعقد الحـاجات وتنوعها ، وكان يمضى فى طريق تبسيطها واختـزالها الى حاجة الحـاجات ٠

فى طريقنا كان يحدث الصراع والخلاف والاحتدام ، ويشتد التناقض ، وفى طريقـه كان يذوب الخـلاف ، ويتجرد الصراع ، وتوشك العناصر المختلفة أن تكون لوحة متناسـقة ، والأصـوات المتعددة والمتنوعة والمتدرجة أن تصبح سمفونية ٠

ولم يكن يخيفه خلافنا معه بقدر ماكان يخيفنا نحن ٠

كنا نشعر أن الخلاف فى الرأى والموقف والموقع سوف يؤدى الى خلاف فى السلوك ، وأن الخلاف فى السلوك سوف ينتهى الى صراع يحسم لحساب السلوك الأقوى والأنسب والأصلح والاكثر ملاءمة ٠

وتقريبا كان يتفق معنا فيما نراه ، ولكنه كان يختلف معنا فى موقفه من تلك الرؤية ، فهى لا تبعث الرعدة فى أوصاله ، وهى لاتدفعه الى أن يمتشق سيفه لحسم ذلك الصراع لحساب مايعتقد أنه الأصلح والأنسب ، فهو لا يملك أى نوع من السيوف أو الحراب ولايملك حتى الرغبة فى اقتنائها ٠

وحين كنا نقول له : سوف يمتشق السيف من يملكه ولو كان لايملك السلوك الأصح والأنسب ، فكيف تدافع عن سلوكك الذى تعتقد أنه الأكثر صوابا وملاءمة ؟

فكان يقول : أدافع عنه بثباتى عليه فى مواجهة الموت ٠

وكنا نقول له : لولا أننا نعرفك جيدا لاتهمناك بأنك تنتحل صفات القديسين والأنبياء ، ولكننا نحن البشر الضعاف والفانين الذين نكره الفشل ونخاف الموت ، سوف لانقصر لحظة فى الحاق الهزيمة بمن يريد هزيمتنا ، والموت بمن يريد قتلنا ٠

لحظتها كان يبتسم ، تلك كانت قدرته العظمى ، أنه يملك تلك الابتسامة المحبة العاشقة ، لا أثر فيها للمرارة ، أو الزهو ٠ وكان يقول : ما أبعد المسافة بين من يريد قتلك ، وبين من يقتلك ، وما أبعدها بين من يريد ومن لايقصر لحظة ، أنكم تصبحون أكثر سوءا من أعدائكم ٠

وكنا نقول له : من لايعرف كيف يعادى لايعرف كيف يصادق ، تلك هى الحياة ٠

وكان يقول : ما أبأسكم ، وأنتم تلتقطون موقفا من الحياة . فهما لهذا الموقف ، ثم تزعمون أنه هو الحياة ٠

وكان وهو ينطقها تلك الكلمة « ما أبأسكم » يبدو وكأنه عاشق متيم بنا جميعا ، ولم نكن فى تلك الأيام نختلف حول شعورنا جميعا بمحبته لنا ، وان كنا بدأنا نختلف فى محبتنا له ·

كنا عاجزين عن فهم موقفه ، والانسان عدو لما لايفهم ·

وتطوع بعضنا بادعاء فهمه ، قالوا : ان الحياة لاتحتمل هذه السلبية ، ولا تتحرك بها خطوة الى الأمام · ان الحياة اختيار موقف وسلوك مع أو ضد ، وهى فى النهاية معركة أردت أن تخوضها أو تنسحب منها ، وفى كل المعارك لاتحدد وحدك نوع السـلاح الذى تحارب به ، وفى كل المعـارك أنت غالب أو مغلوب ، وقد تنتهى المعركة بالتعادل فى بعض الأحيان ، ولكن هذا كله ليس الا تأجيلا لساعة الحسم التى لابد آتية ·

ومادامت الحدود بين الصواب والخطأ ليست مما يتفق بشأنه البشر ، ومادامت الحقيقة الشـاملة لاتظهر للناس جميعا بصـورة واحدة ، ومادام هناك من ينكرها ، فلا مفر من أن يمضى كل منا حتى النهاية ، وراء صوابه ، ووراء حقيقته ·

تلك هى حكمة التاريخ · أما صاحبكم فليس فيما يقوله أو يفعله سوى حكمة واحدة ، هى أنه يضع قنـاعا جديدا على وجـه قديم ، ولو وجد بعضكم الشجاعة ليمزق هذا القناع الذى يدعوه السلام والمحبة فسوف يطالعكم الوجه القبيح «للسلبية والانتهازية» ، فهو يريد باسم الانسانية أن يبقى صديقا للجميع ، وأن يبقى الجميع فى حاجة اليه ، فهو مع كل الفرقاء ، لأنه يزعم أن كلا منهم يملك جزءا من الحقيقة ، وجزءا من التجربة الانسانية التى لاتنقسم الا فى عقول البلهاء ·

ووجد بعضهم الشجاعة ليقول له ، لصاحبنا ، ما يعتقد أنه حقيقته · فزادت الابتسامة المحبة على شفتيه اتسـاعا ، وومضت عيناه ببريق غريب ، وهو يقول :

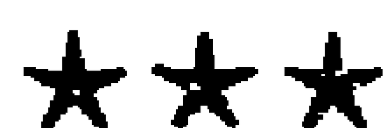
ـ ان الاختلاف بين البشر هو امتيازهم الوحيد على سائر المخلوقات ، وهو معنى حريتهم ، وهو مثل كل امتياز له مشكلاته ، واستخدام العنف فى حل هذه المشكلات هو محو للامتياز ، وليس محوا للمشكلات وهو فى النهاية اعدام للحرية ٠

قالوا له : لماذا تخشى كلمة « الاعدام » ؟ ان الحرية تنطوى على اعدامها ، وأنت دائما تفعل بحريتك شيئا ، وحين تختار بديلا من بين البدائل فأنت بهذا تعدم البدائل الأخرى ٠ ان العنف أمر واقع سواء أنكرته أم لا ، بالنسبة للحرية أم لغيرها ٠

قال لهم : اننى لا أعدم البدائل الأخرى ، ولكنى أتركها فى مكانها وحتى لو جاريتكم فى اعتبار ذلك اعداما لها ، فانه لاينبغى أن نعدم الحرية ذاتها ٠ حرية العدول عن البديل الذى اخترته اذا ماتبين لى خطأ اختيارى ٠

قالوا له : تلك ياصديقنا هى لعبتك المفضلة « اذا ماتبين لك » أليس هذا هو الشعار المفضل للانتهازية ؟ وحيث تهب الريح ، فانه يتبين لك الاتجاه الصحيح ٠

قال لهم : دون أن تلوح فى صوته نبرة غضب : أنتم الذين تقولون ذلك ؟ أنتم الذين تعرفون كيف أعمل ؟ وكيف أعيش ؟ وماذا أطعم فى غذائى وعشائى ؟ وماذا أمتلك ؟ اننى لا أخاف اتهام أحد ولا أخاف اتهامكم ، ولكنى أخاف عليكم تلك الراحة القاتلة التى تكمن فى أن نكون أحرارا مرة واحدة فى حياتنا ، أن نختار مرة واحدة ، أن نفكر مرة واحدة ، أن نلتمس القوة فى انتمائنا الى اختيار تعززه الجماعة ، فى اختيار سبق اختياره ، انها مسألة صعبة أن تفكر وحدك ، وأن تفكر دائما ، أصعب من كل عنف تتحدثون عنه ، وأصعب من كل ثمن تعتقدون أننى أهرب من دفعه ٠



منذ ذلك اليوم ساد بيننا اتفاق ملهم على ضرورة أن نتركه فى طريقه ، وأن نمضى فى طريقنا ، نختلف ونتحارب لحسم الخلاف ، وهكذا بدأت حربنا العظمى اتساقا بأن هذا هو ماتريده الحياة ٠ ماكان وماسيكون تلك هى القواعد الكبرى للعبة الحياة ، ومن يخرج على قواعد هذه اللعبة فلن يخدع الا نفسه ٠

تركناه يخدع نفسه ، وتفرقنا لحربنا الدائمة فى كل الميادين ، بكل الأسلحة ، كانت تلك هى الطريقة الوحيدة لاكتشاف الصواب القوى الواحد ، والحقيقة الواحدة التى تخرج من غمار التجارب الكبرى صافية وناصعة وقوية ، يرضى عنها أولئك الذين تثبت التجربة القاسية انهم أكثر صحة وأكثر ملاءمة ٠

الى متى استمرت هذه الحرب ؟ والى متى تستمر ؟ لاأذكـر الآن ، واذا كان هنـــا من يتذكر أو يملك جوابا بالنسبة للمستقبل فليذكرنى ، وليخبرنى به ٠

ولكننى أذكركم وأذكر نفسى بيـوم لا أنساه ، ولا أحب لـكم أن تنسوه ، يوم بدأنا فيه نخـــدع أنفسنا نحن الذين كنا قد تركناه ليخدع نفسه ، فى ذلك اليوم كان المنهزمون فى حربنا الكبرى هم الذين يذهبون اليه وحدهم ، ضحايا الحرب وجرحاها وقتلاها كانوا يفدون الى بيته ، لم يكونوا قد نسوا بعد طريقه ، ولم يكن هـو قد ترك هذا البيت ٠

وهناك كانت المفاجأة فى انتظارهم ، لم تكن المفاجأة أنهـم وجدوا بابه مفتـــوحا لا يزال ، ولا قلبه مرحبا لا يزال ، بل كانت المفاجأة أنهم وجدوا هناك أعداءهم المنتصرين ، وكان هو وحده القادر على أن يقـول لهم جميعا ما يعتقد أنه الصواب ٠

لم ترهبه قوة المنتصر ، ولا أضعفه بؤس المنهزمين ، وكان هـو وحده القادر على أن يرى تجربة الحرب بين الفرقاء من كل جوانبها .

ليس فقط كما يراها المنتصر أو المنهزم ، وكان هو وحده القادر على أن يرى تلك اللحظة التى تسبق الحرب ، والتى كان يمكن عندها أن تتحول الحرب من صراع بين سلاح وسلاح ، الى صراع بين فكر وفكر ، وبين ارادة وارادة ، وبين نظام ونظام ، وبين حق وحق ·

وكان هو القادر على أن يقول لهم : عند هذه اللحظة كان يجب أن تلتقوا جميعا بلا سيوف ، عند هذا الخيط كان يجب أن تتوقفوا ·

وقال المنهزمون : لم يكن هذا الخيط بمثل هذا الوضوح ولم تتوقف هذه اللحظة سوى لحظة ·

قال للمنهزمين : الذى أعماكم عن رؤيتها ورؤيته ، هو أنكم كنتم تريدون أن تحسموا الخلاف لصالحكم ، لتستريحوا بعد ذلك من الاختلاف ومن الحرية ·

ثم التفت الى المنتصرين قائلا : تعتقدون أنكم ظفرتم بهذه الراحة ، الى متى تعتقدون أن ذلك سيبقى لكم ؟

ـ طالما بقى فى أيدينا هذا السلاح ·

ـ بقاء هذا السلاح فى أيديكم دليل على أنكم لازلتم خائفين ، ودليل على أنكم تشكون فى أن انتصاركم يعنى انتصار صوابكم ، وانتصار حقيقتكم ·

ـ ممن نخاف ؟ ولماذا نشك فى حقيقة منتصرة ؟

ـ اسألوا أنفسكم ، واسألوها مرة ثانية · لماذا جئتم الى هنا ، الى بيتى ، رغم انتصاركم ؟

ـ لنؤكد لك أن النصر لا يفسدنا ، وأننا مستعدون لأن نفسح لك بيننا مكانا ، وأن الوقت لم يضع بالنسبة لك ·

ـ ولكننى لم أترك مكانى يوما لمنتصر قبلكم · ومرة ثانية واجهوا أنفسكم بهذا السؤال : ما حاجتكم الى ما دمتم تشعرون بالحاجة الى ما فى أيديكم من سلاح ؟ وحين تجدون الاجابة الصادقة فلن تكونوا فى حاجة الى وجودى بينكم لكى أكون معكم ·

★★★

كانت تلك آخر مرة أذكر أننى رأيته فيها ، ذلك الصديق الذى كنا نعتز بصداقته ، ونرى أنها فى حد ذاتها مغنم كبير · واذا كان هناك من يذكر بوضوح ما الذى جرى بعد ذلك فليذكرنى به ·

اذكر أننا كنا نتسلل الى بيته زرافات ووحدانا ، ولكننا لم نظفر مرة واحدة بلقائه ، البعض كان يقول لم نجد البيت ، والبعض كان يقول لم نجد الرجل ·

وتعددت أقوال الناس ، وتفسيراتهم ، وانتشرت الاشاعات بعضهم قال : لقد ترك بلادنا وسافر الى بلاد أخرى ·

بعضهم قال انه سيعود ·· من سفره الطويل والبعيد ·

بعضهم قال : ان الذى سيعود أحد أولاده أو أحفاده ··

هناك من يؤكد أنه لم يتزوج ، وهنا من يزعم أنه مضى دون خلف ·

اننى أيها السادة فى حاجة شديدة الى لقائه ، وأكاد ألمح فى عيونكم نفس الحاجة ، أكاد ألمح فى عيونكم نفس الرغبة فى تصديق أنه لم يمت وأنه سيعود ·

فاذا كان منكم من يعرف أخبارا عنه ، اذا كان منكم من لايزال يذكر ملمحا من ملامحه ، نبرة من صوته ، شيئا يدلنا على طريقه

فليذكره لى . بدأتم تضيقون بسؤالى عنه . بدأتم تلحون فى السؤال عن السبب الذى من أجله أبحث عنه .

بدأتم تبتسمون تلك البسمة الشريرة التى تنم عن أنكم تعرفون السر . سر سؤالى المضنى عنه .

بدأتم تحيطون بى فى كل طريق ، بدأتم تمطروننى بالأسئلة عن الفريق الذى أنتمى اليه ؟ عن الغرض الخفى الذى أخفيه ؟

تقولون انكم مثلى تبحثون عنه ؟ عن الصديق الذى كنا نعتز بصداقته ؟

تقولون انكم مثلى تبحثون عنه لنفس الغرض ؟

تعنون أنكم مثلى تلقيتم نفس التهديد بالقتل مالم تقتلوه .

تعنون أنكم مثلى وعدتم بنفس الجائزة ، اذا جئتم به حيا أو ميتا ؟

حسن اذن ... لماذا تهتمون بالسؤال عن الفريق الذى أنتمى اليه ؟

لقد أصبحنا جميعا فريقا واحدا ، ولكن دون أن ننسى ، بفضله .

آخر السهرة

فى تلك الليلة كنت عائدا من سهرة مع بعض الأصدقاء فى ساعة متأخرة ، اغالب شعورا بالتعب والرغبة فى النوم ، لم اكـــد أنحرف بالسيارة عن الشارع الرئيسى الى الشارع الجانبى الذى أسكن فيه ، حتى بدأت أشعر كأننى أدخل فعلا فى الفراش ٠

استرخت يداى وقدمى على عجلة القيادة ودواسة البنزين ، وبدت السيارة وكأنها تسير وحدها فى شارع هادىء وخال من المارة

ـ تتوزع على جانبيه السيارات التى يركنها أصحابها أمام بيوتهم ـ وكأنها (سيارتى) ستقف وحدها أمام البيت الذى تعرفه وتألفه ٠

هل غفوت للحظة ؟ أم شرد ذهنى عن الطريق فلم أبصر هــذه القطة ـ التى لابد قد برزت فجأة من تحت احدى السيارات الواقفة

بجوار الرصيف ـ الا بعد أن صارت فى منتصف الطريق تماما أمام سيارتى ٠

متى تنبهت لهذه القطة البيضاء التى جاءت لتوقظنى ، لتوقظ كل خلية فى جسدى ؟ ٠

متى لاحظت أن المسافة التى بين السيارة والقطة تسمح لها بالعبور فى سلام ، لو ظلت سائرة فى طريقها ، فعرض الطريق ضيق، والسيارة غير مسرعة ؟ ٠

أشعلت النور الأمامى الكبير لأستحث القطة على الاسراع فى سيرها ، لكن المفاجأة التى لم أكن أتوقعها أبـدا ، هى أن القطـة اللعينة توقفت تماما فى منتصف طريقها ، وأدارت رأسها المستدير فى مواجهة السيارة ، ومواجهة الضـــوء ، ودون أن تطرف عيناها ، وكأنها تريد أن ترانى ، أو تريدنى أن أراها ، كأنها تريد أن تقـول شيئا ، تقوله برجاء وتوسل ٠

كيف أوقفت السيارة ؟ ومتى ؟ ٠ وما الذى حدث ؟ من الصعب أن أعيد ترتيب ماجرى ، بل من الصعب أن أتصور أنه كان هناك نوع من الترتيب ٠ ففى لحظة واحدة حدث كل شىء ، وانتهى كل شىء ٠ فحين توقفت القطة تماما فى عرض الطـــريق ، حين رأيت عينيها المستديرتين فى شريط الضوء تنفذان الى قلبى الملىء بعيون القطط الملونة ، الملىء بالقطط السمراء والبيضاء والمرقطة ، حين رأيت فى عينيها اصرارا على الوقوف ، كان لابد أن أوقف السيارة قبلها بأى ثمن ٠ وهكذا كان على أن أكتشف فى جزء من الثانية أن السيارة التى أقودها لاتبصر القطة ، ولا تبالى بنظرة الاصرار فى عينيها ، وأنها تخضع لقانون آخر لا مكان فيه لعيون القطط ، وأن على أن أنقذ القطة من ذلك القانون ٠ أن أنقذ تلك القطة التى تبدو وكأنها تتمرد على قوانين الحياة ، أو لعل هذه القوانين تعطلت فيها فجأة فبدلا من أن تستحثها على السير ، وقفت بها فى عرض الطريق ٠

وفى الحق أننى لم أكن أعمل وفق قوانينى الخاصة لأنقذ قطة واحدة ، فكل القطط التى ربيتها وأحببتها طوال حياتى ، والتى كنت

أصحو من النوم على أصابعها تشد أصابع قدمى ، وعلى ملمس شعرها الناعم وهى تتسلل الى فراشى تلتمس الدفء والاهتمام ، والتى كنت أمضى أجمل الأوقات أتأمل طريقتها فى تنسم هواء الصباح البارد ، وهى تقف على حافة النافذة فى الطابق الثالث ، دون أن تخشى السقوط ، وتغمض عينيها فى مسرى النسيم الذى يتخلل شعرها ، وهى تقف أحيانا جامدة ، كتمثال ، ثم تختفى كشبح ، وتدل على مكانها الخفى بهريرها الرتيب ، أو بانعكاس الضوء على عينيها الملونتين ·· كل هذه القطط كانت فى خطر حقيقى يتهددها فى تلك الليلة ، وأحسست بها كلها تتقافز فى داخلى طلبا للنجاة ·

هل ينجح قانونى الخاص فى السيطرة على قانون السيارة الذى يعمل فى حياد تام ، وعلى قانون القطة الذى يبدو وكأنه أصابه خلل مفاجىء ؟ ·

كل شىء الا أن تموتى أيتها القطة ، كل شىء الا أن أكون قاتلك ·

حاولت أن أجعل المكان الذى تقف فيه القطة ساكنة جامدة يقع فى منتصف السيارة تماما ، بحيث أمر فوقها دون أن تصاب بأذى ، لو لم أنجح فى ايقاف السيارة قبلها ·

لكن هل تفعلها هذه القطة المجنونة ، وتبقى جامدة فى مكانها ، أم يصل الجنون الى قمته فتتحرك فى هذه اللحظة وحدها ؟ ·

السيارة لم تتوقف بعد تماما ، والقطة لاتريد أن تتحرك · عيناها لاتطرفان · صوت العجلات الزاحفة لايهزها · لكل من يملك الحق فى أن يقول كلمة أخيرة فما الذى تريد هذه القطة المجنونة أن تقوله فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ هل تجن الحيوانات حقا ؟ وهل تفكر بالانتحار ؟ أنا الذى ألامس الجنون لأننى رأيت فى جزء صغير من الثانية ما لا أقدر على فهمه · لأننى أرى واحدا من قوانين

الحيـاة لا يريد أن يعمـل ٠ لأن مجموعة من القوانين التى لا أملك السيطرة عليها كلها توشك أن تصطدم فى داخلى ، تتحطم ، وربمـا تحطم روحى معها فى ساعة متأخرة من الليل ٠

أنا الذى سوف ألامس الجنون لأننى ، لجزء آخر صغير من الثانية ، أبدأ أفكر بالأرواح الشريرة التى يمكن أن تتقمص جسـد الحيوان ، وتظهر للانسان فى الليل ٠ كل هذا فى لحظـة واحـدة لاتريد أن تنتهى ٠

كيف ومتى أدركت أن السيارة قد توقفت تماما ، دون أن تغيب القطة عن ناظرى تحت مقدمة السيارة الزاحفة كالموت ؟ وأن الشىء الفظيع الذى كنت أخشى حدوثه لن يحدث ٠

كيف ومتى تحرك شخص آخر فى داخلى لينظر فى مرآة السيارة العاكسة لأطمئن الى أنه لاتوجد سيارة أخرى قادمة ورائى ، يقودها رجل آخر متعب ، يظن مثلى أن الطريق خال من المارة ؟

لم يكد الرجل الآخر يستشعر الطمأنينة حتى استرخيت تماما فى مقعدى ، كنت أفكر فى النزول من السيارة لأحاسب هذه القطة اللعينة على مافعلته بى ، وربما حين تمتد يدى الى شعرها الناعم يتحول الحساب الى عتاب ٠ ربما أصابها مكروه مفاجىء ٠ ولكننى وجدت نفسى عاجزا عن الحركة ، فما رأيته ، وفكرت فيه ، وشعرت به فى هذه اللحظة الخاطفة ، قد أبهظنى حقا ، وكاد أن يهد قواى ٠

لعلها هى الأخرى كانت مثلى تحس بأشياء كثيرة ، وربما تفكر بأشياء كثيرة أعجزتها عن الحركة ٠

من الذى قال ان الحيوان لا يفكر لأنه لا يتكلم ؟ ٠

والآن وقد وقفت السيارة تماما ، لم لا تتحرك هذه القطة اللعينة من مكانها ؟

ألم تدرك بعد ـ هى التى كنت أظنها تفكر ـ أنها نجت من موت محقق ؟ ٠

أتريدنى حقا أن أنزل من السيارة لأدعوها لعبور طريق كانت تهم بعبوره ؟ ٠

أى سخافة جعلتنى لا أتخير الا هذا النوع الغبى من الحيوانات لأذوب فيه حبا ؟

كنت أظن أننى الذى أوقفت السيارة ، وأنقذت حياة هذه القطة الشريرة ، ولكن هذه القطة الملعونة تريدنى أن أشعر بأنها هى التى أوقفتنى فى مكانى ولا تزال ٠

وأننى أنقذتهـــا من الموت لتسلمنى بدورها الى ذلك الشعور المخيف بالخوف ؟ ٠

لم لا أعترف بأننى عاجز عن ترك مكانى خوفا ، وأننى أصبحت خائفا منها بعد أن كنت خائفا عليها ؟ ٠

لم لا أصرخ طالبا النجدة من ذلك السائق المتعب الذى كنت أخشى مجيئه من خلفى فى ساعة متأخرة من الليل ؟ أمن المعقول أن يكون جميع الناس قد ناموا حقا فى مثل هذه الساعة ؟

أهذه مدينة من البشر أم من الدجاج ؟

يبدو أنها (القطة) أدركت أخيرا معنى مافعلته بى ! أو معنى ما فعلته من أجلهـا !

فقد تحركت أخيرا ٠ تحركت قبل أن تتحرك فى داخلى صرخة الخوف المخيفة لتوقظ النيام ٠

أدارت رأســها الى الجهــة التى جاءت منها ، وفجأة رأيتهم قادمين ٠ من تحت السيارة التى جاءت من ناحيتها ٠ أربع قطط

صغيرة بيضاء بلون أمهم لايزيد عمرها عن أربعة أسابيع ، أعرف جيدا عمر القطط الصغيرة · كيف تكون ؟ وماذا تفعل فى الأسبوع الأول ، والثانى ، والثالث ، والرابع ؟ انهم الآن فى مرحلة مواجهة الحياة · والعبور الى الجانب الآخر ، تقودهم أمهم الى الدنيا بلا خوف ، ودون كلمات ·

استقبلتهم أمهم فى منتصف الطريق مشت بجوارهم تعبر الشارع فى هدوء ، واختفت معهم تحت سيارة فى الجانب الآخر ·

حين بدأت أدير محرك السيارة ، وأمضى فى اتجاه بيتى لأدخل فى فراشى بحق هذه المرة ، لم أجد النوم الذى كنت أغالبه · كنت أشعر بصفاء عجيب من ذلك النوع النادر الذى يغمر الكون والانسان ، وحين يجىء يعز عليك أن تتركه وتنام !!

ذلك الوجه وذلك الرائحة

لاأدرى متى بدأت اشم تلك الرائحة ؟

رائحة دخان ينبعث من شىء يحترق . لم تكن حادة أو نافذة ، لكنها بعد أن تنبهت اليها بدت ملحة ومستمرة ، دون أن تفصح عن طبيعة الشىء المحترق أو مكانه .

ولأننى فى تلك اللحظة كنت اقود السيارة (زوجتى بجوارى تتحدث فى أمر لم يكن يروق لى أن تنبشه) فقد وجدتنى أسألها ، وأنا أهدىء من سرعة السيارة ، وأنحرف بها الى يمين الطريق ، قبل أن أتوقف تماما :

ــ أتشمين تلك الرائحة ؟

ــ دائما تغير الحديث ، كلما فتحت معك هذا الموضوع .

لم أرد على زوجتى .

نزلت من السيارة ، رفعت غطــاء المحــرك ، جعلت أبحث عما يمكن أن يكون مصدرا لتلك الرائحة ، سرعان ماكففت عن البحث حين تأكد لى وأنا واقف فى الطريق أن الرائحة تملأ الجو كله من حولى ، تلفت فى كل الجهات فلم أبصر مايشى بمكان الحريق ٠ كان الوقت مساء ، ورائحة الدخان لا شكله هى مايدل عليه ، وحتى حين كان الدخان يظهر حول مصابيح الطريق المضاءة ، فقد كان يبدو فى شكل موجات الضباب التى تنتشر أحيانا فى مثل هذا الوقت من السنة ، مسببة الاحساس باللزوجة والاختناق ٠

زايلنى القلق على السيارة ليحل محله قلق شامل غامض عن مصدر تلك الرائحة التى تملأ الجو كله فى هذا المساء ٠

قالت زوجتى بعد أن عدت الى مكانى فى السيارة :

ماذا حدث ؟ عن اية رائحة تسال ؟

ـ رائحة شيء يحترق ٠

ثم تابعت حين بدا على وجه زوجتى ، وكأنها فجعت فى اجابتى فلاذت بصمت انكارى :

ـ لعلهم يحرقون هنا أو هناك أكوام القمامة ٠

حينذاك قالت زوجتى بعصبية :

ـ كان من الأفضل أن تواصل السير لنبعد عن تلك المنطقة كلها ٠

قلت متعلقا بأمل واه :

ـ اذن فأنت تشمين مثلى تلك الرائحة ؟

ـ فى الحقيقة لا اشم شيئا ، ولكن ما دمت انت تفعـل ذلك فلماذا لا أصدقك ؟

ثم تابعت بلهجة من يريد أن ينهى الموضوع :

ـ الأفضل أن تسرع لنلحق المتجر قبل أن يغلق أبوابه ·

لكنى لم أسرع · لم أقدر على الاسراع · كنت أتوقع بين لحظة وأخرى أن أسمع صوت سيارة الاطفاء ، أو الاسعاف أو النجدة ، وهى تمرق بجوارنا ·

كانت الرائحة تسير من حولى بأسرع من سرعة السيارة · بدأت ألاحظ بقية السيارات وهى تلحق بنا وتسبقنا ، والناس فيها يتحدثون أو يضحكون · لايبدو على وجوههم فضول أو ترقب أو قلق · لعلهم لم يشموا أبدا تلك الرائحة المجهولة المصدر ، وكذلك المارة · كانوا يسيرون فى بطء كأنهم خرجوا ليشموا الهواء فحسب !

حين اقتربنا من المتجر الكبير ، كنا قد تجاوزنا المنطقة بأسرها ، وكنت قد بدأت آلف تلك الرائحة ، كأنها جـزء من الجو فى مثل هذا الوقت من السنة ··

حين تركنا السيارة بدأت أرى الدخان أكثر مما أشمه ، فالمكان غارق هذه المرة فى الضوء ، والناس يدخلون ويخرجون ، وطبقات الدخان تتراقص فى الأضواء وعلى الوجوه ، تخفى الملامح ، أو تظهرها ، لا مبالية ، أو ضاحكة ، أو مهتمة بأمـر آخـر غير تلك الرائحة !!

نظرت الى زوجتى متوقعا أن أرى نظرة فزع أو على الأقـل نظرة تصديق لما قلت منذ قليل · لكنها كانت مشغولة عن الأمر كله بتسوية فستانها وشعرها ·

قبل أن أفتح فمى بكلمة سمعتها تقول وهى تبتسم :

ـ لعلك تستمتع الآن برائحة الدخان الحقيقية ·

ـ متى كانت رائحة الدخان تبعث على المتعة ؟

قلتها بفزع ·

ــ حين تكون منبعثة من فحم تشوى عليه قطع الضأن !

قالتها زوجتى بطمأنينة زادت من فزعى · كنت أعرف أنه يوجد على مقربة من المتجر الكبير محل للشواء ، وبالتأكيد تختلط روائح الضأن المشوى بروائح الحريق الآخر الذى لايريد أن يفصح عن مكانه ، والذى لايريد أحد أن يشعر به ·

شعرت بعبث المحاورة معها ، كنت قد وعدتها بعشـــاء فى « كازينو الشاطىء الذهبى » ، ومنذ قليل رفضت الحديث معها فى موضوع لا أحب سيرته ، وسوف تظن أننى أختلق فرصة للنكد أو الشجار ··

قلت مسايراً ومدارياً وساوسى :

ــ لايهمك · سوف نتعشى شواء فى الكازينو بعد أن نخرج من المتجر ·

فى داخل المتجر الكبير كنت أعتقد أننى سوف أستريح لبعض الوقت من تلك الرائحة ، ومن التفكير فيها · سرت بجوار زوجتى ننتقى حاجاتنا ، ونضعها فى عربة اليد التى نسـوقها فى ممرات المتجر · من جنبات المتجر تنبعث موسيقى هادئة وناعمة ، تحمـل الناس على أن يتحدثوا فى همس ، وربما هى التى تشغلهم عن تلك الرائحة التى بدأت أشمها هـذه المرة ، مختلطة بروائح الأجبـان ، والفاكهة ، واللحوم ، والعطور ، والصابون و ··

ــ ما رأيك فى هذا النوع من الجبن ؟

قالتها زوجتى وهى تمد لى يدها بقطعة من الجبن على طرف سكين صغير أخذته من البائع ·

كانت قد ذاقت قطعة منه ، وملامحها تنطق بالإعجاب بهـــذا النوع ، وترغبنى فى شرائه · لم أكن أشجع هذه الطريقة فى اختيار المأكولات ، لكنى تذوقتهـــا مجاملة لزوجتى ، ووجدتنى أقول لها باستسلام :

ـ رائعة · خذى منها ماتحبين ·

ماذا يحدث لو قلت لها ، لزوجتى ، أن هذا الجبن يبدو وكأنه منقوع فى تلك الرائحة ، التى لاتريد أن تعترف بوجودها فى الجو ؟

أنا لا أناقش زوجتى حين ينحصر الحوار بينى وبينها . فكيف أناقشها فى قضية يقف الى جوارها فيها كل الناس ؟

حين تدرك أنك وحدك ترى أو تسمع أو تشم ما لا يحس به سواك ، فأنت على حافة الجنون ، أو غارق فى حلم كئيب !

ولو كانت لك فرصة الاختيار فأنت سوف تتمنى مثلى أن يكون ما تراه أو تسمعه مجرد حلم ثقيل ·

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى أحلم فيها ، وأدرك خلال حلمى أننى أحلم ، دون أن يوقظنى ذلك الادراك من النوم ·

عشت مرارا تلك التجربة ، وعانيت فيها تلك الحرية المخيفة التى يتيحها لك ذلك الضوء الشاحب من الوعى ، وأنت فى ذروة حلمك ·

وفى أحلامى هذه كنت أرفع صوتى بما كنت أخاف من مجرد التفكير فيه ، وأقفز من الأعالى ، وأواجه المخاطر ، وأصفع الوجوه التى أتجنب رؤية أصحابها ·

لم لا أنتهز الفرصة وأقول لزوجتى رأيى الحقيقى فى الموضوع الأول الذى كنت أتجنب الحوار معها فيه ؟

لم لا أقول لها : اننى أحتقر أهلك وأهلى معا ٠

أحتقر صلحهم وخصامهم ، وصوتهم العالى الذى لا يقـول شيئا ، واصرارهم على أن يرهنوا زماننا لحساب زمانهم ، وأننا مادمنا قد تزوجنا ، فمعنى ذلك أننا بلغنا سن الرشد ، ولن نسمح لهم ٠٠

ـ فيم تفكر ؟ وماذا تنتظر ؟

قالتها زوجتى وهى تنظر لى فى دهشة ٠ كان المحاسب قد فرغ من عمل الحساب ، وينتظر من يدفع له ثمن المشتروات ٠ وكان الحمال قد فرغ بدوره من تحميل حاجاتنا على العربة التى يدفعها أمامه الى مكان السيارة ، وينتظرنا بدوره لنقوده الى مكانها ٠ وهأنذا أسرح حتى فى داخل الحلم ٠

نقدت البائع حسابه وتقدمت الحمال الى باب المتجر فى طريقنا الى السيارة ٠

في تلك اللحظة ، أحسست أننى على وشك أن أصحو من حلمى أو أدخل فى حلم أشد قتامة ٠ هذا الحمال أكاد أعرفه ٠ هذا الوجه ؟ توقفت قليلا ٠ التفت اليه ، أستوثق مما أرى ، لو رفع رأسه الى وجهى لعرفنى ٠ هذا الوجه الأسمر ، والأنف العريض ، والأسنان المفلوجة ٠ وتلك الشفة المدلاة أليس هذا هو « حسن أبو شفة » ؟ ٠

كنت أريد أن أعابث الحلم ، ولكن الواقع بدأ يعابثنى معابثة أنكى وأشد ٠

الحمال لا يرفع رأسه ٠ عينــاه على قدمى ، يتبعنى ، يـداه تدفعان عربة النقل المحملة بمشترواتنا ، انه بثيابه الزرقاء المخصصة للحمالين التابعين للمتجر يبدو كأنه جزء من المؤسسة ، ينفصل عنها ليعود اليها بعد قليل ٠

أهذا الذى يعابثنى حلم أم واقع ؟ أم أنه حلم أشد مكرا ودهاء ، فحسن أبو شفة الذى أعرفه كان رجلا ناضجا حين كنت أنا طفلا فى القرية · قد يصلح هذا الحمال الشاب ابنا له ، لكن ما الذى يجىء بابنه هذا من قريتنا الى هذه المدينة الساحلية النائية عند الحدود ؟

كنا قد خرجنا من المتجر الكبير لأرى وأشم من جديد رائحة الدخان تواصل حفلها الراقص فى الأضواء ·

وانفجر فى رأسى شىء مخيف تذكرته فجأة ، ذكرنى به « حسن أبو شفة » ، فهو مثلى يعرف تلك الرائحة ، يعرفها جيدا · كان مثلى أول من شم تلك الرائحة التى كانت تملأ سنوات طفولتى وصباى ·

« كنا فى وقت الظهيرة · الحر جاثم يكتم الأنفاس ، والناس يلوذون بالدور والأشجار ، والبهائم راقدة تجتر طعامها ، أو دائرة فى السواقى أو الأجران ، والشياطين تعرف وقت القيلولة فلا تغادر جحورها · الصبية وحدهم الذين يتسللون من بيوتهم حين تغفى عيون الأهل ، يلعبون فى الأجران المليئة بالقش ، ويستحمون فى الترع ، ويتسلقون أشجار التوت والجميز ·

فى ذلك اليوم شممت تلك الرائحة ، كان الوقت الذى يفصل بين رؤيتى للدخان ورؤيتى للنيران أقصر من أن يتسع لتلك الصرخة التى احتبست فى صدرى · رأيت وسمعت « حسن أبو شفة » الذى لم يكن طفلا ولا شيطانا ، ولكنه نفر من أنفار الشهر يندفع صائحا وصارخا وفى يده المذراة التى كان يقلب بها القش ، يحاول وحده أن يطفىء بها النيران المجنونة التى كانت تنتقل بين أكوام القش فى سرعة الريح ·

رأيت أسراب الطيور وهى تفزع من أعشاشها وتصرخ فى السماء المليئة بالدخان ، رأيت الكلاب والقطط والدجاج وهى تجرى

على غير هدى هنا وهناك ، وقبل أن يغادر الناس بيوتهم · وسمعت أصوات البهائم تخور فى الزرائب ، قبل أن يتنبه أصحابها ويفكوها من حبالها لتنطلق الى الحقول هاربة من النيران · وقبل ذلك كله رأيت « حسن أبو شفة » الذى أدرك فى لحظة عبث محاولته لاطفاء الحريق ، وهو يقطع بمنجل كان يجذب به أكوام القش ، يقطع حبال البهائم المربوطة فى النورج ، وكانت البهائم تجره خلفها ، وهى تحاول النجاة من الحريق ، وتكاد تدوسنى فى طريقها ·

رأيت « حسن أبو شفة » يجتذبنى من ذراعى وأنا مسمر فى مكانى لا أقوى على الحركة ، وفى طريق البهائم الهائجة ·

لو سألت الحمال الذى ينقل مشترواتنا الى السيارة عن ذلك اليوم ، لما أنكر شيئا مما جرى فيه · بالتأكيد سمع من أبيه قصة ذلك اليوم ·

لو سألته عن اسمه « ومهما يكن اسمه » فسوف ينتهى بحسن أبو شفة ·

ولو سألته عن بلده لوجدته من قريتى ؟

أبوه وأنا شاهدا ذلك اليوم ، ولكنه لايتوقف الا أمام السيارة · ينقل الى خزنتها الخلفية حاجاتنا ، ويرفع الى وجها من الماضى ، لايتوقع الا كريم الأجر ، هو مثل الجميع هنا لايشم تلك الرائحة ، ولعله يحلم مثل زوجتى بشواء من المحل المجاور · لعله مثلها لايشم سوى رائحة الضأن المشوى ·

لم ينته الحريق فى قريتنا الا بعد أن انتهى كل شىء ·

ظلت رائحة القرية المحترقة · رائحة القش والتبن والأخشاب · شهورا طويلة تملأ سماء القرية وأرضها تختلط بالطعام والشراب ، يشمها أهل القرية ، وأهالى القرى المجاورة الذين يمرون بها ، وحتى

بعد أن أعيد بناء قريتنا ، وترميم ماتبقى منها ، ظللت أشم تلك الرائحة فى أحلامى ، وأحيانا فى يقظتى ، وأسمع صرخات « حسن أبو شفة » فى ذلك اليوم • لقد كف بعدها عن الصراخ ، ولكنه ظل يمشى ذاهلا فى طرقات القرية ، يحكى حتى لمن لايسمعونه قصـة ذلك اليوم ، ويؤكد للجميع أن ذلك لم يحدث بسبب الريح ، بل لأن قريتنا قد فعلت أشياء كثيرة تستحق بها غضب الله • لم يكن ماجرى حريقا ، ولكنه غضب ، وغضب الله لاينزل الا بمن يستحقه •

خذلنى الحمال الذى تركنى وعاد الى المتجـر يسوق عربته الفارغة دون سؤال أو جواب •

خذلنى الناس الذين لايشمون سوى رائحة الشواء •

خذلنى الحلم والواقع حين لم تظهر ألسنة النيران بعد ألسنة الدخان •

خذلتنى زوجتى حين قالت وهى تجلس بجوارى :

ـ أنت تبدو متعبا هذه الليلة ، ولكنك سوف تستريح حين نشم هواء البحر المنعش فى « كازينو الشاطىء الذهبى » ، ونتعشى على أنغام الموسيقى • سمعت أن الكازينو يقدم فى هذه الأيام عروضا مدهشة •

ثم أضافت حين لم تلمح على وجهى أثرا طيبا :

ـ وسوف يكون العشاء على حسابى •

تذكرت أنها تقول نكتة ، وأنه كان يجب على الأقل أن أبتسم لكنى لم أرد • زوجتى لا تعرف « حسن أبو شفة » ، ولن يروق لها أن أروى حكايته ، ولن تصدق أى شىء أقـوله لها هـذه الليلة • استسلمت لحديثها الذى لم أكن أسمعه • استسلمت لنداء البحر • الهواء هناك نقى بلا شك • من يقوى على أن يعكر هواء البحر •

ولو طاردنا الحريق الى الشاطىء فسوف نجد هناك فرصة للنجاة ، ألا يفضل ركاب السفن المحترقة أن يموتوا غرقا ؟

في كازينو الشاطىء الذهبي · كانت الموسيقى تنساب حالمة وناعمة ، هواء البحر يحملها الى بعيد · هواء البحر يطرد حتى رائحة الشواء التي يشتهر بها الكازينـــو ، مثلما يشتهر بمفاجآت عروضه المثيرة ·

شعرت بنوع غريب من الراحة ، كدت أقبل دعوة زوجتي الى الرقص ، لولا أن جاء النادل ، ووقف في أدب جم ينتظر أوامرنا ·

قالت زوجتي وهي لاتزال محتفظة بروح المرح :

ـ مادمت أنا التي سأدفع الحساب دعني أختار العشاء ·

راحت تنتقي من قائمة الطعام ، وتأمر النادل وهو يسجل في دفتر صغير بيده ·

تفعـل ذلك وهي تبتســم · ترفـع رأسها الى النـادل ، وهي لا تزال تبتســـم ·

صحيح أن زوجتي لم تر في حياتها « حسن أبو شفة » مرة واحدة ، ولكن كيف لم تدرك بعد أن هذا النادل هو نفســه الحمال الذي تركناه منذ لحظات عند المتجر · هل خدعها بحق هذا القفطان الأحمر الذي يرتديه ؟ هل تخدعها هذه الأشرطة الصفراء التي تطرز أطراف الصدر والأكمام ؟ أليس هذا هو نفس الوجه الأسمر والأنف العريض والأســنان المفلوجة ؟ صحيح أنه يملك لهجـــة النادل ، وابتسامته المحسوبة ، ونظرته المدربة ، وانحناءته الرشيقة ، ولكن متى تعلم ابن حسن أبو شفة القراءة والكتابة ؟

ـ سوف نرقص حتى بعد العشاء ·

قالتها زوجتي وهي تمد يدها • ربما يجدى حوار الأيدى حين تعجز الكلمات ؟ قمت معها مستسلما • هذه ليلة للاستسلام • ما أروع أن يستسلم الانسان للاشيء •

صالة الرقص تمتلىء بالنغم ، والوجوه ، والعيون ، والأجساد، والأيدى الغير حقيقية •

الرائحة هي الأخرى تبدو هنا غير حقيقية • تذوب في هـواء البحر ، وفي سواد الليل والمياه ، ويحملها الهواء مع الموسيقى الى بعيد •

فجأة تصمت الموسيقى •

فجأة تعـود الموسيقى •

يرتفع من نفس الميكرفون الذى كان يصدح منذ لحظة صوت مدير الكازينو :

ـ الجمهور الكريم • سوف نقدم لكم بعد لحظة أكثر عروضنا اثارة • تفضلوا بالخروج الى شرفة الكازينو لتشاهدوا العرض • انه يقع فى قلب البحر • لاتنزعجوا • فهدفنا هو تقديم تسلية مثيرة • انه مجرد عرض • سفينة تحترق فى البحر ، وركابها يقذفون بأنفسهم الى المياه طلبا للنجدة • انه مجرد عرض فاستمتعوا فقط بما ترون • أنتم لا تنزعجون حين ترون ذلك فى الأفلام • يمكنكم أن تقولوا انه عرض مسرحى حى ، ان كازينو الشاطىء الذهبى لايدخر وسعا فى تسليتكم رغم الظلام ، فالحريق الذى يلتهم السفينة يضىء كل شىء • ورغم ضخامة تكاليف العرض ، فان مانحرص عليه هو تقديم تسلية مثيرة حقا •

أيمكن أن يكون هذا العرض المثير حقـــا هو مصـــدر تلك الرائحة ؟

قلتها وكأنى أخاطب نفسى ·

قالت زوجتى · وكانت تلك أول مـــرة تعترف فيهـــا بتلك الرائحـــة :

ــ نعم · ربما كان ذلك حقا ، فلا تقلق · المهم أن تستمتع بالعرض · ألم أقل لك · ؟

كنت قد أصبحت غير قادر حتى على القلق · غير راغب حتى فى التفريق بين الحلم واليقظة · لا أحد لايريد أن يوقظنى من الحلم · العرض لايريد أن ينتهى · صرخاتى تختنق فى داخلى · صرخات ركاب السفينة تغرق معهم · النادل يقف خلفنا فى هدوء ويهمس :

ــ سيستمر العرض طويلا ، والعشاء جاهز ، يمكننا أن نحضره لكم فى الشرفة ، لتأكلوا وأنتم تتفرجون ·

ووجدتنى أندفع أمام الجميع الى قلب البحر · كانت تلك هى الحرية الوحيدة المتاحة لى ·

قلت لنفسى : لو كان ما أراه حلما فلتكن تلك نهايته · ولو كان واقعا فهذه أفضل نهاية ·

كان آخر ماسمعته بعد ما خلته صرخة زوجتى هو صوت يرتفع فى الميكرفون :

ــ لاتنزعجوا أيها السادة · فذلك أيضا جزء من العرض ·

الجميع يربحون الجائزة

متى حدث ذلك ؟ لا أذكر على وجه التحديد ، كل ما أذكره هو أن اليوم كان شديد الحرارة ــ رغم أننا كنا لانزال فى فصل الربيع ، ولعل الساعة كانت تشير الى الثانية بعد الظهر ، وأن ذلك اليوم قد مضت عليه سنين طويلة ، دون أن تنجح هذه السنين فى مسح صورته من ذاكرتى ٠

ما الذى حدث فى ذلك اليوم ؟

لا شىء خطير أو مثير ، ولكنه شىء بقى فى الذاكرة يتحدى كثيرا من الأشياء الخطيرة والمثيرة التى حدثت بعد ذلك ، والتى نسيتها تماما ، فما أقــل الأشياء التى تبقى فى الذاكرة محتفظة بملامحها ، بكلماتها ، بما فيها من روح المرح ، أو روح الأمـل ، أو روح المأساة ، تبقى فى الذاكرة ، تلح عليك أن ترويها ، أو تكتبهـا ، كأنما ليصبح من حقك بعد ذلك أن تنساها تماما أو تلقى على الآخرين مسئولية ذلك ٠

كان الميدان صغيرا ، رغم أنه يغص بحركة السيارات والمارة ، يربط بين شارعين مهمين ، دون أن يحظى بشرطى يراقب مدى احترام الركاب والمشاة لاشارات المرور ٠

ربما لهذا السبب ، وربما لأن العجوز كان يجهل قواعد السير فى مثل هذا الميدان ، حدث ما حدث فى ذلك اليوم ٠

فجأة ، ارتفع من قلب الميـــدان صراخ عجلات تزحف فـوق الأسفلت ، قبل أن تتوقف تماما على بعد خطوة واحدة من العجوز الذى سقط على الأرض ، سقط دون أن تلمسه السيارة ، لعله سقط من مفاجأة الصوت الزاحف ، لعله فقد توازنه حين فوجىء بصراخ العجلات وقد كان يحمل فوق رأسه قفصا مليئا بحبوب البرتقال ، لقد تحطم القفص تماما حين ارتطم بالأرض ، وانطلقت منه حبات البرتقال فى كل اتجاه ، تسابق السيارات التى لم تكن قد توقفت بعــد ٠

خرج سائق العـربة التى توقفت بالكاد أمــام العجوز يسب ويلعن ، ولم يكد يرى الرجل ، حقيقة الرجل العجوز الذى كاد أن يكون ضحيته ، حتى حمله بين يديه الى رقعـــة الحشـيش الأخضر التى تتوسط دائرة الميدان ، دون أن يكف لحظة واحدة عن شتمه ، بعد أن وضعه على الأرض راح يتفقد أعضاءه ليطمئن الى أنه لم يصب بسوء ، ويستشهد بمن تجمع حوله من المارة على أن العجوز لم يخسر سوى البرتقال ، وأن عظامه سليمة ، وساعده العجوز على صحة شهادته حين حاول الوقوف ليبحث بنفسه عن القفص المحطم ، وحبات البرتقال الضائعة ٠

فى هذه اللحظة ، كنت قد أصبحت واحدا من شهود الحادث عن قرب ، وكنت مع بقية الشهود نتحول فجأة من شهود لحادث وقع فجأة ، الى مسئولين عن منع لحادث يوشك أن يقع أمام سمع الجميع وبصرهم ٠ وعبثا كنا نحاول أن نمسك بالعجوز الذى لم يكن

يحفل بسلامته بقدر ما كان يفزع لمرأى حبات البرتقال المتناثرة عبر الميدان ، والتى كانت تظهر وتختفى خلال السيارات التى تمرق فوقها وبينها ، والتى ما كان يمكن أن تتوقف الى ما لا نهاية ، فى وقت يشتد فيه الزحام ، وحيث يمكن أن يؤدى توقفها الى ما هو أخطر من كل ما حدث ٠

كان سائق السيارة التى سقط أمامها العجوز قد تركه أمانة بين أيدى الشهود ، ليفسح الطريق بعربته أمام سيل العربات المحتجزة وراءه ، لم يكن من الممكن أن ينتظر هو الآخر نتيجة الحكم فى قضية لا يحكم فيها سوى الشهود ، وتقريبا كان قد حصل منهم على حكم غير منطوق بالبراءة ، وتوارى الحادث الذى وقع خلف الحادث الذى يوشك أن يقع ، كان العجوز يصرخ ، ويلطم وجهــه ، ويبكى رزقه الضائع ، وكأنه لم يربح حياته نفسها منذ لحظات ، ويندفع فى جنون نحو الشارع الذى كان يغص بحركة السيارات التى لاتكاد تتوقف من هنا حتى تبدأ من هناك ٠

متى كف العجوز عن محاولاته المجنونة للافلات من الأيدى التى تقبض عليه ؟ متى أرخت هذه الأيدى قبضتها عنه ، وكأنما انتابها الملال أو اليأس ؟ جلس العجوز على الأرض يرمق الميدان غير مصدق ، ووقف الشهود يفعلون نفس الشىء ٠

كانت السيارات تواصل سيرها مرة من هنا ، ومرة من هناك ، فى بطء هذه المرة ، وكأن سائقيها جميعا يتلقون أمرا مجهولا لشرطى مجهول بأن يحترسوا فى سيرهم ليتفادوا حبـــات البرتقال بقـــدر مايستطيعون ٠ كانت حبات البرتقال تظهر بعد مرور السيارات سليمة فى نفس مواقعها تؤكد أن الشرطى المجهول لايزال يصدر أوامره ، ولايزال نافذ الكلمة ٠

بدوت للحظات غير مصدق لما أراه ، لولا أننى كنت أراه ، أراه يحدث ، فى كل لحظة يحدث ، تأتى السيارة مسرعة من بعيد ،

ثم تهدىء من سيرها ، يلتقط السائق القصة من أفواه المارة ، ثم يبدأ عبوره الحذر مستعرضا مهارته كسائق ، منفــذا أوامر الشرطى المجهول • كأنما تحول الميدان الصغير الى ميدان لسباق من نوع غريب ، ترسم خطوطه وتحدد معالمه حبات البرتقال ، سباق يفوز فيه من لايدوس بسيارته برتقالة واحد ، وكأنما حرص السائقون جميعا على الفوز بهذه الجائزة •

من الذى ينظم السباق ؟ من الذى يراقبه ؟ من الــذى يمنح الجائزة ؟ ولمن ؟ كان جميع المارة يقومون بهذه المهمة ، وكان يكفى أن يخطىء سائق السيارة ، ويتلف برتقالة واحدة حتى يزوم الحشد على جانبى الطريق • ويعلن سخريته من السائق الذى لايعرف كيف يسوق ؟

كانت روح المرح أو اللعب توشك أن تطغى على •

روح الشفقة ، أو روح المأساة ، ولا أظننى كنت أحلم ، حين خيل لى أننى رأيت العجوز الذى كان منذ لحظات يصرخ ، ويلطم ، وهو يكاد يضحك فى شبه بلاهة •

الى متى استمرت هذه اللعبة ؟ الى متى بقيت هذه الروح تظل الميدان ؟ تستقبل السيارات القادمة تمزج المرح بالحذر ، واللعب بالمسئولية ، وتجعل من جميع السائقين على اختلاف هوياتهم سائقا واحدا يقود جميع السيارات فوق خط متعرج ، ليفوز فى النهاية باعجاب حشد لم يعد يشعر بوهج الشمس ، ولا بحبات العــرق ، ولا حتى بالعجوز الذى أصبح مجرد مشاهد للعبة غريبة لايدرى سر نجاحها •

كانت اللعبة حتى هذه اللحظة خاصة بســائقى السيارات ، وكان المارة يقومون بدور الحكم ، متى ترك المشاة دورهم ، ليشاركوا فى لعبة أخرى بدت وكأنها الفصل الأخير فى هذه المسرحية ؟

متى بدأ كل واحد من المارة يجمع حبات البرتقال التى فى طريقه ، ليأتى بها ، ويضعها فى كومة ظلت ترتفع بجوار العجوز الذى كان لايزال يحدق فى كل مايجرى غير مصدق ٠

كان ذلك حين هدأت حركة السيارات ، وخف الزحام ، وبدأت مجموعة الشهود التى كنت واحدا منها تبدو هى الأخرى ، وكان عليها أن تبحث عن دور بعد أن فقدت كل أدوارها ٠

لم تعد هناك قضية ، ولا محكمون ، ولا أحكام ، ولا أحداث تقع عليهم مسئولية منع حدوثها ٠

كومة البرتقال لاتزال ترتفع ، والعجـوز يتلمسها فى فـرح طفولى ، وكأنه يحاول أن يعدها ، وكأنه قد اكتشف فى هذه اللحظة لا تبلها أنه لايزال بخير ، وأنه نجا حقا من موت محقق ٠

قال أحد شهود الواقعة وهو يهم بالسير :

ـ الدنيا لاتزال بخير ٠

قال شاهد آخر بضـــجر :

ـ كيف تكون بخير ومثل هذا العجوز يحتاج فيها لمثل هـذا العمل ؟

ـ ياجماعة أنتم تهربون من مسئوليتكم ، كيف يحمل هـذا الرجل برتقاله ، وقد تحطم قفصه ؟ وكيف يواصل طريقه ؟

ـ والله فرصة ، هل تبيعه يارجل أم أنك تحمله الى أحد ؟

قالها أحد الشهود وقد تقدم يتفحص البرتقال ، ويتأكد من سلامته ٠

ـ كما ترى ياسيدى لايزال طازجا ، جمعته بيدى هاتين من على شجره ، وأبيعه قرب محطة الباص ، لكنكم أولى به ، خذوه بأقل من سعر السوق قرشا ·

قالها العجوز وهو يسترد روح التاجر · فى لحظة تحول الشهود الى مشترين ، وتتابعت تعليقاتهم :

ـ كيف تبيعنا يارجل وليس معك ميزان ولا أكياس ؟

ـ نأخذه بسعر الجملة ، ثم نقسمه بيننا ·

ـ مع أن فيه تالفا كثيرا فلنأخذه بسعر السوق اكراما للعجوز ·

ازداد تجمع المارة حولنا ، حول كومة البرتقال · تحولت صحف الصباح التى كان يتقى بها المارة وهج الشمس الى قراطيس تمتلىء بحبات البرتقال ، تحولت كومة البرتقال الى حفنة قروش فى حجر العجوز أخذ يعدها غير مصدق ·

ربما كانت هذه أجمل صفقة فى حياته ، مع أنه كاد يدفع حياته ثمنا لها ، وبهذه النهاية كان الجميع ـ ربما لأول مرة ـ فى ذلك اليوم يحصلون على الجائزة · كل على الجائزة التى يستحقها ·

فى الزحام

المكان ·· ميدان باب الحديد بالقاهرة ، هـــذه مسألة حسمها تمثال رمسيس الذى راح يظهر ويختفى عبر موجـات الرؤوس التى تعلو وتهبط ، كان رأس التمثال يبدو شامخا متعاليا فوق كل شىء ، حتى فى اللحظة التى يختفى فيها عن عينى بسبب الزحام · كنت أراه فى شموخه ، وصمته ، واستغراقه فى الأبدية ، وكأنه لا يشعر ، أو ربما لا يبالى بأمواج البشر التى تتدفق تحت قدميه !!

الوقت : ·· هذا ما لا أستطيع الآن تحديده · قبيل الغروب ·· ربما ·· ! بعد الشروق بقليل ·· جائز ! ففى غير هذين الوقتين يستحيل أن يتجمع كل هؤلاء الناس فى مثل هذا المكان ، ثم لا يندى الجبين بقطرة من العرق · لا أذكر أنه كانت هناك قطرة عرق واحدة ، أو نظرة غضب واحدة ، بل أذكر أن نسمات الصباح أو المســاء هى التى كانت تعبث ببعض الأعلام ، التى لا تكاد ترفع من مثل هذا الميدان الكبير ، لكثرة من يمر به من كبار الزوار لمدينة القاهرة !!

المناسبة : ·· هذا ما لم يفصح عنه شيء أو أحد ·· وان كنت أستطيع الآن أن أقطع بأنها لم تكن مناسبة حزينة على الأقل ، فالروح السائدة وسط الجماهير كان روح حماسة ومرح ، فالأصوات تبدو وكأنها تترنم ، والنظرات تتبادل التأكيد الصامت على أن ما يجتمعون من أجله هذه المرة هو أمر طيب لكل هؤلاء الناس !

وبالنسبة لي كنت قد أصبحت ــ دون أن أدرى ــ جزءا من هذه الحماسة ، وذلك المرح !!

ولكنى كنت أحتفظ تحت قشرة الحماسة والمرح بخوفى القديم والعظيم الذى كان يتفجر فى داخلى كلما وجدت نفسى جزءا من الجماهير الصاخبة والهادرة !

كيف جئت الى هذا المكان ، ما الذى أخرجنى من صدفتى وألقى بى فى هذا البحر الهائج ؟ كان الأمر يبدو كما لو كنت فى حلم حقيقى · كنت فى الحقيقة ، لا فى الحلم ، قد وضعت لنفسى قاعدة ذهبية لا أخرج عليها أبدا · تسألنى ما هى هذه القاعدة؟ دعنى أروى لك ! أول علاقة لى بالزحام · كانت وأنا تلميذ صغير ، حين خرجت فى أول مظاهرة فى حياتى تطالب بالاستقلال التام أو الموت الزؤام ! ··

أيامها كنت خارجا لتوى من قبضة أمى وأبى ، من قبضة الأوامر والنواهى ، من قبضة الخوف والحب · وشعرت وأنا أشترك فى أول مظاهرة فى حياتى أننى أولد من جديد ، واننى أستطيع أن أفعل أو أقول أى شيء ، دون أن يشعر بى أحد · جريت ، وصرخت ، وقذفت بالأحجار الى آخر مدى تستطيع أن تمتد اليه قوة ذراعى · ثم قذفت بنفسى ، وقد استبد بى الحماس الى الفضاء ، وتعلمت كيف أنطق بلا خوف الكلمات التى كنت أخاف أن أستمع اليها !!

كنا أيامها نطالب بالحرية · ودائما كانت ترتبط الحرية فى حياتى بالزحام ، وبصورة الجماهير الصاخبة والهادرة ·

وكنت في حاجة الى مظاهرات أخرى كثيرة أشترك فيها لأعرف الوجه الآخر للحرية وللزحام ، فقد كنت أدرك على نحو غـامض أن هناك شيئا شيطانيا يولد فى الزحام ٠٠ فى كل زحام ٠ أحس به قبل أن أراه ٠ أخافه ، وأتوقعه ، وأتوقاه بغرائزى وحدها ٠ لم يكلمنى عنه أحد ، ولم يحذرنى منه أحد ٠ ولكننى لم أعرفه حق المعرفة الا فى ذلك اليوم الذى اصطدمت فيه احدى المظاهرات التى كنت أسير فيها بجنود البوليس ، ووجدت نفسى فجأة تحت الأقدام ، تهصرنى ، وتكاد تسحقنى سحقا ٠ لحظتها أدركت رغم أعوامى الأربعة عشر ٠ أدركت وأنا شبه فاقد للادراك ، أن ما كنت أخافه فى الزحام ، هو نفس ما كنت أحبـــه ٠

فحين كنت أصرخ من الفزع والألم هذه المرة ، لم يكن هناك أيضا من يحس بى أو يرانى ٠

من يومها وأنا أغازل الزحام عن بعيد ٠ من يومها وأنا أشارك فى كل المظاهرات والتجمعات من شرفات المنازل ، ومن خلف زجاج النوافذ ٠ ألبى سحر الزحام ، وأهرب من شره ! أرى فيه كل ما هـو ملائكى أو شيطانى ، دون أن أصبح ملاكا أو شيطانا !!

ما الذى جعلنى أخرج على قاعدتى الذهبية ؟ وأقذف بنفسى من شرفة النافذة الى قلب الجمـاهير الهادرة والصـاخبة ، فى ذلك الصباح ، أو فى ذلك المساء ٠٠ لا أذكر !

كان فى المسألة كلها شىء غير واضح وغير محـدد ، وكأن ما أراه ليس سوى مجرد حلم غريب ٠ لا أقوى على نفيه أو اثباته ! تمثال رمسيس أحد الأشياء التى تضفى على الحلم مسحة الحقيقة ، وقدرتى على التفكير فى وضوح تنفى نفيا قاطعا أن يكون ما أراه وما أرويه مجرد حلم ٠ ففى تلك اللحظة كنت أفطن الى سبب وجيـه يبرر انخراطى فى تلك المظاهرة ، وتلبيتى لسحر الزحام !

كنت أدرك أننى لم أعد ذلك الصبى الذى يمكن أن تدوسه الأقدام ؟! من منا يفطن الى أنه يكبر ؟ اننا نفطن الى حركة كل شيء من حولنا ، ولكن من يفطن الى حركة عمره ٠٠ حركته فى الزمن ؟

كنت فى حاجة الى عشرة أعوام أو أكثر لأصبح قادرا على أن أقذف بنفسى من أمان الشرفة ، وأسلم نفسى لتيار الجماهير ، ودون أن أسأل عن السبب الذى من أجله تجمعوا ، ولا عن الغاية التى اليها يسيرون ٠

كيف يشعر بروعة التيار من يجلس على الشاطىء ؟ كيف كيف اعتقدت أنه بمقدورى أن أضحك على الحياة ، آخذ منها ، ولا أعطيها ؟ واكتشفت ، وأنا أسلم نفسى للزحام ، الحماسة والمرح ، اننى كنت مثل كل مدعى الذكاء لا أضحك الا على نفسى ٠

ولكننى ـ وأرجو ألا أكون هذه المرة مجرد مدع للحقيقة ـ كنت لا أزال أشعر أيضا بالخوف ٠٠ لا ٠٠ انه ليس خوف الحالم ، ولكنه خوف ذلك الصبى الصغير الذى كنته ذات يوم ٠ خوف تثيره الأقدام والأيدى ٠ قلت له ، للصبى الصغير فى داخلى ، أطمئنه : لا تخف ٠ لا مدعاة للخوف من الجنود هذه المرة ٠ ألا ترى ؟ أنهم يقفون على جانبى الطريق ، فوهات بنادقهم مصوبة نحو الهواء فى الأعالى ، وعيونهم تنظر الى الزائر الكبير الذى ربما جئنا فى انتظاره ؟ ولكن الزائر الكبير لا يجىء ، ويمضى الوقت ، وهو لايمضى عادة فى الأحلام ، فالحلم كله لحظة خاطفة ٠ ولكن فكرة غريبة ، فكرة لا تليق الا بحلم عريق وعظيم ، فكرة أنه لا يوجد زائر كبير أو صغير ، وأن الدولة هذه المرة هى التى تحتفل بجماهيرها ، تحتفل بخروج هذه الجماهير الى الشوارع ترقص ، وتغنى ، وتمرح بلا خوف ، وأن صفوف الجنود تقف على جانبى الطريق لتحيتها ، وعلى ستراتها البيضاء صفوف من الأزرار النحاسية اللامعة فى مشرق الشمس أو مغربها ٠٠ لا أدرى ؟

وعصفت بى نشوة من المرح الغـامر المستبد · لم أذق طعمها منذ سنين ، وكأننى صدقت الفكرة التى أردت أن يصدقها الصبى الصغير الخائف فى أعمـاقى ·

رقصت · لوحت بيدى · عانقت الفضاء · هتفت بلا خـوف بالكلمات التى كنت أخاف من مجرد سماعها · ولكنى ـ وأرجـو الا أكون مجرد مدع للحقيقة ـ كنت لا أزال أشعر بالخوف · من أى شىء ؟ قلتها لنفسى بصوت عال هذه المرة · قلتها لأمحو خـوفى ، لأغرقه فى الصخب الذى أسمعه ـ فقد كانوا جميعا يرقصـون ويترنمون ـ ولأغرقه فى الصخب الذى أصنعه ، ولكن خوفى لـم يغـرق ، كان يرتفـع كلمـا ارتفـع صـوتى ، ويلوح مع الأيـدى الملوحـة ·

متى بدأت أفكر فى الخروج من الزحام ؟ متى بدأت أصـارع ضغط الأجساد والأيدى ؟ وأتوقى بحـذر لا يملكه الحالم خطـوات الراقصين ؟ متى بدأ الطـريق يختفى عن عينى ؟ متى بدأت أشعر بأننى أوشك أن أفقد الحـرية التى كنت أعربد باسمها ؟

متى بدأ كل شىء يختفى عن عينى عدا هـذا النصل المرهف اللامع القصير الذى لمحته فى يد شخص كان يسير بجـوارى · شخص لم أكن حتى هذه اللحظة رأيت وجهه · بريق النصل وحده شد عينى · شد كل انتباهى ، وهو يغوص فى لمح البصر فى الجسد الذى كنت أحاول عبثا أن أزيحه من أمامى بحثا عن طريق !!

وسـقط الجسـد الذى كان يسد أمامى الطريق · واختفى النصل اللامع فجأة كما ظهر فجأة · لم يسـمع احد غيرى صرخة الجسد أو سقطته · كان الجسد قد أفسح لى طريقا لأصبح القاتل · كدت أسقط فوقه · دماؤه على يدى · والقاتل الحقيقى يرقص فى هدوء أمامى · ظهره للقتيل لم يحاول أن يهـرب أو يختفى · كان ما يفعله هو اعظم وسائل الاختفاء · كان قد أهدى جريمته لى فى مشهد يليق بحـلم عظيم وفظيع ·

وتوقف الزمن · للحظات توقف الزمن · لكن الرقص لم يتوقف ·· للحظات توقف الزمن · ولكن عقلى لم يتوقف كان الصبى الخائف بحق قد أصبح رجلا خائفا بحق كذلك · سوف أتمزق الى ألف قطعة صغيرة قبل أن أسأل أو أجيب ؟·· وحتى قبل أن أصحو من ذلك الكابوس لو أنه كان مجرد حلم ؟ ·

توقف الزمن ، ولكن عقلى لم يتوقف · ما الذى جاء بى الى هذا المكان ، والى هذا الوقت ؟

ومن الزائر العظيم الذى سوف تقدم جثتى وجثة رجل آخر ــ لم أبصر حتى هذه اللحظة وجهه ، مع أن دماءه تغطي ثيابى ويدى ــ على مائدته ؟

أيمكن الا يأكل الناس سوى أنفسهم حين يحتفلون بها ؟ توقف الزمن · ولكن عقلى لم يتوقف ·

الا يمكن أن يوجد رجل واحد من بين كل هذه الآلاف ، يمكن ان يقدم الحقيقة للزائر العظيم ؟

توقف الزمن · ولكن يدا لم أبصر صاحبها ، لعله كان يقف ورائى ، فقد ظننت يده تمتد للامساك بى ! ولكنها تجاوزتنى لتمسك فى هدوء بكتف القاتل الحقيقى الذى كان يرقص فى لا مبالاة قاتلة ·

من يكون صاحب اليد الممتدة ؟ لا يهمنى أن أعرف اسمه أو أبصر وجهه · يكفى أنه الرجل الذى رأى ما رأيت ، وعرف ما عرفت ·

كانت يده قوية وراسخة كأنها يد كل الناس ·

لحظتها عاد الزمن يتدفق ، ويتعانق فى تياره الحقيقة والحلم ! وانجاب الخوف من الزحام من قلب الصبى والرجل · ربما كان ما رأيته مجرد حلم فظيع ، ولكننى ما رأيت حلما أهدى الى مثل هذه الحقيقة ·· فى الزحام !!

الانتقام

كان قد فرغ من شراء بعض حاجاته فى شـــارع رشدى حين توقف أمام مخزن للتماثيل ، والصور الزيتية القـديمة ، والتحف النادرة ، تشده الى هذا المخزن صلات قديمة ، دائما يزوره بين الحين والآخر لعله يجد فيه ما يروقه ، اشترى منه مرة هدية «لهم» ، كان ذلك منذ شهور ، وكانت الهدية : صورة لقطة تقعى فى استرخـاء تتأمل ساعة أثرية تشير عقاربها لزمن قديم فى مثل طرازها ، المخزن قريب من «منزلهم» لدرجة أنه فى ذلك اليوم حمل الهدية فى يده وهو ذاهب « اليهم » !

نظر فى ساعة يده · وجد الوقت مناسبا لزيارتهم · دبت فى أعماقه تلك الفرحة الضارية التى تشـــتعل فى صدره كلما ذهب « لزيارتهم » كلما قرر أن يذهب « لزيارتهم » ، ويبدأ كل شىء يتناقص ، المكان يتناقص خطوة بعد خطوة ، الزمان يقصر لحظة بعد لحظـة ، حتى يجد نفسه أمامها وجها لوجه · وقبل هذه اللحظة فالموسـيقى التى تعزف داخله ، تطغى على كل شىء يراه أو يسمعه · مع كل

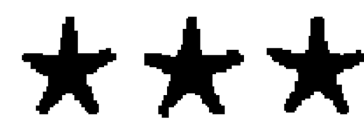
خطوة يشتد العزف ، تفقد الأشياء والأصوات ملامحها واتصالها ودلالتها ، يصبح كل ما يراه أو يسمعه مجرد خلفية لتلك الموسيقى الشجية ، التى تتردد فى داخله ، الى أن يتوقف أمام باب شقتهم ، الى أن تفتح له الباب هى أو غيرها ، فتمتد فى داخله قبضة قوية قاهرة تحكم سيطرتها على كل ما يتردد فى داخله من مشاعر ، وأصوات ، وأصداء ، يتصرف بطريقة شبه طبيعية ، شبه تلقائية ، فما فى داخله شيء يخصه وحده ، أو هكذا يجب أن يبقى ٠

تعود ألا يناقش مشاعره تلك منذ زمن طويل ، بعد أن عجز عن انكارها ، وبعد أن عجز عن البوح بها ٠ لم يبق أمامه سوى أن يلبى نداءها الصارخ الضارى بطريقة لا تدينه ، ولا تحرج غيره ٠

وحين يراها ، فان الدنيا كلها تغرق فى لحظة من الفرح الجنونى ٠ ليس من حق أحد فى هذه الدنيا أن يحرمه من هذه الفرحة ، ما دام هو قد قرر فى لحظة جنون ، عاقلة ، وعادلة ، أن يتعامل وحده مع هذه الفرحة ، يسعد بها وحده ، ويحترق بنارها وحده ٠

ماذا يهم الناس من أمر مشاعره ! ما دامت لا تخرج من قلبه، ما دام مسيطرا عليها كما كان السحرة فى الماضى يسيطرون على المردة والشياطين ؟ وهل كان بمقدوره أن يبوح بمشاعره تلك لأحد ؟ لو كان هناك صديق واحد يمكن أن يختاره بعناية ليبوح له بتلك المشاعر لما كان هناك أحد سواه ٠ «جلال» صديقه ، وزوج «ثريا» الانسانة التى أحبها دون أن يريد ، ودون أن يعرف كيف ٠ الانسانة التى تثق به ، لدرجة أنها كانت لا تتردد أحيانا فى طرح مشاكلها مع زوجها امامه ، وتثق بكل كلمة يقولها لهم ، ولا تتردد لحظة فى العمل بكل نصائحه ٠

لقد كانت هذه الثقة هى التى جعلته يدرك كم تحب زوجها ، رغم ما يحدث أحيانا بينهما من خلافات ، وجعلته يتخذ قراره الأليم بلا تردد ، ويطوى قلبه على تلك الحقيقة الرائعة المخيفة لتعيش فى قلبه وحيدة ، حبيسة ، مذعورة ، جميلة ، واثقة ، يائسة ، أليمة ، متحدية ۰ لا يسمح لأحد حتى ولا « لثريا » نفسها أن تشم رائحتها ۰ وماذا لو أحست ! العذاب والجنون فى رفضها ، والعذاب والجنون فى قبولها !



باب العمارة بنقوشه الحديدية ، بزجاجه الملون المغبش ، السلم بدرجاته الرخامية التى تشتد فوقها ضربات قلبه ، البواب الذى يرتاح ويأنس لوجهه الأسمر الطيب ، كما لم يأنس فى حياته لوجه لا يعرف عنه سوى أنه الوجه الذى تعود أن يراه ، قبل أن يرى وجهها بلحظات ۰

باب شقتهم الذى يقف أمامه طويلا ليسترد أنفاسه قبل أن يضغط على الجرس ، يده المضطربة تمتد الى جرس الباب ، تدوس عليه برفق ۰ صوت الجرس يصبح جزءا من الموسيقى التى يشتد ايقاعها فى قلبه ۰ القبضة الفولاذية تخرج من مكمنها لتحكم قبضتها على كل الأصوات والأصداء ، ولا يبقى سوى صوت الجرس ۰

الباب يفتح ، وجهها يبدو من فتحة الباب ، الوجه العذب الذى يبدو فى كل مرة وكأنه يراه لأول مرة ۰ ثمة شىء جديد يراه دائما ، فى كل مرة ، فى العينين المشبعتين دائما بفيض من السرور الداخلى ، بفرحة ، بحياة لا تبخل على صاحبها بشىء ۰ فى هذه المرة خيل اليه أن الجديد الذى يراه هو مزيج من الدهشة والفرح ، كأنها لم تكن تتوقع هذه الزيارة فى هذا الوقت ۰

قالت وهى تسلم عليه :

ـ أهلا ·· أهلا ·· تفضـــل ·

قال وهو يتبعها الى المدخـل

ـ كنت أمر قريبا من هنا ، فقلت هذه فرصة لزيارتكم !

ـ فرصة طيبة فى كل وقت ·

قالتها وهى تجلس وتدعوه للجلوس ··

من داخل الصالة أقبل « حمادة » الصغير يقـود دراجته المنزلية ، ثم يترجل عنها ليلقى بنفسه فى أحضانه ، قبل الصـغير فى وجنتيه ، ثم سأله وهو يداعب شعره :

ـ اين بابا يا حمادة ! ألا يزال نائما !

ألقى بسؤاله وهو ينظر الى ثريا ، وكأنه ينتظر اجابتها عـلى نفس السؤال !

خيل اليه أن ذات الدهشة التى طالعتـــه فى عينيها ، وهى تستقبله عند الباب ، عادت ترتعش فى صفاء عينيها ، فى وضوح هذه المـرة ·

خيل اليه أنه يشعر بدوران الأرض · لعلها بدأت تدور فجأة

ـ بابا لم يعد بعد من السفر يا عمى !

خيل اليه أنه يشعر بدوران الأرض · لعلها بدأت تدور فجأة فى الجهة المعاكسة · شعر بذلك رغم انه كان جالسا على مقعـده فى الانتريه ! ·

كان ما برز فى رأسه فجأة ، وعلى نحو غادر ، شىء لا يقدر انسان على احتماله ، كان يعرف أن جلال مسافر فعلا ، ولن يعـود قبل اسبوعين على الأقل · كان هنا منذ أيام قليلة لوداعه قبيل سفره

•• كيف حدث أن سقطت كل هذه الواقعة من رأسه تماما عندما بدأت الموسيقى اللعينة عزفها المثير ! كيف تفهم ثريا سؤاله عن زوجها ! وكيف تصدق أنه صادق ! وكيف تفسر هــذا الصـــدق لو صدقته !

كانت الأرض لا تزال تدور فى الجهة المعاكسة • وكان يخيــل اليه أنه يفكر • ولو تذكر قبيل لحظات ، وهو على السلم ، أمام البيت أمامها ، لتغير السؤال قليلا ، ليكون عن أحوالهم وجلال مســافر • لحظتها لم يكن ليحدث ما حدث الآن • كان شديد الثقة بعقــله ، بقدرته على أن يخفى قدس أسراره • ولكن ها هو عقله يخونه ، ويخذله ، وينتقم منه • وأمام من ؟ أمامها ؟

كيف تفكر الآن ؟ وماذا تفهــم ؟ وماذا يفعل أو يقــول ؟

قال وهو يتحاشى النظر اليها :

ـ لا أدرى حقــا كيف نسيت ؟

ثم مضت فترة صمت قبل أن يضيف بلهجة متوسلة :

ـ لابد أن تصدقينى • وان كنت لا أدرى كيف أفسر ما حدث ؟

ســمعها تقـــول :

ـ أصــــدقك •

ثم أضافت بلهجة فيها شىء من المــرح المقصود :

ـ أنت لا تعرف كيف تكذب ؟!

حتى هذه اللحظــة لم ينظر اليها ، ولم يعــرف أنها قامت الا وهى تقــول له :

ـ اذا سمحت سأصنع فنجالا من القهــوة !

في هذه اللحظة نفسها ، كانت هي الأخرى تعاني من دوار أشد ، لم تكن في حاجة الى شيء لتصدقه ، ولم تكن هناك أقل فرصة لتسيء به الظن ٠ كانت هناك عشرات الأشياء الصغيرة تظهر أمامها بغتة ، وفي ضوء جديد ، عشرات الأشياء التي كانت لا تجد لها معنى قاطعا ، لأنها لم تكن تتابع في شكل يجعل لها تفسيرا واضحا ٠!

كلها الآن تبدو واضحة وضوح الشمس ، لتضعها أمام ما لا تقدر على التحديق به ، ومواجهته ، في لحظة لا تتسع لكل ما حدث خلالها ٠

كانت في حاجة لأن تنفرد بنفسها ، ولو في المطبخ ، لتصنع فنجالا من القهوة ٠

حين عادت من المطبخ لم تجده ٠

قال لها حمادة :

ـ عمي كمال خرج يا ماما وقال لي : سأعود لزيارتكم بعد أن يرجع بابا !

لم ترد على صغيرها ، ولم تفاجأ بما فعل ٠ ولعلها استراحت قليلا ٠ كانت في حاجة لأن تبقى وحدها وقتا طويلا ، وكانت في حاجة لأكثر من فنجان واحد من القهوة !

خيل اليها أنها سألت نفسها سؤالا :

ـ هل يمكن أن تكون هذه آخر مرة تراه فيها ؟ هل يمكن أن يفعلها ويتركها تحمل وحدها سر هذا اليوم ؟

ولم ترد على أي من سؤاليها ٠

أما هو ، فحين أصبح فى الشارع شعر فجأة أنه يطير من على الأرض ، ولم يعد يهمه شىء ، حتى لو كانت هذه آخر مرة يعود فيها الى هذا البيت ، الى هذا الشارع ، لقد انتقم منه المارد الذى كان يحبسه فى القمقم ، وها هو الآن يحمله ، ويطير به بين السحب ، ولا يهمه أن يسقط ، ويتمزق الى ألف قطعة !!

الليـــل والنهـــار

الليـــــل

منذ متى بدأ يخـــافه !

منذ متى بدأ يتوقاه ، ويشـيح عنه ؟

ولكنه يعلم أنه يجيء فى موعده ، لا يتخلف أبدا عن الموعد ، يأخذ معه كل شيء كان أو يكـــون . يأخذ أصدقاءه واحدا بعـــد الآخـــر .

يأخذ الشمس ، والضجيج ، والعمـــل !

يأخذ الفضول والتوتر ، وكل صنوف المواجهة !

يأخذ الارادة ، والعزم ، وكل أدوات القتال .

يأخذ الكلمات والبسمات من على شفاه أولاده ، ويتسلل الى عيونهم مع الصمت العميق !

وحين يمسى وحده تماما ، مجردا من كل شيء ، وكل أحـد ، يدرك أن اللحظة الحاسمة قد دنت . ويلتقيان ، يحرسان النيـــام ،

يدخنان السجائر ، يفتشان فى الأوراق القديمة · ويجرى حديثهما فى كلمات متقاطعة · كلمات لا يسمعها النهار ، تبحث عن المعنى الضائع فى النهار ، وفى الليـل !!

المحـــاورة ··

ـ ما الذى جئت لتفعله هنا ـ بحق الله ـ فى هــذا المكان ؟

ـ لا أدرى ! وفى الليل لا أصدق المزاعم التى اقولها لنفسى فى النهار !

ـ فى مثل سنك ينشر الأنبياء رسالاتهم ، ويـدلى الرجـال بشهاداتهم فيما كان ويكون ، ويحرز القاتلون نصرهم أو هزيمتهم !

ـ سجلى حافل بالهزائم !

ـ وبما كان وجودك هنا ـ الآن ـ أعظم تلك الهزائم !

ـ لا أظن ، فأعظم هزائمى كان يوم الأربعاء الحزين !

ـ ذلك يوم قديم جدا ، ألا تزال تذكره ؟

ـ نعم ، لأن بعضا مما جرى فيه يتجدد كل يوم !

ـ لم تكن مسئولا عما جرى فيه !

ـ ولكننى فى هذا اليوم أدركت ـ كما لم أدرك من قبل ـ أن قدراتى محدودة ، يظل الانسان يعتقد أنه سيبقى قادرا على الحب ، وعلى العطاء ، وعلى التسامح ، وعلى أن يضع نفسه مكان الآخر · وفجأة يكتشف محدودية ما يستطيع أى انسان أن يفعله ! فى ذلك اليوم ، تخيلت نفسى فى مكانه محكوما على بأن أقضى ما تبقى من عمرى فى مستشفى للأمراض العقلية ، الباب الحديدى يقفل دونى ، وأنا أتشبث بقضبانه وأصرخ ، وصوتى يضيع فى صمت الصحراء ،

بينما وجوه أهلى وأصـــدقائى تبتعد ، وتغيب ، وتواصـــل النظر أمامها .

ـ ولكنك لا زلت تذكره !

ـ وما جدوى ذلك له ؟

ـ لا زلت تحبه !

ـ كيف تسمى خوفى من نفس المصير حبا ؟

ـ ساعدت أولاده !

ـ أنت الآخر صدقت هذه الأكذوبة من طول ما رددتها عليك !
كيف تسمى هذه مساعدة ؟ بل كيف يساعد الانسان انسانا ؟
لقد جئت الى هنا لأساعد أولادى ، فخذلت نفسى !

ـ قوة أولادك قوة لك !

ـ لو وقفت يوما وراء القضبان فلن أخذ منهم سوى الدموع !

ـ الى هذا الحد تخاف الجنون ؟

ـ الى هذا الحد أخاف العقل ، فالحيوانات تموت ، ولكنها قلما تجن !

ـ لماذا يخاف الانسان الموت والجنون ؟ هل لأنه يجهلهما ؟

ـ هل رأيت حيوانا أو طفلا يخاف الموت أو الجنون ؟

الرجل وحده هو الذى يخافهما ، لأنه يعرف شيئا عن معنى الحياة ! وشيئا عن معنى العقل !

ـ وأنت ألا تزال تخافنى ؟

ـ أخافك لأنك تقودنى الى أشياء أخافها !

ـ تنسى انك أول من دعوتنى الى زيارتك !

ـ لكنك أول من قاد خطواتى الى هذه الدروب الموحشة ·

ـ هذه الدروب لم أصنعها انا · أنت الذى صنعتها بما سرت فيها من خطوات !

ـ كنت أطمع فى أن اخلفها ورائى !

ـ وكنت تطمع فى أن تصنع دروبا جديدة !

ـ نعـم · دروبا لايدركنى الفزع حين أتلفت اليها !

ـ فى دروبك القديمة اشياء كثيرة جميلة !

ـ اعجز عن رؤيتها حين أراك !

ـ لهذا تخافنى !؟

ـ ربما ·

ـ لكنك لاترانى !؟

ـ كيف أراك وأنت تسحب النور عن كل شيء ؟

ـ عدا أشياء بعينها فعلتها أنت أو لم تفعلها !؟

ـ اعرف ذلك ، كما اعرف أنه يحتمى بك القتلة واللصوص ، حتى لايراهم النـاس ، ولكنـك لاتحميهم من رؤية مايفعلونه فى ظلامك !

ـ بدأنا نتفاهم ، ومع الوقت سوف نمسى أصدقاء !

ـ الويل لى عندما اليوم الذى تكون فيه صديقى الوحيد !!

ـ لماذا تخشى دائما أن يتخلى عنك اصدقاؤك ؟

ـ لأننى فى بعض الأيام تخليت عن بعضهم !

ـ لاتريد أن تنسى هذه المسألة !

ـ أريد ، ولكننى لا أقدر !

ـ الطريق المتساوى بين الارادة والقدرة · لماذا تحب السير دائما فى هذا الطريق ، مع أن الفواجع تقع فيه !؟

ـ لكى ألتقى بك ، لم تضرب لى موعدا فى طريق آخر !

ـ ماذا أفعل يا صديقى ؟ حين أجىء تكون كل الأبواب والنوافذ قد أغلقت · كل الستائر قد أسدلت · كل العيون قد أطبقت جفونها · وتغلق كل الطرق عدا ذلك الطريق الذى يسير فيه من تدفعهم الارادة ، وتخذلهم القدرة !!

ـ ولا يكون أمامنا سوى أن نواصل السير فيه !

ـ نعم ·

ـ لنلتقى باللصوص والقتلة !

ـ لم ألتق فيه بأحد غيرك !

قالها وقد تغيرت لهجته :

ـ تعنى أننى واحد منهم ؟!

قالها بفزع ·

ـ هناك أنواع كثيرة من اللصوصية ومن القتل !

قالها بلهجة من يصر على توجيه الاتهام ·

ـ حين ألتقى بك أفقد قدرتى على التمييز بين الحدود ، والملامح ، والأنواع !

قالها بتراخ وضعف ٠

ـ لا ٠٠ أنت معى لاتفقد سوى قدرة واحدة ٠

ـ ما هى ؟

ـ قدرتك على الكذب !

قالها بلهجة من يتحرى الموضوعية ٠

صرخ :

ـ فى حياتى كلها لم أقتل شخصا ، ولم أسرق شيئا !

ـ يا صديقى لماذا تصرخ هكذا ، مادمت واثقا من صدقك !؟ سوف توقظ النيام !

ـ اذكر شخصا واحدا قتلته أو سرقته !

ـ يبدو يا صديقى أننى أخطأت بالفعل ، فها أنت تثبت أنك لاتزال قادرا على الكذب حتى وأنت معى !

ـ أتحداك أن تثبت ذلك !

ـ سلوى العنانى ٠٠٠ هل تذكرها ؟

ـ تتهمنى بقتل انسانة لاتزال حية ترزق ؟

ـ قتلت فيها الثقة بالناس حين تخليت عنها !

ـ اكتشفت أنها لاتصلح لى !

ـ لماذا تأخر اكتشافك لهذه الحقيقة ثلاث سنوات كاملة ؟

ـ وماذا تكون هذه السنوات فى عمر الانسان ؟ يقضى الانسان عمره كله ، دون أن يكتشف شيئا عن حقائق حياته ، ألتقى بك كل

ليلة دون أن أعرف من أنت ، وما الذى تريده ؟ وتتهمنى بقتل انسانة لاتزال تحيا ! و ٠٠٠

ــ نعم يا صديقى لاتزال تحيا ، لتفعل بالناس مافعلته أنت بهــا !

ــ أعرف لعبتك القذرة ، تبدأ بالدفاع عنى لتستدرجنى الى ادانة نفسى ، وحين أصبح عاريا أمامك تنهال على بخناجرك ٠ اغرب عن وجهى !

ــ صياحك هذه المرة لن يوقظ النيام ، لأنهم قد استيقظوا ـ مع بزوغ الضوء تسترد قدرتك الكاملة على الكذب ، وفى النور تختفى ملامحى ! ولذلك سوف أغرب عن وجهك ، برغمى ، وربما من الخير لك ألا ترى هذه الملامح أبدا !

النهـــار :

حين طلع النهار ٠٠ غسل وجهه ، وارتدى ثيابه كاملة ، وتذكر أن أسمه « سيد عبد الباقى » ، وتذكر رقم حسابه فى البنك ، وأنه يعانى منذ مدة من ارهاق لايعـــرف له ســببا واضــحا ، وأنه من الضرورى أن يغير الانسان طبيبه أحيانا ، كما يغير أصدقاءه ، وألقى نظرة على مفكرة صغيرة يحملها فى جيبه تذكره بمواعيده ، والمهام التى تنتظره منذ تسلم منصبه الجديد والكبير ، وشد قامته ، ورسم على وجهه ابتسامة خفيفة ، وهو يحيى سائق سيارته التى أصبحت جزءا من المنصب ، وأخرج من زجاجة لاتفارق جيبه قرصا صغيرا لايحتاج الى ماء لكى يبتلعه ٠ وأحس بعد قليل بروحه تنتعش ، وتكاد تسبق السيارة ، وتحلق كطائر ٠

نهاية اللعبة

« قد تتحول الصداقة الى حب · أما الحب فقلما يتحول الى صداقة » ·

لا أذكر من قائل هذه العبارة ؟ ومهما يكن ، فأنا الآن أصدقه ، وقد كنت ـ منذ شهور قليلة ـ أعتب عليه · لأنه لم يحدثنا عن الطريق القصير والرائع الذى يقع بين الصداقة والحب ! وربما يكون له بعض العذر ، فالناس فى لحظة انتقالهم من الصداقة الى الحب ، لاتكاد تقع عيونهم على ذلك الطريق النادر ، والمثير أن عيونهم تبدو مشدودة الى أضواء الحب التى تشع أمامهم من بعيد ، وتجتذبهم اليها كالفراشات ·

قليل من الناس من يملك الجرأة والشجاعة ليقول لنفسه : قفى هنا · هذه أرض طيبة ، وهذه أنوار هادئة لاتحرق العيون والقلوب · فوق هذه الأرض لن نحترق بنيران الغيرة ، ولن يأتى يوم نبصر فيه نيران الحب ، وقد تحولت مثل أية نيران الى رماد !!

هنا يمكن أن يبقى كل عشب أخضر ، وتتحول فصول العام كلها الى ربيع ؟

أما أنا فقد فعلتها • وحتى أكون صادقا فربما كان الفضل فى ذلك يرجع اليها ، الى صديقتى التى لم تصبح أبدا حبيبتى !

واذا أردت جرعة أقوى من الصدق فربما كان الفضل فى ذلك يرجع الى ظروفنا معا • هذه الظروف التى كانت تحرم علينا أرض الحب • وهكذا وجدنا نفسينا واقفين فى ذلك الطريق الذى يقع بين الصداقة والحب•

على جانبى الطريق لا توجد مقاعد ، أو علامات ، أو اشارات من أى نوع •• ! وكأنهم كانوا يعرفون أنه لا أحد يتوقف هنا ، أو يجلس ! لم يكن هناك وجود لشىء سوى الحرية ! هذه أرض لا تحكمها قوانين الصداقة ولا قوانين الحب • هذه أرض تحكمها السعادة وحدها • وما حاجة السعداء الى أى قانون ؟

وكان أشد ما نعجب له ، هو أن الناس يمرون بنا سراعا لايتوقفون ، ولا يتلفتون • تجتذبهم أضواء الحب الباهرة فلايشعرون بوجودنا ولا بوجود هذه الأرض الطيبة !!

ولم نأسف لشىء ، ولم نشعر بالحاجة الى أحد ، فوق هذه الأرض الطيبة • كنا وحيدين ، سعيدين ، وكانت لنا لغتنا الخاصة • لغة لا وجود فيها لكلمات الحب ، ولا عهوده ، ولا مراسيمه ، ولا طقوسه • ورغم ذلك فهناك حب طليق فى كل مكان • قد لاتلمسه بيدك، ولكنك تشعر به ـ شعورنا به ـ عبر كل شىء •• يذوب ، يترقرق ، يومض ، يعبق ، يتخفى فى السؤال ، فيفضحه الجواب ، يتوارى فى النظرة فتعلنه الابتسامة • يجهد فى اختيار كلماته ولكن جهوده تذهب هباء ، فى نبرة الصوت الذى ينطق هذه الكلمات • ورغم أن كل شىء كان يبدو حقيقيا أكثر من الحقيقة ، فلم يكن أحدنا يملك حق

الحديث عن شيء مما يتحدث فيه المحبون ، ولا حق المطالبة بشيء ، ولا حق الغضب ، أو العتاب ٠

ولم يكن هذا كله فيما يلوح لى يخيفها أو يخيفنى ٠ كان كل منا يشعر بما يفكر فيه الآخر قبل أن ينطق به ٠ وحين كانت تحتال لتقول لى ـ دون أن أطلب ـ كلاما أجد فيه كل الاجابات على الأسئلة التى لم أنطق بها بعد ٠ كنت أطير من السعادة !

وأشعر بالدهشة والرثاء لهؤلاء الذين يمرون بنا سراعا ، دون أن يتريثوا لحظة أمام ذلك العالم المبهر الذى تحكمه الســعادة ، بلا قانون ٠ كنا نلعب لعبة خطرة ٠٠ على الأعراف بين الصداقة والحب !!

أكنا نخدع الحياة أم نخدع نفسينا ؟ كنا مثل آدم وحواء ، قبل أن يهبطا الى الأرض ، نريد أن نقطف الثمرة المحرمة ، دون أن نطرد من الجنة !!

تسألنى عن اسمها أو اسمى ، عر ظروفها أو ظروفى ؟ وما قمية الأسماء ما دامت المسميات حقيقية أكثر مـ نالحقيقة !

ماذا يفيدنا أن نتكلم لغة الحب ، سوى أن نستحق العقوبة ، وأن نعنى مرارة الشعور بالخطيئة ، وأن نطرد من ذلك الفردوس الذى يقع فى الطريق بين الصداقة والحب ؟!

الى متى يمكن أن تستمر هذه اللعبة الى الأبد ؟ هذا ما كنت أعتقد ! كانت هذه الأرض الطيبة تبـدو وكأنها تقع خارج الزمـان والمكان ، فلماذا لاتستمر الى الأبد ؟!

ذات يوم لا أنساه ، ولا أقوى على تذكره ، اكتشفت أننى أقف وحيدا فوق هذه الأرض الطيبة ٠ ما الذى حدث ؟ لا أدرى ! كنت ألتقى بها مثل كل يوم ، وأتحدث معها مثل كل يوم ، ولكنها لم تكن

هى ٠ ان شيئا ما لم يتغير فى ملامح الوجه ، ولا فى الثياب ، ولا فى المكان ، ولا فى الظروف ، ولا حتى فى اللغة ٠٠ ولكنها لم تعد هى !!

وكان الحب الطليق الذى لاتلمسه بيدك ، ولكنك تشعر به عبر كل شىء ، وملء كل شىء ، الذى يتخفى فى السؤال فيفضحه الجواب ، ويتوارى فى النظرة فتعلنه الابتسامة ، ويجهد فى اختيار الكلمات فتضيع جهوده هباء ، فى نبرة الصوت الذى ينطق بهذه الكلمات !

كان هذا الحب الذى طرق يوما ما باب الحرية ، ودخل منه فجأة دون أن يبرز هويته ، هو الذى يغلق وراءه نفس الباب ، ليخرج فجأة كذلك ، ودون أن يطلب اذنا بالخروج !

وعبثا حاولت أن أقول شيئا أو أفعل شيئا ، أو حتى أن أفهم أى شىء ، كنت قد ضيعت كل الأسباب ، وكل الحقوق ، حين ارتضيت أن أقبل أعظم الأشياء بلا ثمن ، وبلا حق حتى فى السؤال ؟

وأقسى ما ووجهت به ، أنها عادت تحتمى بقوانين الصداقة ، حين لم يعد من الممكن أن نعود مجرد أصدقاء ٠

انها لاتزال تجامل ، ولاتخطىء ، ولا تقصر فى شىء ، وتتركنى وحيدا فى هذا الفردوس المهجور ، الذى لا أملك فيه أى حق ، فى أى شىء !

كانت الحرية تتقاضى ثمنها ٠ وكانت الحرية لعبة غريبة وقاسية ٠ ومثل أية لعبة فى العالم كان لابد أن يكون لها قواعد ٠

وكان على من يتجاهل هذه الحقيقة أن يدفع الثمن ٠٠ وياله من ثمن !!

فهرس

الموضوع	صفحة

الموضـوع	صفحة

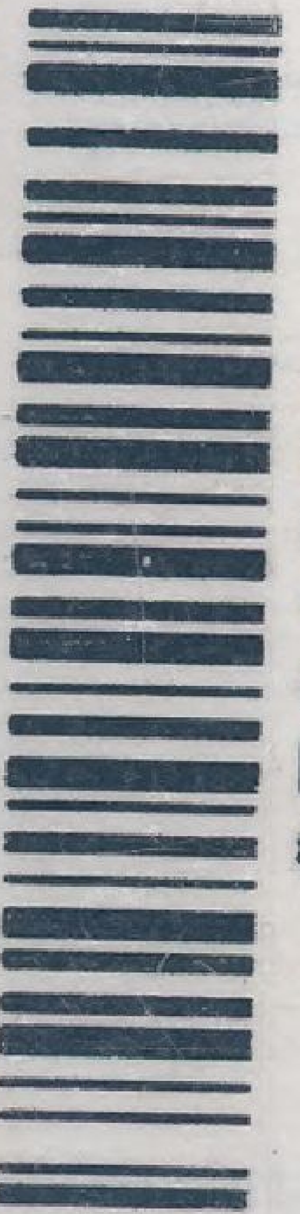
رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/٨٥٩٨

ISBN — 977 — 01 — 3501 — 1

يضم هذا المجلد القصص التى كتبها المؤلف فى الفترة من عام ١٩٦٧ إلى عام ١٩٨٤، وهى القصص التى عايشت هزيمة١٩٦٧ بما طرحته من تساؤلات مريرة، وحرب أكتوبر بما حققته من إنجاز اختلفت به ومعه المواقف والمواقع والمصائر، وما تلاها من متغيرات على مستوى الوطن والأمة والعالم، وتعكس هذه القصص رؤية المؤلف لكل هذه الأحداث الكبيرة من موقعه مرة فى داخل وطنه، ومرات من واقع عمله فى بلد عربى شقيق هو الكويت حيث عاش وعمل لمدة خمسة عشر عاما،وبهذه المثابة فإن هذه القصص توشك أن تكون وثيقة فنية حية لشهادة المؤلف لتجربة إنسانية كبيرة، على مستوى الوطن والأمة.

كما عكست من ناحية أخرى تطوره الفنى والفكرى سواء فى منحى كتابته للقصة أو فى بحثه الأبدى عن معنى الحرية، والعدل، والحقيقة، والجمال، والانتماء فى تجربة الفرد أو فى تجربة الجماعة.

يقول الناقد «محمد قطب» عن منحى الكاتب فى كتابته للقصة: «أبو المعاطى أبو النجا» كاتب له خصوصيته المميزة فى عالم القصة القصيرة، يجمع بين البساطة والعمق، وبين الانسياب والتركيب، والرهافة والقسوة، والوضوح والرمز، ويتسم عمل الكاتب بسلاسة فى الأداة، وبنصاعة فى جمال اللغة الملائمة لبنيات القصة القصيرة، ويحسب للكاتب قدرته فى اختيار الموقف الإنسانى البسيط، والخالى من التعقيد، ومع ذ... مثل هذا الموقف بكونه مشحونا بمشاعر تفيض وتنحسر،وأف... اختلاط وتعدد وتنوع صور الحياة الكامنة فيه.



الهيئة المصرية العامة

٦٦٠ قرشا